

الجزء الثاني

من

مجموعته

الدكتور

سبلى شميل

وهو

يبحث في موضوعات شتى عمرانية
طبيعية وعلمية وتاريخية وأدبية وسياسية تقريرية
وانتقادية وفكاهية

ان اليوم الذي ينصرف الانسان فيه من
تمني الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي
تتقوّم فيه طباعه فتقلّ سخافاتُه ويكثر جدّه ويقلّ
رياءُه وينشط من الدّل ويرتقي ارتقاءً حقيقياً ويحقّق
له حينئذ ان يمدّ نفسه انساناً

مطبعة المعارف بشارع الفخار بمصر

الجزء الثاني

من

مجموعة

الدكتور

سبلى سمبل



وهو

يبحث في موضوعات شتى عمرانية

طبيعية وعلمية وتاريخية وأدبية وسياسية تقريرية

وانتقادية وفكاهية

ان اليوم الذي ينصرف الانسان فيه من
تمنيى الكلام الى امتحان العمل هو اليوم الذي
تقوم فيه طباعه قتل سحافاته ويكثر جده ويقل
رياءه وينشط من الذل ويرتقي ارقاءه حقيقياً ويحقق
له حينئذ ان يعد نفسه انساناً

من مطبعة المعارف بشوارع افغانه بمصر

بيان

هذا الكتاب يتضمن مباحث مختلفة في موضوعات شتى علمية واجتماعية . وهو الجزء الثاني من مجموعة كتاباتنا . والمباحث المنشورة فيه كُتبت في ازمان مختلفة ونشرت في صحف مختلفة ايضاً . وقد جمعناها هنا غير ملتزم في ترتيبها تاريخياً بحسب وضعها فقد يكون المبحث كتب اخيراً ونشر هنا اولاً وبالضد . وحاولت احياناً ان اضم الموضوعات المتقاربة بعضها الى بعض . ولكنني لم اتمد ذلك دائماً اما لصعوبة الجمع واما بقصد ان يجد القارئ في التنقل بين المحتلفات راحة قد لا يجدها بين المؤلفات . وهي مباحث ربما كان على بعضها أثر من الجدة بيننا في الماضي . واما اليوم فالأفكار قد ألفتها حتى يخال لي انها صارت قديمة في هذا العهد الجديد الراقي . ولا أقل من ان يدل هذا البعض بعض الدلالة التاريخية للمتعقب على كيفية نشوء الأفكار في الشرق وهذا حسبي من نشرها وكفى

الدكتور

سبلى شميل

مصر في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨

المقالة الاولى

حوادث وافكار^(١)

لا اعلم من الفلسفة الا اسمها ولا أعني من العلوم الا رسمها ولا اعرف عن البسيطة الشيء الكثير ولا ادري عن الانسان الا السير فلا ترجئ ايها القارئ ان ترى مني فلسفة ارسطو او فصاحة ديموستين او رواية طاسيت او ثبوت ابن رشد او احاطة ابن سينا او علم نيوتون او خواطر باسكال او اسهاب فولثير او اصابة روسو فها هي الا حوادث يومي وافكار ليلي . وان شئت فقل حوادث يومك وافكار ليلك حوادث تتوالى على الانسان وتتناقلها الحواس فتؤثر في العقل تأثيراً يجعل فيه تفكيراً يقف به تارة على الارض وأخرى يرتفع الى السماء وطوراً يدخل به الى نفسه فان في طاقة العقل ان يحكم في اعمال ذاته كما يحكم في اعمال العالم الخارجي

والمؤثرات اما مريثات او مسموعات او مشمومات او مذوقات او ملموسات وكل منها اما للذيد واما مؤلم وبحسب درجته من اللذة والألم يكون تأثيره في العقل فان الحواس ليست الا نافذة لتلك الاحساسات لا شاعرة بها فاما كيفية شعور العقل بها مع كوننا نحسبها مرسومة في الحواس نفسها فمن ادق مسائل علم العقول ومن اقوى الادلة على وجوب تقسيم الاعمال

الا ان تأثر العقل بالمؤثرات واحكامه بها يختلف كثيراً بالنظر الى اختلافها واختباره اياها فكلما كانت اشد غرابة واعظم اختلافاً كان العقل اشد انفعالا بها واعظم تأثراً ولهذا كانت اميال العقل وتصوراتاه تختلف على حسب اختلاف الاقاليم . وكلما كان العقل اقل اختباراً للمؤثرات كان أكثر توهمها فيها فانه كثيراً ما يتوهم بها امراً ثم لا يلبث ان ينفيه عنها بعد ان يزداد اختباراً لها وقد يصعب عليه ذلك ان يتمكن الوهم فيه



ولما كان الاوائل اقل اختباراً من الاواخر كانوا بالضرورة اقل علماء منهم بل كان معظم علمهم جهلاً وجل افكارهم وهماً . وكان الخلف يشتغلون كل يوم باصلاح ما افسده السلف بحسب ما يتبين لهم بازدياد اختبارهم واتساع معارفهم . الا ان ازالة ما فسد من المبادئ من عقول الناس لا بد وان تحول من دونها مصاعب ربما ادت الى اراقة الدماء . فان الاوهام الراسخة في العقل بواسطة الثقل مدة قرون تكون كالحقائق الزاهنة لا تحتمل تأويلاً ولا تدع للجدال سبيلاً ولا سيما ان افراد الامم لا يتساوون جميعهم في سيرهم المعنوي فلا نرى في كل جيل وفي كل عصر غير افراد قليلين سابقين قومهم بكثير من السنين . فعدد الجاهلين هو العدد الكثير فهو القوي من هذه الحثيثة والقوة تغلب الحق في مثل هذه الاحوال ولكن غلبتها حالية وقية واما في المستقبل فيتأيد هذا الحق وتنجي الاواخر ثمرة اجتهاد الاوائل الذين كثيراً ما لا يحصدون ما يزرعون



والغريب ان الناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالادلة والبراهين اذا كانت مخالفة لآرائهم مغايرة لاهوائهم بل ينقضونها بالقوة وهذا يخالف للعقل غير موافق للثقل فقد علم ان كثيراً من هذه الحقائق التي حاولوا اطفاء نورها تأيدت وعمت اخيراً فلا ينبغي للانسان العاقل ان ينبذ حقيقة لقلة نصرائها وكثرة اعدائها فكيف من حقيقة ضاعت بكثرة الجلبة ثم كانت لها الغلبة بقوة الحق

ولا شك ان الامة التي تتخذ القوة القاهرة سلاحاً في نقض المبادئ المخالفة لما لوفاها بعيدة عن اسباب التقدم ووسائل التمدن حتى تقطع السلاسل وتمزق الحجب الخائلة بينها وبين حرية البحث التي تطلق للعقل عنان الفكر فتزيد معرفة بالاسباب والحقائق اذ يشتغل بكل ما يعرض له فيتمسك بما تؤيده الشواهد وهكذا يستخدم افكاره لفهم الحوادث عوضاً عن ان يستخدم الحوادث لتأييد افكاره حرصاً عليها . واغرب منه ان المصائب التي تحمل بالولئك الافراد الذين ساء بجهلهم لوجودهم قبل اوانهم والتي مصدرها البشر تعتبر قصاصاً عادلاً عند من يعتقد ان الجزاء يكون على قدر الاستحقاق صادراً

عن قوة سرية تراقب اعمال الانسان فيقول هذا جزء الضالين وهو اشد فساداً من ان يُبرهن على فسادِه . فلو تجاسر احد في زمن جاهلية اليونان على ان يكفر بجوبيتر ابي الالهة أَمَا كَانَ ينساقط عليه غضب جوبيتر متجسداً بأيدي الكهنة والشعب فهل يجب والحالة هذه مع معرفتنا فساد تلك الشريعة ان نعتبر ان ذلك القصص كان عدلاً . كلا



ولذلك لا يليق بنا ان نتمسك بما كان في العصر الحالية من الاوهام تمسك الاعمى بقائده ولا ان نطرح ما تبديه لنا الاكتشافات والحوادث من الحقائق المجردة كونه مخالفًا لما انطبع في عقولنا ورسخ في اذهاننا كما انه لا يجب ان نعتبر القصص الذي يقع على بعض الافراد لناقضتهم بعض المبادئ العامة مفعول قوة ساحرة تعذل كل شيء على قدر الاستحقاق بل يجب علينا ان نحارب الاوهام ونبدها بقوة الحقيقة لكيلا يقوى امرها فنعدم اسباب التقدم . فان الانسان اذا تمكن الوهم منه سقطت قواه ووقد اسباب العمل اذ يستولي الخوف على طباعه والرعب على حواسه تستلفته حوادث الكون فيتهبها عوضاً عن ان يبحث فيها ويستفيد منها ولا تهمة شمس تستطع او قرص يلمع او ربح تهب او نار تشب واذا نظر الى السماء كف عنها الطرف خشية واحتراماً لانه لا يرى كواكبها الا الله ولا يحسب صواعقها الا عذاباً واذا نظر الى الارض قال امي ارحمني ولا تحبسي عني قوتاً يغذيني وماء يرويني ولا يجاسر ان يقطع منها سنبلة قمح او يتناول قبضة ارز الا بعد الاستغفار والتكفير اذ يرى في كل شيء آلهة قاهرة وارواحاً ساحرة فيستدعي في حركاته وسكناته ارواح الاشجار وقوات الجبال ونفوس الكواكب وما يستدعي الا خيالات واوهاماً لا تجلب له خيراً ولا تدفع عنه ضيراً ولا يستفيد منها الا توسيع نطاق الاوهام في دائرة عقله حتى تبلد قواه وتكل مشاعره ولا يعود يعتبر للعمل في الارض قيمة ولا للبحث عن الكائنات فائدة ولا في التعاون مزية فيكسل وتصير حياته كحياة الحيوان منفردة ذاتية منفردة عن الهيئة الاجتماعية ولا يهيمه الا الحصول على ما يقيه من الموت برداً وجوعاً اذ يعتقد ان كل شيء قسمة فلا يجتهد في نهضة فيسكن الا كواخ ويلبس المسوح ويأكل القشور وهي قسمة ليست من الانسانية في شيء

فالامة التي تتخذ هذه المبادئ شعارها لا تلبث ان ترى نفسها متقهرة كلما خطا العالم نحو التقدم خطوة تأخرت عنه خطوات حتى تصبح اخيراً لا علوم لها ولا شرائع ولا صنائع مفترقة الى غيرها من الامم المتعدنة افتقار الصلة للموصول ولا تحسن نسج ثوب ولا غزل خيط ولا صنع ابرة بل تكون كالعلق على بدن الانسانية تكدر راحتها وتمتص دما



ان في الانسان صفة اولية ضرورة جداً لحفظه وهي مصدر كثير من الصفات الأخر الموجودة فيه . وهذه الصفة هي محبة الذات التي تدفع كل فرد من افراد الانسان لاستحصال كل ما هو موافق او يظهر له أنه كذلك واجتناب ما هو مضر . ولا يقتصر وجودها على الانسان فقط بل هي موجودة في الحيوان ايضاً بدليل ان الحيوان يعمل دائماً بقصد المحافظة على كونه والحماية عن ذاته حتى في اعماله البديهية التي لا محل فيها للنظر أو الكسب . وهي صفة بديهية ومما يدلنا على كونها كذلك الاعمال البديهية التي يجربها الانسان بدون توسط الارادة فيها اذ تحمله على ان يدافع عن نفسه بما يقيه من الضرر عند المفاجأة وقبل ان تحصل فرصة للارادة لأن تتوسط في ذلك كأنطباق الاجان على العينين اذا فاجأتهما ضربة او آفة اخرى وتقاعس الانسان الى الوراء اذا عثر الى الامام او مد يديه لاستلقاء الارض بهما ليدفع هكذا بضرر اصغر ضرراً اكبر ربما يحصل لو صادف السقوط على الاعضاء المهمة كالراس وغيره . الا انها وان كانت بديهية فللارادة عليها سلطان كبير فتصرف فيها ولكن بحسب ما يترامى لها موافقاً اي لا تقدر الارادة ان تفعل الا للغاية التي تفترضها لها محبة الذات ولو مهما اختلفت القوى العقلية وفسدت احكام الارادة . وان وافقت محبة الذات الارادة احياناً فيما يعدمها الوجود كقتل الذات فلا يكون ذلك الا لغاية ذاتية ايضاً اما بقصد التخلص من مصيبة ثقل حملها على الحياة او طمعاً في تحصيل حياة أخرى جديدة ترجوها . وهذه الصفة واجبة ضرورة اذ انه يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الفرد الحسية ويتولد عنها جميع الصفات الادبية الرفيعة ايضاً التي تتوقف عليها حياة الفرد المعنوية

واذا أدت أحياناً الى ما يخالف ذلك فلتصرف الاميال والارادة غير المرتبة فيها .
وبحسب ذلك تكون الصفات المتولدة منها اما جيدة واما رديّة



واعلم ان الجيد والردى لا يوجدان مجردين في الوجود الكلي بل هما هكذا نسيان
بالنظر الى ظروف الزمان والمكان بحيث ان ما لا يوافق هذا يوافق ذاك وبالعكس فلا
يتأتى لنا والحالة هذه ان ننفي عن شيء صفة الموافقة والملاءمة نفيًا مطلقاً اذ انها لم تجرد
عنه الا بالنظر الى حالة من الحالات او موجود من الموجودات مع موافقه حالات
اخرى وموجودات اخرى كما انه لا يصح ان نلزمه صفة الموافقة اذ انها لا تصح له في
كل الظروف والاحوال

ولما كانت محبة الذات من ضمن الصفات الفريزية والاحساسات الطبيعية التي
تتأثر بالمؤثرات وتتغير بالمغيرات كانت لا تثبت على حال ولئن كانت غايها ابدأ ذاتية
الا انها لا تسلك دائماً الطريقة المؤدية الى هذه الغاية لاقيادها لاحكام الارادة وما
تظنه موصلاً الى شيء يؤدي بها احياناً كثيرة الى آخر لجلها بالوسائط . وهذا هو
السبب في قول بعضهم ان الانسان يفعل مندفعاً من غير علم منه الى غاية غير الغاية التي
يقصدها بقوة تتصرف فيه مقيمين الواسطة مقام السبب وهو منقوض . لان هذه القوة
سواء كانت على قول بعضهم منفصلة عنه او على قول غيرهم متصلة به اما ان تكون غير
ارادته او تكون هي نفس ارادته . فان كان الاول حصل البعث اذ لا يكون للارادة
البيئة احكامها والظاهرة اعمالها فائدة في الجسم الذي تظهر فيه او تكون وظيفتها ان
توجه السير الى غاية غير الغاية المفروضة له وبعبارة اخرى ان تخدعه وكلاهما غير مسديد .
وان كان الثاني كان لا حاجة الى اقامة قوة اخرى بحسب الارادة طالما هي الارادة نفسها .
فاذا صدقت الحواس في قلبها التأثيرات الى العقل وصدق العقل في احكامه واعتدلت
الارادة في شهواتها تولد عن هذه الصفة الاولى الفريزية كثير من الصفات الفرعية
الرفيعة كالكرم والشرف والشهامة والمروءة والصدق والعدل وحب الالة والتعاون وغير
ذلك من الصفات الحسنة التي تسبب بها راحة الانسان وسعادته منفرداً ومجتمعاً

وبخلاف ذلك اذا انخدعت الحواس في قتلها وكذب العقل في حكمه وضلت الارادة في شهواتها فيتولد عنها الدناءة والكبرياء والجبن والكذب والظلم ورياء المحكوم واستبداد الحاكم والافراد وغير ذلك من الصفات السافلة التي ترجع على الفرد بالويل وعلى الاجتماع الانساني بالخراب



انظر الى الكبرياء والشرف فهما صفتان متولدتان عن محبة الذات اولاهما ذمية متولدة عن اتحاد محبة الذات بالجل والثانية حميدة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالعلم . فالكبرياء يحمل صاحبها على احترام نفسه باحتقار غيره والشرف يحمله على احترام نفسه باحترام غيره فالغاية واحدة في كلا الامرين وهي احترام الذات الا ان طريقة الحصول على ذلك مختلفة . وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف العلم بالاسباب والوسائط كما تقدم فلو علم صاحب الكبرياء ان السبيل الذي يسلكه في احترام نفسه وتعظيمها هو السبيل المحقر لها لعدل عنه الى ما هو احسن منه لان محبة الذات لا تستطيع ان تصبح عالة على ان تسلك السبيل الذي يؤدي بها الى ما لا يسرها كما ان صاحب الاستبداد لو علم ان استبداده لا يأتي عليه بما تتمناه محبة ذاته لما صبر عليه دقيقة واحدة كما ان صاحب الرياء ايضاً لو علم انه يوجد له سبيل آخر غير ريائه لاستحصال رضى سيده المستبد آمناً على نفسه من غدره لعدل عنه الى الصداقة وخلوص النية واستعمال الحرية في تأدية خدمته . لذلك كان سلطان الرياء قوياً جداً حيثما قوي الاستبداد والقوم الذين يستولي عليهم الرياء هم قوم لا يصدقون ولا يصدقون . فالرياء والموالسة والتدليس وما شاكل هي سلاح من يرغب في ان يكون مقرباً من الاستبداد متمتعاً بما يمكن تحصيله من خيرات الظلم . ومن لم يتدرع بهذه الصفات بل لبث معزراً على الصدق وخلوص النية واستعمال الحرية ليس له ان يطعم بالتقرب من المستبد بل عليه ان ينتعد عنهم ما امكن قبل ان يعمدوه من بينهم لان صفاته هذه لا تحسن في عينهم ولا ترجع عليه الا بالوبال



والانسان الذي لم تهذب التجارب ولم توسع دائرة عقله العلوم الصحيحة فلا يرى

الأ ما كان قريب الغاية تقتصر محبة الذات فيه عليه ولا تتجاوزهُ لأنه يحسب ان سعادته قائمة باسباب لا تتمده ولا يمكن ان تتأتى له مع سعادة سواه بل بخلاف ذلك قد يظن ان سعادة غيره تعود عليه بالشقاء فيسعى في تحصيل سعادته بمضادة سعادة غيره . وهذا ناتج من جهله الاسباب والوسائط التي تمكنهُ من الحصول على هذه السعادة المطلوبة منه فاذا زاد اختبارهُ وكثرت معارفهُ واتسعت دائرة احكامهِ رأى ان في الانضمام والتعاون واشتراك المصالح مزايا اخرى قيده ولا توجد له منفرداً فينقل من محبة الذات الفردية الى المحبة العائلية فصاعداً من النوع والجنس اذ يرى والحالة هذه في سعادة عائلته بل وطنه بل نوعه ما يعود عليه باعظم سعادة لا تتأتى له من دون ذلك . فالامر متوقف اذاً على العلم بالاسباب والوسائط لان الانسان كيفما فعل انما يفعل دائماً بقصد الوصول الى غاية واحدة وهي سعادته فاذا تصور انه يستطيع الحصول على سعادته منفرداً دعت محبة ذاته الى اتباع السبيل الذي يرسمه له علمه واذا علم ان سعادته لا تحصل له منفرداً بل يحتاج فيها الى التعاون مال اليه كما يظهر من المقابلة بين تصرفات الانسان في حالتي الخشونة والتمدن

ما أطوعه . وما أطعمه (١)

في نظام الاجتماع صدوع هي كالسوس تنخره ولا بد ان تقوضه ولو طلي بقار الظلم وصنع بسجد الوهم يتنازع الاجتماع منذ القديم فوقان تتنازعان فيه قياد الانسان لكن كل منهما من سبيل هاتان القوتان كانتا في الاول مجتمعتين وكان هولهما شديداً ثم انفصلتا . ولكنهما بقيتا متعالفتين . وسوف يعم اختصامهما حتى تلاشي الواحدة الاخرى فيسود سلطان الحقيقة ويقوض سلطان الوهم ولكن الاجتماع يخطو في ذلك خطوة خطوة وكل خطوة تنقضي فيها اجيال وتقضي على آمال فالانسان وان زج في الظلمة مهجوراً فلا يخرج الى النور الا مقسوراً : الا ترى لسان حال الجماهير يقول في كل حيل « ليس في الامكان ابداع مما كان » حتى يحار العقل في اي حالته الانسان اسعد لا ريب ان العلم اذا عم وبلغ الدرجة القصوى بلغ الانسان متمى السعادة . ولكن - حتى يعم - اي اشق من الانسان الساج بين الحائتين يتنازع سلطان القوتين وهو ليس بالجاهل فيرع ولا بالماكر فيزع ولكن الانسان وزع ام ورع . ضلع ام ظلع . ما كراً وغيباً واحد في مرماه كنت يوماً في محفل واذا السلطان باهى مظاهرها . ثم فلتك راجعاً الى بيتي فرائت البواب جلياً يصلي ويداه الى وجهه وكفاه مبسوطان وهو يحدق اليهما ويتمم كأنه يقرأ عليهما ورداً وائر الاجتهاد باديه عليه فلتك في نفسي : قسمة ضئلى . ثم نظرت الى ما به من الاعتقاد الراسخ فلتك : ولكنهما تمزية كبرى . فما اصيب الانسان . وما اطوعه . وفي الحالين ما اطعمه . ذاك يرث الارض . وهذا يرث ان يرث . . . ملكوت السماء

المقالة الثانية

الحياة واصليها^(١)

خيرة المرء في الوجود حياة كل يوم تريك منها شؤوننا
خاضت الناس في الظنون ولكن ما درى الناس سرّها المكنونا

الحياة خيرة العلماء والخيرة علة البحث ولذلك لم يمرّ عصر على الانسان الا وقام فيه يسأل : ما هي الحياة ومن اين اتت وكيف تولدت مسائل ثلاث مرتبط بعضها ببعض كلما اغلقت عليه من وجه قام يعالجها من آخر لعلها تفتح له وهو في كل العصور لم يزد بها علماً عما قاله فيها ملتون الشرق ابو العلاء المعري

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جحاد

ومن المقرر في العلم اليوم ان كل حيّ مما كان حقيراً لا يولد الا من جرثومة متضمنة فيها كل اجزاء هذا الحي وهذه الجرثومة نفسها صادرة من حي مثله . والخلاف بين العلماء والفلاسفة في اصل الجرثومة الاولى هل تولدت في الارض نفسها ومن مادتها وبقوة من قواها ام كيف . فاصحاب رأي التولد الذاتي يذهبون الى ان الاحياء جميعها نشأت في عالمنا هذا من نفس مادته وبقواه الخاصة وقد كانت في الاصل مادة حية بسيطة جداً ثم تكيفت وتحولت على مرّ السنين والعصور المتطاولة حتى رست على ما هي عليه اليوم . وخالفهم اصحاب مذهب الجراثيم الذين ينكرون التولد الذاتي بناء على ما يرونه اليوم من ان كل حي لا يولد الا من حي مثله ولما سئلوا عن اصل هذه الجراثيم ذهبوا فيها مذاهب ومن اغرب ما ذهبوا اليه انها اتت الى عالمنا من عالم الكواكب وهو قول لو تدبرناه لرأيناه لا ينفي التولد الذاتي وانما يبعد حله لانها سواء تولدت في ارضنا او اتتها من عالم آخر فلا بد ان تكون قد تولدت اولاً في نفس هذا العالم بالشئ ولا بد ان

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ وهي علمية فكاهية

تكون مادة ذلك العالم الذي تولدت فيه أولاً وقواه شبيهة بمادة عالمنا وقواه أيضاً لكي تستطيع ان تعيش فيه . جاء في كتابنا الحقيقة ما نصه « على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الا انه غير مقنع ويظهر لنا انه لا يحل المسألة وانما يزيدنا ارتباكاً فان لم تكن الحياة قد ظهرت على الارض ذاتياً بفعل احوال طبيعية وكياوية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداءً على أحد كواكب نظامنا الشمسي وخصوم التولد الذاتي الذين يتعلقون باهداب هذا التعليل كالملجأ الاخير لهم انما يعمدون حل هذه المسألة ولا يأتون فيها بتعليل شافٍ ولا يخفي ان الحل الطبقى الذي استطعنا بواسطته ان نعلم تركيب الكواكب الكيماوي اراتنا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منها سيارتنا فالصوديوم والمنيسيوم والهيدروجين والاكسجين والكرتون والكلسيوم والحديد والتلوريوم والبرزيموت والزئبق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنا . وقد علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تتحد هناك كما تتحد في ارضنا فلا بد اذاً من ان تكون الاحياء الاولى قد تكونت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا فوالحالة هذه ما الفائدة من الزعم بأن ارضنا انما اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في مروره في الفضاء اذ لا بد من الاقرار في كل الاحوال بأن التعضي قد وقع في المادة في احد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذاً الاصرار على انكار نشوء الحياة في الارض »



ولو لم يكن قائل هذا القول من ذوي المكانة في العلم لما عبأ احد به لغرابته وانما الناس في المسائل العلمية كما في سواها كثيراً ما يعيرون الكلام الغائات بالنظر الى مقام قائله . فصاحب هذا الرأي الغريب هو اللورد كلفن اي السير ويليم طمسن احد مشاهير العلماء الطبيعيين جاء في الحقيقة ما نصه « والذي ارتأى أولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو السير ويليم طمسن الانكليزي ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكون البرد قال انه يتكوّن من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السماوية

فما اتم الخطبة حتى وقف السير ويلم طمس وقال اخن الخطيب بمزح في ما يقول لانه لو فرضنا ان البرد تكون في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الأميال . ولا جلس قام اللورد ريلي وقال انا اعرف رجلاً رأى رأياً غريباً من هذا وهو ان يزور الاحياء هبطت على الارض من السماء »

وبديه ان الاحياء على موجب هذا الرأي لم تتساقط الى ارضنا باشكالها الحاضرة اي ان السماء لم تمطرنا من كل نوع من انواع الاحياء زوجين ذكراً وانثى زوجين من الكلاب وزوجين من الفيلة وزوجين من الارانب وزوجين من الحيتان الخ تكاثرت وعمرت الارض فلا الانسان ولا الحيوان لم يأتيا على هذه الصورة وانما الذي تساقط الى ارضنا يزور وبراعم ومكروبات نمت فيها وتحولت على مقتضى ناموس التشو والتحول وارتقت وكونت الاحياء المعروفة اليوم



ولا بد لتحقق هذا الرأي على فرض ان سلمنا به من ثلاثة شروط اولاً وجود صورحية في عالم آخر غير عالمنا وليس لنا ما يثبت ذلك ولا نريد بهذا القول اثبات العمارة للارض وحدها ونفيها عن سائر السيارات وانما نريد به ان ليس لنا دليل قاطع على ان سائر العوالم مأهولة باحياء شبيهة باحياء ارضنا او مختلفة عنها وان كانت عمارتها محتملة بالقياس

ثانياً وجود وسائط للنقل تحمل هذه الجراثيم من العوالم الاخرى وتنقلها الى الارض وهذا الشرط متوفر في منقضات النيازك وسواقط الرجم التي هي اجزاء من الاجرام السماوية تساقط على الارض كما لو تحطم احد الاقمار وتساقطت اجزاؤه . ومثل هذه المنقضات على الارض كثير ومن كل حجم بعضها يزن القناطر وبعضها يقل عن المئقال . وقد حسب نيوتن ولو كيار انه يتساقط منها على الارض كل يوم نحو عشرين مليوناً واربعين مليوناً اذا عدت الصغار منها . وقد اثار هذه النيازك في بعض القبائل عواطف العبادة يحكى انه سقط في سنة ١٨٥٩ في زوروما في افريقيا الشرقية نيزك فدنا السود منه بكل احترام ومسحوه بالزيت « كألوم تداوي منه جرحاً » وكسوه بالخلل الثمينة « كي لا

تخدش خده الابصار » وتقلوه الى أحد الاكواخ ونصبوه معبوداً لهم . وما امر هؤلاء السود مع هذا الحجر السماوي باعجب من امر ذلك الفلاح الانكليزي الذي رأى من عهد مائة سنة رجلاً راكباً منطاداً نزل عليه ولما سأله ابن أنا جثا على ركبتيه وقال انت في كولسدون (اسم بلدة) ايها الاله القادر على كل شيء .

ثالثاً ان تكون النيازك آتية من عوالم فيها احياء وحاملة لجرائم حية وغني عن البيان ان جميع النيازك لا تستطيع ان تقوم بهذا الامر . مثال ذلك النيازك المؤلفة من معدن كان مصهوراً من شدة الحرارة على انه يوجد نيازك شبيهة بصخورنا يمكن للجرائم ان تستقر في شقوقها بل نعرف نيازك تتضمن مواد عضوية شبيهة بالراتينج فهذه المواد وان لم تكن الحياة نفسها الا انها في ما يرجح متكونة عن كائنات حية او فيها وجه لهذا الفرض فانتقال الجرائم بمثل هذه النيازك اذاً ممكن . ولكن يقوم على ذلك اعتراض وهو ان النيازك التي تحترق الهواء تمر فيه بسرعة عظيمة جداً هي على تقدير لو كيار من ٤٠ الى ٦٠ كيلومتراً في الثانية تسخن الى درجة تصير فيها نيرة من شدة ضغط الهواء ودرجة الحرارة التي قد يبلغها النيزك والحالة هذه تختلف من ٤٠٠٠ الى ستة آلاف درجة فلا تستطيع الجرائم ان تبقى حية في كل هذه الحرارة اذ قد تبين من الامتحان ان البزور قد تقوى على احتمال ١٠٠ الى ١٢٠ درجة من الحرارة الجافة بعض ساعات واما على حرارة ١٥٠ الى ٢٠٠ فانها تموت والمكروبات تهلك في جميع اشكالها . غير ان النيازك لا تبلغ جميعها هذه الدرجة من الحرارة ومن المؤكد ان التسخن هو غالباً سطحي وقد سقطت نيازك كانت فاترة وغيرها كان بارداً وفي سنة ١٨٦٠ تساقطت في درمسالا في الهند قطع كانت بحال وصولها الى الارض بالغة من البرد درجة صغمت منها الاكف التي لمستها

*
* *

وتميل ذلك بسيط فالنيازك التي هي عبارة عن محطيات الكواكب قبل ان تصل الى الارض تمر في فضاء بارد جداً تختلف درجة برده من ٥٠ الى ١٥٠ تحت الصفر فاذا صادمت الهواء فقد تسخن في كل كتلتها اذا كانت صغيرة ولا تسخن الا في سطحها ويبقى باطنها بارداً اذا كانت اكبر فمن الممكن اذاً ان يصل اليها بعض النيازك من دون

ان يسخن كثيراً فاذا كان حاملاً في بعض اجزائه الباطنة بعض الجراثيم فليس من الضروري ان تحترق

ولكن يرد علينا حينئذ اعتراض آخر وهو اذا كانت الجراثيم لا تحترق فمن يضمن لنا انها لا تموت من شدة البرد لان برد الفضاء شديد ولكن الامتحانات الحديثة قد ذهبت بهذا الاعتراض اذ قد تبين منها ان البزور وانواع البكتيريا تحمل برداً شديداً من دون ضرر لا درجة ٥٠ او ١٠٠ فقط بل ٢٠٠ تحت الصفر . فمن الجراثيم ما بقي حياً مائة ساعة في هواء درجة برده ١٩٠ تحت الصفر و ١١٨ يوماً على درجة تختلف بين ٣٧ و ٥٣ تحت الصفر . وهذه المعلومات كثيرة الفائدة اذا ضمنناها الى غيرها مما علم في هذه السنين الاخيرة

فقد كان المظنون الى ايامنا هذه ان البزور ولئن ظهرت بحالة نوم فلا تزال الحياة تعمل فيها واذا كانت تبدو لنا واقفة فما ذلك الا في الظاهر فقط فهي لا تزال تقضي بعض الوظائف الجوهرية كالتنفس والمبادلات الغذائية ولكن يبطئ وضعف كليتين والحال ان ذلك خطأ فان هذه الوظائف الحيوية تقف وقوفاً تاماً على درجات البرد المذكورة كما تقف عندها في الاجسام الكيماوية القتها وخصائصها المميزة لها كما تبين من الامتحان



وبالحقيقة كيف يمكن التصديق ببقاء وظيفة التنفس وسائر الافعال الحيوية عاملة ونحن نرى بزوراً في الفراغ لا تفرز مقداراً من الحامض الكربونيك يشعر به بالحل الطبقى ونرى بزور البرسيم (القرط) تبقى ست عشرة سنة في غاز الازوت والكلور والهيدروجين والكلور الصفر ثم تثبت اذا اخرجت الى الهواء والرطوبة والحرارة . وحسب الحس المخون ضمن الزئبق يبقى حياً بعد خمس سنين الى غير ذلك من الامتحانات التي يكاد يكون التبادل الحيوي ممتناً فيها . ففي مثل هذه الاحوال لا بد من التسليم بوقوف الحياة وقوفاً تاماً بحالة لا هي الموت لان الحياة ما زالت ممكنة ولا هي الحياة لان الحياة هي التبدل والحركة بل هي حالة متوسطة بين الموت والحياة . وعليه فلا خوف على الجراثيم من برد الفضاء اذا صح انتقالها اليها من الاجرام الاخرى بواسطة النيازك . وما بسطنا

كل ذلك هنا الا من باب الفكاهة العلمية لا تأييداً لهذا الرأي الذي هو في اعتقادنا غريب جداً كما تقدم . والشئ بالشئ يذكر فن غرائب احلام العلماء ما خطر في القرن الماضي لأحد مشاهير الجراحين والعلماء الطبيعيين المدعو هنتر بالنظر الى وقوف ظواهر الحياة كما تقدم وهذا يدل على ان هذا الفكر ليس حديثاً فقد خطر له ان يجرب إيقاف الحياة واجرى امتحاناته على بعض انواع الحيوانات الدنيا فحرب ان يوقف حياتها بالبرد فنجح في ذلك ولكنه لما اراد ايقاظها بالحرارة وجدها لا حياة لمن تنادي وله من وراء ذلك غرض عظيم قال في بيان هذا الغرض ما نصه « قد ظننت انه يمكن اطالة الحياة الى ما لا نهاية له باجلاد انسان بوضعه في مكان بارد جداً واستندت في ذلك على ان كل عمل ومن ثم كل خسارة في مادته تقف والحالة هذه الى ان يسخن ثانية وقلت في نفسي اذا اراد انسان ان يقف السنين العشر الاخيرة من حياته لاجراء هذا التماق بين العمل والراحة يمكن اطالة حياته آلافاً من السنين يوقظ فيها كل مائة سنة مرة فيقف على كل ما جرى في العالم مدة رقاذه وكنت معلقاً كل آمالي على نجاح هذا المشروع . ولكن « امتحاناتي خانتني » انتهى فترى مما تقدم ان هنتر كان يحلم بالخلود الجسماني للجميع ولكنه لم ينجح والظاهر ان حلمه لن ينجح على اننا لا نريد ان نثني عزم احد من الراغبين

المقالة الثالثة

الادوار الجليدية وتأثيرها في الانسان (١)

لم يرد على الانسان سؤال اصعب من سؤاله : ما هو الانسان ؟ فان هذا السؤال سئل منذ نشأت الفلسفة واشتغل به جميع الفلاسفة ومع ذلك بقي زماناً طويلاً ولم يقول عما تركه عليه مؤسسا المدرستين القديمتين طالس وفيثاغورس وما ذلك الا لقيام الانسان حكماً في مسئلة لا يسلم فيها من الغرض مع اتقياده في احكامه الى التصورات الشعرية

والافكار الوهمية والمبادئ الخرافية . ولذلك لم يتيسر البحث عن الانسان بحثاً علمياً حتى زعزت العلوم الطبيعية هذه المبادئ الفلسفية في العصر المتأخرة فأنحصر البحث في هذه المسألة في علمي الانتروبولوجية اي علم الانسان والسوسولوجية اي علم الاجتماع الانساني

وعلى ذلك فوضاً عن ان يصعد الانسان بالخيال الى الطبقات السايوية لبحث عن اصل الانسان فانه ينظر اليه في المكان الذي ينشأ فيه وينمو ويموت ولا ينتقل الى غيره من الابحاث الطبيعية الا عند الضرورة لارتباط العلوم الطبيعية بعضها ببعض ارتباطاً شديداً بحيث يتعذر البحث في علم منها بدون الاستناد الى سابقه في سلم العلوم . فالسوسولوجية لما كانت اصولها في علم البيولوجية اي علم الحياة كان اعتناء علماء عصرنا بدرس فروع البيولوجية لتأسيس علم الانسان لا يماثله اعتناؤه . ثم ان معرفة حقيقة هذا العلم متوقفة ايضاً على امر مهم من متعلقات علم الفلك وهذا الامر هو مبادرة الاعتدالين وهو وان كان مذكوراً في جميع كتب الهيئة منذ هيرخوس الا انه لم يكن يظن أحد قبل الآن ان له تعلقاً بارتقاء الانسان واما الآن فيعتبر عند جمهور الجيولوجيين انه سبب حصول الادوار الجليدية في اوقات معينة . وقد ظهر من الابحاث المختلفة ان بين الانسان وبين الادوار الجليدية نسبة شديدة بحيث تؤثر في نموه وتعدنه وبهذا الاعتبار تبئنا عن ماضيه ومستقبله بامور كانت تبقى مجهولة لولا ذلك ولهذا لا بد قبل الشروع في هذا البحث من التكلم قليلاً عن الادوار الجليدية على ما يذهب اليه جمهور الجيولوجيين تمهيداً للموضوع فنقول

رأى الجيولوجيون في قديم بعض الجبال ان سطح الصخر الذي يؤلف جانب الجبل امس عليه ثلوم متوازية كأنها مصنوعة بالازميل (انظر وجه ١٩٥ من السنة الثانية) ورأوا ايضاً حجارة هائلة بعضها مبدد في منحى الجبل من سفحه الى قمته وبعضها بعيد عنه في السهول المجاورة وقد لاحظوا ايضاً على مسير هذه الحجارة خطوطاً متقطعة ممتدة من محل استقرارها الى قمة الجبل فحكوا ان الحجارة المذكورة قد انفصلت من الجبل بقوة ما واستقرت على ابعاد مختلفة بحسب القوة التي ابعدها . وان الخطوط آثار مرورها

على الارض في انحدارها . واول ما شاهدوا هذه الحجارة الهائلة والثلوم والخطوط في جبال ألبا . ثم رأوها في جبال اخرى في شمالي اوربا وظهر لهم انها تزداد وضوحاً كلما تقدموا الى الشمال وقد توهموا انها قبة دائماً من الشمال الى الجنوب فقالوا ان سببها ارتفاع مياه الاوقيانوس المتجمد الشمالي بقتةً واندفاع الجليد منه قطعاً هائلةً على الارض بقوة عنيفة ساقط امامها ما اعترضها من الحجارة وغيرها وثلمت سطوح الصخور المساء وهذا هو مذهب الطوفان . وعضد هذا المذهب كوفيه الطبيعي الشهير وبقي معولاً عليه الى سنة ١٨٣٠ وحينئذٍ قام لييل الجيولوجي الانكليزي فناقضه قائلاً ان الظواهر الطبيعية الحادثة على سطح الارض ليست نتيجة انقلابات فجائية لا تدرك اسبابها بل هي حادثة عن عوامل طبيعية تم امامنا ببطء شيئاً فشيئاً وان هذه العوامل المتناقضة النتائج مرجعها كلها الى القوات النارية التي ترفع سطح الارض والى فعل الهواء الذي يفتت الصخور ويعري الجبال وينقل التراب ويملا به الاودية . ثم تحقق الجيولوجيون خلافاً لما كانوا توهموه ان اتجاه الخطوط من الشمال الى الجنوب ليس مطرداً بل يتبع مسير الماء كيف كان مجراه فيكون ايضاً من الجنوب الى الشمال كما في جبال البرينه وهذا الاتجاه لا يصح ان يكون حادثاً عن طفيان الابحر الشمالية . فتحول فكر العلماء حينئذٍ للبحث عن اسباب اخرى طبيعية فتحقق شمير احد الطبيعيين الالمانيين من انهار الجليد الحاضرة انها تترك في سيرها حجارة هائلةً وصخوراً مثله شبيهة بما يوجد في الطبقات السفلى وانما الفرق بينها ان القديمة اكثر امتداداً فاستنتج من ذلك انها (اي القديمة) حصلت من انهار جليد اعظم من الموجودة الآن . ولكن لما كان بين هذا القول وبين التعاليم المعول عليها حينئذٍ بونٌ عظيم لم يعأ به . وفي سنة ١٨٤٠ نشر اكسيز الشهير كتاباً بهذا المعنى بين فيه وجود دور جليدي في الازدهار الغابرة وابدى رأيه عن انهار الجليد القديمة وعن نتائج امتدادها العظيم فلشهرته اتبه كثير من العلماء الى ذلك وسافر جماعة من جيولوجي الانكليز ومنهم لييل الى جبال ألبا ليتحققوا بانفسهم فعل انهار الجليد ورجعوا مقتنعين مما رأوا . ثم تحقق العلماء ذلك ايضاً في جميع البلدان ذوات الجبال بوسط اوربا وشماليها وشمال اميركا وجنوبها وفي جبال اسيا الوسطى حتى ان مذهب

الانهار الجليدية عمّ الآن وصار حكماً من احكام الجيولوجيا . ولما تحققوا ان القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي اكتسى بالجليد بعدما تكوّنت اراضي الدور الثلاثي بقي عليهم ان يعرفوا ما هو السبب لحصول ذلك فذهبوا مذاهب شتى وارتأوا آراء متعددة افضت بعد المباحث الطويلة الى ان سطح الارض لم يكتس بالجليد مرة واحدة فقط بل مراراً متعددة في ادوار متعددة وثبت عندهم ان هذه الادوار الجليدية ترجع في ادوار منسوقة على نظام محدود . ولدى التأمل في هذا النظام اخذوا يحشون عن السبب الذي تهبط به حرارة احد نصفي كرة الارض فيبرد برداً شديداً يؤذن للجليد بالدوام ازماناً مديدة ففطنوا الى امر مبادرة الاعتدالين والى انتقال محور دائرة الارض العظيم فسهل عليهم حل هذا المشكل . فان هذا المحور العظيم يتحرك تحركاً بطيئاً في دوران الارض حول الشمس حتى يدور دورة كاملة بالنظر الى الاعتدالين في احدى وعشرين الف سنة تقريباً كما يعلم من علم الهيئة وفي هذه المدة يوافق بالضرورة خط الاقلايين مرتين فينطبق عليه لحظة من الزمان . وقد حدثت الموافقة الاخيرة سنة ١٢٥٠ لليلاد وحينئذ كانت نقطة الرأس في الانقلاب الشتوي فتأى من ذلك ان بلغت ايام الربيع والصيف في نصف الكرة الشمالي اعظما وطالت فصول الشتاء واشتد بردها جداً في النصف الجنوبي بحيث تولاهُ دورٌ جليدي لم يزل حتى يومنا لان ظروف المناخ لم تتغير من ثم كثيراً . ثم اذا تفقروا عشرة آلاف وخمس مئة سنة رأينا ان نقطة الرأس كانت في الانقلاب الصيفي فحصل عكس ما تقدم اي ان فصول الشتاء طالت واشتد بردها في نصف الكرة الشمالي فحدثت عليها دوراً جليدياً فكل ١٠٥٠٠ سنة يحصل دورٌ باردٌ جداً شمالي ثم جنوبي على التعاقب بحيث تتوالى الادوار الجليدية على كل من نصفي الكرة كل احدى وعشرين الف سنة



فلننظر الآن الى الانهار الجليدية من جهة تأثيرها في نوع الانسان فاول ما يتضح لنا هو سبب الاختلاف العظيم بين اهل الشرق والغرب من جهة تاريخهم ولولا ذلك لكان تاريخهم يبق في غاية الاهام . فلا يخفى ان تاريخ الانسان الشرقي اقدم جداً من

تاريخ الانسان الغربي فان اقدم آثار الانسان التي وجدت في اوربا لا يتجاوز عمرها ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة حسب تعديل الجيولوجيين بناء على اقدم الآثار الموجودة حديثاً واما آثاره الدالة على تمدنه في الشرق فيصعد تاريخها كما في بلاد مصر الى ١٥٠٠٠ سنة حسب تقويم اعدل الجيولوجيين . وذلك موافق لرواية ماثون الذي امره بطليموس فيلادلفوس فنقل عن الكتب المقدسة لهيكل اليوبوليس العظيم تاريخ مصر منذ ايامها الاولى وضمنه في ثلاثة مجلدات لم يصل الينا منها سوى بعض فقرات وفصول ذكرها المؤرخون القدماء الذين جاءوا بعده كهيرودوتوس وغيره . على انه لم يكن احد قبل الآن يثق بصحتها لما بين التواريخ التي ينسبها الى دول مصر وبين التعاليم الشائعة من الفرق البيّن حتى جاءت اخيراً الابحاث الجيولوجية مؤيدة صحتها . فاذا قيل ما هو السبب في كون تاريخ تمدن بعض شعوب المشرق يتقهقر الى ١٥٠٠ قرناً مع ان اهل اوربا لم يكونوا منذ سبعة او ثمانية آلاف سنة الا قبائل متوحشة يقطنون المغاير والكهوف فالسبب واضح لمن يتدبر مذهب الادوار الجليدية . فان بلاد مصر لعدم وجود الجبال فيها ولانصالها من طرفها الجنوبي بمدار السرطان آمنة من نوازل الثلج والجليد فلا تعيق نمو الانسان فيها وكذلك يقال ايضاً عن السهول الواسعة الممتدة في جنوبي اسيا من حدود البحر المتوسط الى حدود الصين . بخلاف اوربا فانها لبعدها عن المدارين واتصالها بالبحر الشمالية فالبرد يشتد فيها جداً فيتراكم الثلج على القسم الاعظم من سطحها فتحول دون نمو الانسان فيها . وهذا هو السبب في عدم ظهور آثار الانسان السابق العهد التاريخي فيها الى ما بعد تقهقر الانهار الجليدية الاخيرة . ولا يوجد قبلها الا بعض عظام بشرية يندر وجودها اكثر فاكثرت كلما اقتربنا الى اسفل الاراضي التي تكونت في الدور الرباعي



ثم يتضح ايضاً على مذهب الادوار الجليدية سبب امر آخر كثير الابهام كسابقه وذلك ان من يقابل بين امم الشرق القديمة وبين الامم الحاضرة بالنظر الى نشاط القوى العقلية يستعظم الفرق بينها . أليست بلاد الهند ويران والكلدان مهد التمدن وام العلوم

والصنائع (فان خرابات بابل ونيوى لا تزال موضوع اندهاش اهل هذا العصر مما يدل على ان الصنائع فيها كانت بالغة من الاتقان اعلى درجة فضلاً عن ان علم الهيئة نشأ في بابل والعلوم الرياضية كانت متسعة جداً في بلاد الهند) فما الذي استولى عليها حتى لم يبقَ لها بقية تذكر او ذكرٌ يشهر أليست البلاد التي اولدت طالس وارخميدس وهيررخوس عقيمة منذ زمان طويل فكيف وهنت قوى هؤلاء الشعوب ولماذا سكنت حركتهم عن التقدم في معراج التمدن . ان سبب ذلك يتضح من دور البرد الاخير الذي استولى على نصف الكرة الشمالي فان شدته وصلت الى ابعد من حدود الانهار الجليدية بكثير (فان دور البرد الشديد المستولي الآن على نصف الكرة الجنوبي لا يزال تأثيره واصلًا الى حدود رأس الرجاء الصالح في افريقية وبونس ايرس في اميركا مع انه دخل في الناقص من تاريخ ١٢٥٠ سنة للميلاد) فاهالي جبال اسيا لما دامها الثلج حينئذ انسحبت من امام البرد والتجأت الى السهول المنحدرة نحو شطوط البحر المتوسط وخليج العجم وبحر الهند . وما دامت تلك الثلوج تبعث الهواء البارد الى الجنوب فبرد تلك الجهات دام المهاجرون اليها على نشاطهم العقلي الخاص بسكان البلاد الباردة فما التمدن وانتشر في الشرق ولكن لما اخذت تلك الثلوج تذوب وتقهقر اخذت طبائع تلك الاقاليم تتغير فاستولت عليها حرارة الجهات المدارية واستولى الخول على سكانها واخذ نشاطهم ينحط وعزائمهم تضعف حتى سكنوا في رقبتهم التي نراهم فيها قهض الغرب حينئذ اذ خلع عنه جلباب البرد القارس الذي كان كبل قواه واخذ انفاسه قروناً عديدة وابان للعالم اجمع كم ترك الاوائل للاواخر بما أبداه من النشاط الذي فاق كل نشاط . فان الذي اتصل اليه ابن المغرب من السعة في المعارف والدقة في العلوم والاتقان في الصنائع لا تبعده عنا شهوده ولا يترك محلاً للريب في انه اناله قصب السبق في ميدان الانسانية . ولكن لا فضل لاحد بذلك فالفضل لله ولا عار علينا بخمولنا فانه يحكم الدور سيأتي زمن لا يتجاوز مئة قرن بتعديل الجيولوجيين فيه تعود الثلوج وتعطي القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي فتمسي تلك العواصم الماهولة كبطرسبورج وفيينا وبرلين وباريس ولوندره ونيويورك

كان لم يكن بين المحبون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
فيولي اهلها الادبار من امام وجه البرد طالين ملجأ في جنوبي اوربا وفي اماكن
اخرى على شطوط البحر المتوسط ويتقهقر الغرب ويرد هواء الشرق فيذب النشاط في
عروق اهل وتوافيه السعادة بعد الشقاء وينقل محور التمدن اليه
ان البلاد لكالمباد قاتها تشقى كما تشقى المباد وتسعد



ولنذكر الآن ما استفادته العلماء من الادوار الجليدية . فالجيولوجيون استفادوا منها
معرفة اعمار طبقات الارض المختلفة بمراقبة ظواهر الجليد فيها والانتروبولوجيون استفادوا
معرفة عمر الانسان من آثاره فيها . أما الجيولوجيون فمحققوا في نصف الكرة الشمالي
ثلاثة ادوار جليدية واضحة اقدمها في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية والثاني في بداية
الرواسب الرباعية والاخير انهار الجليد الاخيرة في جبال الپا وأما الانتروبولوجيون
فالظاهر انهم وجدوا عظاماً بشرية حتى في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية اي في اقدم
دور جليدي عرف الى الآن . فاذا اضفنا ٢١٠٠٠ سنة مدة رجوع الدور الجليدي
مضروبة في ٢ عدد الدورين الجليديين الشماليين الاول والثاني الى ٩٢٥٠ سنة التي
مرت من الدور الجليدي الشمالي الاخير الى القرن الاول لليلاد كان لنا عمر الانسان
المعروف الى الآن وربما كانت الابحاث المستقبلية تبعث تاريخه عن ذلك ايضاً . على اننا
نقول ان كل ذلك متقول عن ارباب هذا العلم فلا ننجزم بصحته بل نتبرأ من تبعته فلا
يهلل المعتدون ولا يتهازل الجاحدون (١) . اه

(١) لم نشأ ان نثير شيئاً في اسلوبنا في بسط الآراء او الاشارة اليها تصريحاً او تلويحاً في كل
كتابنا الماضي والحاضر لنذل بذلك على خطتنا المتبعة من سوانا والخاصة بنا . وكأنّ الاسلوب
الغالب في الماضي كان يميل الى التلويح اكثر من التصريح وكثيرون حتى اليوم يعدون ذلك التلويح
براعة . ولكن ذلك لم يدم بنا طويلاً حتى عدلنا عن تلك الخدعة الى ما هو اصرح بياناً

المقالة الرابعة

الاجتماع البشري او العمران ^(١)

الغاية من الاجتماع البشري ويسمى العمران ايضاً التعاون على المعاش والاعمال في تحصيله من وجوه واكتساب اسبابه . وذهبت طائفة من الحكماء الى ان الاجتماع نتيجة الفكر والروية وقصرته على الانسان وقال قوم بل هو طبيعي في الحيوان لما يُمهد من اجتماع النمل والنحل والجراد والقروذ كما سنبين ذلك في ما يأتي وانما بلغ الغاية في الانسان لانه اقومها تكويناً وابعدها فكراً واقواها روية . واجمعوا على انه ضروري للبشر والا لم يكمل وجودهم ولم تم حياتهم لان الانسان مضطّر لدفع شرور كثيرة عنه مثل الجوع والعطش والبرد والتعب وعدوان بعضه على بعض وعدوان الحيوانات الأخر التي تسكنه ارضه وتنازع الحياة فيها وللمقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة . ومحتاج كذلك الى مواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت والكساء والمساكن والاسلحة وغير ذلك مما يقتضي اعمالاً كثيرة فان كان منفرداً فهو لا يستطيع القيام بها جميعاً لان كل عمل منها يستغرق فيه حياة كاملة وقد لا تفي بجزء منه فهو لا بد له من الاجتماع وتقاسم الاعمال حتى يتم له التعاون بحيث يكون منه الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والحكيم وحتى ينتظم وجوده ويحسن حاله . ولهذا شبه الحكماء العمران بجسم حي كائن الاجسام الحية مركب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة وهي سلامة بعضها وسلامة الكل . ووصفه بعضهم وصفاً طبيعياً نظيرها كما سيأتي . ولو اقتصر الانسان على الحياة منفرداً ما استطاع ان يتفدى بغير الأثمار او يكتسب بغير اوراق الشجر يخصصها عليه او يأوي الى كهوف الارض ولما امكن له اقامة القصور الشاهقة وبناء المدن الحصينة واتخاذ الملابس الحسنة الفاخرة وطبخ الاطعمة الحيدة اللذيذة واصطناع الاسلحة المنيعة ولكان اشبه بالحيوانات العجم ولما نما الى هذا الحد ولكانت حياته اشبه

(١) نشر ذلك في مقتطف السنة التاسعة والمانسة سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥

بحياة الكريآت الحية المؤلف منها الجسم الحي اذا كانت مفردة . فهو لم يستطع التهوض بهذه الاعمال الا مجتمعا فحياته الاجتماعية اذا ضرورية لحفظه وراحته ورفاهيته ولهذا نما فيه هذا الميل للاجتماع الى حد بلوغ جدا حتى وصفه الحكماء بقولهم الانسان مديني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم كما يقول ابن خلدون ولكي يتم له ذلك لا بد له من سنن تكفله ولا بد من العدل في هذه السنن اي مراعاة مصالح الجمهور المتبادلة ولا بد من احترامها كذلك والا انفصت عروة الاجتماع وتداعت دعائمه . لكن لما كان الانسان كثيرا ما لا يسلك من نفسه الطرق المثلى المؤدية الى ذلك اما عن عتو و غرور او عن جهل و ذهول كان لا بد له من اقامة قوة يناد بها المحافظة على المقرر من السنن والاقتصاص من يحيد عن جاداتها والا آل به الحال الى الفوضى . اي لا بد له من وازع يكون منه اذا لا يمكن ان يكون من سواء يدفع عدوان بعضه عن بعض ويهتم باصلاح شؤونه . وقد اشار أرسطو الى ذلك كله في دائرته المسماة في عرف السياسيين بالدائرة السياسية حيث قال « العالم بستان سياجة الدولة والدولة سلطان تحيا به السنة والسنة سياسة يسومها الملك والملك نظام يعضده الجند والجند اعوان يكفلهم المال والمال رزق تجمععه الرعية والرعية عبيد يكنتهم العدل والعدل مألوف وبه قوام العالم »

واختلفوا في حقيقة هذه السنن فذهب قوم الى انها الشرع المفروض من عند الله والا لم يكن لها وقع في القلوب ولا نهى عن المنكر وقال غيرهم بل هي الشرع على الاطلاق والا لما اقتضى ان تم العارة للبشر قبل الانبياء ولا لامر غير تابعة لهم . قال ابن خلدون « وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وانها خاصة بطبيعة الانسان فيقرون هذا البرهان الى غايته وانه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وانه لا بد ان يكون متميزا عنهم بما اودع فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه

او بالمصيبة التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جاذته . فاهل الكتاب المتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل الارض ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والاثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانه يتمتع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وانه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة . وذهب فريق الى ان السنن التي اصطلح عليها الانسان في بادئ اجتماعه انما هي سنن العوائد وهي احكام تكليفية مرعية في المعاملات والمعايش انما الحكومة لا تشدد في المحافظة عليها وهي تحصل للناس بالتربية والمحاكاة وتنشأ فيهم عن سليقة وهي اسبق كل السنن . وذهب سبنسر الى انها اصلها جميعاً لانها هي المرعية وحدها عند بعض الاجيال من البشر المنغمسين في التوحش كاهل استراليا وطمانيا والاسكيمو وغيرهم ممن ليس لهم نظمات سياسية ولا دينية او هي فيهم اثر من عين . قالوا وقد كان زمام هذه النظمات السياسية والدينية أولاً في يد سلطان واحد ولم ينفصلا الا بعد حين اي بعد ان بلغ الانسان درجة عالية في العمران كما تدل احوال كثير من اجيال البشر اليوم وكما يعلم من تاريخ الامم العظيمة والملل الشهيرة . وذهب المحققون الى ان السنن ينبغي ان تكون تابعة للانسان لا متبوعة به اي ان تكون متغيرة لا ثابتة ومقيدة لا مطلقة حتى تكون نافعة له لا سبباً مانعاً لارتقائه والا لما قدر الانسان ان يخطو خطوة عما يفرضه له نظام معلوم ولبقى في كل عصر وفي كل جيل كما كان في العصر الاول والجيل الاول من اجتماعه لان كل جيل له سنن لا تصلح لسواه فان لم تتغير هي لم يتغير هو . والحق ان احوال الامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر كما يقول ابن خلدون انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال الا ان هذا التبدل في الاحوال والعوائد والنحل يتبدل الاعصار ومرور الايام يذهل عنه اكثر من الناس اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يفظن له الا الاحاد من اهل الخليفة

واختلفوا في طبيعة الحكم الوازع فقال قوم هو الحكم الملكي المطلق ورأسه الملك وقد اشار انوشروان الى ذلك حيث قال « ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه » وقال غيرهم بل هذا النظام مفسد للعدل الذي هو اس العمران بما يولي الملك من السلطان المطلق على عماله وعلى رعيته اذ لا يكون لاعماله منتقد ولا لأحكامه معدل فيعدل الى الاستبداد في أمور الرعية ويستخدها لأغراضه الخصوصية . واذ تستحق الرعية منه بذلك تدين له خاضعة خادعة ويسود عليها مخضوعاً له نخوعاً . فيتقرب له اصحاب الاغراض بالكذب في موضع الصدق وبالاطراء في موضع التنديد لان الناس متطلعون الى الدنيا من جاهٍ او ثروة والنفوس مولعة بحب الثناء . ويسلك معه على هذا المنهاج عماله وتباعه وسائر بطائنه فيحجبون عنه صحيح الاخبار مترفين اليه بما يزيدهم فيه استئثاراً وفي احوال الرعية استبداداً

حكى ابو الفدا في تاريخه قال « بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع . فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القاتل وسأله عن قوله فقال له يا امير المؤمنين ان أمتي انبأتك بالامور على جليتها واصولها فأنته فقال ان الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق واهله هو أنت يا امير المؤمنين فقال المنصور ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضي والحلو والحامض عندي . فقال الرجل لأن الله استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرهم ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما احد الا وله من هذا الامر حق . فلما راك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيته تجبي الاموال فلا تعطيهما وتجمعهما ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونهُ وقد سخر لنا نفسه فاتفقوا على ان لا يصل اليك من اخبار الناس الا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الا اقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ويصفر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وغتهم عظمهم الناس وهاجهم فكان اول من صانهم عمالك

بالهدايا ليتقوا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم . فامتلات بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل . فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك فان أراد رفع قصة اليك وجعلك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً ينظر في المظالم فلا يزال المظلوم يختلف اليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك فاذا صرخ بين يديك ضُرب ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيره وانت تنظر ولا تنكر فما بقاء الاسلام على هذا . فان قلت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله في الطفل يسقط من بطن امه وما له في الارض مال وما من مال الاً ودونه يدُ شحيحة فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يعظم رغبة الناس اليه . ولست الذي يعطي وانما الله عز وجل يعطي من يشاء بغير حساب . وان قلت انما اجمع المال لتسديد الملك وتقويته فقد أراك الله في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما اعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله ما أراد . وان قلت انما أجمعه لطلب غاية هي اجسم من الغاية التي انت فيها فوالله ما فوق الذي انت فيه منزلة الاً منزلة ما تُنال الاً بخلاف ما أنت عليه .

فلم يكن يدُ في مثل هذا النظام من تعظيم شريعة الله والاكتثار من التهديد بها تذكرياً للملوك وتهويلاً كما فعل الاعرابي المذكور مع المنصور وكما فعل بهرام بن بهرام في حكاية اليوم حيث يقول ايها الملك ان الملك لا يتم عزُّه الاً بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت امره ونهيه . « والا قلّ علمهم واتقوا صلاحهم وكثر جورهم وهار بناء ملكهم اذ ليس لهم زاجرٌ سواها لانهم غير مسئولين في ما عهد اليهم من امور العباد الاً لله وحده . هذا على فرض ان يكون الملك حليماً عادلاً فكيف به اذا كان جباراً عاتياً كتيصور الذي كان كما فتح مملكة او مدينة يبنى من رؤوس اهلها هرماً



قالوا ولهذا النظام ايضاً اثر لا يحمد في الاخلاق اذ تحط معه الهمم وتضعف العزائم وتذلُّ النفوس بما يكثر من الظلم فيسود الرياء ويفشو الكذب لان الذين يغلب فيهم الظلم يغلب عليهم الرياء حتى يصير فيهم ملكة طبيعية فيقلُّ الصدق لان القوم الذين

يغلب فيهم الرياء هم قوم لا يصدقون ولا يصدقون فيختل نظام الملك ويسوء حال الرعية وتقعد على مر الزمان استقلالها في عالم الوجود . قال ابقراط في كتاب الاهوية والمياه والمسكن « لذلك كان أهل آسيا أقل نجدة للحروب من أهل اوربا لان اعظم قسم منها تحكّمه ملوك وحيثما كان الناس عبيداً لسواهم فهم لا يهتمون بأن يمتروا على السلاح بل ان يخلصوا من التجند لان الخطر غير موزع على السواء . فالراعا يذهبون للحرب متحملين مشقاتها ويموتون عن سادتهم بعيدين عن اولادهم ونسائهم واصدقائهم وسادتهم هم الذين يجنون ثمرة اتعابهم لدشوكتهم واما هم فلا يهتمون غير اقتحام الاهوال والموت . وما يؤيد ذلك ان جميع الذين في اسيا من اليونان والبرابرة ممن لا سادة لهم بل هم يتولون الحكم فيهم وعليهم بشرائهم ويشغلون لانفسهم هم بين سكانها انجدهم للحروب واقدمهم على الخطر لانهم هم الذين يجنون ثمرة بسالتهم ويتحملون عار جبنهم » .

لذلك قالوا ان الحاكم ينبغي ان يكون مقيداً بسنن تضعها الامة وان يكون مسئولاً لها بها وهذا النظام له فوائد جمة اولاً ان الحاكم لا يكون معه مطلق التصرف فاحكامه في الامر والنهي لا تجري الا اذا كانت مطابقة لوضع السنن المقررة والتي يحافظ عليها رجال من مشارب مختلفة وآراء متباينة تعهد الامة اليهم بها . ثم لما كانت احتياجات الامة تختلف باختلاف احوالها كان هذا النظام موجباً من هؤلاء الرجال للنظر في هذه السنن لتعديلها من وقت الى آخر بحيث تكون موافقة للحال ويكون ذلك بالاشتراك مع الامة التي يطمعون على آرائها ومناوئها ويفهمون مقاصدها ومناوئها اذ لا يكون معه حجر على الافكار . وهذا الامر من طبعه ان يثير حرباً في الآراء والمذاهب تكون نارها برداً وسلاماً على الامة . لان المضادة التي تنشأ حينئذ تكون نتيجتها اعطاء الاشياء حقها من التمحيص قبل اقرارها والوقوف فيها عند حد الاعتدال والا ان لم تكن المضادة في الآراء لم يمكن تمحيصها بنار الانتقاد ولا الاعتدال بها اذ تفرد بها النفوس ويقوى بها التشيع والنفس اذا خامرها تشيع كان ذلك التشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد فتجسج الى ركوب متن الافراط او تسقط في مهواة التفريط . ولا يخفى ما لذلك النظام من الاثر في تحسين احوال الامة وعلومها وصنائعها لما ينمو فيها من فضائل الحرية القانونية

المؤسسة على معرفة الانسان نفسه وما يجب له وما يجب عليه في العمران فتنتجع على الاقدام والقيام بالاعمال الجليلة اذ تنهض منها الهمم وتشتد العزائم فتمتد شوكتها في الاقطار ويتسع نطاق ملكها . قال أبقراط ايضاً « ولهذا السبب كان اهل اوربا أشد نجدة للحروب من أهل آسيا لانهم لا يحكمهم ملوك نظيرهم فلخاضعون للحكم الملكي يفقدون الشجاعة ضرورة لان نفوسهم مستعبدة فلا يهيمهم التعرض للخطر لد شوكه غيرهم وانما يحكمهم شرائعهم لذلك هم اذا رأوا الخطر محققاً بهم اقدموا عليه بجسارة لان النصر عاتده عليهم »



وذهب فريق الى ان هذا الحكم انما هو الحكم الملكي المقيد وقال غيره بل هذا النظام يشتم منه رائحة الاستبداد وهو مخوف بالخطر لان الملك وان كانت الامة تقاسمه الحكم بمن تستنيهم منها لديه لمراقبة اعماله والدود عن حقوقها الا انه لم يخل من بطانة وعمال يهيمهم القرب له اكثر من القيام بمصالح الامة فربما عاونوه على استمالة نوابها اليه اما لذهول هؤلاء عن المقاصد التي ندبوا لها او لخوف حرمانهم من المناصب بما للملك وخاصته من السطوة والنفوذ فانقلب نياتهم فيها شراً وهدايتهم لها تضليلاً وساءت بهم مصيراً . ثم لما كان هذا النظام يخول الملوك حق الولاية بالسلالة كان لا يتمتع ان يتولى منهم من يكون حامل الذكر فاقد الحزم فتتلاعب به اغراض عماله وتجاذبه أهواؤهم وهو فاقد الرشد لا يميز غث الامور من سمينها فيتطرق الخلل الى امور المملكة من وجوه شتى حتى تصبح

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حالٍ من القلق وبالجملة ذهبوا الى ان الحكم الوازع يتمتع ان يكون مقيداً حق التقيد في مثل هذا النظام الا اذا كان فيه الملك صورة لا حقيقة كما يعهد في بعض الامم (امة الانكليز) وهي مع ذلك اصلح الناس حالاً . ولذلك قالوا لا بد من ان يكون حكم التبديل شاملاً لعامة الهيئة من الملك الى العامل البسيط مع مراعاة جانب الحكمة في هذا التبديل اجتناباً لشر العجلة اذا كان سريعاً فتبدل الدول ولا تكون فرصة للعمل وفراراً من سوء عقي

الابطاء لئلا يستبد الرأس الحاكم بالحكم اذا طال عهده وهو قابض على ذمامه كما وقع لنا بوليون . وينتخب الرأس من آحاد الامة ويوجب له هذا الانتخاب عندها ما له من الحكمة والدراية بالامور فيتعاون مع رجال الحكومة على اتمام الحكم في الامة وعليها على قوانين الشورى الحققة . قالوا وهذا النظام كثيراً ما لا يبرأ من الخلل الا أنه ابلغ ما في طاقة البشر ادراكه بالفعل



ومن ينظر في العمران ينبني ان لا يذهل عما للاقليم من الاثر فيه اذ لا يستوي العمران في كل الاصقاع لاختلاف طبائع اقاليمها ولا في كل الاجيال لاختلافهم في الخلق والخلق وسبب ذلك لان الانسان متأثر لعامة الاسباب الطبيعية من حرّ وبرد وهواء وخصب وجذب ونجد وغور وجبل وسهل وبادية ومصر واختلاف فصول وغير ذلك ما بين اعتدال مزاج واختلاف تكوين وشدة واسترخاء وحزم وثبات وطيش وخفة وخشونة ولين ونشاط وتوان وغفلة وذكاء وبلاهة وكل ذلك يؤثر في عاداته وسياساته ونحله ويؤثر بعضه في بعض ايضاً بحيث تختلف النتائج عن ذلك اختلافاً جسيماً وتنوع الى ما لا حد له . فانك اذا قابلت بين سكان صقع وصقع تجد بينهم بوناً عظيماً في التكوين والاخلاق والسياسات والعادات وكذلك الاجيال الواحدة تختلف في الاحقاب المختلفة وسكان البلد الواحد يختلفون فيما بينهم حتى لا تكاد ترى اثنين يشبه احدهما الآخر بسبب ذلك

وربما امكن الحكم على طبائع كل قوم من طبائع اقليمهم بقطع النظر عن تاريخهم لان متولدات كل اقليم هي شبيهة به لذلك كان اليونان الاقدمون في عصر الميتولوجيا يصلون آلهتهم نار الحرب وكان اكثر شعرهم حماسياً كما جاء في ديوان شاعرهم اوميروس لان شعر كل قوم مرآة حال ذلك القوم ولذلك ايضاً كان المصريون القدماء يعبدون التمساح وغيره من اصناف الحيوانات العجم . ولهذا السبب عينه كان اهل بريطانيا يغلب على طباعهم الجدد وعلى تصوراتهم العبوسة كما يظهر من تصورات شاعرهم ملتن ولهذا السبب ايضاً كان العرب واهل ايطاليا واسبانيا يصبون الى الالحان الشمجية ويميلون

الى الغزل والتصابي في شعرهم . وما كان بين ذلك كانت طباع اهلِه بين ذلك ايضا ولا يمكن الاطلاق في مقام التقيد لان اسبابا اخر كثيرة عامة وخاصة اذا اشتركت مع ذلك لم تبقى هذه النتائج على حالها بل غيرت من امرها وبدلت تبديلا كبيرا



ومن تمنعن من الاقدمين بما لطبيعة هذه الاسباب من الاثر في طبيعة الارض وسكانها ابو الطب ابقراط قال في عرض كلام له في هذا المعنى ما نصه « ان آسيا تختلف اختلافا عظيما عن اوروبا بطائع محاصيلها وسكانها فكل ما ينبت في آسيا اقوم خلقا واعدل خلقا وسبب ذلك اعتدال فصولها فانها لوقوعها بين شروقي الشمس (الشتوي والصيفي) هي معرضة للحر بعيدة عن البرد وهذا هو سبب خصبها وجودة محاصيلها واعتدال اقليمها . وهي ليست متساوية في كل الاماكن فما كان منها واقعا متوسطا بين الحر والبرد كانت اثماره اخصب واشجاره اجمل وهو اوه ارق ومياهه مطرا كانت ام ينايع اصح اذ ليس فيه زيادة حر تحرقه ولا قلة مياه تيبسه ولا برد قارس يمتته بل هو دائما ندي بسبب امطاره الغزيرة وتلوجه الكثيرة فارضة لذلك كثيرة الخصب زراعا مزروعا كان ام نباتا تنبتة الارض من نفسها وحيواناته كبيرة كثيرة النتج وسكانه سمان واشكالهم جميلة وقاماتهم معتدلة وقلما يختلف احدهم عن الآخر . وهذه القارة ايامها اشبه بالربيع لاعتدال فصولها انما ليس لاهلها بسالة الرجال ولا الصبر على الملمات ولا الثبات في الاعمال ويغلب عليهم حب اللذات وامم اوروبا تختلف بعضها عن بعض بالقد والشكل لشدة اختلافات فصولهم وكثرتها . الى ان يقول . لذلك فيما ارى كان اهل اوروبا يختلفون فيما بينهم اكثر من اهل آسيا وكان اهل البلد الواحد يختلفون في القدر لان تكوين الجين يختلف في اقليم تكثر فيه اختلافات الفصول اكثر من اقليم تتشابه فصوله وكذلك يحصل في الاخلاق لذلك كان اهل اوروبا اشد نجدة للحروب من اهل آسيا » اه



وكذلك تكلم الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب القانون وقد نحا نحو ابقراط في

ذلك حتى يظن في اماكن كثيرة انه نقل عنه . قال في ارجوزته متكلماً عن سبب اختلاف اللون في البشر

بالزنج حرٌّ غير الاجساد حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بياضا

* *

وممن افاض في هذا الموضوع ابن خلدون في مقدمته حيث بسط الكلام على تأثير الحر والبرد والهواء والقوت والمكان وغيرها بما لا يعهد له مثيل الا عند علماء طبائع الحيوان اليوم . قال من كلام طويل له في ذلك ما نصه « وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرها في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل ستة قرية احداها من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح التيفظ الشديد عليهم وتسود وجوههم لافراط الحر - الى ان يقول - وليست هذه الاسماء لهم من قبل اتسابهم الى آدمي اسود لا حام ولا غيره . . ثم يقول . ونظير هذين الاقليمين مما يقابلها من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانها ايضاً البياض عن مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقههم في دائرة مرئي العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها وتنتهي الى الزعورة . ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العين وبرش الجلد وصهوبة الشعر » وهذا التعليل ربما لا يوافقه فيه كثير من العلماء اليوم لانه لم يتحقق لهم اثر الحر والبرد في توليد اللون . فقد ذكر كنوك تقيلاً عن سميت ان الهولانديين الذين قطنوا افريقيا الجنوبية لم يتغير لونهم في مدة ثلاثة قرون وذهب دي كاتفاج الى ان طوائف النور واليهود لم يتغيروا مع انهم منتشرون في عامة الاقاليم من عهد طويل . والصحيح انهم لم يتغيروا تغيراً مهماً الا ان هذه الادلة لا تقيد شيئاً عظيماً ضد هذا الاثر لقصر الاحقاب المذكورة بالنسبة الى الاعصار المتطاولة التي توالى على الانسان

وبالنظر لما للانسان من الاقتدار على تغيير الاحوال الطبيعية وتحويل اثرها فيه لما يناسبه. وربما كان هناك اسباب أخرى أيضاً كالاتخاب الطبيعي والجنسي كما يذهب دارون والقوت والامراض وغير ذلك . والحق ان التعليل عن لون البشر لا يزال غامضاً الا أنه لا ينكر ان لضوء الشمس والحر كسائر الاسباب الطبيعية ايضاً اثرأ فيه لما يعلم من تأثر المادّة الملونة للجلد (والموجودة في جلد البشر غموماً) تبعاً لطبيعة الاقليم بحيث يزيد افرازها ويقلّ بحسب حرّ الاقليم وبرده كما يقول المشرح صابي



ثم يصف ابن خلدون تأثير ذلك في الاخلاق فيقول « ومن خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح تأثير الاقليم والحر — الى ان يقول — ونجد سيرا من ذلك في اهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياض والتلول . واعتبر ذلك ايضاً في اهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية او قريب منها كيف تغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يذخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة اكلمهم من اسواقهم » . اقول وربما كان لعدم اذخارهم القوت سبب آخر غير الغفلة التي اشار اليها ابن خلدون فلا يخفى ان ما ينشأ في بلاد باردة من انقطاع المواصلات بين اهلها بسبب البرد والمطر والتلج يولد في سكانها الحيلة خوفاً من ذلك فيذخرون اقواتهم لسنة بل ولاكثر من سنة بخلاف سكان البلاد التي يندر مطرها ويقل بردها فهم لا يرون لزوماً لان يحتاطوا لأمير لا ينجشون وقوعه

وقد ذكر تأثير الخصب والجذب بما ينطبق على قولنا « وسكان بلاد لينة التربة كثيرة السهول والبطاح كثيرة الخصب واسعة الرزق قلما يحتاجون الى جهد البدن والعقل للحصول على الرزق والاثرء فان ارضهم تثبت ما يكفيهم وربما ثبطت منهم المهم بقدر سعة العيش مثل بلاد مصر فان نيلها يفيض التبر وارضا تثبت الذهب »

ومن عجيب ما ذهب اليه في هذا الباب — مما لو اطلع عليه علماء طبائع الحيوان

اليوم لا يثبتوا له السبق على دارون ولا مارك في مذهبهما باحقاب متطاولة وان لم يقصد ذلك فظريهما - هو قوله « واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمهي والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها يوناً بعيداً في صفاء اديمها وحسن روقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها . فالغزال اخو المعز والزرافة اخت البعير والحمار والبقر اخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الا لاجل ان الخصب في التلول فعل في ابدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها واشكالها ما شاء »

الا انه اي ابن خلدون وان كان قد اشبع الكلام في اثر الاسباب الطبيعية انما لم يذكر تأثير الاسباب الادبية كما فعل ابقراط ولا يخفى ما لهذه الاسباب من شديد الاثر في ذلك والحق يقال انه يصعب استيفاء الكلام في هذا الموضوع جملة ومبوراً ولو في مجلدات ضخمة لكثرة هذه الاسباب وامتزاجها واختلاف نتائجها بحسب ذلك مما لا يقع تحت ضبط كما اشرنا اليه في ما تقدم

فهذه الاسباب الطبيعية والادبية مع ما يعرض لها من الامتزاج والاختلاف انما تؤثر تأثيراً شديداً في العمران لشدة تأثيرها في الانسان وهذا هو السبب في عدم تساوي البشر في صفاتهم ونظاماتهم وعلومهم وصنائعهم ولغاتهم وسائر ما يتعلق بهم لعدم استواء الاسباب المؤثرة في طبائعهم واخلاقهم انما لم يكن يتمتع اصلاح احوالهم بالاسباب الادبية لما للانسان من الاقتدار بها على التأثير في الاسباب الطبيعية نفسها وجعلها اصلاح الاحوال له لان الانسان وان كان منفعلاً لهذه الاسباب بحسب طبيعتها الا انه قادر كذلك على تغييرها وتبديلها واتقاء شرها واستدراخ خيرها بما له من حدة المدارك وقوة الاستنباط . لذلك كان من الواجب عليه ان لا يغفل شأن معدّات التربية العقلية كالتعليم والنظامات السياسية وسواها لئلا يفقد بقصد الصالح منها عامة فوائد العمران ويسقط في مهاوي التهلكة والخسران

المقالة الخامسة

تاريخ الاجتماع الطبيعي

كما ارتقى الانسان في العلوم الطبيعية قلت الحاجة به الى اجهاد القوى العقلية والالتجاء الى العلوم الجدلية والتنطش الى قراءة الاقاصيص الخيالية الخرافية والتعطيلة الزعوم انها وصف حقيقي للمواطن وأصبح شأنها حقيراً وهو اليوم يحسبها من صناعات الآداب الراقية وما هي بالحقيقة الا من مختلفات الوضع المناقضة لطبع والتي غررها اليوم أشد جداً من ضرر الفلسفة القديمة ومن ضرر علم الكلام وعلم اللاهوت في المصور المظلمة لانها طلت على الاجتماع كالسيل الجارف حتى أغرقته فيها وما كان فضل فرنسا في توريثها الاجتماعية السياسية ليمادل ضررها بعد ذلك في منهبها هذا التبع وهي عماد هذه الاقاصيص اليوم

تقدم القول في مقالة « الاجتماع البشري والعمران » ان من الناس من يذهب الى ان الاجتماع نتيجة الفكرة وحدها وخصه بالانسان ومنهم من يذهب الى انه طبيعي فيه وأطلقه على الحيوان . اما الاول فقولا كثر الحكماء المتقدمين . وأما الثاني فقولا كثر الحكماء والطبيين المتأخرين وسرى مما نبسطه لك فيما يأتي اي القولين أحق وأولى ان البحث في العمران لم يكن في القديم الا من هم بغض الحكماء ولم ين على قواعد راهنة الا في هذا العصر وقريباً من هذا العهد وعماد قليل سيصير درس سننه من اول الضروريات للانسان لان ارتقاء الانسان في التمدن له نتيجتان لازمتان وقد طالما عدها الناس متناقضتين وهما نمو الحياة الشخصية ونمو الحياة الاجتماعية معاً . فقد كان الاعتقاد سابقاً ان ما ييذله الفرد في مصلحة الجمهور انما ييذله من مصلحة نفسه وبالعكس . ولم يكن يظن ان بين المصلحتين ارتباطاً شديداً ولذلك كانت شرائع البشر في القديم أشد انحرافاً لجانب الاستبداد وأقل احتراماً لجانب العدل في التعاون والاشتراك في المنفعة . ولم تجل هذه الحقيقة كما ينبغي الا في هذا العصر اي بعد ان رسخت معارف البشر في العلوم الطبيعية وانجلي لهم بها ارتباط سنة هذا الكون فأروا اتفاقاً حيث كان سوامهم يرى

انفصلاً . فأما مصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجمهور وبالعكس ارتباطاً شديداً حيث لا تتم حياة الواحد الأبحية الآخر لأنهم رأوا السنن الفاعلة في الاجتماع نفس السنن الفاعلة في الافراد . ولذلك قالوا ان الاجتماع لا تتم معرفة طبيعته وسننه الا بمعرفة طبيعة الافراد وسننها كما ان الجسم الحي لا تتم معرفة سننه الا بمعرفة سنن الكريات الحية التي يتركب منها . لان كل صفات الاجتماع في الخلق والاخلاق متصلة اليه من الافراد التي تؤلفه وكل صفات الافراد كذلك متوارثة فيهم ومستقلة اليهم من الاجتماع فاذا استقرينا هذه السنن في تاريخ نشوءها الى اصلها الطبيعي خالين من الفرض والتشيع انتقل بنا البحث في الاجتماع من دائرة الشريعة والسياسة الى دائرة علم الحياة ودخلنا في قسم من العلم الاجتماعي يمكن تسميته تاريخ الاجتماعات الطبيعي لان البحث حينئذ لا يقتصر على الحكم الوازع والاجتماعات السياسية بل يعم الاجتماعات البشرية كافة حتى الاجتماعات الحيوانية ايضاً . ولا يخفى ما يترتب على معرفة ذلك من الفوائد للعران لان الفائدة انما تحصل للعران اذا جرى الانسان فيه على سننه لا على ضدها والبحث فيه على هذه الصورة واجب ليعلم اى السياستين أولى به ألسياسة الحرة ام السياسة الاستبدادية وذلك اول ما يعول عليه اصحاب العقول الحرة لتأييد آرائهم لان أصدق الادلة التي يجب الاعتماد عليها هي من العلوم الطبيعية . ثم اذا استقرينا هذه السنن الى اصلها ايضاً انتقل البحث بنا ضرورة الى العلوم الطبيعية لان السنن الفاعلة في الكريات الحية هي نفس السنن الفاعلة في جواهرها الفردة ولذلك كان البحث في علم الاجتماع — تاج العلوم البشرية — من اعظم المباحث لمعرفة سر الحياة الكلية المستولية على عامة سنن الكون



وتشبيه العرمان بجسم حي قديم جداً . فالفلاسفة المتقدمون كافلاطون وارسطو شبهوهُ ببحوان كثير الرؤوس وفلاسفة القرن الثامن عشر كشكسبير وروسو وصفوا له اعضاء ايضاً ولكن هذه المشابهة مجازية عند اكثر المتقدمين قياسية عند اكثر فلاسفة القرن الثامن عشر وتعتبر مشابهة بالمطابقة اليوم . فان سبنسر الانكليزي لا يفرق بين

سنن الاجتماع وسنن الحياة وشغل الالاماني يصف الجسم الاجتماعي كأنه يصف حيواناً وصفاً طبيعياً فيصف الخلية الاجتماعية اى العائلة والانسجة الاجتماعية واعضاء الاجتماع وروح الاجتماع ويجري يجعل الاجتماعات بين الاحياء في كتاب له في الحيوان ويصفها وصفاً طبيعياً وغيرهم ممن هذا حذوهم في هذا العصر كثير . فلنبحث معهم لترى أولاً هل يصح تشبيه العمران بجسم حي وهل السنن الفاعلة في الجسم الحي كالحيوان هي نفس السنن الفاعلة في العمران

فالجسم الحي مركب من اعضاء مختلفة ولكل عضو من هذه الاعضاء عمل خاص ومشارك معاً اعني ان العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الآخر ويعمل له في آن واحد فان المعدة مثلاً تعمل غير ما يعمل القلب والقلب يعمل غير ما يعمل الدماغ وكل من الدماغ والقلب والمعدة لازم للآخر . وكذلك العمران فانه مركب ايضاً من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة فالزراع يعمل غير ما يعمل الصانع والصانع يعمل الوازع وكل من الوازع والصانع والزراع لازم للآخر فهو من هذا القبيل كلحي تماماً . ولا تقتصر هذه المشابهة على الصفات الخاصة فقط بل تتناول العامة ايضاً فقد قال سبنسر وقوله حق ان القوى الكبرى في حيوان تام التركيب ثلاث وهي الناذية وافعالها تهئية الغذاء وآلاتها المعدة والكبد وما يتلوها والمذبرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب وما يتلوها والموزعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرابين وما يتلوها . وان القوى الكبرى في العمران ثلاث كذلك وهي الصناعة وافعالها الاعمال للمعاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش

ولقائل يقول اذا كان هذا التركيب شرطاً لازماً للحياة فهل يلزم منه ان تكون كل آلة مركبة حية وهل الساعة حية فانها مركبة من آلات او اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة كذلك . فعلى ذلك نحيب ان الفرق بين الآلات الطبيعية الحية والصناعية غير الحية هو ان الاولى ذات اعضاء حتى في أهم اجزائها تعمل لحفظ الكل نظيرها بخلاف الثانية فان اعضاءها نفسها غير مركبة من اعضاء مختلفة نظير تلك ولا تعمل فيها نظير

فعلها اي انها لا تعمل عملها من نفسها لحفظ الكل بل بالضد من ذلك فهي تميل دائما الى ابطال هذا العمل . وهذا ما يمتاز به الحي عن غير الحي ولذلك لم تكن الساعة حية واما العمران فحي لان كل عضو منه مركب من اعضاء اخرى تعمل نظيره لحفظ الكل كما في الجسم الحي فكل حيوان مركب من حيوانات آخر أقل منه في التركيب . فان الكريات الحية التي يتألف من مجموعها جسم كل حي انما هي اشخاص حية ذات حياة خاصة بها ولها اميالها وشهواتها وامراضها كأنها افراد البشر الذين يتألف من مجموعهم جسم العمران . والحيوانات الدنيا كالفصيلة والديدان يمكن تقسيمها الى اجزاء تبقى حية بعد التقسيم كأنها مملكة تقسمت بخلاف الآلات الصناعية . ورب معترض يقول ان ذلك لا يمكن في الحيوانات العليا فنجيب ان في امكان بعض اجزاء هذه الحيوانات ان يبقى حيا بعد موت الحيوان كالأظفار والشعر ويمكن فصلها كذلك من حيوان والصاقها بحيوان آخر حيث تبقى حية ^(١) فهي اشبه شيء بأمة اضيفت الى أخرى واذا كانت الحيوانات العليا لا تستطيع ان تبقى حية بعد تقطيعها الى حدة معلوم فذلك لان اختصاص الاعمال فيها اتم منه في الحيوانات السافلة فهي أشبه شيء باجتماعات بعض انواع الحيوان التامة الانتظام كالنمل فان المتعود منها على تحصيل قوته بواسطة غيره يموت اذا فصل عن البعض الآخر



وهذا التعاون بين اعضاء الاجسام الحية بحيث ان الواحد يعمل للآخر وللجميع في آن واحد جرّ معه قضيتين فاسدتين في حقيقة الحياة احدهما تتعلق بالسبب والاخرى بالغاية . اما الاولى فيفرض فيها ان كل جزء من الاجزاء الحية له فوق ميله الخاص قوة خاصة تتولى امره بالنسبة الى نفسه والى غيره وهي القوة الحيوية التي عضدها رجال

(١) من غريب ما يزعم بعضهم ان الارجل المنزوعة من حيوان واللصقة بحيوان آخر لا تزال تخص المنزوعة منه ولها تحيا بقوته الحيوية . قال والدليل على ذلك هو ان لون الشعر لا يتغير كأنه لا يمكن تحليل ذلك بكون الشعر نفسه باستقلال الاعضاء التي تغذيه فيه مع استمدادها الغذاء والحياة من الحيوان الثاني ويترب على زعمه هذا ان الحيوان يمكن اقسامه بدون اقسام حياته وهو من اغرب الاسرار

من اهل المكنة في العلم . والحق انه لا يفهم بماذا تختلف هذه القوة عن سواها من القوى التي توهموا وجودها قديماً ككراهة الطبيعة للفراغ والقوة النابضة للشرابين وغيرها من القوى التي عدّها القدماء انبيات مجردة مستقلة حتى ابان العلم فساد ذلك اذ لم ير فيها سوى اسباب طبيعية متصلة ومرتبطة بعضها ببعض . واما الثانية وهي الغاية فيفرض فيها على ما يظهر ان كل جزء من الحي موفّق للكل بقوة عاقلة كائنة فيه او خارجة عنه . فان كان هذا هو المفروض حقيقة فالعلم اليوم في غنى عنه لا مكان لتعليل المطلوب بأوفى بيان على وجه لا يقتضي هذا الفرض فان هذا التعاون الذي فيه يخدم الواحد الكل والكل الواحد انما هو نتيجة تفاعل متبادل بين الاعضاء فالعضو الواحد لا يهتم بغيره ولا يشتغل الاّ بخير نفسه وانما خيره مرتبط بخير غيره . والامر بالحقيقة كذلك فانه لا شيء اطعم من الكريات الحية التي تولّف الجسم الحي اذ كل كربة تطلب كل شيء لنفسها وتجذب اليها والحياة ليست سوى اكتفاء هذه المطامع . فالناظر الى النتيجة لا جرم يظن في اول الامر ان كل كربة انما اشتغلت لسواها وهي في الواقع لم تشتغل الاّ لنفسها بدون غاية سوى حفظ ذاتها وهذا كائن ضرورة بحفظ سواها ومرتبطة به ارتباطاً ميكانيكياً . ولذلك قال بعض الباحثين في العمران انه ينبغي لكل واحد من البشر ان يشتغل لخير نفسه فيشتغل لخير الكل . ولا يخفى ان تنازع البقاء كما هو مذهب دارون يجعل بين هذه الكريات التي هي بالحقيقة حيوانات صغيرة تنازعا شديداً تكون نتيجة ملاشاة البعض المديم المناسبة وحفظ البعض الآخر المناسب لحياة الكل بالانتخاب الطبيعي . فتأخذ الكريات بذلك صوراً معلومة وتولّف حيواناً معلوماً وهكذا على مرّ العصور المتطاولة تتكون الانواع الثابتة الى حدّ محدود والمتغيرة في الاجيال البعيدة فان الطبيعة ليس فيها شيء ثابت ثبوتاً مطلقاً بل كل شيء فيها في حال المصير فالتعاون بين اعضاء الاحياء ليس قصداً وانما هو نتيجة لازمة فقط



واذا تقرّر ذلك فلننتقل من اجتماعات الكريات الحية الصغيرة التي تولّف الاحياء الكبيرة الى اجتماعات البشر التي تولّف الامم فاننا نجد في الاجتماع البشري نفس ما في

كل حي اعني الميل الباطن لحفظ الذات والتفاعل الظاهر مع الاشياء التي من خارج بما في ذلك من تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي واذا كان ذلك حياة فالعمران حي ايضاً كالنبات والحيوان بل حياته أتم من حياتهما لانه اذا كان هناك قصد فانما هو في الاجتماع البشري لان هذا الاجتماع يدرك حاجته ويقصد غايته الخاصة والعامة معاً وهذا الفرق نسبي ايضاً كارتقاء سلسلة الاحياء بعضها عن بعض

وقد اعترض بعضهم على هذه المشابهة بين جسم الحي وجسم العمران فقال ان اعضاء الحي متصلة واعضاء العمران منفصلة وهو اعتراض ساقط وقول منقوض لان اجزاء العمران غير منفصلة حقيقة والألزم القول بالفراغ كما ان اجزاء الحي غير متصلة كذلك واذا كان بينهما فرق في ذلك فانما هو في بعد المسافات بين الاجزاء فقط كالفرق بين جسميهما فان جسم العمران اكبر من جسم الحيوان وهو فرق نسبي لا يصح ان يكون اعتراضاً . واعترض غيره اعتراضاً يتعلق بالزمان فقال ان الحي يولد ويحيا ويموت بعد ان يمر باسنان معلومة والعمران وان كان يولد ويحيا كذلك الا انه في زعمه لا يموت وهو غير صحيح ايضاً لان الامم والشعوب التي تتولد في العمران تهرم وتموت ايضاً والفرق بين العمران والحي في طول العمر فقط والعمران لم يتجاوز بعد سن الصبا وربما كان المستقبل يهدد العمران كله بالهرم والموت ككل حي سواء إما لتغلب نوع آخر من الانواع الحية عليه وإما لتغير احوال ارضه التي هي مهد حياته فيعرض لها من القواصر الطبيعية ما يفرق اتصالها ويبدد اجزاءها ويلاشي نظامها فيموت الاجتماع البشري ضرورة . على ان الارض ككل شيء سواها لا تلاشي حقيقة وانما تغلب احوالها وتبدل اشكالها وتفرق اجزاؤها في محيط هذا الكون وتحوّل من حال الى حال وتبعث من صورة الى صورة متحركة على الدوام ومتقلة في الزمان والمكان وهذا هو بالحقيقة الموت

وما الموت الا عودة بعد بداية	وما البعث الا بداية بعد عودة
ولكنه موت لنا عن وجودنا	وبعث لأشياء لنا لا لجملة
سكون لمن قدم مات منا وراحة	وان لم يكن فيه له من سكونية

فترى مما تقدم ان المشابهة في الخلق بين العمران والحی تامة من كل الوجوه وفي ما يأتي سنبحث عن هذه المشابهة بينهما في الاخلاق



واذا انتقلنا من النظر الى الكلّيات الكبرى المتعلقة بالعالم اجمع والمترتبة على تشبيه الاجتماع بالحی كما مرّ آنفاً الى النظر في ما اختص منها بالاجتماعات البشرية كان لنا من ذلك نتائج تختص بالسياسة ذات بال تقتصر منها في هذا المقام على ما هو أهمّ

اولاً ان ارتباط اعضاء الجسم الاجتماعي بعضها ببعض على الصورة التي ذكرنا يجعل التأثير الواقع على العضو الواحد يمتدّ ضرورةً الى سائر الاعضاء . فالشارع كالطبيب يلزمه ان يكون حكيماً في مداواة علل الجسم الاجتماعي لئلاّ يداوي علّةً في عضو فيحدث علّة في عضو آخر . فالالتفات الى طائفة من الناس وترك ما سواها ينجي الملتفت اليها جداً ويضعف المتروكة فتفقد النسبة بين اعضاء الاجتماع اذ تصبح فيه على طرفي الضعف والقوة فيختلّ نظامه ويأول به الحال الى السقوط والاضحلال



ثانياً اذا كانت الاجتماعات اجساماً طبيعية لا صناعية وكان الاجتماع نفسه حاصلاً لزوماً لا عارضاً أفلا يُستدلّ من ذلك على ما يكون من سوء العقبى للاصلاحات العنيفة الجارية على غير المجرى الطبيعي اي الناشئة عن غير تغیر الارادة العامة تغیراً ذاتياً . فالحی لا يستطيع ان يمتثل تغیراً مهماً ما لم يكن هذا التغیر موافقاً لأموال اعضاءه غير مختلف عن طبيعته ولقد تقدّم ان الاجتماع حی متراضٍ اعني ان الذي يجمع اعضاءه ويربطها بعضها ببعض ليس الملاصقة البسيطة وانما هو الرابط الاراديّ . وهو بمثابة الرابط الميكانيكيّ لانه يوجد رابط عقلي بين اهل المدينة وهو بمثابة الرابط الميكانيكي بين الكريات ولذلك وجب ان يكون التغیر الحاصل في الاجتماع موافقاً لارادة الجمهور او للقسم الاكبر منه . والاصلاح الملقى على عاتق الاجتماع ولا يقصد منه الاّ خير البعض او هو ناشئ عن ارادة البعض فقط انما هو اصلاح صناعي او قسري اي غير طبيعي حیّ به قبل وقته ويخشى من عواقبه . وبالنسبة من ذلك كل اصلاح جزئي او

كلي ناشيء عن التراضي والاتفاق بين كثيرين او بين الكل فهو اصلاح طبيعي قانوني . والفرق بين الطبيعي والصناعي ظاهر كالصبح . الاول موافق للطبيعة والثاني مضاد لها . وبما ان الانسان طبيعي في الاصل كان كل ما يسير به على غير المجرى الطبيعي غير نافع له بل مضرًا به فسياسة الاجتماعات العاقلة ينبغي ان تكون طبيعية لكي تكون نافعة اي يلزم ان تكون موافقة لارادة الجمهور وليلهي والا لم تحمد عائدتها لان الامر الجاري مجرى لا يوافق ارادة اعضاء الاجتماع انما هو جارٍ على غير وفق الارادة الحيوية التي هي الرابط للجسم السياسي

ثم لما كان اجماع الارادات في العمران على امر غير ممكن غالبًا وكان القسم الاكبر يبقى معه عدد قليل من الناس غير موافق له كان لنا من ذلك قاعدة ثالثة في السياسة وهي ضرورة التدرج في الانتقال من حال الى حال بحيث لا تكون المباشرة بين القديم والحديث والحاضر والمستقبل كلية والا اعترض الانتقال موانع لا تقاوم ولا تحمد معها النتيجة . وتستند الحاجة الى هذا التدرج كلما كانت النتائج الجامعة للارادات السابقة كالموائد والاعتقادات اشد وأرسخ . والحاصل انه يصعب جدًا في جسم كبير كالحيوان الاجتماعي تغيير الجسم كله دفعة واحدة للزوم استعداده الى الاحوال الجديدة بتوفيق لها شيئًا فشيئًا . قال سبنسر ان الضرر الذي يلحق بالاجتماع من نزع شرائع القديمة قبل احكام شرائع الجديدة حتى تصلح لان تقوم مقامها ليس اقل من الضرر الذي يلحق بحيوان من جنس ما يعيش بين الماء واليابسة اذا نزع خياشيمه قبل ان تكمل رئاه . فالنتيجة الكبرى المتحصلة من فيسيولوجيا الاجتماعات انما هي تفضيل الشوء على الثورة . واعظم وسائل الارتقاء بالشوء انما هو الاتفاق الذي لا يقرر شيئًا الا تدريجًا وبعد ان يتم التراضي عليه

ولا ينبغي ان يفهم من ذلك ان الثورات مضرّة في جميع الاحوال كما يزعم بعض المؤرخين لانه توجد احوال خاصة لا يمكن تخلص الجسم المتواني والمرضى فيها الا

ثورة فيسيولوجية كبحران مثلاً أو نوبة حتى تخلصه من خطر الموت . وهذا يدلنا على ان الاجتماع لا بد له في بعض الاحوال من ثورة تخلصه من خطر الهلاك . ويلمح ان تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن كلها اتفاق خفي بين اعضائه موافقة لامباله اي ان تكون عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والا انقلبت شراً عليه . والثورة التي تكون كذلك هي ثورة لا تغلب ولا تقاوم لانها ليست من افعال الاحاد بل هي عبارة عن تخلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه تخلصاً طبيعياً قانونياً ^(١) لانها ليست بالحقيقة سوى فعل سريع لقوى متجمعة تجمعا بطيئاً في زمن طويل اشبه شيء بالزوبعة التي تجمع في سنين كثيرة ولا تثور الا في يوم واحد ثم تهجج ولذلك يقال ان النشوء هو القاعدة واما الثورة فامر شاذ ردي غالباً وان كان قانونياً نافعا احياناً



فيري مما تقدم ان كلاً من نصراء الثورة والمحافظين يجد في التاريخ الطبيعي سنداً لمذهبه واتفاقهما انما هو في الحرية والحرية نتيجة لازمة متحصلة للسياسة من علم الحياة . فاهل الاستبداد الذين يعتمدون على العنف والقوة لا شك انهم يجهلون الصفة الحية للاجتماع ويعدون كآلة مصطنعة ويتصورون النظام الاجتماعي كنظام المادي غير الحي . ففي الآلات المصطنعة غير الحية لا تجتمع الاجزاء بعضها الى بعض الا بقوة خارجية عنها غير مستقرة فيها تحفظها ساكنة او تحركها . والوحدة الظاهرة فيها آتية من الصانع وهي في الصورة فقط لا في الحقيقة فان طبيعة العناصر فيها لم تتغير فالتحشيد يبقى خشباً والحديد حديداً والاجزاء المختلفة لا تتم العمل المطلوب الا قهراً بسلسلة افعال قهرية وكل جزء ميال من نفسه لابطال فعل الآخر واذا كان بينها تعاون او ظاهر اتفاق فانما هو على ضد طبيعتها ولا يدوم . وكل نظام ملقى قهراً غير مرتضى به لا بد من ان يختل وهو تضام الاشياء المادية لا الحية . والسلام الظاهر والحالة هذه أشبه شيء بسلام

(١) كالثورة الفرنسية فانه لم يصد ما شيء ولم يقر عليها شيء مع انه اعترضها موانع داخلية وخارجية قوية جداً وما ذلك الا لانها كانت موافقة لئيل الشعب كله وناشئة عن استعداد بخلاف الثورة المصرية المرائية فان نارها ما لبثت ان سبت حتى انطفأت ولم يبق منها في الامة جذوة كالنار في المشيم لانها لم تكن ناشئة عن استعداد الامة بل من مطامع بعض ذوي المناصب

مدينة دخلها العدو فإنه لا يدوم الا ما دامت القوة المثقلة على حركاتها المتحدة لانفاسها متغلبة عليها . فالرابط الذي يربط الاجتماع لا يتم نظاماً بالاستبداد والقوة وان قام بهما احياناً لانهما ليسا من جوهر طبيعته بل هما دليل على عدم كماله . وفي الجملة فحينما يتبدى الاستبداد والقوة ينتهي الاجتماع الحقيقي بين البشر . والاجتماع البشري لا يقوم حقيقة الا بالشوق الغريزي ولا يكل الا بالتراضي والاتفاق فبذلك يتم النظام الاجتماعي لا بسواه اذ تكون القوة المدبرة مستقرة في كل عضو من اعضائه بحيث يشتغل لنفسه ولسواه معاً من ذاته وفي آن واحد



ولننظر الآن الى سياسة الطبيعة في الاحياء وتقابلها بسياسة الاجتماعات لعلنا نستنتج فوائد سياسية من ذلك . فاعلم ان في الحي كما في الجسم الاجتماعي افعالاً متروكة لهدة كل شخص وغيرها متروكة لهدة مراكز ثانوية او جمعيات خصوصية وغيرها لهدة المركز الاعظم القائم مقام الجسم كله . فاولاً الحي يترك كل كربة من الكريات المؤلف منها تشتغل لذاتها تحت سلطان القوى المستقرة فيها . والعامل في هذه القوى مرجعاً كما تقدم الى امرين المنفعة والشوق فكل كربة تحس بنفسها وبجارتها بالشوق الكائن فيها اليها بحيث تصير مصلحة جارتها عندها كصلحتها . ثم تجتمع الكريات وتتألف باشتراك المنفعة والشوق وتبادل الغذاء والحركات وذلك أشبه شيء بالمبادلة التي تقع بين البشر والحاصلة فيهم بدون تداخل القوة المركزية اي الحكومة بناء على ما فيهم من الاميال وما لهم من المنافع المشتركة لعلة اخرى

ثانياً يوجد في الحي مراكز ثانوية واعضاء مهمة على جانب من الاستقلال اشبه بممالك صغيرة في مملكة كبيرة وهي الاحشاء المختصة بها اعداد الغذاء وتطهيره وتوزيعه اعني بها المعدة والرئتين والقلب . فهذه الاحشاء غير خاضعة للعضو المدبر اعني الدماغ فالمعدة تهضم الطعام والقلب يوزع الدم في البدن والرئتان تطهرانه بتعريضه للهواء اراد الدماغ ام لم يرد . وقد يبلغ استقلال اعضاء التغذية مبلغاً عظيماً جداً فالامعاء لا تزال تفعل افعالها الخاصة ولو قطعت الاعصاب التي توصلها بالدماغ . والقلب لا يزال يضرب بعد

نزع من الجسم ولا شيئاً في الحيوانات ذوات الدم البارد وفي بعض الحيوانات البتونة ايضاً كدب القطب . والكبد لا تزال تفرز الصفراء وتولد السكر بعد ذبح الحيوان ونزف دمه . وقد يكون تركيب بعض الحيوانات السافلة المائية مختلطاً جداً بحيث تشتمل اجزاؤها بعضها لبعض وكلها للكل ومع ذلك فليس لها جهاز عصبي . فهي هنا في غنى عن سلطان مركزي او قوة خارجة عنها تتولى تديرها وانما تفعل ذلك من نفسها بناء على ما في العناصر التي تولفها من الافعال الذاتية اي من قابلية الحس والتهيج ومن ثم من الاميال المنفعية والاشتياقية الموجبة لحصول المبادلة بينها كما يحصل التعاون بين البشر . فوظائف التغذية والنمو تتم بدون توسط الدماغ كما ترى

واما وظيفة الدماغ فقاصرة على الاعضاء الظاهرة اي اعضاء النسبة التي بها يعرف الحي الاشياء التي من خارج فيأمرها باخذ اللازم منها واتقاء الضار اذ يكون له عليها سلطان يتصرف فيها بحسب مقتضى الحال . فوجود جهاز عصبي والحالة هذه له مركز كاللدماغ مقتدر على ان يجعل الاعضاء تخضع له خضوعاً تاماً لازم لسلامة الحي . على ان الجهاز العصبي نفسه لا يكون دائماً خاضعاً لسلطان المركز اعني الدماغ بل للمراكز العصبية الثانوية . ففي الحشرات كل عقدة تحرك الاطراف المتعلقة بها لمقاومة ما يمانعها . واذا دم الانسان امره يخشى منه على عيائه فان جفنيه ينطبقان للحال بحركة ذاتية اي قبل ان يكون له فرصة للتفكير بالخطر وبكيفية اتقائه . واذا عثر الى الامام فانه يقنعنسس الى الوراء بحركة ذاتية لمقاومة العثرة او انه يستلقي الارض بيديه خوفاً من السقوط على الاعضاء الرئيسة ليتقي بذلك شرراً اكبر بشراً اصغر . فترى مما تقدم ان اعضاء النسبة الظاهرة نفسها تستغني في احوال خصوصية عن انتظار حكم الدماغ وتستقل عنه كما تستقل الاعضاء الباطنة



قال الذين يقيمون حداً فاصلاً بين الاجتماع والجسم الحي ان افعال اعضاء الاجتماع متبايرة في نوعها لافعال اعضاء الجسم الحي اعني ان افعال اعضاء الحي ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً فيزيولوجياً واما افعال الاجتماع فانها ترتبط بعضها ببعض بالحس والافكار

اي برابط عقلي . وقال غيرهم ان افعال الفريقين من نوع واحد لان الكريات الحية التي هي اجزاء الحي اي اعضاؤه ليست عديدة الحس بل بالضد من ذلك هي ذات حس ايضاً اذ الحس الذي في الجسم الحي كله انما هو هذا الحس عينه في حال التزايد والتجمع . فارتباط اعضاء الحي بعضها ببعض ليس بالحصر فيزيولوجياً بل فيه شيء من العقل ايضاً وان يكن في حالة ذنينة جداً ولذا يعتبر ارتباطاً عقلياً . وهذا ما يجعل علم الاجتماع المعروف بالسيولوجيا داخلاً في علم الحياة المعروف بالبيولوجيا . وليس في هذا القول شيء من الغلو والتكلف لان الحدود المميزة بين العلوم المختلفة كالحدود المميزة بين مواليد الطبيعة صناعية لا طبيعية

* *

واذا تأملنا حقيقة الرابط الذي يربط كل اجتماع معاً سواء كان هذا الاجتماع بين كريات الجسم الحي او بين افراد الحيوانات او البشر وجدنا انه واحد في الاصل فالرابط بين الكريات الحية التي يتألف الجسم الحي منها ليس الا الميل البسيط المغروس في كل شيء لحفظ ذاته أولاً لان كل شيء في الاصل يدور حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه اليه وذلك هو محبة الذات المنفردة . ثم يتحول هذا الميل في الكريات الى ميل مركب لحفظ ذاتها بحفظ ذات سواها لان اجتماعها بعضها مع بعض اجتماعاً بسيطاً في اول الامر لا بد من ان يؤثر في طبيعتها تأثيراً مهماً بحيث تصبح حياة بعضها متوقفة ضرورة على حياة البعض الآخر . فالكريّة حينئذ لا تميل لحفظ ذاتها فقط بل لحفظ علاقتها مع سواها ايضاً لأن كل شيء في الفرع يدور حول مركز غيره بالشوق الحاصل فيه الى مركز نفسه . وذلك هو محبة الذات المشتركة ثم يتحول هذه المحبة المشتركة العمياء الى محبة مشتركة عاقلة في اعضاء الاجتماعات التي لها قوة الادراك لا الحس والتهيج فقط

* *

واختلفوا في سبب هذه المحبة العاقلة بين الحيوانات المدركة فذهب قوم وفي مقدمتهم سينوزا الى انها مسببة عن اللذة الحاصلة لهذه الحيوانات من مشاهدة صورها في امثالها بناء على ان اللذة قائمة بسهولة الفعل قالوا وأسهل الافعال على الحيوان استحضار صورة على صورته كما هو مقرر من ان الاستحضار لا يتم بواسطة الدماغ وحده بل بواسطة

كل الجهاز العصبي . ولهذا كان الحيوان المدرك اذا أراد ان يتصور هيئة او ان يتذكر صوتاً يشرع في ان يقلد تلك الهيئة ويحاكي ذلك الصوت ولا ريب ان الحركات والهيئات والاصوات المتعود عليها هي اسهل عليه من سواها مما لم يتعوده . وكلما كانت عنه ابعد كان استحضارها عليه اصعب فيولد فيه الكراهة لها ولذلك كان القرد يرتعب جداً من رؤية الحرباء . فاذا تكررت هذه اللذة اشتد الشوق لتجديدها حتى ينقلب الشوق مودةً وتصبح المودة فيزيولوجية بعد ان كانت عقلية . فتنتقل بالوراثة وتؤثر في الاعضاء بحيث يصير الاجتماع معها ميلاً غريزياً فيولد الحيوان المدرك وصورة امثاله منطبعة على دماغه كما يولد الطائر وصورة العش منطبعة على دماغه ويشد هذا الميل بالانتخاب الطبيعي حتى يحصل الاجتماع اخيراً بالسليقة الغريزية



وذهب غيرهم وفي مقدمتهم دارون الى ان هذه المحبة سببها المنفعة ورد عليهم اصحاب القول الاول بأنه مسلم ان الحي لا يحفظ صفة ان لم يكن له منفعة منها ولكن قد يحدث أولاً ان تنشأ هذه الصفات عن اسباب غير المنفعة . فان الطائر المعروف بالابتر (Manchots) مثلاً اذ يكون على الارض يصطف بحسب سنه الصغار في جانب والكبار في جانب والاناث في جانب وتطرد كل فئة الفئة الأخرى عنها والظاهر ان ذلك حاصل فيه عن لذة اجتماع المثل بمثله لا عن سبب آخر . وثانياً ان تكون الصفة النافعة في الاحوال العامة مضرّة في بعض الاحوال الخاصة فتعشيش بعض انواع الطيور مثلاً بالقرب من مساكن البشر غير مفيد له وكذلك اجتماع الببغاء وصراخها حول ما يقتل منها غير مفيد لها وقس عليه . فالميل الاجتماعي هنا لم ينم بالنظر الى منفعة لانه قد يبقى هو ولا تبقى منفعة وانما بالنظر الى اللذة الحاصلة للمثل من مثله واذا دققنا النظر نرى ان اللذة والمنفعة مرجعها الى الموافقة بالمطابقة . والموافقة بالمطابقة اعم فقد تكون اللذة وقد تكون المنفعة وقد تكون سواهما . وهذه الموافقة لا تكون لجميع الاحوال بل لغالبها والصفات المكتسبة عنها ترسخ حتى يعرض لها على مر الزمان ما يغلبها ويحوّلها عن حالها . ولذلك كانت الصفات المسماة غريزية او بديهية تبقى زماناً طويلاً ولو

زالت المنفعة كما في المثال المتقدم ذكره

ولنعمد الى ما نحن بصددہ فقول قد ظهر ان المشابهة بين جسم الاجتماع والجسم الحي من حيث ارتباط اعضاء كل منهما ببعض هي مشابهة تامة لان الرابط الذي يربط كلاهما هو واحد في الأصل وهو الشوق الاعمى الحاصل في المثل الى مثله ثم يعقب ذلك في الاجتماع الحيواني تقسيم الاعمال والتعاون وذلك شبيهة ايضا باختصاص الوظائف في الجسم الحي . ولا ينبغي ان اختصاص الوظائف في الجسم الحي كلما زاد معه خضوع الاعضاء بعضها لبعض حتى يختص السلطان الاعظم بواحد منها (او باكثر من واحد ولكن بمقام الواحد) الى ان تصير حياة هذا الواحد بمقام الكل كالدماع في الجسم الحي المرتقي وهذا موجود في الاجتماع الحيواني ايضا فان الحيوانات المهاجرة والصفيفة الجلد والقرود يكون لكل جماعة منها رؤساء تسود على الكل كما يسود الدماغ في الحي على سائر اعضاء البدن ثم يقوى سلطان هذا الرئيس حتى يصبح موضوع اعتناء الكل . ويتضح ذلك في جسم الاجتماع الحيواني اكثر مما في جسم الحي نفسه لان اعضاء جسم الاجتماع الحيواني يكون في تعاونها وخضوعها من الادراك والاختبار ما لا يكون في اعضاء الجسم الحي . فالرئيس في الاجتماع الحيواني كثيراً ما يستقر الى اتباعه بالتقليد وهو غير ذاهل عما له عندها من رفيع المقام وما عليه لها من المسؤولية ايضا فقد حكى برهم ان اناث القرود يجتمعن حول القرد الشيخ وينذلن العناية في تفتيته من القمل فيطيب نفساً بذلك ولكن لا تأخذ غفلة عن مصلحة الجمهور فهو دائماً يقظان يحيل عينه من مكان الى مكان ويصعد من وقت الى آخر الى رأس شجرة عالية ليستكشف ما في الجهات المجاورة ثم يخبر سائر القرود بنتيجة استكشافه سليمة كانت او غير سليمة باصوات خصوصية مفهومة عندها . وهذه الافعال التي تربط افراد الاجتماع الحيواني وهي تقسيم الاعمال واختيار العمال هي الرابطة لافراد الاجتماع البشري ايضا وهذا يدلنا على ان في الحيوان جرثومة ما هو نام جداً في الانسان كما ان في الكريات الحية نفسها جرثومة ما هو نام جداً في الحيوان



فالاتحاد الحيواني هو جسم حي تتعاون اجزائه كلها كما يقول ابقراط وتؤلف كلاً حياً يتعاون نارة في اعمال مشتركة كتعاون القنديل في بناء بيوتيه وبعض انواع الطير في بناء اعشاشه ونارة في اعمال خاصة مما يدل على محبة حقيقية بين اعضائه كمعاونة القروء بعضها بعضاً لنزع الشوك من جلدها واجتماعها على حجر كبير لكي تقلبه وانتصار بعضها لبعض لدفع نازلة ولو كان في ذلك خطر على حياة المتصور . وقد تبلغ هذه المحبة فيه الى حد الاخلاص الشديد الذي هو من اخص صفات البشرية وأرفعها شأنًا فقد ذكر برهم ما ثبت ذلك في القروء قال « بينا انا واقف سمعت فوق رأسي صراخ قرد فنظرت واذا قرد صغير على شجرة قد تركته امه وهربت مذعورة فصعد اليه احد اتباعي فلما أبصره القرد صرخ صراخاً شديداً فللحال جاوبته امه وارتدت لتأخذه فصرخ حينئذ صرخة ثانية خصوصية جاوبته امه عليها بصرخة خصوصية كذلك فرماها احد الواقفين بالرصاص فانجرحت وولت هاربة لكن صراخ ابنها لم يدعها تبتعد كثيراً حتى رجعت اليه فرميت ثانية بالرصاص فأخطت ولكن ذلك لم يمنحها من ان تثب الى الغصن بعد عثاء عظيم فلما وصلت الى ولدها اسرعت فوضته على ظهرها واوشكت ان تبتمد به واذا برصاصة ثالثة أطلقت عليها رغماً عن ممانعتي فكانت القاضية ومع ذلك فلم ترم بولدها الى الارض بل ضمته الى صدرها وهي تجود بالروح حتى قضت نحبها وهي تحاول ان تهرب به . » وقال ايضاً « ان قرداً شيخاً هجم على الكلاب هجمة الاسود لكي يخلص قرداً صغيراً من بين انيابها وما ارتد عنها حتى رجع به وقد حمله على منكبيه . » فلا شك ان المبدأ الباعث على هذه الافعال يقرب جداً من مبدأ اخلاق الانسان لا نقول في انسان مثل ارسطو ونيوتن مثلاً بل في متوحش او طفل صغير ثم يتحول هذا المبدأ من الشوق الاعمى في الكريات الحية الى بديهيات الحيوان الى معقولات الانسان حتى يكتمل في الاجتماع البشري فيصير الشوق محبةً والمحبة اخاء والاخاء تعاوناً والتعاون عدلاً وتعيين الوظائف الرفيعة وانتخاب الرجال لها حكومة فتكتمل حياة الاجتماع العقلية كما تكتمل ايضاً حياته الفيزيولوجية



على ان سبنسر الفيلسوف الانكليزي لا يرى هذا الكمال في حياة الاجتماع الفيزيولوجية لانه يقول ان في الحيوان جهازاً عصبياً هو مركز الاعمال العقلية وأما في العمران فليس يوجد ما يشبه ذلك . وردّ عليه بعضهم بقوله بل ذلك موجود ايضاً فان ادمغة الامة بمثابة الدماغ . وان العواطف والحواس والنطق وسائر العلامات والكتابة والتلغراف وكل وسائل الاتصال بمثابة الاعصاب التي تنقل الحس وتوصل الحركة الى كل اجزاء البدن . وان العيال بمثابة العقد العصبية التي هي عبارة عن ادمغة صغيرة يجتمع الحس فيها . ويقوى . والمدن بمثابة الفقرات والعاصمة من المدن بمثابة الرأس الذي هو فقرة عظمت حتى سادت على سواها . والعلماء والحكماء وكل الذين يرشدون الامة هم بمثابة الكريات المرتقية في الدماغ الذي هو نفسه لا يزيد عن عقدة عصبية عظمت على سواها كما عظم الرأس على سائر الفقرات . فان كان اشتراك كل اعضاء العمران بالفكرة يجعل العمران ارفع جداً من سائر الاحياء فهذا الارتفاع لا يجوز ان يكون فرقاً جوهرياً كفرق الاحياء نفسها عما هو دونها . وعليه في الجسم الاجتماعي جهاز عصبي لوظائف النسبة كما فيه جهاز دوري وجهاز غذائي فهو حي تام لا ينقصه شيء فيزيولوجياً

لولا الهوى وبديع الشوق يهديه	ما صحّ في الكون معنى من معانيه
ولا سرى النجم في العلياء وانتظمت	له المواقع تقصيه وتُنديه
ولا استقامت حياة في الوجود ولا	تمّ الوجود ولا تمت مبانيه
شوق تكامل من أدنى الوجود الى	أعلى فاعلى الى أعلى أعالیه
حتى تناهى وقلب المرء ثلبيته	نار من الحب يُذكيها وتُذكيه
نار من الشوق في قلب المشوق توت	تذكو فيصلى ويفذيها فتفتيه
ما زال والنار تذكو في جوانبه	حتى تقانى بما قد كان يحويه



قال احد الحكماء اذا كان الانسان الكامل دليلاً على الجنين فبالاولى ان يكون الاجتماع دليلاً على سائر الموجودات التي تؤلف الطبيعة وعلى السن الفاعلة فيها حتى

طبيعتها ايضاً لان الاجتماع اولى باسم العالم الاصغر من الانسان نفسه (١)
قد رأينا في ما مر أن كل اجتماع انما هو تعاون يتبدى طبيعياً بحجة الذات والشوق
وينتهي عقلياً باتفاق الارادات او التراضي في البشر . لكن ما هي حجة الذات أو ما هو
الشوق نفسه سوى اول افعال الارادة فهذه بعد ان تريد ذاتها وحدها تريد سواها من
الارادات الاخر لها ثم تريده لنفسه ايضاً لان كل شيء كما قلنا يدور في الاصل حول
مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه اليه وفي الفرع حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه الى
مركز سواه فالارادة على اختلاف انواعها جاهلة ام عالمة ذاتية ام مشتركة هي اس كل
اجتماع وجوهر كل حي وبهذا الاعتبار يقسم العالم الى ثلاث رتب اولاً الرتبة التي
تكون الارادات فيها عمياء ذاتية كل واحدة منها تشتغل لنفسها كأن لا يوجد سواها
وهي الجماد . ثانياً الرتبة التي تتبدى الارادات فيها ان يحس بعضها ببعض ويجتمع
بعضها ببعض لكن على سبيل الشوق البسيط فقط وهي النبات الحيوان . ثالثاً الرتبة التي
تصير الارادات فيها عاقلة تدرك نفسها ويعرف بعضها بعضاً ويجتمع بعضها ببعض على
سبيل الاتفاق والتراضي وهي الاجتماع البشري . فالاجتماع البشري هو الجدير بان
يسمى حيواناً مريداً متراضياً وهنا مكان الوفاق بين مذهب الطبيعيين في الحيوان الاجتماعي
ومذهب العقلين في العمران . فالواحد انما يبين اصل الاجتماع والثاني غايته والصحيح
ان الواحد لا ينبغي ان يفصل عن الآخر فتاريخ الاجتماع كله قائم بالشوق البسيط أولاً
والتراضي اخيراً باستمالة الواحد الى الآخر . ولا ريب ان ذلك تاريخ العالم اجمع .
فالافعال في الطبيعيات عمياء والسنن ثابتة وهي بالحصص كذلك في العقليات وانما اكتسبت
في هذه من القابليات ما جعل فعل الارادات التي صارت عاقلة اظهر فيها فارتباط اعضاء
الاجتماع بعضها ببعض اختياراً كارتباط اعضاء الحيوان بعضها ببعض اضطراراً



ومرجع ابط صفات الحي الى الحس والحركة وهاتان الخاصتان هما بالحصص الحياة .
والظاهر ان الحس والحركة هما ايضاً صورتان لشيء واحد احدهما باطنة والاخرى ظاهرة

فهما اشبه شيء بالمقعر^١ والمحدّب . فالحس هو الكيفية التي تتصل بالحركة بها الى مشاعرنا الباطنة والحركة انكيفية التي يتصل الحس بها الى المشاعر الظاهرة . حرك ذراعك واغضض عينيك فانك تدرك الحس لا الحركة بخلاف الناظر اليك فانه يدرك الحركة لا الحس . فالحس اذاً هو ادراكنا الحركة الحاصلة فينا والحركة هي ادراكنا الحس الحاصل في سوانا . والاصل الذي يرجع اليه الحس والحركة هو القوة او بالحري الارادة التي هي اس كل وجود . وكل ما نعلمه يحملنا على الاعتقاد بان الحس موجود في العالم حيث توجد الحركة على صور متفاوت في الوضوح والخفاء . ولا يخفى ان الفاصل بين الحيوان والنبات يعتبر اليوم صناعياً لا حقيقياً . والظاهر انه كذلك ايضاً بين النبات والجماد^(١) نعم انه لم يستطع احد ان يولد كربة حية من كربة غير حية لكن هل يستطيع احد ان يولد دقيقة من الكبريت من غير الكبريت او دقيقة من الاكسيجين من غير الاكسيجين او من مادة لا اكسيجين فيها . ام هل يلزم من ذلك الاعتقاد بيساطة الاجسام الكثيرة المسماة عناصر ومن ثم القول بخلق خاص لكل من الكبريت والاكسيجين والكربون والهيدروجين والحديد والذهب الخ وهل يلزم كذلك القول بقوة خاصة لكل دقيقة معدودة في الكيمياء بسيطة شبيهة بالقوة الحيوية . فالعلم يميل الى ضد ذلك اي الى التسليم بان الجواهر الفردة الكيماوية ليست غير قابلة الانقسام قطعاً وانما لا تقبله مع بقاء خصائصها فيها على حالها كما ان الجسم الحي لا يقبله مع بقاء خصائصه فيه . كذلك الانسان فانك لو شرطته شطرين ما بقي انساناً فهو من هذا القبيل جوهر فرد وأما من قبيل آخر فهو اجتماع



فهذه الاعتبارات تدلنا على ان الحياة موجودة في الطبيعة حيث توجد الارادة على درجات متفاوتة نارة هاجعة خفية كما في الجماد واخرى منبهة ظاهرة كما في النبات وطوراً متملكة متعارفة كما في الحيوان واخيراً متكثرة متقوية باشتراك الارادات العاقلة كما في

(١) قال توتل في مقالة نشرها المتطّف من عهد قريب ان الحد المقام بين النبات والحيوان لا وجود له . وكلما تعمقنا في درس الجمادات نرى اوجه الفرق بينها وبين الاحياء تملّ قال انسان يولد من ابوين والحيوان السائل من نظيره بالانقسام والنبات من نبات نظيره والظاهر ان ذلك كذلك في الجماد قد بين جرتر بالامتحان ان الجماد كالحلي يتولد من جماد نظيره

الاجتماعات والممالك فالحياة كاللازوت تحول من حال الى حال مرتبة من ادنى الى اعلى الى ان تبلغ أرفع مقاماتها المعروفة . ألا ترى ان الفعل المسمى طبيعياً كالحرارة والكهربائية لا يغير إلا أعم خصائص الاجسام فاذا زاد عن حدٍ معلوم تحول الى الفعل المسمى كياوياً الذي يغير تركيبها وهو هو في الحالين ولم يتغير الا في الكمية . ولو كان في امكاننا ان نفعل على ما هو أدق تركيهاً ونسلط على الاجسام حالة خصوصية من الحرارة او الكهربائية او الحركة لاستطعنا ان ننبه الحس ونوقظ الحياة او الارادة من نومها العميق . قد مر على الكون زمن كان فيه النظام الشمسي مشتملاً ولم تكن العوالم سوى دخان ومع ذلك فلا يبعد ان شرارة الحياة كانت موجودة في هذا الآتون الملهب لانه ما لبث ان برد حتى ظهرت الحياة فيه . فالذي لا يعتقد المعجزات اي الذي لا يعتقد إلا العلم لا تفرق الحياة عنده عما يسميه المادّة التي هي نفسها ليست سوى مجموع قوى او ارادات . فكل شيء في العالم حي وكل شيء فيه فرد واجتماع معاً . فعلم الحياة وعلم الاجتماع وعلم التكوين هي بالحقيقة علم واحد . والعالم نفسه مملكة عظيمة في حال التصوّر وربما يظهر فيه يوماً ما على صورة الفكر والارادة العاقلة كما ظهر فيه في الاصل على صورة حرارة او حركة او قوة

* *

على ان الحكماء والطبيعيين غير متفقين على النتيجة السياسية المتحصلة من التاريخ الطبيعي . بسبب ذلك حصل نزاع شديد بين اثنين من كبار الطبيعيين والحكماء في هذا العصر وهما هكسلي وسبنسر الانكليزيان . فهكسلي يكره جداً تشبيه الاجتماعات بالاحياء لاستخراج القواعد السياسية من ذلك لانه يزعم ان التاريخ الطبيعي لا يدل إلا على السياسة الاستبدادية . وأما سبنسر فيذهب غير مذهبه حيث يقول ان التاريخ الطبيعي يدل على السياسة الحرة ولا ينكر ان هكسلي مصيب في تنكره من التهافت على الاستقراء السريع لان علم الحياة وان كان يعلن على نوع ما هو الجسم السياسي وكيف صار الى ما هو عليه اما لا يركن اليه في معرفة ماذا يصير اليه يوماً ما . والعقل البشري ارفع من ان يتخذ الاحياء الدنيا مثلاً له وينقاد لها اقتباضاً اعمى . ومن الخطأ ايضاً الاعتماد على مشاهة ظاهرة ناقصة كما يفعل كثير من السياسيين ممن يبالغ او يخطئ في استدلالات التاريخ

الطبيعي ميين فضل الحكم الملكي بمثل النحل او فضل الحكم الجمهوري بمثل النمل . انما لا ينكر ايضاً انه لا يجب ان يُغفل ادنى شيء في هذا الوجود حيث كل شيء ذو شأن . فتشيل الجسم الاجتماعي بالحي يؤدي في نظر هكسلي الى حصر الحكومة في مركز معين حصراً شديداً حيث يقول « ان الدماغ يفكر للجسم كله ويشغل له ويحكم فيه حكماً مستبداً والا لكان يحق لكل عضلة في اقتباضاتها ولكل غدة في مفرزاتها ولكل كرية في افعالها ان ترفض كل حق للجهاز العصبي في ذلك بشرط ان لا تضر بسواها وكيف تكون حالة الجسم يا ترى لو كان كل عضو من اعضائه يفعل افعاله من نفسه . » ورداً عليه سبنسر ان الاعضاء قسمان ظاهرة وباطنة فاذا كانت القوة المنحصرة لازمة للظاهرة فليس الامر كذلك في الباطنة فهي تحتاج فقط لما فيها من القوة الغريزية ولا تطلب من الغذاء الا المقدار اللازم لتعويض به عن العمل الذي تعمله وهذا هو العدل في الاحياء . والامر كذلك في العمران فان الناس المحاربين في الخارج والذين هم بمثابة اعضاء النسبة الظاهرة في الحي يحتاجون ضرورة الى حكومة مركزية تدبر امهم . وأما الذين في الداخل القائمون بحركة التجارة والصناعة والذين هم بمثابة اعضاء التغذية والدورة الباطنة فيالضد من ذلك يحتاجون الى الحرية فاحتياج الاجتماع الى حكومة حرة او مستبدة يختلف باختلاف كونه مؤلفاً من امة متعلقة على الصناعة او الحروب . فعلم الحياة لا يدل على الفوضى كما يتوهم بعضهم كما انه لا يدل على الاستبداد



وتداخل الحكومة ضروري في كل الاحوال انما هذا التداخل كما يقول سبنسر نوعان موجب وسالب فال موجب كما لو زرعت الحكومة ارضي أو اكرهتني على اتساع طريقة معلومة في الزراعة والسالب كما لو اقتصر فقط على ردعي عن التدي على ارض جاري والحاق الضرر به . وهذا النوع الاخير من التداخل هو اللازم في الجسم الاجتماعي فتتضمن الحكومة تنفيذ المعاهدات اي العبل وهكذا تكون قد تمت الوظيفة المطلوبة منها قال . الاقتصادي هو يتلي « ان اهم الافعال التي تقوم بها حياة المملكة تتم بواسطة اناس لا يفكرون بها ولا يعلون انهم مشاركون بل يسعى كل منهم وراء مصلحته فقط

وتتم بضبط واعتناء وانتظام لا يصل إليه جهد أفضل المتنبهين « فلو فرض ان رجلاً عهد عليه ان يقدم كل يوم لمدينة كبرى كالحدى العواصم المعروفة كفافها من الزاد وسائر ما تحتاج اليه لا امكنه القيام بهذه المهدة لكثرة الاحتياجات المذكورة واختلافها ولو أُلقيت هذه المهدة الى حكومة لما تم لها القيام بها بانتظام ولا نفقت عليها النفقات الباهظة اذ يحصل حينئذ ما يحصل لو كان الدماغ مكلفاً بالاتباه لكل ما يلزم لتمثيل الدم ولدورته في البدن ولاخراج كل مفرز من غدته . فضاء كل مدينة يصل اليها يومياً بدورة ذاتية حركاتها منتظمة كحركات النبض وتداخل الحكومة الموجب لا تكون له نتيجة سوى تعاقب الشيع والجورع على المدينة . وتداخلها السالب يضمن لها حياتها اذ تستقيم مع حركة اسواقها ويصبح اناسها في مأمن بعضهم من بعض في اعمالهم وسائر احوالهم . فتعاون الناس بعضهم مع بعض بحيث لا يرفع احدهم نظره الى ما وراء مصلحته كافٍ لان يفعل في صلاح حال العمران ما لا تستطيع حكمة اعظم الحكماء واتباء اعظم الحكومات



وقائل ان الافعال التي يفعلها الافراد تحت عامل المنفعة الذاتية وان كانت كافية في الاحتياجات المادية الا انها ليست كذلك في الاحتياجات التي من غير هذا المعنى . فلي ذلك يجيب سينسر انه من الخطأ ان يظن انه لا يوجد خارجاً عن المنفعة الذاتية الا قوة اجتماعية وهي قوة الحكومة . أليس للبشر ما عدا احتياجاتهم الذاتية احتياجات حيية وهذه سواء فعلت وحدها او اشتركت ألا تحدث افعالاً جلية كالافعال الحاصلة عن المنافع الذاتية . أتريد ان تعرف الافعال الاجتماعية للمحبة منفردة كانت او مشتركة انظر الى اعمال اهل البر والاحسان الصادرة عن الافراد او عن جماعات خصوصية لا يد للحكومة فيها . فالمنفعة والمحبة في نظر سينسر كافتان وحدهما للقيام بكل احتياجات الجسم الاجتماعي كما انها تكفيان لاحتياجات الجسم الحي والحكومة لا يطلب منها الا ان تؤدي وظيفة شبيهة بوظيفة الدماغ اي ان تكون النابتة عن الامة في احتياجاتها المنفعة والحياة سالكة في ذلك سبيل العدل . فدماغ الحيوان مقرر لتلبية حقيقة عن الجسم كله يلزم ان تكون نموذجاً للحكومة . والامر بالحقيقة كذلك فان الاعضاء ترسل

انباءها الى الدماغ وتحتصر فيه لذاتها وآلامها وتشكو له حاجاتها وتجبره باختلال احوالها كأن الجسم كله مختصر فيه . ووظيفة الدماغ الصحيح كما يقول سبنسر هي التعديل بين المصالح المختلفة الطبيعية والعقلية والادوية والاجتماعية وذلك هو وظيفة الحكومة المطلوب منها التعديل بين مصالح البشر المختلفة بحيث ان كلاً منهم ينال حقه بدون ان يضر بالآخر



على ان بعضهم يرى ان نظر سبنسر في تعيين وظيفة الدماغ والحكومة وان كان مصيباً الا انه قاصر في بابه لان الدماغ وان كان نائباً عن الجسم كله في مصالحه المنفعة والحياة الا انه ليس نائباً بسيطاً وقاضياً يقضي في المصالح المذكورة لتعديلها فقط بدون ان يزيد شيئاً عليها بل هو ايضاً عضو الفكرة والارادة والروية فكثيراً ما يدفع الجسم من نفسه نحو امرٍ اقتياداً لفكر رفيع . والانسان كثيراً ما ينكر مصلحة نفسه القريبة لقضاء مصلحة اعظم كنشر حقيقة او ابداء تصور جليل . فالحكومة لا يمكن ان تكون بمقام قاضٍ بسيط يقضي في مصالح الامة لتعديلها مقتصرة على الحاضر القريب بل يلزمها ان ترتفع فوق نفسها وفوق مصلحة البعض للنظر في المستقبل البعيد لان الجسم وان كان يحس باحتياجاته انما احساساً بها مبهم ولا يتضح على صورة الحس ولا الفكرة الا في الدماغ . كذلك الاجتماع فيه حقوق كثير لا يحس بها الا احساساً مبهماً مع شدة لزومها له ولا تفجلي الا للحكومة فالجلاء مثلاً لا يشعرون بالاحتياج الى العلم مع شدة لزوم ذلك كان ينبغي على الحكومة ان تسعى من ذاتها لتنميم المشاريع اللازمة كاقامة التعليم الالزامي مثلاً وعدم اغفال كل ما من شأنه ان يحفظ مستقبل الامة لئلا يسبقها غيرها من الامم في معرض الارتقاء في هذا الوجود فتسوء حالها وتسقط في مهواة التهلكة والخسران

فسبنسر وان كان قد استوفى ما للميل الفريزي من اليد القوية في ارتقاء الامم الا انه في نظر بعضهم قد اغفل امر الروية المتجمعة في الدماغ عن احساسات اجزاء البدن المبهمة التي يلزم ان تبلغ الناية في الحكومة . هذا واذا نظرنا الى هاتين القوتين اي الميل الفريزي والروية ولم نفرص بينهما نرى انهما ليستا فقط علة كل اجتماع بل علة كل شيء حتى العالم نفسه اذ العالم نفسه انما هو اجتماع كبير كل جزء من اجزائه يشغل

لسلامته وسلامة الكل بما فيه من الميل لحفظ ذاته وحفظ علاقاته مع سواه وبهذا تمام النظام في الكون^(١)

(١) عقب المتططف على هذا البحث بالكلام الآتي قال :

حيوان هائل — هذا حيوان لم تمر صورته بمخيلة انسان من المتقدمين ولم يكتشفه الا جماعة من فلاسفة المتأخرين . والمتاد ان يوصف الحيوان بلهول اذا كان كبير القدر ضخم الجثة كالحوت والفيل وغيرهما او كان قبيح الصورة شديد الضرر او نحو ذلك مما يوقع الرهبة والخوف في نفس ناظره ومتصوره . على ان الحيوان الذي نحن بصدده لم يهد له تمثيل في الكبر ولم يخطر على بال انسان قبل الآن ان الارض يمكن ان تربي مثله فهو شاغل لكل انحاء المسورة سائد على وحش البر وحوث الماء وطير الهواء يسبح الناس الوفا في قطرة من دمه وتتأقب الملوك والرؤساء في رأسه وتحطن القبائل والشعوب في جوفه ونحيا الامم وتعت وهو باق فيحيا بموتها ويغو بحياتها وقد صار عمره الوفا من السنين وربما عاش بعد الوفا منها وروبوت حتى يقبض روحه باري الارواح ويبعد جسده الى التراب الذي جبل منه . لا تقول هذا من باب الهجاز وليس في كلامنا احلي ولا الفاظ وانما هو حق اليقين اذا صدقنا ما يقوله جماعة من فلاسفة المتأخرين

تقول وما هذا الحيوان العجيب فتجيب انه الاجتماع الانساني الذي انت في عضو من اعضائه بمثابة الكرية التي لا تراها عينك لصغرها في عضو من اعضائك . واذا امتت النظر في المقائين المنوتين بتاريخ الاجتماع الطبيعي في هذا الجزء والذي قبله (بقلم الدكتور شبلي شميل) رأيت هناك ما يقوله اولئك الفلاسفة في اثبات وجود هذا الحيوان وبيان المشابهة التامة بينه وبين كل جسم حيي وسواء صدقوا في ما قالوا او لم يصدقوا فلا غرو ان المشابهة بين الجسم الحي وجسم الاجتماع جذيرة بان يعم الانسان نظره فيها ليرف مقامه بين اقرانه ولزومه لقيام هذا الاجتماع وبيانها . فكما ان الرأس في البدن لا يستغني عن اليد ولا اليد عن الرجل ولا الرجل عن البطن كذلك اعضاء الاجتماع الانساني لا يستغني بعضها عن بعض فالتاراع لازم للصانع والصابغ واللوازم والوازع لكل منها . ولا فرق في لزوم الاعضاء لجسم الاجتماع ما دامت حياته موقوفة على عملها وقضاء وظائفها . وتفاوتها في المقام اعتباري لا حقيقي فلا الحاكم اشرف من التاجر ولا التاجر من الصانع في حقيقة الواقع كما انه لا فرق حقيقي بين مقام المدة والقلب والدماغ في البدن وانما الفرق اعتباري يتغير بتغير الموائد والاحكام على مر الالام

ولا يبرحن من الازدهار ان القوى الكبرى في كل حيوان تام التركيب ثلاث وهي الفاذية وافعالها تهيشة الغذاء وآلاتها المدة والكبد وما يتلوها والمديرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب وما يتلوها والموزعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرايين وما يتلوها « وبها قيام الحيوان ودوام حياته وكذلك « القوى الكبرى في العمران ثلاث وهي الصناعة وافعالها الاعتمال للمعاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش « فن يزعم ان العمران يتم بقوة او قوتين من هذه الثلاث دون الثالثة او ان احداها اشرف بالطبع من غيرها فزعمه باطل وهو في جسم العمران كرية لا تخلو من المغونة بل يمتشي ان ينتشر منها الفساد . اهـ

(المجلد العاشر من المتططف سنة ١٨٨٥)

المقالة السادسة

القرآن والعمران^(١)

ليس من غرضي هنا ان اتكلم على الاديان كشرائع موحدة . ولا ان ابين مزية دين على آخر . ولا ان ادخل غمار البحث في قضايا كل دين لاقرارها أو تخريبها الى ما يوافق بل ان ابين حقيقة علاقة الاديان بالعمران وتأثيرها الحقيقي فيهم من وجهها الاجتماعي ان أكثر الباحثين في هذه العلاقة ينسبون كل ما يرونه في العمران من ارتقاء وتقهقر وسير ووقوف وحركة وجود الى الدين واكاد لا أعلم أحداً خالف هذه القاعدة ففلاة المصلحين وكبار المؤمنين والذين يبينون كلهم في ذلك سواء . فيقضون لهذا الدين أو على ذلك بالنظر الى ذلك وهم فيما ارى مخطئون باعتبار جوهر الدين والا كانت النتيجة واحدة في كل الاديان وفي الدين الواحد في كل المصور . ولا ينكر ان الدين يؤثر في اخلاق الامم التي تدين به ولكن هذا التأثير اذا دققنا النظر يجب أن يكون واحداً في الجوهر لانها جميعها تصبو الى غاية واحدة وهي اصلاح حال الانسان في العمران وتندرج الى ذلك بمبدأ واحد هو الثواب والعقاب في الحياة الاخرى لتحمل الانسان على ان ينصاع اليها في الغاية الحميدة التي قصدها في اجتماعه . قنعت عن المنكر وأمرت بالمعروف واعتبرت المنكر كل ما خالف مصلحة الاجتماع والمعروف كل ما وافق هذه المصلحة فأمرت باقامة القسط في المعاملات وتخطته الى وجوب الرحمة فحث الانسان على الاشتراك بالمنفعة ونهته عن الاستئثار بها وأمرته بالعطف على البائس المسكين ونهته عن الحيف عليه وديننا التوحيد السائدان اليوم هما دين الانجيل ودين القرآن الاول يعلمنا التساهل الى حد ان ينسى الانسان نفسه في مصلحة قريه أي اخيه والثاني يجمل الفقير شريك الغني في ماله اذ يفرض له عليه نصيباً منه . وكلاهما فيهما من الحكم الرائعة والآداب العالية ما يجعلهما في مبدأهما الاجتماعي مطابقين لمراي أعظم الفلاسفة المصلحين

الاجتماعيين اليوم . ولو جاز لي ان اين ماهية الفرق بينهما لقلت ان الدين المسيحي يوسع المجال للنظر والمحمدي للعمل اي ان الاول دين التجريد والثاني دين المحسوس ولكنهما يلتقيان في نقطة واحدة وهي اصلاح الانسان في دنياه - ومن غريب المفارقات ان اتباع الاول ساروا شوطاً بعيداً في الحياة العملية واتباع الثاني وقفوا متقهقرين - وهذا لا يخالف ما قلناه فيها وانما يؤيد مبدأنا من ان حقيقة الاديان لا دخل لها في العمران وكلاهما يدعو الناس اليه بطريقة واحدة سلمية فالانجيل يقول علومهم وبشروهم . والقرآن يقول لا اكره في الدين . واذا طرأ عليهما ما خالف ذلك في بعض المصور وفي بعض المواقف فلدواع اجتماعية ليست من جوهر الدين وكان كلاهما في هذا الارغام سواء . هذا هو مبدأ الدينين الاجتماعي

ولكن الباحث الذي يتعقب كلام كل من الكتاين يجد فيها كثيراً من مثل قوله (اقتلوه حيث تقتولهم) بعد قوله (قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) ومثل قوله « ما جئت لاتي سلاماً بل سيفاً » بعد قوله « من لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر » الى غير ذلك من المفارقات التي لا يذهب مغزاها على العاقل ولا مكانها من القول ولكن قد تضر كثيراً بالجاهل وتكون عنده سبباً للتشبث السقيم وللأخذ في سباسب الجدل المقيم فتضر بالدين وبمصلحة العمران معاً . لذلك رأى العقلاء من المؤمنين في النصرانية والاسلام وجوب رد مثل هذه القضايا المشتبهة التي قد تلبس على الافهام فتبدو مخالفة لمصلحة الاجتماع الى مبدأ الدين الجوهري الذي تقدم ذكره والذي هو غرض الشارع الحقيقي وتاويلها بحسب ذلك حتى صار الاجتهاد أمراً لازماً في الدين . والحق يقال ان رجال الدين في الاسلام قد برزوا في هذا الامر كثيراً في العصور الاولى وفاقوا النصرانية فيه لان كبار ائمتهم كانوا من كبار الفلاسفة أيضاً لا في الدين بل بمعنى الكلمة الحقيقي حتى بلغت علوم الفلسفة التي اخذوها عن اليونان في نهضتهم الاولى أقصى مراقبها بخلاف النصرانية فان الفلسفة طمست فيها على عهدها الاول وعدت من المحظورات فيما خلا النظريات المتعلقة باللاهوت المسيحي وبقيت كذلك الى عهد الانشقاق العظيم الذي حصل في النصرانية في اوائل عصور النهضة في اوربا

وأول من أجاز الاجتهاد في الاسلام ابو بكر بعد موت النبي في قتال اهل الردة اذ كان الاعتقاد ان من تشهد لا يجوز قتاله على تركه شيئاً من الدين وهذا كان رأي اكثر الصحابة أما ابو بكر الخليفة الاول للاسلام فنظر الى المسألة من وجهها السياسي وخاف عاقبة التراخي مع العرب الذين امتنعوا عن تأدية الزكاة فقال لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه الى الرسول لقاتلهم على منعه ومضي بنفسه الى قتالهم . وجرى الاسلام على خطته من جهة الاجتهاد كل مدة التهضة . وقد قال الفزالي وهو من كبار أئمة الاسلام في أول القرن السادس للهجرة بوجوب التأويل في قضايا الدين والتوسع فيه لما رآه من التخاذل في ظاهر الدين والعلم في امور كثيرة تخاف ان يقف ذلك في سبيل العلم ثم يعشب بالدين . فقال ما ملخصه : « اذا بدا لك تناقض بين الدين والعلم فاعمد الى التأويل ذلك خير من ان ترمي الدين بتهمة الضعف » ولذلك كان كل دين لا يتسع فيه مجال الاجتهاد كثيراً مقضياً على امه بحكم الضرورة ^(١)

وما تقدم يتضح لك ان لا فرق بين الاسلام والنصرانية في غايتها الاجتماعية ومبداها في هذه الغاية . ولكن الناظر الى العمران اليوم يجد بونا بعيداً بين الامم التابعة لكل من الفريقين فلماذا هذا الفرق ؟

الناس في نظرهم الى الدين فريقان فريق يملأه الهوى فيندفع بتيار التشيع والتحمس الاعمى فيقضي على الصبغة الدينية التي تخالف صبغته كيفما كانت حال الاقوام المصطبغين بها حسنة ام رديئة ومثل هؤلاء لا شأن لنا معهم في بحثنا هذا وهم في مجموعهم قذى في عين العمران وشجى في حلقة معطلين كانوا ام مؤمنين مشركين ام موحدن نصارى ام مسلمين من هذا المذهب ام من تلك الشيعة والمؤمنون منهم شر على الدين من سوامهم وفريق يبحث فيه بحث العالم الاجتماعي ولكن قد يخونه النظر فينظر الى الدين في مرآة الشعوب التي تدين به ومن اعراض الكلام ويحكم على الجوهر من العرض . ويؤيده في حكمه هذا ما يملأ عليه مما يكون قد رسخ فيه من أثر التربية الاولى فان البدائنة التي تقوم به في الذهن تعبر عن كل روية (وكلامنا في اصحاب المقول الزاكية) وبذلك

على ذلك الاندهاش العظيم الذي يرتسم على وجهه عند ما تصادفه فيها لأول مرة خصوصاً اذا كان يعتمد فيك العلم ويتوسم بك نزاهة الغرض كأنك ارتكبت جناية عقلية ذبحت بها أمامه كل القوى الراشدة ثم لا يلبث أن يطرق مفكراً كأنه داخله الريب ولذلك كان الشك أول مراتب الرشد

وقلما يسلم باحث اجتماعي مهما كانت مداركه راقية من مفعول هذه التربية الاولى فان سلم منها من جهة الدين لم يسلم منها من جهة الوطن والسياسة التي تقتضيها مصلحة هذا الوطن وفي اعتقاده ان الوطن دين ثان . وقليل ما هم اولئك الذين يتملصون من مغايل هذه العوامل الثلاثة فيجسسون دينهم الانسانية ووطنهم العالم اجمع وما دعائي الى هذا البسط الا ما رأيته في هذه الايام من الحركة الشديدة في الافكار بسبب ما جاء في كتاب اللورد كرومر من علاقة الاديان بالعمران . فقد تعرض اللورد في كلامه على المصريين وعلى الامم الاسلامية قاطبة لجوهر الدين الاسلامي وجعل القرآن العقبة الكؤود في سبيل ارتقاؤها والمسئول عن تقهقرها

وقد تصدت الجرائد الاسلامية للرد عليه والحق يقال ان كلا الفريقين سلك مسلك الحرية في القول والمحقق في البحث الا انهما لم يسلمتا مع ذلك من سلطان هذه العوامل وفي اعتقادي انهما حاما حول الموضوع وقليل من تلمس طرقة من بابه : اللورد اندفع كثيراً فلم ينظر الى دين القرآن الا من خلال اولئك الذين وقفوا دونه ووقفوا به حيث أرادوا . وهم وقفوا محجبين فلم يريدوا ان يجسوا باصابعهم موضع الألم . وهذا الذي حملني على التعرض لهذا البحث مع ما فيه من الوعورة فلعل صوتي الضعيف يكون كالشرارة وان احترق وأكثت في بعض المواقف فلا تعدم من العقلاء أنصاراً فتكون نارها بهم نار الخليل برداً وسلاماً على امم لا يتقصهم من دينهم شيء لكي يسيروا في العمران مع الامم المتدنية جنباً لجنب ويحفظوا للشارع مجد أثره

واللورد كرومر من أعظم رجال العصر وأصحاب العقول الراقية ولصوته دوي في محافل العالم المتبدن وهو من نادرة الرجال السياسيين يقول ما يفكر ولا يماري وهو في حكمه لم يوارب بل قال ما يعتقد انه الحق الصراح الا ان ذلك كله لا يوجب ان يكون

قوله حقاً . فهو اذا اخطأ — والخطأ تسرب الى حكمه من كل ما تقدم — حيث قال ان شريعة القرآن لا توافق العمران في كل عصر وان وافقته في بعض العصور . ونفس قوله هذا حجة عليه لان العمران لا يتسامح في شرائئه . ولو قال ان الاديان لا توافق مصلحة العمران لكان في قوله نظر لا بالنظر الى مبادئها بل لخروج دعائها بها احياناً كثيرة عن جادتها ووقوفهم بها في سبيله . أما وقد قال قوله فالذي يصح على دين يصح على آخر . والقضايا التي استند اليها واعتبرها من جوهر الدين كان يمكنه ان يعتبرها في الدين الاسلامي كسواها في سائر الاديان مما يمكن تجاوزه لولا انه رأى استمسك رجال الدين بها وقيامهم في وجه المصلحين منهم كأنها من غرض الشارع ولذا كرر ان خلاصهم فيها وفي ما ضاهاها من المسائل الاجتماعية لاشبه شيء بالمناقشات الدينية التي كادت تقضي على أمم النصرانية في عصور الجبل والتي احدثت تأثيرها السيء في الامم الاسلامية كما هو اليوم . وما مثل رجال الدين الاسلامي فيها الاً مثل رجال الدين في اوروبا لما قاموا على غليلي يكفرونه لانه قال ان الارض تدور وفي كتبهم ان يسوع اوقف الشمس ثم ثبتت حركة الارض ولم يمس جوهر النصرانية باذى . وهل يعقل ان القرآن الطامح الى ابد المرامي الاجتماعية يكون قد اراد بمثل هذه القضايا ان يجعلها غلا في عنق العمران . وكيف لا يجوز حلها على محل المجاز وكتب الدين مشحونة بامثال هذا الكلام من المجاز والاستعارة ولا سيما القرآن^(١) وبالحقيقة ان علاقة الدين بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه وتقهقره ليست الا عارضة والا لما ارتقى العمران وتقهقر وهو تحت سلطان دين واحد . واذا كان قد وقف ورجع القهقري مراراً كثيرة بسبب الاديان فما ذلك بسبب تعاليم الدين نفسه بل :

(١) اليس قيام نساء المسلمين في اول عهد الاسلام يحظين في القوم حاسرات الوجوه اقوى دليل على ان مسألة الحجاب ليست من المسائل الجوهرية في الدين ولو جاز لي ان اسهب الكلام على ذلك هنا لجلوت الاسباب التي دعت اليها في حينها مما يجوز للباحث الاجتماعي اعتباره ولماذا لا يجوز الاجتهاد هنا ايضاً ولكن رجال الدين هم العقبة في سبيل الارتقاء لا الدين نفسه أما مسألة تعدد الزوجات فهي في الحقيقة ليست بالاعتراض الوجيه على القرآن لانه منهي عنها صريحاً فيه بفرض العدل فيها وهي والطلاق ليستا في الاسلام ولا في النصرانية من المسائل الدينية التي يقيد بها الاجتماع ولذلك لا تصدان حجة على القرآن ولا على سواء اذا تصرف الانسان فيها بحيث لا توافقان مصلحة العمران

من الذين ادعوا الزعامة عليه فقصروا في ادراكه او اتجروا به
وتاريخ الاجتماع شاهد عدل على ما تقول فاليونان بلغوا من التمدن شأواً بعيداً
وكانوا من المشركين بمعنى الكلمة الحقيقي أي كانوا يعبدون آلهة كثيرة ومثلهم الرومان
وكانوا يعبدون الاصنام . وقد تقهر الروم على عهد النصرانية حتى انحلت عرى ملكهم وقام
العرب وشادوا على انقاض دولهم ودول الاكسرة ملكاً باذخاً وهم حديثو العهد بالدين
ولقد كانت اوربا في العصور الوسطى في حالة سيئة جداً مع انتشار النصرانية فيها الى
درجة لم يكن الناس يرون السعادة الا بالاعزال في الاديرة والصلاة على قارعة الطريق
ولولا الانشقاق العظيم الذي حصل فيها من قيام بعض رجال الشجاعة كلوثر وما جرّ
ذلك بعده من اضطرام نار الثورة الفرنسية التي حطت من صولة الاكليروس والحكام
لما أغنت النصرانية اهما شيئاً ولما ارتقوا الى ما هم عليه الآن

والذي اصاب النصرانية اصاب الاسلام نفسه فراح فريسة مطامع الطامعين من
الحكام ورجال الدين من ضعاف الافهام واصحاب الاغراض وسقط الشعب في مهوة
الجهل فأخذ يتقهقر وسواه يتقدم وجنى على الدين حكم الحاكمين عليه

فترى مما تقدم ان الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية في سبيل العمران بل رجال الدين
أنفسهم واي برهان على ذلك اسطع من سهولة ارتقاء اليابان . فانها لما تحاكت مع
اوربا وقام فيها عاهل يفهم قيمة الارتقاء بنشر العلم وتأيد الصناعة نشطت وارتقت بسرعة
لا مثيل لها في التاريخ . وما ذلك الا لان الحائل دون ارتقاءها كان السلطة الحاكمة فلما
زال هذا الحائل لم تصادف الامة عقبات اخرى من رجال الدين لانهم هناك ليسوا
شيئاً يذكر لان الدين عندهم شذرات من شرائع اهما البوذية . وهي تعاليم أدبية اجتماعية
اكثر منها دينية

ولقد ردت الجرائد على هذا الطعن كل بحسب ما تراعى له انه معزز للدين ولكني
أقول بكل أسف انهم لم يريدوا ان ينظروا الى الحقيقة كما هي . فلم ينظروا الى تقهقر
العالم الاسلامي والاسباب التي دعت الى هذا التقهقر وهم في موقف اليوم ينبطون عليه
للمجاهرة بالحق نعم ان الحق يجرح ولكن الانسان الذي يحث في جسده عن محل الالم

ليداويه يفلح أكثر من الذي يحاول أن يخفيه . ولو فعلوا لخدموا الدين وخدموا أنفسهم
 بالثنية إلى مواطن العلة للتهوض من الوهدة التي سقطوا فيها بسبب جهل زعماء الدين
 الذين هم وحدهم المسؤولون عما جنوا على العمران وعلى أمهم وعلى الدين نفسه بالاشتراك
 مع الحكام فساقوهم بعضى المظالم عسوراً متطاولة . ولفتحوا أمامهم الباب واسعاً لادخال
 الإصلاح بينهم ولو بثورة في قلب الأمم الإسلامية تحدياً بمن سبقهم من الأمم الأخرى
 ذلك خير لهم من فئانهم بالابتلاع شيئاً فشيئاً كما هو الواقع اليوم
 فالمنصف لا يسه أن يلقي على القرآن تبعة تقهر الأمم الإسلامية بل على الرؤساء
 من رجال الدين والحكام فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تجاري الأمم المتقدمة في
 ارتقاها فالقرآن لا يحول دونها كما أن الإنجيل لم يكن الباعث على نهضة تلك وما عليها
 إلا أن تجاريهم وتضرب الضربة الشديدة على أيدي الرؤساء عموماً لتكشف بالعلم
 سجوف الجهل المسدولة على عقول الشعب

وإني لاستغرب من جرائدنا مع ما أظهرته اليوم من الحمية لنصر الدين كيف أنها لم
 تقم قيامتها اللازمة لنصر رجل جهر بالحق منذ عهد قريب لتطهير الدين من البدع الشائنة
 ولتنبذ وقوع الحيف عليه ولم يسمع حينئذ إلا صوت أولئك الذين ضربوا على يد الضارب
 على هذه البدع ولم يسمع لهم صوت اليوم كأن الدين ما يش وهي لو فعلت لنصرت
 الدين نصراً مبيناً ومهدت السبيل « للوثر » يصلح من عقائدها ويدفع عن القرآن تهماً
 ما أنزل الله بها من سلطان ولعل الصوت القاسي الذي جاءهم اليوم من وراء البحار
 ينهبهم أكثر إلى هذا الفرض الواجب فيهبون هبتهم إلى هذا الإصلاح ويقولون ونحن
 نردد معهم « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »



المقالة السابعة

ماذا قرأ وماذا رأى^(١)

الانسان لا يرى الحقيقة لانه امرق في جهل . واذا
رأها لا يريد ان يعرفها لانها تروعه . فيدور حولها
وتروغ منها لانه الف القوي في كل شيء . وانه يفضل
ان يكذب على نفسه اذا عرفها من ان يقولها

هيويل تملأ الفضاء متحركة حركة دائمة لا اول لها يعرف ولا آخر يوصف كأنها
سلسلة حلقات متصل أولها بآخرها او نقطة من محيط دائرة لا يعرف أين تبتدي ولا
أين تنتهي

زوايج تور فتحول جواهر تتضام دقائق فذرات فاجساماً فاجراماً تسبح في هذا
الفضاء تنقسم شمساً تضيء واقاراً تستمد وسيارات تدور وثوابت ليست ثوابت الا
بالنسبة الى سياراتها والا فالكمل في فلك يدور

قوى تتجاذب متباينات وتنافر متشابهاتها تتحد بها اجزاء المادة صنوفاً وتنظم
صنوفها صنوفاً فيها الرفيع والوضيع والبسيط والمركب نماؤها من ظاهر بطيئة النماء بطيئة
الانحلال

معدن نام وما هو بحمي منفعل وما هو بحاس يتعاظم وما هو ياق ويحل وما هو
يفان متحول وان لم يد لك في الحال متغير ولكن على مر العصور والاجيال
قوى تنظم الى ان تفقد الانتظام تستولي على المادة فتحولها في الحال الى اجسام
تتغذى وتحس ويتحرك مريعة النماء مريعة الانحلال نماؤها من داخل بالقلب والاببدال
حي ينقسم نباتاً يتغذى وحيواناً يحس ويتحرك ينبت من بذرة قد لا تراها العين
فيتعالى ويتعاظم ثم يموت ولا يموت بل يرد الى المادة ما استعار منها ثم يرقد في بذرة
عائداً من حيث أتى

معدن ونبات وحيوان هي موضوع الاعجاب والاستغراب تراها منفصلة وليس بينها فواصل أفق الواحد متصل بأفق الآخر كأنه منه ومتحول عنه

مواد الكل واحدة مرجعها الى الهوى وقواه واحدة مرجعها الى الحركة . والهوى والحركة سريان فلا تنفصلان . والهوى فرض لبسيط المادة والحركة حقيقة بينة تحول الى كل القوى المعروفة وترد اليها كل القوى المعروفة : الحرارة والنور والكهربائية والمغناطيسية والحياة نفسها . فالحركة اصل الكل

الكل باقى لا يذتر وما هي الا صور تمر واشكال تحول واوضاع تتغير في حلقة هذا الدور

أدوار تنتظم أياماً وإيام تنتظم شهوراً وشهور تنتظم فصولاً وفصول تنتظم سنين ثم يعود الدور

ينشق نور فيبدد غياهب الظلمة ثم يعقبه ليل بهيم يسد منافس الغبراء فيدور اليوم يطلع القمر هلالاً كأنه الطفل وقد اهل ويكتمل بدرًا ثم يتناقص عائداً على بدئه كأنه يمثل حياة الانسان بالزيادة والنقصان فيدور الشهر

يبدو وجه الطبيعة كالحلأ كأن الموت قد حل . وتلبس الارض ثوباً قاحلاً كأنه جلد الهرم . وتتلبد غيوم كأنها المغموم وتلمع بروق كأنها الآمال في وسط المصائب . وتقصف رعود كأنها غضب الآلهة او صراخ اهل الجحيم وهم يعذبون في ما يقولون . وتعصف رياح تصغر كهوت اليوم . على الرسوم . وينعقد البخار سحباً فتفتتح عيون السماء كأنها تضحك ضحك القط من فارغ الامل . او تبكي بكاء البكلى من ذو الاجل . فتتفجر عيون الارض ضاحكة لضحكها او باكية لبكائها فتسيل الجداول والانهار وتسترد البحار ما اعطت فتعاظم كبراً وتنفخ عجباً كأنها تقول « هذه بضاعتنا ردت الينا » وتذبل عيون المسيل كأنها تذكر الآية « انا لله وانا اليه راجعون »

فاذا انقضى الشتاء انبسط وجه السماء واقتله ثغر البسيطة باسماء وبرزت الارض كالعروس تنهذى بحلة سندسية واخضلت النضون كأنها القدود وقد لانت وتمايلت طرباً كأنها المحصور وقد دقت . او القلوب وقد رقت . وتفتت الانوار من اكمامها كأنها

وجوه الحسان وقد برزت من حجابها وفاح ارج الازهار على نغم الاطيار . فانتعشت لها الانفاس كأنها الاعراس والكل فيها فرحون

فاذا انقضى الربيع اقبلت الطبيعة مثقلة كالرجل وقد فارق زمن الصبا واقبل على زمن الجد والكد ينظر الى ما زرعه في ماضيه وما يحصده في حاضره وما سيدخره لمستقبله فاذا انقضى الصيف جاء الخريف بذبوله واصفراره كالشيخ وقد فرغ منه الامل يتوقع حلول الاجل . وهكذا ينتهي الحول ويرجع الدور

وفي وسط ذلك كله قائم ذلك الكائن العجيب ملتقى النقيضين . ومجتمع الضدين اضعف من النبات والحيوان في بنيانه . واقوى الكائنات بمستنبطات جنانه . عاقل جاهل . يرتفع بفكركه تارة الى السهى حتى يقال « ان هذا الالمك كريم » . وينحط باعماله طوراً الى الخسيف حتى يقال « ان هذا الا شيطان رجيم » . حيوان الى اقصى درجات الحيوانية وما هو بحيوان . آله الى حد المعجزات وما هو من سكان الجنان . ذلك هو الانسان

وقف على البسيطة عارياً جائئاً خائفاً كأن اصله ليس من هذا المكان . وذهل انه هو الانسان « المطرود من الجنان » البرد يؤذيه . والجوع يضنيه . فسكن المغائر وخصف اوراق الشجر عليه ورعى النبات كالسائمة واكل اشلاء الحيوان كالنكواسر نظر الى الحيوان فراءه ما رآه فيه من القوة وكمال العدة فارتعدت فرائصه خوفاً منه وليس له برائن تقيه او مخالب تحميه فعمد الى كهوف الارض يخبئ فيها عنه . وتسلى الاشجار العالية هرباً منه

عمد الى الحجارة يحكمها حكماً ليصنع منها سلاحاً يذود به عن نفسه ويسطوبه على سواه . فاخترع السلاح واهتدى الى الصيد وتطايير الشرار . من احتكاك الحجارة . فاكشف النار . واهتدى الى اكل طعامه مشوياً . بعد ان كان يأكله نيئاً . وكان ذلك أول « اختراع » وأول « اكتشاف »

تغلب في الارض فاهتدى الى المعادن وراها تلين في النار فاصطنع منها العدد وتفنن واتقن وشعر بنفسه انه نال بها قوة ذلت له الطبيعة فبنى البيوت واصطنع الكساء من

الياف النبات وشق الارض وزرع وحصد واستثمر النبات وذلل الحيوان . وكاد يتذكر « انه المطرود من الجنان »

رأى الارض واسعة ومطامعه شاسعة فامتطى الحيوان جواداً يقطع به مفاوز الغبراء وبنى المركبات لنقل الاتقال واستطلاع مناجع الكلاء

ضاققت به الارض على سمعتها واعترضته البحار فبنى المراكب واخذ يجذف في عرض الماء ثم اصطنع الشراع واستقبل به مهاب الهواء . وهكذا اصبح سيد البر وسلطان البحر رأى التعاون ادعى الى القوة فانتظم جماعات وبنى المدائن واخط الممالك وشاد الحصون المنيعه والقصور الرفيعة وغرس الحدائق تجري من تحتها الانهار كأنه اراد أن يعيد بها « الفردوس الضائع » وتأنق في المأكول واللباس والاثاث واغرب في الكهاليات بعد الحاجيات حتى تخطاها الى الزخارف

نظر في العلوم لحفظ المعلوم وطلب المجهول فانكشفت له اسرار الطبيعة فاستخرج من كنوزها وأسر قواها فاستسرى البخار واستنطق البرق فاستعاض عن الشراع بيوخر تمخر في عرض البحار . وعن الجياد بقواطر تسابق الرياح وتقرب الشاسع من الاقطار طمح ببعده الى العلياء فأخذ يحدق في القبة الزرقاء وقد كان ظنها « جلدأ » مصفحاً وكواكبها انوار سكان السماء . فما لبث ان اخترقها بذكائه فعرف حقيقتها ووقف على تركيبها وقاس ما بينها من الابعاد كأنها منه « على قاب قوسين او ادنى »

رأى الطبيعة قد دانت له قريبتها وبعيدها عاليها وسافلها ظاهرها وباطنها جادها ونباتها وحيوانها . فعتا وتكبر . وطنى وتجبر . وشق عليه ان ليس امامه جبار « يهدد كل جبار عنيد » ليقول له « فما انا ذاك جبار عنيد » حتى شاد من الاوهام حقائق وقام يناسب أكلته العدوان . كأنه تذكر انه « طريدها في سالف الازمان »

رأى كل ذلك فرآه حقيراً في عينيه ذليلاً لديه « اي مكان يرتقي . اي عظيم يتيق » فلم يجد اصعب على نفسه منه هو نفسه . فسعى ليقهر بعضه بعضاً ويسود بعضه على بعض . انسان على انسان و قبيلة على قبيلة و امة على امة وفرد على امة . فسن الشرائع ووضع القوانين توافق اميال القوي وتهضم حقوق الضعيف فظلم وهو ينادي بالعدل وتجبر وهو

يعلم الناس التواضع وعنا وهو بوصيهم بالحلم
شرائع اصلها « العادات » وقوانين لم تخطأ المؤلف ثبتت على مر الازمان . مع
أن العادات تتغير وكذلك الانسان . شرائع لم يقتصر فيها على المعاملات بل تناول بها
ما وراء المنظور لكي تكون اوقع في النفوس وابلغ للمنى

رأى كل ذلك دونه فصبا بنفسه الى ما وراء الطبيعة فبنى من الاوهام ابراجا وامتنطى
من الفرور معراجا . وقال في نفسه لمي آله ولا ادري . ألسنت سيد هذه المخلوقات وسلطان
هذه الكائنات . فهل يصبح ان يكون عنصري كعنصرها وحظي كحظها : يوم يروح ويوم
يجيء وارحام تدفع واراض تبلى . لا . فانا من عنصر أعلى لذلك نفسي تصبو اليه . اصلي
منه ومرجعي اليه . فانا آله في صورة انسان او انسان في نفس آله

آله ولكن عبد شهواته واسير احتياجاته يرتدي ثوبا كثفت هيولاه . اليها مرجعه
ومنها قواه . آله يفعل كالجماد ويتغذى كالنبات ويتألم كالحيوان . فاذا انحل لم يترك غير
كثيف المادة واذا اغتذى فلا يقتدى الا منها واذا تحرك فلا يتحرك الا فيها وبها . آله
يولد وما هو بياق ويموت وما هو بفان . يمثل الفصول في ادوارها . والمادة في اطوارها .
ينشأ بذرة كالنبات والحيوان . ينمو مثلها ويتعاضم مستعيراً عناصر المادة الى ان يهرم .
فيرقد في بذرته عائداً من حيث اتى بعد ان يكون قد رد الى الطبيعة ثياباً عارية . واخلاقاً
بالية . استعارها منها . ولم يكن له غنى عنها

علم ذلك كله في هبة مرت من السحاب حطت من كبرياته وكسرت من خيالاته
ارتسمت له الحقيقة فيها مجردة عن زخرف الكلام وبهرجة الخيال . في هبة انتعاش هو
متعى الحياة وابتداء الموت كالانتعاش الذي يسبق انطفاء النور . استيقظ فيها كالنائم
وقد انتبه . فرأى الحقيقة مرتسمة امامه باحرف نافرة تفقد الابصار ولا تقوتها العين قرأها
ثم رقد . ماذا قرأ . . . وماذا رأى . . . لم يقل

المقالة الثامنة

حول مقالتي ^(١)

« بحث بيسكولوجي سوسيولوجي او اخلاقي عمراني »

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »
 كنت جالساً ذات يوم بين فريق من نخبة الادباء فسعتمهم يتحدثون بما جاء في (كتاب مصر الحديثة) من التعريض بدين القرآن وما أحدثه ذلك من الثورة في الافكار وما ترتب عليها من المناقشات في الاندية والمجالس والردود في الجرائد. ورأيت مدار بحثهم قائماً على المسائل الخلافية التي لا ينضب البحث فيها ولا تأتي بمجدوى غير اثاره الضغائن واحترام الخصام واشتداد الجدل على امور لا طائل تحتها يظنها الباحث من جوهر الدين وهي عند العاقل ليست منه في شيء . ورأيت ان البحث على هذه الصورة لا يزيد نار الخلاف الا استعاراً ويزيد الانشقاق بين أصحاب الاديان المختلفة ولا يفيد اصحاب الدين الواحد فائدة عمرانية البتة يدخلون البحث بهوى التشيع ويخرجون منه بنار التحمس . وكل يحيل له انه محكم العقل فيما يذهب اليه وانه على هدى وسواء في ضلال مبين وما منهم من يشك فيما يقول ولا يذكر انه انما شب على هذا الدين أو ذاك المذهب كرهاً لا طوعاً طبقاً للحديث النبوي « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فابواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه » ولا يخفى ما في هذا الكلام من الحكمة الرائعة والفلسفة العالية وكأني اشرت الى ذلك في كلامي على التربية الاولى وما لها من الامر الراسخ في الذهن حتى يصير فيه من البدائنه التي تفوق طور الروية فلا تقبل تمحيصاً ولا تطبيق جديلاً

وكان الحقيقة بدت لي في غير ما هم فيه يخوضون فرأيت ان في المسألة نظراً دقيقاً وكأنما

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ على اثر رد بعضهم على رسالة القرآن والمران المذكورة آنفاً

الكل عنه غافلون فقلت لهم اني لا أرى رأي أحد منكم لا رأي صاحب كتاب (مصر الحديثة) ولا رأى كل منكم على اختلاف منازعكم الدينية فالدين في نظري لا علاقة له رأساً بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه ووقوفه وتقهقره او هو تأثيره واحد فيه لان كل الاديان أصولها واحدة في كل الامم وتصبو الى غاية واحدة اجتماعية وهي اصلاح أمور الانسان في معاشه ولا يؤثر فيه الا نزعات رجاله في احكامه الفرعية فاذا عملوا بموجب الدين وحكموا العقل في تطبيق هذه الاحكام على مصلحة العمران بحسب روح كل زمان لم يصدده ذلك عن الارتقاء . وعزمت على الكتابة في الموضوع لاني قلت في نفسي ان لم يوجه تيار البحث في هذه المسألة الوعرة الى هذه الجهة فانه يستحيل زحزحة الافكار عن مألوفها بالسرعة اللازمة لتحقيق هذه الامنية المنشودة وهي ارتقاء الانسان في العمران . والا فهناك تيار آخر سيله جارف يسير بسرعة البرق سوف يقضي علينا اذا كنا لا نهض لمقاومته بسرعة تحاكي سرعته وبمعدات تحاكي معداته . وأبدت فكري هذا لكثيرين . واكثرهم استصوبوا رأيي . ولكني رأيت بعضهم يشك في النتيجة ومنهم رجل ذو علم وأدب وقف مطرقاً ولم يتكلم وكأني قرأت على وجهه انه غير واثق من عملي لعله بما أنا عليه من البادي وما انطوى الجمهور عليه من الانطباع لفهم الاشياء كل على هواه فيصعب عليّ ان اخوض لج هذا البحث واخرج منه سليماً من دون ان أمس شعائر أصحاب دين في دينهم وهناك الطامة الكبرى . ولما أبدت له ان كلامي سيكون على علاقة الدين بالعمران وهذا لا يستلزم البحث الا في جوهر الاديان وان النزعة العمرانية في هذا الجوهر تكاد تكون واحدة في سائرهما حتى الاجتماعية منها وان الاحكام الفرعية في كل دين يلزم ان يرجع فيها الى هذا الجوهر . رأيت كاني اقرأ على وجهه اكثر من ذلك وهو اعتقاده بان الاسلام ليس في احكامه المرونة اللازمة لتطبيقها على مصلحة العمران فتذكرت عند ذلك اثر تلك التشاة وقلت اذا كان هذا مفعولها في ذي عقل راجح فما بالك في سواء وما قلت قولي هذا الا لاعتقادي بانه ما من دين يجوز ان يقف حائلاً في سبيل الارتقاء اذا خكموا العقل في أحكامه المتعلقة بالمعاملات . ومنهم من نصخني بالعدول لثلاث اصادف ما لا احب علماً منه بان الناس يذهبون في تأويل كل

أمر مذاهب ويخرجونه كما يشاؤون وكما تشاء أهواؤهم فلا يبعد أن يروني بغير ما أقصد
ويدفعوني الى ما أكره

أما أنا فأقفي — اذا كان ذلك يعد آفة — انه متى بدت لي حقيقة تسهوني حتى
لا أعود اضبط نفسي عن ابدائها وعذري في ذلك ان الحقيقة لا يكفي ان تعلم بل يجب
ان تقال ايضاً والا بقي الناس في العمى وساؤا مصيراً . وقلت اذا كان الاجتهاد الذي
هو ركن من اركان الدين الاسلامي لا يذلل هذه الصعوبات فالذنب ليس على القرآن
بل على الرؤساء الذين ييدهم الحل والربط في هذه الاحكام وباب الاجتهاد لا يجوز ان
يقفل مهما قال المتقولون من انصار التقيف ما دام الدين ديناً والعمران عمراناً ولا بد لي
كيف كان الامر من نصر القرآن اعجاباً به وبصاحبه وان كنت خارجاً عن دينه فالحقيقة
أعم من ان تكون ضالة المؤمن وحده كما يفهمون ونصرها واجب على كل منصف

وكيف لا يحق لي الاعجاب بصاحب هذا الكتاب والناس قد بلغ اعجابهم برجل
مثل نابليون الى ان عدوه من خوارق الطبيعة ولولا ان قلت عاطفة التقى لأتوهه والظاهر
ان الناس لا يعظمون الا كل فتاك بهم . والفرق بين الاثنين اجتماعياً كالفرق بين الثريا
والثرى . وهل يقاس بالمصلح الحقيقي رجل سفاح ك نابليون ضحى لمطاميره كل غاية
اجتماعية وبنى على انتفاض الثورة الفرنسية الجليلة المبدأ التي هدمها بيده بعد ان
استخدمها لمقاصده ملكاً متداعي البنيان لا غاية فيه الا فخر الفتح وتأييد المطامع الذاتية
وحدها وشاد قانوناً عده الناس آية في المراعي الاجتماعية وما هو كما قلت فيه ولو كبر على
مريديه الا مجموع شبهات وظنون فيما هو كائن وما يكون على ما بين ذلك المصلح
ونابليون من التباين العظيم في روح العصر الذي قام كل منهما فيه . وما من أحد
يستطيع ان يقرر الضرر الذي أحدثه نابليون قدره بتحويله مبدأ الثورة الفرنسية الى
خدمة اغراضه وبضره على يد العمران بقانون كان له كالفيل في عنقه والقيد في رجله
حتى اذا مشى مشى به متاقلاً .

وهل ينكر التمدن فضل دين القرآن عليه يوم كانت الشعوب المول عليها في ذلك
المهد منغمسة في الترف لاهية به عن العلم فكان الاسلام محي رفاقته وناشر لوائه وحافظ

كنوزه ولولاه لربما كان قد قضي على علوم اليونان وآدابهم وفلسفتهم ولا أقول انه هو الذي تقلها كلها وانما صانها من ايدي اولئك الذين لوبقوا وشأنهم لعبوا بها ولم يدعوا شيئاً منها يصل الينا

واعجابي بصاحب الشريعة المحمدية لا يقل عن اعجابي بصاحب الانجيل وما في شريعته من الخس على التسهيل وحب الانسان بعضه لبعض مما لا يمكن ان يصح بدونه عمران ولا فرق بين الشريعتين في جوهرهما اجتماعياً حتى ولا دينياً . كيف لا وقد قال كلاهما انهما أنيا لا يلتصا التاموس بل لا كمال أعمل التبيين قبلهما . ولقد عرف الناس لهما هذا الفضل من الوجهة الدينية فأقاموا لهما المعابد من مساجد وكنائس آثاراً ناطقة بمجدهما ولو انصفهما العرانيون لاقاموا لهما آثاراً مدنية (عفواً سادتي لا تكفروني لكم دينكم ولي دين) تنطق بآثرهما الاجتماعية فيعرف جميع الناس على السواء فضلها وتزول الحوائل من بينهم فيندفعون في العمران مرتقين بدلاً من ان يقوموا فيه بعضهم على بعض متخاذلين متهمقرين

وبعد ان وطنت النفس على ذلك قت وكتبت مقالتي « القرآن والعمران » متكللاً فيها على نفسي حتى اذا كان هناك تبعة تحملها وحدي وقد تخلصت بذلك من همتين مهمة التعصب وتهمة التوكل اللتين يرمي البراهمة بهما اتباع الاديان السامية فقد ذكر الدكتور هوج ان البراهمة قالوا له منددين بتعصب النصارى لدينهم واضطهادهم لمخالفهم « ان هذا التعصب فيهم دليل على ضيق العقل لان العاقل لا يضطهد احداً لدينه » ولما أرادوا المغامرة قالوا له « اتم تجمعون كل ائمتكم على الله واما نحن فلا تتكل الا على انفسنا ودينكم مصدره من شعب من اصل سامي وهذا الاصل ادنى من اصلنا وليس عنده فكر فلسفي غير مستعار »

والبراهمة كما في الملل والنحل ينتسبون الى رجل منهم يقال له برهام قد مهد لهم نفي النبوات اصلاً وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه . منها انه قال ان الذي يأتي به الرسول اما ان يكون معقولاً واما ان لا يكون معقولاً . فان كان معقولاً فقد كفانا العقل التام باحراكه والوصول اليه فاي حاجة الى الرسول . وان لم يكن معقولاً فلا يكون

مقبولاً أذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول في طور البهيمية والظاهر اني نجحت في مقالي اكثر من نجاح البراهمة بالانكسال على أنفسهم . فما انتشرت في المؤيد حتى صادفت استحسان كثيرين من عقلاء الالامتين المحمدية والمسيحية بعضهم صرح بذلك على صفحات المؤيد وبعضهم بكتب خصوصية لي وآخرون مشافهة في حديثهم معي . ولما آتست ذلك من الذين يهمهم امر هذا البحث اكثر من سواهم طلبت منهم ان يؤيدوني بكتاباتهم في الجرائد خدمة لامتهم فاحجبوا فعلت أن الحرية فيهم لم تتجاوز حد الفكر ولم تصل بهم الى القول وخصوصاً النشر كأنهم يخشون سطوة الجمهور اكثر من ربهم واعتذرت عنهم ان ذلك منهم لقلة تفهم في هذا الجمهور خوفاً من شره ولشدة طمعهم برحة الله ولولا علمي بناموس الافعال المتبعة وما يترتب عليه بعد حين من الافعال العظيمة لقلت اني أخطأت المرمى وان مقالي جاءت قبل اوانها على ان اثرها معها كان اليوم قليلاً فسينضج بالاختار كما ينضج المعجين وتنضج الثمار ويصير مع الزمان شيئاً عظيماً

ولكن مقالي لم تعدم متقدماً وهذا ما كنت اتوقعه لعلني ان ما من عمل حسناً كان أوردنياً إلا ويحمد انصاراً مستحسنين وخصوصاً مهجين فالحسنة لا تعدم ذاماً كما ان الفولة المسوسة تجمد كياها الاعمى فانا لم استغرب قيام بعضهم للرد علي ولا انا ممن يكرهون الانتقاد او يدعون العصبة ولا انا أجهل قول المثل « من ألف فقد استهدف » وانما الذي استغربته صرف كلامي الى غير وجهته وتأويله على غير مفهومه وهو بالحقيقة اجتهاد هنا الى حد الشرود عن المقصود والحق يقال ان أعمال العقل غاية في الغرابة ولولا ذلك لما اختلف الناس في نظرم الى الشيء الواحد . والى هذه الغرابة افضل أن انسب اختلاف نظر الذين نظروا في كلامي على ما فيه من التعمين الواضح لا الى قصد سيء منهم

ففرق من النصارى زعم اني عرضت بالدين المسيحي ونشر احدهم في جريدة الوطن مقالة أنكر علي فيها استشهادي ببعض آيات الانجيل ناسباً الي وضعها في غير موضعها كأنني فهمتها كما يدل عليه ظاهرها غير معتبر المقام الذي وردت فيه ولو انصقتي لعل اني ما ذكرتها الا وانا في مقام بيان اظهر فيه ما في كتب الدين من كلام الاستعارة والمجاز

الذي يتسع فيه مجال التخريج والتأويل حثاً على وجوب الاجتهاد في قضايا الدين كما وجد بينها وبين مصلحة العمران ومصلحة العلم اقل اختلاف لثلاثي على العمران وعلى الدين نفسه معاً اذا استسكنتا بتلك القضايا استمسكاً اعمى . وبعضهم ألمع الى ما يشم منه اني متحيز فيما كتبت لا ناصر حقيقة وهؤلاء هم الذين يرون كل شيء كما هو في باليات قهوفهم . فليعلم الذين لا يدركون معنى ما يكتب او ما يقال اني حتى اليوم ما تحيزت الا لما اعتقدته الصواب فانا لم اكتب ما كتبت الا لاعتقادي انه الحق ولم أجعل لعاقل سبيلاً لان يرميني بتهمة التحيز لذين من الاديان أو لقوم من الاقوام وما قصدت بذلك الا خدمة مصلحة الانسان في العمران

ومنهم من قام يناقشني في المفاضلة بين الدينين وهو خروج عن بحثي كما اوضحت ذلك في دياجة مقالي . فقام في الرد عليّ يظهر تحامله على الدين المسيحي وليس في بحثي ما يجعل له اقل مسوغ لان ينحو معي هذا النحو فخذني من سماء التجرد للكليات الى ارض المشاحنات في الجزئيات ونصبي في مقام رجل مسيحي أو اقول قوله وأخذ يفرف لي من تلك الالوان ما شاء وشاء سخاؤه وأنا من فضله أصيب حتى امتلأت معدتي وهو أدب رائع . ولا شك أنه انقاد الى ذلك بهوى التشيع وهو يقرأ مقالي فذهل عن مسلكي فيها ونسي في تحمسه الغاية التي قصدتها منها وقام يضرب على هذا الوتر المضلل والمنفر والذي يرجع عندي ذلك قوله « قرأت مقال فلان (اي مقالي) الساعة » اراد بذلك انه قرأها في الساعة التي بعث فيها برده الى الجريدة فكأنه لم يتروها جيداً فما وصل الى آخرها حتى كلن قد نسي اولها حيث أقول

« ليس من غرضي هنا ان اتكلم على الاديان كشرائع موحاة . ولا ان ابين مزية دين على دين ولا ان ادخل غمار البحث في قضايا كل دين لاقرارها او تخريبها الى ما يوافق . بل ان ابين حقيقة علاقة الاديان بالعمران من وجهها الاجتماعي ثم قارنت بين اصول الاديان واتصلت فيها الى نتيجة اجتماعية واحدة وبنيت عليها بحثي

ولعله اراد بذلك ان يجاري اكثر كتابنا فيما اصططلحوا عليه من مثل قولهم « ما حملني على ان اكتب في هذا الموضوع الا إشارة من لا تسعني مخالفته قعمت على ما بي من

المشاغل وضيق الوقت وقلة البضاعة » الى غير ذلك من كلام أنكبر في التواضع لينبوا للناس فضلهم وسرعة خاطرهم . ولو تدبروا الامر جيداً لعدلوا عن مثل هذا الكلام البارد ولعلموا ان الاسراع وعدم التأني لا يقينهم ملاماً اذا اخطأوا ولا يكسبهم زيادة فخر اذا اصابوا كما ان التدبر والتردد ليسا دليلاً على العي . وأما انا فإله يشهد والناس يشهدون أنني ترددت كثيراً ولولا ان فوجئت من كل جهة ولولا خوفي ان ينصرف الجمهور بذلك عن فهم مقالي على حقيقتها لما عدت الى الرد واضطرت الى هذا البيان

وقد اعجبني قول احد افاضل المسلمين في انتقاده على منتقدي اذ قال « لو قال قوله هذا في مقال وجهه الى سواك لربما كان له فيه وجه أما وقد قاله في وجهك فما وجهه فيه وأنت تدافع عن دينه » قلت لعله كبر عليه اني جعلت اصول دينه كأصول سواء فاعتبرني شر نصير . فدفع اليّ كتاباً كان قد جاءني به وقال خذ اقرأ فقرأت

« اعلم ان دين الله في كل الامم واحد لا يختلف اصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وأمكنها وانما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام الفرعية . وذكر الآية : « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين الخ »^(١)

والذي حملني على هذا الظن ذكره دين البراهمة في هذا المعرض وهو لا ينظر الى النصرانية باحسن من نظره اليه فهو يأبى ان يسلم بان اصول دينه كأصول دين سواء فاعلم يا صاحبي قبلت ام لم تقبل ان اصول الاديان المختصة بالعرمان واحدة حتى في الاديان الاجتماعية . قلت الاديان الاجتماعية لانه يوجد دين يجوز ان يسمى كذلك ليس فيه شيء مما هو مصطلح عليه في سائر الاديان واساسه الادب والانسانية وبعبارة اخرى الفضيلة وهو دين بوذا الذي هو اكثر الاديان انتشاراً بعد دين المسيح فان البوذيين يبلغون ٤٥٠ مليوناً والمسيحيين ٧٥٠ مليوناً

وهذه شذرة من تماثيل هذا الدين تنبئك عن اصوله جاء في الملل والنحل قال « ودون مرتبة البد (أي بوذا) البوديسعية ومعناه الانسان الطالب سبيل الحق وانما يصل الى تلك المرتبة بالصبر والعطية وبالرغبة فيما يجب ان يرغب فيه وبالامتناع والتخلي عن

الدنيا والاعراض عن شهواتها ولذاتها والعفة عن محارمها والرحمة على جميع المخلوق والاجتناب عن الذنوب العشرة . قتل كل ذي روح . واستحلال اموال الناس . والزنا . والكذب . والفيمة . والبذاء . والستم . وشناعة الالقاب . والنسب . والمجد لجزء الآخرة انتهى وهي كما ترى اشبه شيء بالوصايا العشر عند النصارى

ولم تقتصر الاديان على اخذ الفضائل عن بعضها مما يعد من اصول الدين بل اخذت أيضاً بعض العقائد الدخيلة على الدين . فالبراهمة وهم اصحاب الفكرة كما يقول الشهرستاني تميزهم عن البوذيين اصحاب المحسوس يعظمون امر الفكر ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمقول فالصور من المحسوسات ترد عليه والحقائق من المعقولات ترد عليه ايضاً فهو مورد العلمين من العالمين فيجهدون كل الجهد حتى يصرفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضة البليغة والاجتهادات المجتهدة حتى اذا تجرد الفكر عن هذا العالم تحلى له ذلك العالم فربما ينجح عن مغيبات الاحوال وربما يقوى على حبس الامطار وربما يوقع الوهم على رجل حي فيقتله في الحال ولهذا كانت عاداتهم اذا دهمهم أمر ان يجتمع اربعون رجلاً من المهذبن المخلصين المتقين على رأي واحد في الاصابة فيتجلى لهم المهم الذي بهضيم حمله ويندفع عنهم البلاء الملم الذي يكأدم ثقله . انتهى . ألا ترى ان ذلك يشبه التصوف وحلقة الذكر الدخيلة على الاسلام

ولم ينتشر هذا الرد في المؤيد حتى قال بعضهم لمن كان معه حين اطلاعه عليه (قل للشميل انه يستأهل) وكأن اقل ما اراد بذلك اني وان كنت قد نظرت الى الحقيقة فلم أنظر الى طبائع القوم واستعدادهم وقال غيره (جدح جورين من سويق غيره) . يريد اني جنيت هذه الجناية على الدين المسيحي فكأنني جدت من مال غير مالي تخاف على نصيبه منه ولا مسوغ له على هذا الخوف مني عليه

فكان حضرة الفاضل كامل السويفي لم يكتف باني جعلت مدار بحثي على اصول الاديان متجنباً البحث في الوحي والمفاضلة بين دين ودين والكلام على قضايا كل دين حتى يمكنني التوفيق بين جوهر الاديان ومصلحة العمران كما قلت في اول مقالي بل اراد ان يجرني للبحث معه في طبائع الاديان وحقائقها وان يلبسني اما قلنسوة راهب واماعمة

شيخ (مليح بعد ها لكبره جبة حمرا) . ولو جاريته للزمني ان اجول معه جولة في قضايا كل دين وان نغرق كلانا والجمهور معنا في هذا البحر الأقرار له الذي هو علم اللاهوت وعلم الكلام (ولقد انصف العرب بتسميته بهذا الاسم) وهذا ما لم تصبُ نفسى اليه حتى اليوم . فلا نعلم حينئذٍ من اي مضيق نركب ولا في اي لج نخوض ولا على اي شط نخط وقع في تيه نفقد معه خيط اريانا . وهذا ليس محله في هذا المقام مقام تمهيد العقبات الحائلة بين تقارب الامم وبينهم وبين ارتقاؤهم في العمران واني لاشكر لحضرة العالم المتبحر الفاضل الحيزاوي لانه كفاني الخوض في هذا البحث فأظهر جليا بمقائله البديعة التي نشرت في المؤيد ما يصح ان يعتبر في الخلاف بين الدينين فصل الخطاب في هذا الباب عند ذوي الالباب

وأما استشهاده بمن ذكرهم من كبار الكتاب الاوروبين ليثبت ان النصرانية أضرت بالاجتماع في اوروبا فقد قلناه في مقالتنا الاولى ولكننا لم نعتبر هذا الضرر من جوهر الدين بل من الرؤساء من رجال الدين والحكام كما اننا لم نعتبر تهتقر الامم الاسلامية الا لهذا السبب عينه . واعتبرنا نهوض النصرانية وارتقاءها هذا الارتقاء الباهر انما هو لنبذها العقائد التي أدخلوها على الدين وليست من جوهره حتى صار الدين عند القسم الكبير المنتور منهم عند المؤمن صلة القلب الى الله كما في قول شاعرنا الاديب نقولا أفندي رزق الله

انما الدين موعود واتفاق بين هذا الورى ورب البرية

وحتى صار عند غير المؤمن موضوع بحث اجتماعي بالنظر الى ما في مبادئه الاجتماعية من الموافقة للعمران وكثيرون يمجون بهذه الموافقة فلا يبحلون البحث في حقائق الاديان سببا للمنازعات الاجتماعية العقيمة تاركين لكل واحد الحرية في ان يعبد ربه كما يريد ناظرين فيها الى تلك المبادئ العمرانية التي تجعل مصلحة الانسان القرية في دنياه اشتراكية بين افراده وأي دين لا يعلم ذلك وهذا الذي نظرنا اليه في أصول الاديان فعضلناها تعظيماً لم يقفنا فيه باحث ديني مهما كان متحمساً في ايمانه فهل يجوز بعد ذلك أن ينحى علينا باننا غرضنا من دين لنصر آخر

على ان العمراني الذي يريد ان يجعل بحشه في العمران لتطبيق نواميسه على قول فلان وفلان او دين من الاديان انما مثله كمثل الذي يحاول ان يطبق المطبوع على الموضوع فيتسامح بما لا يجب ان يتسامح به من المطبوع ويستمسك بما لا يجب ان يستمسك به من كل موضوع ومشروع فيركب متن الضلال ويهيم في فيافي الخيال فينطق بما لا يفهمه سواه ولا يفهمه هو نفسه ويحسب انه أتى يدائع الاعجاز في الاستعارة والمجاز فيجني على ذلك المشروع من حيث يظن انه يخدمه ويحني على العمران نفسه

أما نحن فننتظر الى العمران ومرشدنا في نواميسه ذلك الكتاب البسيط المتبوع امام كل انسان والذي يستطيع ان يفهمه كل واحد اذا قرأه بامعان ألا وهو كتاب الطبيعة الذي هو اساس كل قياس صحيح اي اساس كل منطق سليم وبيان على اني لا اعلم . كيف ان الدين الذي فيه مثل هاتين الآيتين :

حب قريبك كنفسك وحب الله فوق كل شيء — وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم . الجامعتين فيهما كل واجبات الانسان نحو ربه ونحو قريبه يجوز ان يقال فيه مثل قول ادينا السوفي من انه دين شرك بالله ودين خراب في الدنيا ولا اناقشة في اللاهوت . ولعل له في علم الاقتصاد نظراً جديداً يخالف قولهم « الانسان مدني بالطبع » ويعلمنا ان « التكافل في العمران غير التكافؤ في قواه » فتعمر حينئذ الدنيا عنده بالتفريق والتخاذل والاكتفاء والانفراد والاستئثار فيتألف المجتمع بانفراط عقده — وما هي الا لآلي مشورة — ويتقدم تقدماً سرطانياً متباركاً في مشي القهقري حتى يبلغ ما بلغنا اليه في هيئتنا الحاضرة من الارتقاء الدركي (وان شئت الا الموضحة اليوم فالزقي) الذي صارت سماؤنا فيه كسماء خيل المعري وهي تعب وصارت عقولنا فيه اضياع من دوائر جاحجتنا ومرامي نظرننا اقرب من ارانب انوفنا منا . وهل قاري كتب مثل هؤلاء الاساطين في العلم والادب والفلسفة الذين ذكرنا اسماءهم يجوز له — مع كل سعة هذا الاطلاع — ان يقف في فهم كلامهم على مثل هذا الاكتفاء وما هو لمعري لو درى الا مثل اكتفاء القاري في قوله « ويل للمصلين » على ان غرضنا هنا ليس هذا فما باله يدفعنا للنظر في حقيقة الاديان والمفاضلة بينها ولم نقصد في كل ما كتبنا الا مصلحة

العرمان بالتوفيق بينها وبين اصول الاديان بما ترأى من الامكان وهل في مقالتنا الاولى غير ذلك حتى يقوم علينا المسيحيون يتهموننا في اننا تعرضنا للدين المسيحي والمسلمون يناقشوننا في المفاضلة بين الدينين انها لمصيبة

وقبل ان تنتهي من هذا البحث أريد ان اجاري حضرة مجارة كلية للوصول الى النتيجة المترتبة على كلامه والتي وقف عندها فانا اسلم له جديلاً « بأن العالم المسيحي كما يقول لم يرتق الا بعد احتكاكه بالعرب وان المسيحية عثرة في سبيل الارتقاء وان الاسلام هو موجود هذه المدينة الباهرة » فقط يبقى عليه ان يقول لنا لماذا اذاً اتباع النصرانية ساروا في مضمار التمدن شوطاً بعيداً واتباع الاسلام وقفوا متهمرين؟ فان قال ان الاسباب اجتماعية عدنا الى حيث افترقنا وكنت مصيباً ولعله لا يقول غير هذا القول لئلا يجني حينئذ جنائين على العرمان وعلى الدين نفسه . ام هو يريد بهذه المغالطات التقوية حتى يبقى حجاب الجهل مسدولاً على عقول الناس ليقوا كما في قوله « صم بكم عي فهم لا يرجعون » اما نحن فنميل الى ما هو ادعى لمصلحة العرمان من مثل قوله : ما جعل عليكم في الدين من حرج . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وهذا ينطبق كل الانطباق على ما رمينا اليه في مقالتنا الاولى اشارة للاذهان لكي يعلم الجميع على السواء « ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »



نشر هنا المقالة التي اشرنا اليها في هذا الرد والتي نشرت في المؤيد بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩٠٨ دمجاً لمقالتنا ولو انها ليست لنا لما فيها من الفائدة في هذا الموضوع حسباً لهذه المسائل الخلافية التي يتدرب بها المتعلمون في الاديان لاثارة الفتن بينهم . وقد نشرت بتوقيع « محمد صادق الجبازي » وهو في علمنا اسم مستعار . ولولا اننا لم ننتأذن صاحبها لصرحنا باسمه الحقيقي وهو من خيرة علماء المسلمين وافاضلهم . وهذا نص هذه المقالة مع بعض حذف

كلما خمدت زادوها سعيراً

من أجل كرومر قامت في هذه الايام ضجة دينية بين المسلمين والنصارى في هذه البلاد . فالمسلمون قد فرحوا اذ ظنوا انهم قد فازوا على كرومر بقولهم كما قال وصولتهم في التبشير والتغير كما صال . والنصارى لم يجدوا من الذوق ان يجادلوا في بعض ما سمعوه

عن دينهم لعلهم بأن كرومر تخلى الحدود وأتي بما لا ينتظر من مثله فأخرج صدور اخوانهم ولكن اخرجت هذه الضجة أيضاً صدور الذين يعتقدون ان الارتقاء انما هو بترية العقول ومزاولة الشؤون الاجتماعية باستقلال افكار وان الديانات كلها سواء من جهة انها لا تضر بالاجتماع اذا كانت عقول اهلها مرفقة كما انها لا تنفع فيه اذا كانت عقول جماعاتها متدنية وشاهدهم على ذلك ان اهل دين واحد ارتقوا يوماً وانحطوا يوماً والاعتقاد لم يفارق قلوبهم والعبادة لم تبرح معابدهم وبيوتهم

هؤلاء قوم يحسنون الظن بالديانات ولا يرونها عوائق عن التقدم والتدنى وانما يرون أن تشيع اهل كل دين منها وتحاملهم على دين الآخرين قد احدث ويحدث فظائع من نتائج البغضاء والنفور فيودون لو ينتهي هذا التحامل والتجادل في الدين ويقولون اذا لم يمكن قطع جبال هذا الجدل فلا ينبغي ان تبقى منصوبة الا بأيدي فريق مخصص لا يمد بشيء البتة من القوى المادية فتتنازل الاقوال والاقوال وتنتهي على لا شيء الاحوال لانه لم يهد ان الجدل افاد في تغيير المذاهب وانما تغيرها اسباب اخرى لسنا في صدد تفصيلها

ومن عرف الدكتور شبلي شميل كان ذلك حسب ان يعرف مقصده من المقالة التي كتبها في هذا الصدد ونشرها في المؤيد اي يعرف انه يرمي الى تفنيد الجدل والحث على خير العمل أما من لم يعرفه فربما ظن انه مسيحي كتب ينتصر لدينه بطريقة حية



كان من جملة الذين لم يعرفوا هذا الحكيم ولا قصده حضرة الكاتب محمد كامل السويبي الذي نشر يوم الخميس رداً على الدكتور فتدكرنا اذ قرأناه ان كرومر بتصدية للمفاضلة بين الدينين انما كان موقد نار . وان قومنا كلما خدت هذه النار زادوها سعيماً . فان بعض الذين يكتبون الردود في هذا الموضوع يقابلون كرومر بمثل ما صنع وينسون انه ليس من الضروري اذا اخطأ سليم مثلاً بستم ملة جرجس أن يخطئ جرجس بستم ملة سليم وينسون ان للدين المسيحي اهلاً هم اخواننا في لساننا ووطننا تغيبهم لوائح التحامل على دينهم وروائح تفضيل غيره عليه

ولولا ان كان قبيحاً عدم وجود من يدعو بيتنا الى اسباب الوثام وينكر عليّ اسباب الخصام بقدر الامكان لما وجدنا من اللاتق ان تأتي ما ننكره من الخوض والمحاكمة في هذه المسائل ولكن تلك الضرورة من الدعوة الى الوثام هي التي حملتنا على تذكير حضرة الاديب كامل السويني ببعض كلمات

* *

رأيت في كلام حضرته مواضع كثيرة جديدة بالاخذ والرد معه ولكن ليس هذا من مقاصدنا ولا ندخل فيه وإنما تقتصر هنا على سبعة مواضع قد رأينا التذكير فيها اوجب والحاجة الى الايضاح فيها أمسّ وادعى . جاء في عرض كلام الدكتور ما يفيد ان الدين المسيحي دين توحيد كالدين الاسلامي فانكر صاحب الرد وقال ان دين النصارى دين تعديد لا دين توحيد فاعلم ايها الاديب ان النصراني يتنديء عقيدته بقوله « اؤمن بالله واحد الخ » فالاله واحد عندهم كما هو عندنا وأما ما نسمعه في صفات المسيح ابن مريم فانها فلسفة لا نعرفها نحن ولا يعرفونها هم وقد حملهم عليها بعض النصوص التي هي عندهم مقدسة وكل دين لا يخلو من امور تحمل امله على فلسفة كان في غنى عنها لولاها

وقد جهل اكثر كتاب المسلمين عقيدة النصارى في الاله الواحد الذي ليس بمادة كما جهل اكثر كتاب النصارى عقيدة المسلمين ولكن لظهور الصعوبة في فلسفة العقيدة النصرانية يقول النصارى ان في الدين شيئاً فوق العقل ويعدون ذلك من مفاخرهم في تدنيهم فيظن المسلم انهم يريدون بقولهم فوق العقل انه غير معقول وليس هذا هو المراد بل المراد ان العقل لا يكاد يدركه وكان مثل هذا القول شائعاً ومعروفاً عند المسلمين أيضاً ولكن بعض كتابهم في هذه الايام الجديدة قاموا يتادون بأن الدين الاسلامي وخدته دين العقل ويفسرونه بان العقل يدرك كل شيء فيه ولستنا ندري كيف يدرك العقل امور العالم النبيي مثل انهار اللبن والصل التي في الجنة ومثل عالم الارواح المجردة وعالم الملائكة ولا نعرف كيف يستطيع اولئك العقلاء تفسير النار التي رآها موسى فلما أتاه نودي يا موسى اني انا الله فالخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . اي عقل يدرك حقيقة هذا النداء الذي سمعه موسى فخر صعباً ، واي عقل يدرك حقيقة نفخ الله في فرج

مریم كما جاء في القرآن المجید بنص هذه الآية « ومریم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا »

النصراني يقول الاله واحد كما يقول المسلم ثم يقول النصراني ان عيسى كلمة الله وروح الله وهكذا يقول المسلم ايضاً والنصراني يقول ان مریم عذراء حملت بعيسى الذي هو روح الله وكلمة الله من غير ان يمسه بشر وهكذا يقول المسلم ايضاً فانا اسأل اخواني المسلمين ان يبينوا لي الفرق اولاً بين هذه التعابير وان يفهموها جيداً قبل ان يجادلوا النصارى على التعبير بالأب والابن والروح القدس وقبل ان يسألوا عن الفلسفة التي تبين ان هذه الكلمات الثلاث تدل على حقيقة واحدة ظهرت في ثلاثة مظاهر . وما نار موسى عن القاري بعيد

اني لاعلم ان هذا المبحث سيستغربه اخواني المسلمون وربما جلب في الظنون ولكني لا ابالي بظنونهم في سبيل حقيقة مهمة اكره ان يجهلها اخواني وان يجهلها النصارى ايضاً وهي ان ديني الفريقيين مبني على الايمان بالغيب ^(١) وعلى تصديق الرسل ^(٢) بما جاؤوا به من اخبار الملائكة والشياطين والجن واول الخليقة وخبر آدم وأخبار رسل الله وكتبه ^(٣) التي بعثها اليهم والفرائب التي حدثت باذن الله نحو ولادة عيسى ثم صفات الله الذي ليس بمادة مثل انه متكلم وقد كلم موسى وسميع الذي يدعوه وبصير يكره كشف عورة الانسان في خلوته لانه يراها ثم صفات الجنة موعد المتقين وما فيها من العنب والزمان والنساء الحسان والولدان وصفات النار موعد الكافرين وما فيها من آلات العذاب وصنوف العقاب ابد الآبدين ودهر الداهرين على جرم هو عدم تصديق الانسان بما لم يدركه عقله

فيا اخا العقل ومن يريد كل شيء من الدين بالعقل اياك ثم اياك من الوقوف في

(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب . وحيثما صلوة وما رزقناهم ينفقون (٢) والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون . (الاية) (٣) قولوا آمنا بالله وما انزل اليه وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون (الاية)

العالم الغيبي مع العقل . اذا كنت ترجو تلك الجنان وتخشى تلك النيران فان كنت لا ترجو ولا تخشى ما هنالك فايك ثم اياك ان تدعي الدين فانك كاذب بشهادة أهل كل الملل اجمعين . ها قد بلغتك الحقيقة والله يعلم اني لك من الناصحين

فاذا علمت ذلك يا صاحب العقل من المسلمين فاعلم ان المسيحي يسلم الى الله في ايمانه بعالم الغيب تصديقاً لمحي ومرقس ويوحنا وبولس . واذا علمت ذلك يا صاحب العقل من النصارى فاعلم ان المسلم يسلم الى الله في ايمانه بعالم الغيب تصديقاً لمحمد صلى الله عليه وسلم واذا علمنا أنه لم يسلم أحداً في هذين الايمانين المتشابهين بمجرد عقله فاعترفاً بانكما متشابهان في سبب الايمان وتصالهما فانكما في هذا الباب اخوان

وأزديك ايها المسلم بياناً في ان النصراني يؤمن بالله واحد فاقول ان القرآن المجيد لم يسم النصارى مشركين كما لا يخفى بل ساءم اهل كتاب واجاز أكل ذبائحهم والتزوج بنسائهم ولم يحز هذا ولا هذا في الذين ساءم مشركين وقد اشبه الامر على بعض العلماء من الاقدمين فسأل عالماً آخر كيف لا يكون النصراني مشركاً وهو يقول ان الله ثالث ثلاثة فقال له ان الله الذي لم يسمه مشركاً أعلم مني ومنك

هذا ما رأيته واجباً من بعد ان رأيت وسمعت كلمات القاصرين في هذه المباحث العميقة لدى المؤمنين بالغييب والعقيمة لدى الذين لا يريدون الا ما يشهد به الحس أو العقل بسهولة فان اقنع ونفع فنعما ذاك والا فليتجادل القوم ما شاؤا ان يتجادلوا حتى تطلع الشمس من مغربها أليس كذلك ؟



وجاء في عرض كلام الدكتور انه جعل الاديان بمثابة واحدة من حيث علاقتها بالعرمان وتأثيرها في الاجتماع فانكر ذلك عليه صاحب الرد . وقد طال المقال ففماذا المقام عن الاسهاب في هذا الموضوع فلذا اكتفى بكلمة واحدة وهي ان صاحبنا يسلم معنا ومع الدكتور بأن ديننا الاسلامي لا يتنافى العرمان فافرض انك لا ترى ديناً آخر له هذه المزية وان ديانات الاقوام الآخرين قد خربت ديارهم وقطعت نسلهم فلذلك لم يبق في الصين من نسمة ولا حجر على حجر ولم يبق في اوربا واميركا من ديار ولا

نافخ نار فما الذي يضرك اذا كان دليلك الحس ودليله الخيال ان تجامل من حولك من الذين يتدينون بالنصرانية اخوانك في الوطن واللسان الذين لم يبقَ لهم من اخوان في الدين الا اربعمائة وخمسون مليوناً فقط ! نعم اقول لك ما الذي يضرك اذا لم تقاجي القوم جيرانك بأن ليس يدهم الا دين يخرّب الديار ويبقي البشر !



بقي شيء واحد مما احببت الكلام فيه وهو انه جاء في عرض كلام الدكتور ان الزواج والطلاق ليسا في الاسلام والنصرانية من المسائل التي يقيد بها الاجتماع وقد قال صاحب الرد بان ذلك صحيح في الاسلام دون المسيحية ولولا اتي ما وصلت الى هذا المقام حتى مللت لشدة كراهتي الجدل في الدين لاسهبت في هذا الموضوع ايضاً ولكني اعدل عن ذلك الى توجيه نظر الكاتب الى كتاب الوجود فيه صحائف الامم وهناك يجدان لاجتماعهما سنناً قد راعتها الديانات كلها فالمسيحية جاءت في هذه الابواب بوعد ونصائح ولم تجيء بشرع حاتم يجب تأييده على الملك والحاكم فهذا سر اختلاف طوائفهم في هذه الابواب قديماً وحديثاً فمن تمسك بهذه النصائح من ملوكهم وشعوبهم بنوا عليها قوانينهم في هذه المسائل ومن رأى مندوحة في تفسيرها وتأويلها وجواز مخالفتها اجتماعياً تراهم توسعوا فيها على قدر ما أنسوا ان العادات تساعدكم . وبهذا البيان تعرف صحة قول الدكتور

وبعد فاتي قد عملت ما علي من الارشاد الى وجوب التفاهم وآداب المناظرة ومراعاة الاوقات فيها وارجو بعد ذلك امرين . الاول من حضرات الكتاب المسلمين ارجوهم اذا مدحوا دينهم ان لا يذموا دين غيرهم . والثاني من حضرات الاديان المسيحية ارجوهم ان لا يظنوا الدين الاسلامي هو الذي يأمر بدم غيره من الديانات بل هو يأمر بالحكمة والموعظة الحسنة . انتهى بعض اختصار

المقالة التاسعة

رأى وقال ^(١)

كل شيء في الكون سلسلة : العالم المادي والعالم المنوي
على حد سوى . وكما نشأت الاحياء الزاكية من احياء
ادنى وهي من مواد الطبيعة هكذا نشأت الاديان من
الاعتقادات وهذه من الحرافات وهذه من قلة تعرف
الانسان لطواهر الاشياء التي حوله وتومعه فيها

آيات بينات . وحقائق باهرات . ضلال استمسك به الناس كأنه امر وثيق كل
حرب بما لديهم فرحون . وهدى اذا ذكره قائما هم يهيمون

اناس يجمعون ويعطشون ويموتون . نظروا الى ما حولهم واذا الارض تخرج لهم ما
ياكلون مريتا ويشربون هنيئا . فقالوا ائنا ارحمنا ولا تحبسي عنا قوتا يفتدينا وماء
يروينا . وارتفعوا الى ما فوق واذا البرق يكاد يخطف ابصارهم والزرع يصم اذانهم
فانخلعت قلوبهم من هول ما يبصرون ويسمعون . فاغضوا جفونهم وجعلوا اصابعهم في
آذانهم من الصواعق حذر الموت ونخوا خاشعين

اوهاهم اصلا احلام . تطوف بالناس وهم نيام . فينتقلون وهم في مكانهم مقيمين . فقالوا
الانسان اثنان . جسم مقيم . وروح يهيم . يفارق ثم يعود . ولا ينفك الا اذا حل الموت
الزؤام . فينتقل في منسج الوجود . يذكر المعاهد والمعهود . وما ذلك الا ذكرى ما
كانوا يعملون لو كانوا يفتقون

رأى الاوائل انهم يرقدون ثم يستيقظون . وينمى عليهم ثم يفتقون . وقد يفتقون
كالموت فيقومون . فداخلهم ان الموت رقعة ثم يعيشون بمناجيا به اجسادهم وتعود
اليها ارواحهم . ذلك خير لهم من موت يكرهون . فدفنوا معهم كل ما كانوا يحتاجون
اليه في الحياة الدنيا من طعام وشراب ولباس ومتاع وسلاح به عن حياضهم يندودون .

وعبيداً يخدمونهم في الحياة الاخرى واعدوا لهم البلبايا رؤوسها في الولايا يركبونها يوم
يبحسون

من الناس القوم الاشرار . ومنهم القوم الاخيار . فانتشرت ارواحهم في الارض
كل يعمل على شاكلته . تخافوا الارواح الشريرة ولاذوا بالارواح الصالحة يتعوذون
بكل ملك كريم من كل شيطان رجيم

ابائنا كنا برزة واتم احياء . وما نعلمكم امواتاً . فما نحرّمكم من كل ما كنتم به
تتمتعون . فقد اعدنا لكم طعاماً مما كنتم تأكلون . وشراباً مما كنتم تشربون . وزودناكم
كل ما كنتم اليه تحتاجون . وحنطنا اجسادكم تخفيطاً واعدنا لها القبور . لتحفظ الى
يوم النشور . وقد زينها بالزهور . لعلكم عنا ترضون وايانا تذكرون

ذكرى لم يكن يقصد بها سوى الاكرام . ثم استرضاء خوفاً من زوال منفعة ثم
تجسم الوهم حتى ضاع الرشد في هوى حب النفس فقاموا يعبدون ما يمجّدون
حيواناً بجوار القبور . او نباتاً ينبت على هذا المكان المأنوس والمهجور . قد يتعالى
وتنزل اصوله الى باطن القبر المعمور . فلعل روح الحبيب . انتقلت الى هذا الجار القريب .
وما كانوا الا واهمين في ما كانوا يزعمون

تناسخ تنسخ به ارواح الاشرار . وتترقى به ارواح الاخيار . خالط الناس فيه جميع
اصناف الكائنات . حتى اختلط عليهم أبشر ما يرون في صورة حيوان وجناد ونبات .
وباتوا في امورهم حيارى لا يدرون

وهو ان الحياة الاخرى كلحياة الدنيا . مساكن الموق فيها انما هي مساكن الاحياء
او هي قرية منها عنها يرحلون . وعليها يترددون . ثم لمع نور ضئيل في ظلمات الاوهام
فابعدوها الى الغابات والحراج فالبراري فالجبال الشاهقة حيث صارت اقرب الى النجوم
والارتفاع منها الى السماء . بعد ان كانوا قد هبطوا بها الى اعماق الجحيم . قبل ان استقل
به الشياطين وفصلوه عن النعيم . فاكروها في الحيوان والاشجار فالحجار فالقفار . حتى
وقفت بهم الآمال . على اعالي الجبال . لما رأوا فيها من المهابة والجلال . وهم يهيمون في
في ما راحوا عنه يبحسون

عبدوا أباً كريماً . أو ملكاً عاتياً أو حليماً . أو حيواناً نافعاً أو شراً . أو شجرة في
الغراء . يستظل بها من الرمضاء . أو بئراً يردونها في الصحراء . أو حجراً أسود سقط من
العلاء . أو نهراً يروي رياضهم . أو ناراً يصطلون بها . أو طبائع تميل إليها شهواتهم .
باتوا في سبيلها منها لكن . عبدوا ذلك كله دفعا لمكروه . واستجابا لمنفعة . معبودات
تعدادها تعدد الكائنات . فأنواع المنافع فاصناف القوات . وما كانوا الا اوهامهم يعبدون
احتجبت عنهم آلهتهم فقالوا صعدت الى السماء . قصصوا الجبال الشاهقة يناجونها
منها . فبرزت لهم الشمس الساطعة . وألكوا كب اللامعة . فانبهرت ابصارهم من جلالها
وهم اليها ينظرون . فقالوا ان هي الا آلهتنا او مساكن آلهتنا نمبدها او نمبدها فيها . وما
كان أبائنا على هدى في ما كانوا يعبدون^(١)

غابت عنهم معبوداتهم فطلبوها من عالم الغيب الى عالم الشهادة . فاقاموا لها التماثيل
والانصاب يذكرونها بها في المصائب . ومازجتها الاوهام . فنحتوا منها الاصنام . يقصدونها
في المهمات . ويستنجذونها في الملمات . لقد ضلوا في ما كانوا يقصدون ويستنجذون
وقفوا عند ذلك زماناً طويلاً . الوف السنين تعد في كأمس الدابر . والافكار في
اضطراب وحيرة . والاعتقادات متناقضة غير متوافقة . مقطوعة موصولة غير متناسقة .
والعالم ميدان ترمح فيه الارواح والاشباح . والصور المريمة والخيالات الشنيعة . فافتتح
الباب واسعاً للسحر والسحرة والشعوذة والمشعوذين والرقى والطلاسم . كل يمجذ في ذلك
مصلحة له : المضللون والمضللون . اما هؤلاء فاهل مكبر . واما الاولون فاغبياء . هؤلاء
ليسوا على هدى من علمهم وما كان اولئك بمخطئين

آلهة يرضون ويفضون . ويحبون ويكرهون . ويعشقون ويتزوجون . ويولدون
ويولدون . ويتحالفون ويتحاربون . يسكنون الجبال . ويترددون على الغياض . ولهم
مواقع تذكر مع البشر يهبجون البحار . ويشيرون الرياح ويحبسون الامطار . ينزلون الى

(١) فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما اقل قال لا احب الآفلين . فلما رأى
القمر يازعاً قال هذا ربي فلما اقل قال لئى لم يهدي ربي لآكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس
بازغة قال هذا ربي فلما اقلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون .

اعماق الجحيم . في طلب نفس صديق لهم من الناس ويصعدون بها الى النعيم . آلهة صورهم الناس على صورتهم وبكل ما هم اليه يميلون . وجمالهم نظيرهم طوائف ومراتب بعضهم فوق بعض ولم رئيس عظيم له يخضعون . واليه يرجعون . ذلك والناس في ضلالهم يعمهون . واذا بصوت زاجر خرج من وسط هذه الظلمات ونطق بهذه الكلمات ^(١)

أرباً واحداً ام الف رب ادين اذا تقسمت الامور
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير

ذلك كل نشوء الانسان في الاوهام . قبل مجيء الثلاثة العظام . موسى اليهودية وعيسى النصرانية ومحمد الاسلام



المقالة العاشرة

كشكول طيب ^(٢)

ادع هذا انكشكول كل ما يدور في الخاطر من منظور وغير منظور ومنقول ومعهول غير متعمد ترتيباً او ضامن صواباً او متكلف عناء لا تتقاء الالفاظ او الابداع في المعاني أو التأنيق في الانشاء غير فاع كتاباً او مسهد جفناً او جاهد فكراً او مختلس وقتاً ^(٣) او مصلح خطأ او متوخ حقيقة مدفوعاً الى الورق عن غير قصد ماداً ساعدي الى الدواة عن غير جهد وممسكاً القلم بيدي عن غير سابق علم بما اخط محققاً ما يؤثر عن العلماء والعلماء كالشعراء قد يصدقون وقد لا يصدقون من ان الوظيفة تكون العضو فقد روي عن كثيرين من الكتاب انهم لا يستطيعون ابداء فكر او انشاء سطر ولا يعرفون ماذا يكتبون ولعلي واحد منهم — حتى يسكوا القلم يدهم فيقبضون عليه وهو مثل كفتاة مهدي السودان فاذا هزوه

(١) الي وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين

(٢) نشرت في المير سنة ١٨٩٨ على اثر مشروع القيص في نزع السلاح وعلى اثر موقعة ام درمان واتصار ككتشر سردار الجيش المصري (٣) مخالفة لقاعدة القبيحة المشهورة ...

على القرطاس اصبح كأنه سيف بطل ام درمان الذي اثبت للناس حقيقة كبرى طبّل العالم لها وزمر ألا وهي ان الحضارة ارقى من البداوة والعلم افضل من الجهل وان الرجل المدرج بالسلاح اقوى من الاعزل فاسترد عن مقدرة ما اضاعوه لا عن عجز وانما هي المصلحة تؤتى من ابوابها

وقد ذكر اناس تغلب عليهم الشراسة اذا حلوا العصا ويبالغون في الكياسة اذا لبسوا القفاز ولعل هذا هو السبب الذي لاجله لم احمل عصا في عمري وانا اكره لبس القفاز لا لاني اريد ان ابقى بين السكر والحنظل

لا تكن سكرًا فتأكلك الناس ولا حنظلًا تذاق فترمي^(١)

بل لاني اعتقد فيه عدم الصحة واقل اضراره حبس اليد وحبس البخار الجلدي وانا اكره كل تقييد . ولعل هذا الذي حمل القيصر ايضا على اصدار منشوره طالباً نزع السلاح يريد بذلك ان يعجل مجيء الدور الثالث من ادوار حكم العالم اذ يؤثر عن اهل التثليث انهم يعتقدون ان العالم حكمه اولاً الاب بالجبروت ثم الابن باللين وسيأتي عصر يحكم فيه الروح القدس بالرحمة

أخط كل ذلك غير مقاوم ما بي من الكسل والملل أو مجاهد في سبيل العمل كاني صرت من اهل التمني لا احب ان التي دلوي في الدلاء خوفاً من ان يجيء بحماة وقليل ماء وانا اكره التقتير ولو مع اليسر وافضل عليه البذل ولو مع العسر انام على القرطاس حتى يحف الحبر على القلم ان لم يأت الفكر عفواً ولا ابذل اقل عناء لحث مطايا الافكار

(١) وقد طرأ على الكاتب منذ سنتين ما اعجزه في يديه ورجليه مدة من الزمان الجأه الى حمل العصا ولبس القفاز فقال

مضى الزمن الذي قد كنت فيه	اقول كأنني في الناس هتد
اخاف الشر من آلات شر	فم احمل عصاً كي لا اغرر
وما قيدت كره التقييد كني	بقفاز القنق الحلو المنقندر
فصرت اذا مشيت وقد رأني	كلاب الحني مثل الاسد تزار
تخاف يداي من خطرات ريج	ورجلي ان مشت بالظلم تمثر
قفازي حفاظ يدي ولولا	عصاي اخاف ان الظهر يكسر
وما انا حنظل بصاي يخنى	ولا انا في حفاظ يدي سكر

الجري في هذا المضمار فان اقبلت قابلتها بالترحاب وان ادبرت اوصدت وراءها الباب ولا اكلفك ان تقبل كلامي كالقند في اليد اتناول تارة البحث في الحقائق قررت ام لم تقرّر وطوراً اخوض عباب الاحلام احلام اليقظة واحلام المنام ولو كانت دون حلم القيصر مقاماً فقد جاء في كشكول ارباب السياسة ان احلام الملوك ملوك الاحلام وانا بعيد جداً عن هذا المقام

وكاني بالقيصر يدعوطائف الحيوان من كل شرفاء ولود وصماء ييوض للاجتماع في مؤتمر تنفق فيه على نزع سلاحها فيقلم الاسد مخالبه كما تقلم السيدة اظفارها ويكسر الخنزير انيابه حتى اذا افترى فتر عن لؤلؤ رطب وعن برد ويقص الفيل خرطومه اثلاً يبقى كأنف ابن حرب ويتخلى كل واحد عما خصته به الطبيعة من سلاح يذود به عن حوضه فكانه يقول للانسان ضع حداً لقوى عقلك لتقف عن استنباط الوسائل التي هي عنوان قوتك وضمان استقلالك ولا تقتر بقول الشاعر

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يضرّس بانياب ويوطأ بمنسم

فان مثل هذا القول حديث خرافة اليوم وتنازل عن مطامعك وارض بما انت فيه صغيراً فقيراً فصغير فقير وغنياً كبيراً فغني كبير فليرض كل واحد بحالته ولا يطلب الخروج عنها . ولو اصاب واضع منشور نزع السلاح لخفض من استبداده ودعا الى ذلك اخوانه في المعمور وبدأ باصلاح بلاده ورد من قفاره الشاسعة الافاً من النفوس واستخدمها في المنافع العمومية عوضاً عن قطعها من الهيئة الاجتماعية لذنوب سببها جور حكومة لم تعرف للجمهور حقاً تطالبها بالعدل فتقول عندك ظلم لي وتطلب منها نشر العلم فتقول لك جهلك اضمن لحقوقي فكيف تريد مني ان اتنازل عن هذه الحقوق الموروثة التي تجعلك انت لي وانت تريد ان اكون انا لك اتجهل اني انا اكل وفي اكل الست انا ظل الله على الارض فان مررت بي فلا ترفع نظرك الي بل اخفض رأسك واضرب بيمينك موطى قدعي وارفع عجزك فان بذلك احترام الملوك وان خالفت هذه الفروض الواجبة لي عليك وطالبتني بحقوق لا اعترف لك بها فان هناك قراراً شاسعاً تعلمك الادب هذا هو نظام تلك الحكومة التي تطلب اليوم نزع السلاح

ولعل القيصر يمزح او هو يمتحن عقول الناس وخصوصاً اصحاب الجرائد الذين يتهاقنون على كل كلمة تسقط من افواه الملوك تهافت الجياح على القصاع ويستمسكون بها كأنها الدر والجوهر مثبتين انهم كسائر الناس ينظرون الى من قال لا الى المقال ولا يصح ان يكون القيصر قد قصد غير ذلك او ما يماثله مع بقاء احترامنا لمداركة لان مثل هذا القول ينقض ناموساً طبعياً لا يستطيع تقضه ولو شرع فيه قيصر يحكم على الملايين من البشر لانه ناموس يحكم على ما هو اعظم واوسع من حكمه يحكم على الطبيعة من جماد ونبات وحيوان ألا وهو ناموس تنازع البقاء ويخطئ من يظن ان اعداد السلاح والتأهب للزلازل والكفاح مضر بالهيئة الاجتماعية موقف لنجاحها بل هو بالضد من ذلك موجب لارتقاءها فاناموس تنازع البقاء في الطبيعة هو قاعدة ناموس الشوء والارتقاء ولما قلّ التنازع وقفت حركة الارتقاء بل داردولابها الى التقهقر والتاريخ الطبيعي بل تاريخ المجتمعات البشرية شاهد عدل على ذلك ألا ترى ان الامم التي صرفت قواها عن استنباط وسائل الدفاع كيف وقفت حركتها وقلت اختراعاتها وضعفت مصنوعات وطمست علومها وساد الجهل عليها حتى حل بها القضاء بحكم تنازع البقاء ومن ينكر ان الاستعداد للحرب منذ حرب السبعين قد بلغ مبلغاً لم يسبق له مثيل في التاريخ ومن ينكر مع ذلك ان تقدم الهيئة الاجتماعية في هذه السنين القليلة في العلوم والصنائع والشرائع يفوق ما حصل الانسان على ما يضاهاه في قرون كثيرة فطلب نزع السلاح مخالف للنظام الطبيعي من جهة وموقف لحركة الارتقاء من جهة اخرى ولعل قيصر الروس حسد امبراطور الالمان على نيل شهرته بالشدة فاراد ان يباريه في الحصول على هذه الشهرة باللين فطلب للناس عمراً لا يروى الا عن تخيلات المتشفين واحلام الزاهدين

المقالة الحادية عشرة

المراة والرجل وهل يتساويان ^(١)

مسألة كثر تحدث الخاصة بها وذهبوا فيها رأيين متضادين . وطالب القائل بتساويهما بحقوق المراة المرتبة على هذا التساوي والتي اهتمتها الرجل في زعمه من قانون البشرية صلفاً وعنواً او كما تقول المراة لانه هو الذي سن هذا القانون فآثر نفسه فيه استبداداً حتى انكر عليها النفس التي يفخر بها على سائر المخلوقات . وانكر هذا الحق من ذهب ضد مذهبه ونسب دعواه الى غيرة اعماها الهوى ورأي اضله الوهم . ولقد شحذ المتباحثون في المسألة قرائح امضى من القواضب وجردوا ألسنة أحد من الاسنة وبروا لها اقلاماً اقوم من قدود الهيف اذا اخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعنات اوقع من لحاظهن اذا رنت سهامها في القلوب . وتجاروا في مضارها تجاري خيل الطراد في يوم الوعى . فن آخذ بناصر المراة ارفع بها الى اوج البشرية وقال ما هي بشر ان هي الا ملك كريم ومن متحامل عليها انحط بها الى حضيض البهيمية وقال ان هي الا متاع خلق للرجل وليست بشراً سوياً . وكلاهما تجاذب في القول طرقي الافراط والتفريط وادعى نصر الحق وما اتبع في نصره الا الهوى

ولم يفت نبهاً قومنا جولة في حومة هذا المجال فقد سمعتموه في هذه الجمعية يتباحثون ويتناظرون مستطرين دراري المعاني من مماء الالفاظ حتى كدّن يلقطن باليد . وشهدتم مواقع نزاهم في حلبة المقتطف الاغر وغيره من الجرائد الوطنية ورأيتم كيف ان هذه الحرب قد اتقدت نارها في قلوبهم وحي أوارها في رؤوسهم ونعم المرام . الا انه لا يؤاخذني بكلمة هذه الحرب وفرسانها اذا قلت انهم جالوا بنا الى غير محسم نزاع ووقفوا بنا على غير موقف هدى حتى تخيل للقارىء والسامع ان المسألة ككثير من المسائل الخلافية سلسلة لا تنتهي حلقاتها ودور لا يعرف طرفاه وما ذلك في اعتقادي الا لانهم

(١) خطبة تليت في جمعية الاعتدال بالقاهرة ونشرت في المجلد الحادي عشر للمقتطف سنة ١٨٨٦

ولجوها من غير بابها ولذلك رأيت ان اقرعها من الباب الذي يُدخل منه وانخما من الوجه الذي يختلف اليه

ذهبت طائفة من اهل النظر الى ان المراة مساوية للرجل في العقل . وفي اعتقادنا ان المبحث طبيعي محض اعني انه من مباحث علم الحيوان المعروف بالزولوجيا او بالحري من مباحث علم الانسان الذي هو فرع منه والمعروف بالانثروبولوجيا ولا يصح ان ينظر اليه من غير هذا الوجه او يقطع فيه حكم بدونه . والانثروبولوجيا لا كما يفهم المتقدمون علم اقرب الى النظر والّا اتسع بنا مجال القول وتها في فيافيه ووقنا في لبال لا يجمعنا فيه سوى فوضى الاختلاف وخرجنا منه كما خرجنا اليه . وربما تشعبت المسألة دوننا الى فروع كثيرة افضى بنا الولوج فيها الى الاعراض عنها والتوغل في امور جدلية لا طائل تحتها كما هو دأب الذين لا يستندون في بحثهم الى اساس متين مرشد لبرهان المستطلع كالبحر الجاح المشط . ولكن كما يفهم المتأخرون علم يبحث فيه عن الانسان من حيث كونه حيواناً وانساناً معاً في تركيه وقواه وافعاله فساق الكلام على هذا المنهج يسهل علينا فهمه ويقينا فيه عثرة الشطط فلا نرتفع به محلقين الى « لا أوج » ولا نهبط به سافلين الى « لا قرار » بل نضعة في مقامه الطبيعي

وأولاً ننظر اليه في الانواع اي انواع الحيوان المختلفة . فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الاتى اشد من الذكر في الحيوانات الساقلة واضعف منه في الحيوانات العالية ومساوية له في ماكلن بينهما وذلك قاعدة معتردة الا في ماندر والنادر لا يعتد به . فأتى النحل والزناير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات اشد من الذكر (١) وأتى الطير والحيوانات اللبونة وسائر ذوات الفقر العالية اضعف منه غالباً .

(١) وشاهدنا المقتة التي تنتشب في قفران النحل اي جماعتها بين الاناث والذكور والتي تدور فيها الدائرة على الذكور لضعفها عن مقاومة الاناث . وهذه المقتة البرية على جانب من الحكمة والاقتصاد لانها تحصل من شهر حزيران الى شهر آب من كل سنة عندما لا يعود للذكور فائدة ويصير لوجودها ضرر وهو اكل جني النحل . والحكمة لا تعرف الرق ولا تشفق خلافاً لما يظن بل كثيراً ما تقضي بضحية البعض حفظاً لحياة الجماهير كما هو شأن السياسيين ايضاً في الاجتماع البشري

ويستفاد من هذا ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوانات المنحطة في سلم النشوء وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوانات المرتقية . وسنبين اوجه الامتياز . وهنا الطريق وعمر والمسلك صعب فأرجوكم ان تتبعوني فيه متزودين جانباً من الصبر
ففي الطيور والحيوانات اللبونة التغذية اقوى في الذكر منها في الانثى والدم أشد وفي الكريات الحمر الصالحة للتغذية اكثر مما فيها ومن الكريات البيض القليلة الصلاحية لها أقل (كوينكود وكريولف) . وفي المليتر المكعب من دم الرجل مليون من الكريات الحمر اكثر مما في دم المرأة (ملاسر)



والرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها أنهم منه اي انها تشره فيه اكثر منه . والتنفس اقوى في الذكر منه في الانثى واذا تساوى الرجل والمرأة في القدر تقس رثته من الهواء نحو نصف لتر أكثر من رثتها . وهو يتناول من الاكسيجين المطهر للدم اكثر منها وان كانت تنفس اكثر منه وتزيد نفساً واحداً في الدقيقة من سن ١٥ الى سن ٥٠ (كواتلت) . وهو يفرز من الحامض الكربونيك المتحصل من احتراق الانسجة اكثر منها في جميع الاسنان (اندرال وغفرت) . وحرارته اكثر من حرارتها وكذلك حرارة الديك بالنسبة الى الدجاجة

وقوة ضغط الدم اعظم في الذكر منها في الانثى وانما نبضة ابطأ من نبضها والفرق من ١٠ الى ١٥ نبضة في الدقيقة بين الرجل والمرأة و١٨ بين الاسد واللبوة و١٥ نبضات بين الثور والبقرة و١٢ نبضة بين الكباش والشاة

وعظام المرأة اخف من عظام الرجل . وفي عظامه من المواد الترايبية اكثر ومن المواد الحيوانية أقل ومن كربونات الكلس اكثر ومن فصائره اقل مما في عظامها (ملنادوار) والرجل يستعمل يمينه اكثر من المرأة والمرأة تستعمل يسراها أكثر من الرجل (دولني) . ومنكبها الايسر اعظم من اليمين بخلاف الرجل كما في فروع البشر السفلى (هرتين وليفون) والترقوة بالنسبة الى العضد اطول فيها منها فيه (بروكا) كما انها اطول في السود منها في البيض

والذكر أعظم من الانثى كما هو معروف في الحيوانات الالهية . والرجل يزيد المراة اثني عشر سنتيمتراً طولاً (توينار) وهي أخف منه وإن ظهرت اسمن لتغلب الشحم فيها الذي يكسب بدنهما استدارةً وهشاشةً ويستر عضلها بخلاف الرجل فانه قليل الشحم نافر العضلات صلب البدن . وهي بارزة الفكين اكثر منه في الشعوب الهندوجرمانية (توينار)

وقدم المراة اكثر انبساطاً واقل تحدباً من قدم الرجل (دلوني) وذلك يدل على الانحطاط . وذوات الفنج والدلال يحاولن اخفاء ذلك بالاحذية المصنعة ذات الكعب المتطاوّل

وصوت المراة أعلى من صوت الرجل . وكذلك اصوات اناث الحيوانات أعلى من أصوات ذكورها

وعضل الذكر اغلظ وأشد من عضل الانثى كما في الحيوانات الوحشية والالهية . وقوة المراة من سن ٢٥ الى ٣٠ مقاسة بالدينامومتر ثلثا قوة الرجل في هذا السن . وحركاته أضبط من حركاتها ولهذا يفوقها هو ولا تدركه هي في فني الموسيقى والتصوير وجمجمة الرجل اكبر من جمجمة المراة (بروكا والجمهور) وسعتها في الرجل الايض ١٤٤٦ سنتيمتراً مكعباً وفي امرأته ١٢٢٦ (هُشك) . والجمجمة اقل ارتفاعاً وطول في المراة منها في الرجل (بروكا)

ودماغ الذكر اقل من دماغ الانثى . فدماغ ذكر الكودلاً وهو نوع من القرود ٥٤٠ غراماً ودماغ اناثه ٤٧٠ ومعدل وزن دماغ الرجل ١٣٢٣ غراماً والمراة ١٢١٠ والفرق ١١٣ غراماً (بروكا) ولا يحمل هذا الفرق على صغر قد المراة بالنسبة الى الرجل فان قامة المراة بالنسبة الى الرجل هي كنسبة ٩٢٧ الى ١٠٠٠ وأما وزن دماغها فهو كنسبة ٩٠٩ الى ١٠٠٠

وباجماع الانثروبولوجيين مقدم الدماغ الذي هو مقر القوى العاقلة الرفيعة اصغر في المراة منه في الرجل سواء هذا او كانا على الفطرة وهذا الفرق ٥٤ سنتيمتراً مكعباً راجحة من جانب الرجل (هُشك) . ومؤخر الدماغ الذي فيه مركز العواطف اكبر في

المرأة منه في الرجل ولهذا قيل ان المرأة تحيا بقلها اي بعواطفها والرجل يحيا بقله ونصف دماغ المرأة الايمن اكبر من الايسر بخلاف الرجل وهذا يفهم منه لماذا المرأة تياسر اي تذهب ذات اليسار والرجل ييامن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهر حتى في عرى ثيابها وازرارها فان حركة التزير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينية كما يمكن تحققة من ارسال النظر اليهما . وهذا يدل على ان الاختلاف بين الرجل والمرأة من اصل الطبع . ودلوني اول من نبه النظر الى ذلك وقال ان حركة المرأة اليسارية او التقريرية كما يسميها ايضا دليل على الانحطاط لانها تشاهد في الحيوانات كالثور وفي فروع البشر السافلة وان حركة الرجل اليمينية أو التبعية كما يقول ايضا دليل على الارتقاء



فهذا نظر تشريحي وفيزيولوجي يبين منه هذا الفرق بين الرجل والمرأة وأما من الوجه الادبي فقد اختلفوا في هل المرأة ابل خلقاً من الرجل ام لا . وتوجد مؤلفات كثيرة في مدح المرأة وذمها وقد ذهب مؤلفون كثيرون الى ان المرأة أنهم من الرجل واكسل واشبق وابخل واكثر عجباً وكبراً وحسداً واشد حنفاً وحقداً . وفي المصور الوسطى طرح احد المجامع هذه المسألة مطرح البحث وهي « هل للمرأة نفس » ولا نظن ان احتقار المرأة بلغ هذا القدر في عصر من المصور او عند شعب من الشعوب . وجميع الحكماء والفلاسفة المتقدمين كاقراط وارسطو على ان المرأة احط من الرجل . ويضيق بنا المقام عن استيفاء جميع ما قالوه في ذلك من مدح وذم وتسنيع وتشنيع . فنحن لذلك نغفل اقوالهم ونستدل لحل المسألة على مباحث المتأخرين المبني اكثرها على علم مقابلة أفعال الانسان المعروف عندهم بالدموغرافيا

من المقرر المتفق عليه ان المرأة اقل ارتكاباً للجرائم من الرجل . قال كواتلت والذي يمنعا من ذلك انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها . وقال غيره أن التسميم الذي هو سلاح الجبناء هو في الغالب سلاحها . وهي ابل من الرجل وأخدع منه لانها اضعف منه والحيلة والخداع سلاح الضعيف . ان استغوتك استعطت بكائها وان استضعفتك قتلتك بكبرياتها . والجمهور على انها محبة ومحسنة

اكثر من الرجل انما احسانها لا يغني ولا يطاق وقلما تفعله الا لفرض ديني
وأما من الوجه البسيكولوجي أو العقلي فن المقرّر ان القوى العاقلة تابعة لحالة الدماغ
أو بالحري لمركز هذه القوى فيه وهو في الحيوان العالي كما تقدم اعظم في الذكر منه في
الانثى ولذلك كان الذكر اعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعين

وقد اتفقت جميع الشرائع على ان تعامل المراة معاملة القاصر المحتاج الى وصي وسببه
ما بها من الخفة والطيش . وأما زعماء المساواة فيدعون ان هذه الشرائع قد وضعت المراة
للرجل لان الذين سنوها انما هم الرجال . ووصف علماء الاخلاق المراة بانها لاهية متقلبة
مفرطة اكثر من الرجل وجميعهم على انها مطبوعة على الخرافات والعناد والتشبه والتمسك
بالعادات القديمة اكثر من الرجل وعلى انها مهذار مخوف اكثر منه . وقال بروكا العالم
الانثروبولوجي ان المراة أقل ادراكاً من الرجل وهو ايضاً رأي دروين كبير الطبيعين
في هذا العصر قال ما معناه ان الرجل والمراة ان تجاريا فالسابق السابق هو وهل يبلغ
الظالم شأؤ الضليع

وقتل دلوئي عن التجار والصناع ان المراة تنابر على العمل اكثر من الرجل الا انها
أقل ادراكاً منه ويقرب عملها من ان يكون ميكانيكياً اكثر من ان يكون عقلياً . فني
المطابع نحسن اعادة صف الكتب المطبوعة ولا نحسن صف الكتب المخطوطة كالرجال
لانها لا تفهمها نظيرهم . وقال ايضاً اذا قيست المراة بالرجل في اوروبا وجدت متأخرة
عنه نحو قرن : فبينما الرجل يشغل بالتاريخ والفلسفة والعلم تشغل هي بمطالعة الاقاصيص
وكتب الادب . نعم انه حصل اليوم في اوروبا واميركا ثورة في خواطر النساء فهن
يطالبن الرجال بالاعمال التي افردوا بها وينازعنهم المراكز العلمية وقد صار عدد غير
قليل منهن طبيبات غير انه لا يعلم انهن سرن الا على خطواتهم مقلدات غير مخترعات
وعلى المستقبل ان يثبتا بما اذا كنّ يستطعن اكثر من ذلك

والخلاصة من كل ما تقدم ان الذكر في الانواع العالية يمتاز على الانثى بشدة
التغذية وبالنتيجة بالقوة العضلية والعقلية ايضاً لانه يوجد نسبة بين الحياة النباتية الخارجة
عن سلطان الارادة وحياة النسبة الواقعة تحت هذا السلطان فالرجل لما كان يتقذى اكثر

من المرأة ويولد قوة أكثر منها كان ضرورة أقوى منها جسدياً وعقلياً
وما ينبغي التنبيه إليه هنا أن الفرق بين الذكر أشد منه بين الاناث وذلك يرى في
الحيوان والانسان فإن الرجال من الشعب الواحد بل من العائلة الواحدة يفرقون بعضهم
عن بعض في القامات ولون الشعر والقوة العضلية والصوت والمشارب حتى الخط ايضاً
أكثر جداً مما يفرق النساء بعضهم عن بعض . وشدة التباين من علامات الارتقاء كما لا
ينبغي على علماء هذا المذهب



هذا نظر في المسألة من حيث الانواع . واذا نظرنا إليها الآن من حيث الفروع
البشرية أعني بالمقابلة بين الشعوب المختلفة فنجد نفس النتيجة التي وجدناها في الانواع
أعني أن المرأة تقطع عن الرجل كلما كان الانسان اعرق في الحضارة والمدنية وتساويه او
ترتفع عنه كلما كان اقرب الى البداوة والخشونة جسدياً وعقلياً . وشهادات السياح التي
تؤيد ذلك لا يحصى عد فنتصر منها على ذكر السير فراراً من التويل : حكى بستيان
في رحلته أن نساء هج افريقية أشد من الرجال وانهم يسدن عليهم ويحاربون نظيرهم
وهن كذلك على شهادة مينرس في جزيرة كشتكا وجزيرة جافا وفي بعض قبائل اميركا
الجنوبية وفي كوبا . وحكى فولي أن المرأة تسود على العائلة في بعض قبائل السود حتى
انها تضرب الرجل

وقال بروكا أن طول عظم الزند في الاسود بالنسبة الى عظم العضد باعتبار طول العضد
مائة هو ٧٩٤٣ وفي امرأته ٧٩٣٥ والفرق ثمانية اجزاء من مائة جزء وفي الاورو باوي
٧٣٨٢ وفي امرأته ٧٤٠٢ والفرق بينهما عشرون جزءاً من مائة جزء وعليه فالأوروباي
اعلى من امرأته أكثر من الاسود بالنسبة الى امرأته السوداء . والفرق بين الجنسين في
حجم المنكب هو في الشعوب المتقدمة اعظم منه في الشعوب المتوحشة وهذا الفرق يقل
كلما نزلنا من الاصول العليا الى السفلى . والفرق بين الرجل والمرأة في القامة اقل في
الشعوب السفلى منه في العليا ومعده بين الاورو باويين ٨٦ مليمتراً حسب تعديل كواتلت
و ١٢ سنتيمتراً حسب تعديل توينار وأما في الشعوب السافلة فهو اقل من ذلك جداً وفي

البوشمان والبتون بكاد الجنسَان لا يفرقان بالقامة
وأما الفرق في سعة الجمجمة بين المرأة والرجل فهو ٣٧ سنتيمتراً مكعباً من جانب
الرجل لاهالي استراليا (دقيس) و ٥٩ لاهل الصين و ١٣٩ لاهالي كلدونيا الجديدة
(بروكا) و ١٤٩ لقبائل الاسكيو و ١٥٠ لعموم سكان فرانس و ٢٠٣ لسكان بريطانيا
و ٢٢١ لسكان باريز على قول بروكا ورجحان هذا الفرق من جانب الرجل يكون اعظم
كلما كان الشعب ارفع (هشك وبافيس)



وحكى بوشت ان النساء في السودان يشبهن الرجال في الصورة وذكر غيره عن غيرهم
ما يضاھي ذلك مما يستفاد منه ان اختلاف الصورة الظاهرة بين الرجل والمرأة يكون اقل
كلما كان الشعب ادنى . وما هو كائن اليوم في القبائل السافلة الحاضرة كان ايضاً في
القبائل السافلة الغابرة . وما ذكره دولني دليلاً على ذلك ان بعض الشعوب في القديم
كان النساء يمكن عليهن كسبراميس وكيوطرا وزنوبيا الخ . ونحن وان كنا نعتقد
صحة القاعدة وهي ان تغلب الرجل على المرأة من ضروريات الارتقاء والضد بالضد انما
لا نعتقد صحة الاستشهاد الذي أتى به عن الملكات المذكورات لانه لا يبعد ان تكون
سيادتهن قد استتبّت لهن لاسباب اخرى إما لارث ملوكي وإما لتبوغ غير اعتيادي
وقيامهن بعبء الملك ليس دليلاً قاطعاً على ان كل نساء شعوبهن كن ارق من رجالهن
والأ لوجب ان نطلق هذا الحكم على ضيوفنا الذين تحكم عليهم ملكة وهم ارفع جداً من
ان بوصفوا في المقام الذي يضعهم فيه هذا القول بل هم ارفع من كل شعب آخر وهم هم
السابقون في مضمار الارتقاء البشري بلا منازع . وذكر دودوروس ان رجال الصقال
ونساءهم في القديم كانوا متشابهين وبخلاف ذلك اليونان والرومان فان الفرق بين الرجل
والمرأة عندهم كان عظيماً جداً جسدياً وعقلياً

والغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهن
اعظم منها في نساء اليوم . قال بروكا وهذا يظهر منه ان المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم
الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد . والخلاصة مما تقدم ان امتياز المرأة على الرجل

قد يرى أحياناً في الشعوب السافلة الحاضرة والغابرة ولكنه لا يرى البتة في الشعوب العالية وإنما يرى فيهم عكس ذلك أي امتياز الرجل على المرأة دائماً



ولنتقدم الآن إلى النظر في المسألة من حيث الاسنان . وهنا نجد أيضاً نفس النتيجة التي وجدناها في الفروع والأنواع أعني أن الاناث يمتدّن على الذكر امتيازاً إلى أجل في أول سني العمر ثم يستتب الفوز بعد ذلك لهؤلاء . فقد ذكروا أن البنات يقنّ الصبيان في الطول من سن ١٥ إلى ١٥ سنة . وبعض الاثروبولوجيين زعموا أن البنت من سن ١٥ إلى ١٢ تكسب رطلاً أكثر من الصبي في السنة . وأما بعد السنة السابعة عشرة فالاناث يقنّ والذكور يستمرّون على النمو . والحال كذلك أيضاً في العقل في المدارس التي يجتمع فيها الصبيان والبنات معاً رأوا أن البنات لغاية سن اثنتي عشرة سنة يسبقن الصبيان ويفقهن ذلك . وأما بعد ذلك فالصبيان هم السابقون

ويستفاد مما تقدم أن المرأة في النمو أسبق من الرجل جسدياً وعقلياً وادياً وهذا ما حمل بعضهم على أن يظنّها أعدل منه . وقد علّ بوفون الطبيعي الفرنسي إبطاء الرجال بقوله « أن الرجال لما كانوا أكبر وأقوى من النساء أعني لما كان بدنيهم أشد وأعظم وعظامهم أصلب وعضلاتهم أقوى ولحمهم أكثر مما في النساء كان من الضروري أن يكون زمن نموهم أطول من زمن نموهنّ » وقال كانبس « أن المرأة أسرع نمواً وانحطاطاً معاً من الرجل لا تلبث أن تشب حتى تهرم وليس بين انتقالها من سن الصبا إلى سن الهرم فترة تذكر »

والنمو السريع دليل على الانحطاط ويرى حسب مباحث دلوئي في جميع الاناث كما يمكن تحقّقه من النظر إلى سرعة نمو اناث الحيوانات الالهية بالنسبة إلى ذكورها . وإنما كانت هذه السرعة في النمو التي ترى في الحيوانات وفروع البشر السفلى علامة انحطاط لأنها يعقبها وقوف النمو دائماً . قال بختري في كتابه الذي عرّناه تحت عنوان شرح بختري صفحة ٩١ ما نصّه « أن في الطبيعة ناموساً عاماً وهو أن صفار الحيوانات والقروء والبشر الذين هم من أدنى جنسهم يتشابهون أكثر من البالغين في تكوين الجمجمة وقابلية العقل

فان صغار القرد خاصة يشبهون اطفال البشر جداً باستدارة حجمتهم ولا تميز فيهم صفات القرد الا مع السن وحينئذ تظهر المبانيه قبدو الانحناءات والبروزات والشكل الزاوي وبروز الوجه عن الجمجمة وكذلك يحصل في الاخلاق فتزداد القرد شراسة وقساوة ولا تدعن للتربية كلما زادت في السن وهكذا ايضاً اولاد السود كما يعلم من روايات يوثق بها فانهم يظهرون في المدارس ذكاء وقابلية للتهذيب لا مزيد عليها فاذا بلغوا اشد هم تخلفوا باخلاصهم الوحشية وخسروا كل ما اكتسبوه بالتعليم كأن لم يكن شيء من ذلك » اعني ان الصفات الجسدية والعقلية تكون مشتركة بين صغار الانواع والفروع في اول سني الحياة ثم تتباين فيهم بمقدار تباين الانواع والفروع نفسها فيقف نمو بعضها السافل او يسير في خطئه ويستمر نمو البعض الآخر المرتقي . والوقوف علامة انحطاط واستمرار النمو علامة ارتقاء



وفي الجملة فمعظم الفرق بين الرجل والمراة يكون في الكهولة اي عند متهى النمو واقله في سن الصبوة والشيخوخة سواء نظرنا الى البدن كله او الى كل عضو من اعضائه فانه لا يوجد فرق ما بين الذكر والانثى في الحياة الجنسية ثم يكون الفرق قليلاً عند الولادة ويبلغ معظمه في الكهولة ثم يتناقص في الشيخوخة

فالطفل يكون اطول من الطفلة عند ما يولدان بسنتيمتر واحد فاذا بلغا متهى النمو اي متى صار هو رجلاً وهي امراة زادها بستة وثمانين مليمتراً حسب تعديل بعضهم (كواتلت) وباتتى عشر سنتيمتراً حسب تعديل غيره (توينار) ثم ميلان للتساوي بعد ذلك لان الرجل يقصر اكثر من المراة

ولنا نفس النتيجة من مقابلة الوزن فان معدل وزن الطفل المولود حديثاً ٣٢٥٠ غراماً والطفلة ٢٩٠٠ غرام اعني ان الذكر يزيد الانثى ٣٥٠ غراماً قليلاً يفرقان بعد ذلك الى ما بعد السنة الثانية عشرة ثم يزيد هذا الفرق جداً بمرجحان الذكر ويبلغ حسب تعديل بعضهم (كواتلت) من اربعة الى خمسة كيلو غرامات ثم يتناقص في الشيخوخة . وذكر بعضهم ان هذا الفرق بينهما كيلو غرام من سن ٢ الى ٧ و٦ كيلو غرامات من سن ١٤

سن الى ٢١ و ٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و ١١ من سن ٤١ الى ٥٦ ثم يتناقص الى ٩ من سن ٥٦ الى ٦٣ والى ٨ من سن ٦٣ الى ٧٠

وأما حجم الجمجمة فحسب تعديل بعضهم (ليثرزيك) ان دائر جمجمة الذكور عند الولادة اكبر من دائر جمجمة الانثى بسنتيمتر واحد ثم يزيد هذا الفرق بعد البلوغ لاستمرار نمو جمجمة الرجل ووقوف نمو جمجمة الانثى بعد ذلك

وأما وزن الدماغ (حسب تعديل كوككر) يزيد دماغ الذكور عن دماغ الانثى باربعين غراماً عند الولادة و ٥٠ عند سن سنة واحدة و ٧٠ عند سن ٣ سنين و ١١٠ في سن ١٠ و ١٥٠ من سن ٢٠ الى ٦٠ . ثم يتناقص هذا الفرق من بعد السن المذكور فينقص دماغ الرجل في الهرم ٨٤ غراماً من معدل وزنه عند منتهى النمو ودماغ المرأة ٥٩ غراماً . وهذا الفرق التشريحي يرافقه فرق في القوى العاقلة والادوية ومنه يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالاماب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في العقلية في سن البلوغ ثم يتقاربان ثانية في الهرم . وعلى هذه النسبة ايضاً يجري باقي الفروقات في شكل العظام والتغذية وتركيب الدم الخ . واما التبض فهو ١٣٦ في الجنين الذكر و ١٣٨ في الجنين الانثى . وذكر بعضهم ان هذا الفرق اي زيادة نبض الانثى على الذكر هو نبضة واحدة من سن ٢ الى ٧ نبضات من سن ١٤ الى ٢١ و ٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و ١٠ من ٣٥ الى ٤٢ و ١١ في سن ٥٠ ثم ٩ من ٥٦ الى ٦٣ و ٨ من سن ٦٣ الى ٧٠ . ويطول بنا الشرح جداً لو اردنا استيفاء باقي الفروقات مفصلاً لذلك نكتفي بما مر

والخلاصة مما تقدم ان الانثى تفوق الذكر في بعض الامور في الانثى عشرة سنة الاولى ثم يفوقها الذكر بعد ذلك في الجمعيات المتقدمة الى منتهى النمو حينما يبلغ الفرق معظمه وهذا يكون بين سن ٤٠ و ٥٠ ثم يتناقص هذا الفرق في الشيخوخة والهرم وهذه الملاحظات المتقدمة المأخوذة من علم مقابلة الحيوان وتشرح الاعضاء ومنافعها تبيننا لماذا يميل الجنسان اي الذكر والانثى لان يفترقا كلما صعدا من طبقات البشر السفلى الى العليا . ففي الطبقات السفلى تكون الصفات العقلية والادوية بين الرجل والمرأة متساوية لذلك كانا كلاهما اقرب الى الاتفاق من الاختلاف وليس الامر كذلك في الطبقات

العليا الرفيمة المدارك فانه لما كالت فيها الفرق بين الرجل والمرأة عظيماً كانا اقرب الى الاختلاف لاختلافهما بالافكار والاحساسات والمشارب الخ وهو اكثر في سكان المدن منه في سكان القرى وأخذ في التزايد سنة فسنة كما نبه الحكماء الى ذلك منذ زمان طويل



على ان زعماء المساواة يدعون ان هذا الفرق بين الرجل والمرأة جسدياً وعقلياً سببه عدم تساويهما في الرياضة والتعليم وانه اذا تساوت احوالهما المعاشية والتهديبية تساويا في القوة والعقل . واذا دققنا النظر لا نجد هذا الاعتراض في محله . ففي العصور النابرة حين كانت الامم غارقة في ظلمات الجهل لم يكن احد الجنسين يعلم اكثر من الآخر وفي هذه الايام نجد في البلدان المتعدنة عدداً وافراً من الجنسين متروكين على الفطرة بحيث لا يصح ان يقال ان هذا الفرق نتيجة التعليم والتهديب بل اليوم اذا نظرنا الى الفنون التي تعلمها النساء كما يعلمها الرجال واكثر منهم ايضاً كفن الموسيقى في اوربا فلا نجد من النساء من نبغن كما نبغ الرجال ومع ان عدد المتعلمات هذا الفن اكثر من عدد الرجال فلا نجد منهم من ألّفت فيه او استنبطت شيئاً جديداً بل جميع المؤلفين من الرجال . وما قيل عن فن الموسيقى يقال ايضاً عن فن التصوير وكذا صناعة الطبخ نفسها فحتى الآن لم يستطع النساء ان يبارين الرجال المتعاطين هذه المهنة مع ان عددهن بالنسبة الى عددهم وافرجداً والمانع في هذا وسواه ليس عدم تساوي الرجل والمرأة بالوسائط بل عدم تساويهما بالقابليات كما ترى في المدارس التي يعلم فيها الصبيان والبنات معاً فان البنات كما تقدم يقفن الصبيان لغاية سن ١٢ سنة ثم يتفقرن عنهم بعد ذلك مع ان الوسائط واحدة في الحائين وما سبب ذلك الا لانهن من طبعهن اضعف منهم قابلية والاً لما وجب ان يتأخرن عنهم بعد هذا السن لو كن من طبعهن قادرات . وسببهن الصبيان في اول سني الحياة دليل على سرعة نموهن بالنسبة الى نموهم وهذه السرعة من علامات الانحطاط كما قلنا في ما تقدم

والخلاصة من جميع ما تقدم ان غلبة الانثى على الذكر لا ترى الا في بعض انواع الحيوانات السفلى او في بعض فروع البشر السفلى ولا يرى تساويهما الا في ما كان فوق

ذلك قليلاً كما في بعض الانواع الحيوانية والفروع البشرية السافلة وكما في احداث الامم المتمدنة ومشايخهم اذ ان الطرفين يستويان في كل امر وأما في الانواع الحيوانية العليا وفي فروع البشر المرتقية وفي متهى النور فالغلبة دائماً للذكر جسدياً وعقلياً وادياً ولا تكون غير ذلك الا اذا اقلب الموضوع وانعكس المطبوع . وعليه فنطلب في المستقبل ان لا يقدر لتسائنا ان يتغلبن على رجالنا او يساوينهم ولا نظن ان نساءنا يرضين غير ما طلبنا بناء على ما عهدن من سنن الارتقاء



فهذا أيها السادة نظر عام يضع المسألة في مقامها الطبيعي وبرشدنا الى الحكم فيها حكماً صحيحاً عادلاً فلا نحقر المرأة كما فعل شوبنهاور الالمانى احد فلاسفة هذا العصر حيث جعلها تحت العجاوات وقال انها من شر الخلوقات وهو قول فيلسوف قانط (١) ولا نبالغ في تعظيمها كما فعل ديدرو والفرنسوي احد فلاسفة العصر الحالي حيث جعلها فوق الرجل وقال ان الذي يتكلم عنها ينبغي له ان يغط قلبه في قوس قزح ويرسل خطه بغبار اجنحة فراش الحقل وهو تصور شاعر غاو بل نضعها في مقامها الحقيقي الذي يليق بها والذي جعلت فيه أعني عضواً لازماً للهيئة الاجتماعية تابعة للرجل في ارتقائه مساعدة له متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية كما هو يدل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوها وتديرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بين سعيه واقدامه عن سليفة ومعرفة . لا تنازع في ما لا تجديها المنازعة فيه نفماً ولا ينحسرها هو حقاً اعترف لها به مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كل منهما في دائرته غير متناول الى دائرة سواء وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي ام الاجتماع الانساني

(١) وكان يعرف المرأة انها طوية الشعر قصيرة الفكر



المقالة الثانية عشرة

المرأة والرجل وهل يتساويان * رد^(١)

هم في ضميرك خيموا ام قوضوا ومنى جفونك أقبلوا ام أعرضوا
وهم رضاك من الزمان واهله سخطوا ككزعت وشانك أمرضوا
ما بال ربات الحجال وذوات اللطف والدلال برزن من خدورهن غضابي .
وأوسعني لوماً وعتاباً . وفحن عليّ حرباً أعدى من حرب البسوس . واظلم من يومى
سعدى وبوس . وما اتيت ضدهن بمنكر . ولا ارتكبت في حقهن ذنباً لا يغفر
أو ماذا رأيته في مقالتي « المرأة والرجل وهل يتساويان » من قصد التحامل
عليهن والاحجاف بمقوقهن حتى نفخن في البوق وهجن بنات جنسهن في الاقطار
وتألبن عليّ جماعات متفقات لأول مرة وتربصن في مناوأتي تربص الآساد وعهدي
بهن أنفرن من الظباء . وانا لم آت فيهن إلا بما قرره الواقع وشهد به الحال انتصاراً لهن
من القوم الظالمين

أقصرت في مدحهن أم لم ابالغ في وصف محاسنهن أم لم اعترف بمقوقهن . ألسنت
القائل فيهن « وبروا لها اقلاماً أقوم من هودود الهيف اذا أخجلت سمر القنا . وطعنوا
بها طعنات اوقع من لحاظهن اذا رنت سهامها في القلوب » . أفلا يمجبن بهذا الاطراء
أو لست القائل ايضاً « ولا يخصها هو (اي الرجل) حقاً اعترف لها به مقامها في الهيئة
الاجتماعية متقاسمين الاعمال كل منهما في دائرته غير متناول الى دائرة سواه وبذلك
يتم نظام العائلة البشرية التي هي أم الاجتماع الانساني » أفلا يرضين بهذه المساواة
على اني أجلهن عن ان انزلن منزلة من يقول « ان النساء لا يرضين شي »
ولعل في الامر دسيسة يد مبرقة وما هي بذات برقع (سأعها الله)^(٢) افترت علينا

(١) نشرت في المجلد الثاني عشر من المقتطف سنة ١٨٨٧ وهي رد على بعض السيدات
اللاتي اعترضن على المقالة السابقة بكلام نشر في المقتطف ايضاً

(٢) اشارة الى ان الكاتب الحقيقي او المحرك وجل قصد تحريك الشر فمناظرة اولمادعية

ذلك فاقضت عباراتي وحوّت اشاراتي وابدلت قولي وغيرت منقولي اعتداءً عليّ وتملقاً لمنّ وصلت بيننا نار هذه الحرب وهنّ منها يشهد الله براءه وانا لست منها في شيء بل تراني اقدم فيها رجلاً واؤخر اخرى. والّاّ فهنّ ارفع من ان يعددن تقرير الواقع تحاملاً والانصاف احباً

قد وقع الصلح على غلتي فاقسموها كارةً كاره
لا يدبر البقال الاّ اذا تصالح السور والفاره

رحمائي سيداتي لو كان لي ان اصف المرأة كما اريد واشتهي لوصفتها كما قال احد شعراء الانكليز « ان الله خلق الرجل اولاً على سبيل التجربة ثم خلق المرأة أخيراً » لتكون من طينة ارقى ولكن من اين لي ذلك وانا لم اتجسّم البحث في هذا الموضوع واجعل نفسي هدفاً لسهام الاغراض الا متقاداً للعلوم الطبيعية وللتصورات المجنونة كمؤرخ يصف الوقائع ويشهد الاحوال ابتغاء رفع شأن المرأة في العمران بمعرفة مقامها الطبيعي فيه ولا ذنب لي الا ذنب الصادقين في الود المخلصين في القول والا فاما المانع من ان تساوي المرأة الرجل ولماذا لم تغلب عليه بل تركته يسن الشرائع المحضة بحقوقها ويقوى عليها من اول الامر

وانّي يمكن ان تكون بينهما هذه المساواة وهما مختلفان بالطبع من اصل الفطرة في التركيب والقابليات والواجبات . فطلب المرأة مساواة الرجل كطلب الرجل مساواة المرأة امرٌ مستحيل واني لاعجب كيف يحاول بعض الناس اثبات هذه المساواة وما مثله الاّ كمثل من يحاول ان يساوي بين اعضاء الجسد المختلفة. ألهه يجهل ان اختلاف التركيب يوجب اختلاف القوى والافعال

فبقي علينا اذن وقد تقرر هذا الاختلاف كما تقرر بين اعضاء الجسد ان نعرف نسبتَهُ فيها ولا نبحث في ذلك من حيث اهميتها في الجسم الاجتماعي فانه لا خلاف في ان كلاً منها عضو مهم شديد اللزوم لكمال الهيئة الاجتماعية كما ان كل عضو من اعضاء الجسد شديد اللزوم لكماله. وقد تداركتُ ذلك في مقالتي السابقة حيث قلت « بل نضعها

(المرأة) في مقامها الحقيقي الذي يليق بها تابعة الرجل في ارتقاؤه مساعدة له متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية هو كما يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوها وتديرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعيني سعيه واقدامه عن سليقة ومعرفة « بل نبص في نسبة هذا الاختلاف من حيث تفاوتهما في القوى جسدياً وعقلياً



يُعلم قراءه المتقطف الاغرائي نشرت في عدديه السادس والسابع بتاريخ هذا العام مقالة تحت عنوان « المرأة والرجل وهل يتساويان » ضمنها خلاصة مباحث الطبيعيين وعلماء الاخلاق المتأخرين وصرفت فيها النظر عن اقوال المتقدمين ولم اورد من اقوالهم الا شيئاً يسيراً على سبيل الاستطراد لا الاستشهاد وقيدت نفسي كل التقيد بعلوم الاختبار واقتصرت على ذكر الوقائع المقررة واجتنبت على قدر الطاقة التعرض للأسباب الا فيما ندر . كل ذلك لكي احصر الموضوع في دائرة لا يبعد فيها المتقولون محلاً لكثرة الظنون حسماً للنزاع وحرصاً على الحقيقة ان تحجبها غياهب الاوهام وتخدشها عواصف الاغراض اذ هي كما قيل

خَطَرَاتُ التَّسْمِ تَجْرِحُ خَدَّيْهِ وَلَمَسُ الْحَرِيرِ يَدْمِي بَنَانَهُ

وقد رأينا مما قرره علماء طبائع الحيوان كما قلنا في ما سلف ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منه في الحيوانات العالية ومساوية له في ما كان بينهما واستنتجنا من ذلك ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوان السافل وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوان العالي . وابتأ ذلك هناك مفصلاً بآيات ييناتٍ طبيعية وادبية وعقلية . وظننت ان هذا البيان كاف لان يكون القول الفصل لما فيه من الصراحة والوضوح والاستناد الى الادلة التشريحية والفزيولوجية والبيكولوجية التي يقال عندها قطعت جهنمة قول كل خطيب . وما قصدت الا ان اجملة قاعدة يختلف اليها عند البحث في هذا الموضوع وما اتيت فيه بحرف يشير الى وجوب تحقير المرأة واهمال تعليمها بل بالضد من ذلك قصدت ان ابين مقامها الحقيقي في الهيئة الاجتماعية وان ابنه الى أهمية

هذا المقام لئلا يشغلها عنه شاغل يشمخ بها الى ما سواه فقصر فيه ويصحبها كما في قوله
 حسد القطا فاراد يمشي مشياً فاصابه ضرب من العقاب
 ولئلا يذهل الرجل عنه فلا يوفيهما حقوقها فيسوء مصيراً وكل ذلك حرصاً على انتظام العائلة
 البشرية وتحسن حال الانسان في العمران بمعرفة كل من الرجل والمرأة حده فيقف
 عنده . وكنت انتظر من السيدات ان يعددني بذلك نصيراً لهن وخير نصير
 وصاحباً كالزلال يمحو صفاته الشك باليقين

وان ارى منهن تصويماً ينشطني في الدفاع عنهن اذ ادخل الموضوع من ابوابه لان
 المدافع عنهن في غير اساليب الصواب يكون لهن شر نصير . ولكن لا اعلم كيف اقابل
 حضرات السيدات اللاتي تصدين الرد علي زاعمات انهن وجدن في مقالي مطاعن
 ففوقن تحوي سهام اللوم والتعنيف ولولا الخوف من ان يستحكم هذا الظن في اذهان
 جمهورهن بطالعتن مقالات نصيراتهن ويتناسين حقيقة مقالي لتقدم عهدا فينصرفن
 الى الوم باني متحامل فيها عليهن لاقتصرت على مقابلتهن بالشكر لقاء اظناهن في مدحي
 واستغفرت عن هذا الايضاح الذي لا ارى والحالة هذه بدا منه ولا كتبت مؤونة الرد
 على اعتراضاتهن لقيام بعضها على الوم وسقوط البعض الآخر من نفسه براجعة
 نفس مقالي



(١) انكرت علي حضرة السيدة الفاضلة م. ا. ي. قولي ان الفرق بين المرأة والرجل
 في القوى انما هو من اصل الفطرة وذهبت خلافاً لي الى انه من فرق التعليم والرياضة
 والعادات وزعمت انها تؤيد قولها من كلامي المتناقض حيث قالت برشيق عبارتها
 « اجتري » ان اقول ان بعض اقواله متناقضة . . . او ليس هو القائل مع العلامة بروكا :
 ان زيادة اتساع الحجة في النساء قديماً عما هو عليه حديثاً كانت (لان) المرأة كانت
 في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد « واستطردت من ذلك
 الى القول « فما المانع من انه لو دامت لها هذه المقاسمة الى هذا الزمان ل بقيت مثله او
 اسمى منه » اقول نعم النتيجة لو صحت المقدمة ونعم الحجة علي لو صح النقل عني فغوايتها

السيدة لم اقل ذلك وهذا قولي « الغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهن أعظم منها في نساء اليوم قال بروكا وهذا يظهر منه (أن) المراة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » لا « لانها » وهو على حد قولي ايضا بعد ما تكلمت عن تقارب الرجل والمراة تشريحيًا في اوائل الحياة وتباينهما في اواسطها ثم تقاربهما بعد ذلك « وهذا الفرق التشريحي يرافقه فرق في القوى العاقلة والادية ومنه يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيرًا في سن البلوغ ثم يتقاربان في سن الهرم » فعلى مقتضى قول حضرتها يجب ان يفهم من هذا القول ايضا ان اقتراب الرجل والمراة وافتراقهما تشريحيًا هو لاشتراكهما وافتراقهما بالالعب والمفهوم بالعكس ولا يخفى ما بين القولين من الفرق في المعنى وان لم يكن بينهما الا زيادة حرف واحد في اللفظ ففهوم كلاهما نتيجة ومفهوم كلامهما سبب وهذا الخطأ منها في النقل هو سبب هذا الوم في نسبة التناقض لكلامي ولضيق المقام اكتفي بالتنبيه اليه لازالة هذا الوم ولا اشك في انه من حضرتها خطأ سهو ولا أنكر بان التعليم والرياضة والعادات الخ تؤثر جداً في حال المراة ويجب أن نستخدم لحيرها ولكن لا اسلم مطلقاً بانها اذا تساوت فيها مع الرجل ساوتة في القوى لاسباب أعدّها جوهرية في تكوينها وقابليتها وواجباتها هذا اذا كنا نعلم ان القوى والافعال مرتبطة بتكوين الاعضاء ألا ترى ان الاشغال التي تعلمها النساء كالرجال واكثر منهم كفن الخياطة والطبخ والرسم والموسيقى لا تستطيع المراة ان تساوي الرجل فيها كما قلت في مقالتي السابقة . على ان نفس مساواتها له بالتعليم والرياضة والعادات لو تأملناها جيداً لوجدناها الا في ما ندر ممتعة عليها من اصل التكوين فطلب المراة والحالة هذه مساواة الرجل فرض مستحيل لا يجوز لها ان تضعي وقتها فيه وهذا لا يحط من قدرها لان عليها واجبات اخرى مهمة جداً اذا أحسنت القيام بها لم تعدم حقوقها في الهيئة الاجتماعية



(٢) اعترضت عليّ حضرة الفاضلة السيدة ر . ح . اعتراضات شتى لا يسعني ضيق المقام الا ان آتي الجواب عليها اقتضاباً لكثرة خصمائي ووجوب الرد على كلهن صبة

واحدة لثلاثا يمتن عليّ اذ ان السيدات يصفحن عن كل ذنب الا ما تشم منه رائحة التفضيل ينهن

قالت : اني بحثت في المرأة والرجل بحث الطبيعين لا بحث أهل النظر وعابت عليّ ابرادي بعض امور عن المرأة اقرب الى البحث النظري منها الى البحث الطبيعي مثل قولي « ان الرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها انهم منه وان الذي يمنعهما من ارتكاب الجرائم انما هو خجلها وحيائها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها وانها أحيل من الرجل وأخدع لانها اضعف منه والحياء والخداع سلاح الضيف » ولا انكر بان من هذه الامور ما هو اقرب الى علوم النظر الا اني أقول ايضاً اني لم اتزم البحث في الوجه الطبيعي الا لكي اجعل للوجه النظري مجالاً اوسع وقيمة أعظم تتميد السبيل له حتى يقل خطاؤه ويكثر صوابه اذ لا يخفى ان العلوم النظرية ليست الا الاستقراء والاستنتاج المبنيين على امور مسلّمة هي عندهم كالحقائق فكما كانت هذه الامور المسلّمة اقرب الى الصواب كأن الاستقراء والاستنتاج المبنين عليها اصح كذلك . وأي شيء اصح من العلوم الطبيعية التي هي في حكمها كالعلوم الرياضية ولذلك كان كثير من أحكام النظر المبني على هذه العلوم حكمه حكم اليقين . على ان من الامور النظرية المتقدم ذكرها ما هو مبني على المراقبة والاختبار فقول حضرتها « فباي مقياس قاسوا نهامة الرجل والمرأة حتى عرفوا انها انهم منه » مردود عليه بالقول انهم قاسوها بمقياس المراقبة وان لم يرضها ذلك فبمقياس « الاكل » ولا اعلم ما الذي ساءها من هذا القول وهو ليس قولي بل قول جمهور العلماء المتبحرين في درس طبائع الحيوان ومراقبة افعاله . وان لم يقتعها ذلك فنحن نأتينا بتعليل فلسفي ينطبق على هذا القول لعلنا نقنع فلا يخفى ان بين عوائد الرجل وعوائد المرأة بوناً بعيداً فالرجل كثير الحركة كثير السعي . والاشغال التي تطلبها احتياجاته شاقة وتطلب منه جهداً جديداً وسعيّاً عظيماً خارج مسكنه فلا يتأتى له ان يتناول الطعام الا في اوقات متباعدة ولذلك كان لا يجلس على الطعام الا وقعات قليلة ويأكل كثيراً . بخلاف المرأة فان سعيها قاصر على تدبير منزلها وحركتها بالنظر الى ذلك قليلة والاشغال المطلوبة منها . وان كانت مهمة الا انها غير شاقة بالنسبة الى اشغال الرجل

همومهم وهي دائماً في البيت وهو دائماً بعيد عنه ولذلك كانت تأكل أقل من الرجل وتجلس على الطعام وقصات أكثر منه ولهذا كانت أنهم منه وأما كون الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم « إنما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها » . فهو قول بعضهم وكنت أود أن اسلم مع حضرتها بأن الذي يمنعها من ذلك إنما هو « لأنها أميل إلى السلام وحسب الاتفاق وكره المآثم والشرور » إلى آخر ما قالت لأنني أريد أن تكون لها هذه الصفات لولا أن هذا التعليل نفسه قاصر ويحتاج إلى تعليل آخر يعرف منه لماذا هي كذلك فلا شك أنها كذلك لأنها أضعف وأذل من الرجل وهذا يولد فيها الخوف ولأنها محجة وإن لم تبقى مقنعة وهذا يولد فيها الخجل والحياء وما ادلهما من صفتين لا أرضى للسيدات أن يخجلن منها وعلى نفس هذا التعليل يعال لماذا المرأة أحيلى وأخضع من الرجل لكن لما كانت حضرتها لا ترى وجه افتناع في قولي « لأنها أضعف منه والحيلة والخداع سلاح الضعيف » كان لا بد لي من بسط الكلام عليه على وجه اعم تأييداً لهذه الحقيقة النظرية التي هي في ثبوتها كالحقائق الطبيعية المقررة ولا ننظر إليها في أنواع الحيوان حيث نرى آلافاً من الأمثلة التي تدلنا على أن الحيلة هي كل قوة الحيوان الضعيف لردع عدوان الحيوان القوي عنه أو لاخته في شركه ولولا ذلك لما أمكن بقاءه حياً مع خصمه القوي بل ننظر إليها في أحوال الامم في العمران فلا يخفى أن الشرائع الحاكمة على الامم كانت في بدء الامر استبدادية ظالمة ولم تنزل غير متساوية في كل الاقطار ومعلوم ان الاستبداد يورث الخوف في قلوب الرعية فلا تجد ما يحجبها من غضب حاكمها المستبد سوى التعلق له والرياء به . والرياء يورث الخداع والكذب وما شا كل ويستحكم فيها ذلك بطول لبثها محكومة بالاستبداد وينتقل في نسلها بالوراثة خلفاً عن سلف حتى يصير فيها اخيراً طبيعة لا تزول منها بالتعليم والحرية حتى يمر عليها منها بقدر ما مر عليها من عصور الجهل والاستبداد ولذلك كنت ترى القوم الذين عاشوا تحت ظل الاستبداد واستحكم فيهم الرياء قوماً لا يصدقون ولا يصدقون قوماً تعبد بينهم صديقاً مخلصاً ولو خرجوا إلى نور العلم والحرية ولست تعبد بينهم ذلك حتى يمر عليهم فيه بقدر ما مر عليهم محجوبين عنه . وما قيل هنا

يقال أيضاً عن الرجل والمرأة وكلامنا عام لا يجوز النظر فيه الى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم بل الى عموم البشر في العمران فان الرجل لجهله استبد في أول الامر وخافه المرأة فاستسلمت له واقبلت عليه متملقة كي تقبض من جوره ولا يكفيننا ان ننظر الى نساء الشعوب المتقدمة بل فلننظر الى نساء الشعوب التي لم تزل غارقة في الجهل فلا نكد نجد امرأة تخاطب زوجها الا كبد ذليل امام سيده المستبد فكيف يمكن لهذه المرأة ان تكون غير محتالة ومخادعة . وكون المرأة احيى وأخضع من الرجل لا يحط من شأنها بقدر ما يحط من شأن الرجل الذي هو سبب ذلك فيها . على اني لا انكر بان هذه الصفات المذمومة في المرأة الجاهلة تنقلب — وهنا وافق حضرتها — الى مزايا ممدوحة في المرأة المثقبة بحيث تصير فيها فضيلة واتضاعاً وطاعة وصبراً وطهراً وعفافاً ومحبة وشفقة وحنواً الى آخر ما وصفتها به من جليل المزايا وحيد السجايا



(٣) اني اشكر لحضرة السيدة الفاضلة م . م . الاولى على اطنابها في مدحي ووافقتها على ان الرجل اذا كان يمتاز على المرأة بشدة البدن فالمرأة تمتاز عليه بجهاها واعتدال قوامها ولطف تركيبها وغضاضتها وبضاضتها اقول وبذلك قوتها وقد اشرت الى هذه الامتيازات في مقالتي السابقة خلافاً لقولها اني اهملتها ولا اخالفها في ان انبساط قدم المرأة وكونها تزُرُّ ثيابها عن اليسار خلافاً للرجل مسألة مختلفة في مدلوها ولكني انكر على حضرتها نسبي الى التعامل عليها والاحجاف بحقوقها ولا اسلم معها باءور ثلاثة وهي اولاً انكارها كون بطة النمو دليلاً على الارتقاء وسرعته دليلاً على الانحطاط ثانياً قولها ان حواس المرأة ارقى من حواس الرجل ثالثاً كون ثقل الدماغ ليس دليلاً على كبر العقل

اما كون بطة النمو وسرعته دليلين على الارتقاء والانحطاط فأمر مقرر واني استغرب كيف ان حضرتها ترتاب فيه ويكفيننا للحكم فيه ان نلقي نظرنا الى ما حولنا لتأكد صحته في مواليد الطبيعة النبات والحيوان حتى الجاد ايضاً . ألا ترى سرعة نمو النباتات السافلة وبطء تكاثر الحيوانات العالية ولا اوجه نظرها الى الاحياء المكروسيكوية التي تتكاثر ملايين وتنمو وتبلغ اشدّها ونهرم وتموت في اقل من ساعة فان مراقبة هذه لا تيسر

الا للخاصة بل الى الفرق بين النباتات المحولة كالاعشاب والنباتات المعمرة كالاشجار مما تعرفه العامة فاي فرق بينهما في سرعة نمو الاولى وبطء نمو الثانية . وما قيل عن النبات يقال ايضا عن الحيوان وبه يعال ايضا سرعة نمو النبات وبطء الصبيان اذ لا ينبغي ان النبات يسبقن الصبيان لغاية سن ١٥ سنة ثم يقفن ويستمر الصبيان على النمو كما قلت في المقالة السابقة

واما كون حواس المرأة الخس ادى من حواس الرجل فقول مبني على ادلة تشريحية وفيزيولوجية مغلوطة والذي اعلمه علم اليقين بناء على ما هو مقرر في هذين العلمين انها دون حواس الرجل ولنا على ذلك ايضا برهان آخر علمي وهو امتياز الرجل على المرأة في جميع الاعمال التي تحتاج الى ارتقاء هذه الحواس حتى الاعمال الخاصة بالمرأة نفسها كفن الحياطة والرسم وما شا كل وقد اشرنا الى ذلك في ما تقدم فلو كانت حواس المرأة ارقى من حواس الرجل حقيقة لاقتضى ان تمتاز عليه في هذه الاعمال بل في جميع الاعمال البدوية والعقلية ايضا لاحتاجا جميعا الى الحواس الظاهرة التي هي ابواب العقل على ان بناء هذه الحواس هو كبناء جميع المجموع العصبي ولا ينبغي ان هذا المجموع ارقى في الرجل منه في المرأة . ولا يعلم سوى ان المرأة اشد انعطافا من الرجل اغني ان عصبها ينفل اكثر من عصبه لذلك كانت تتأثر اكثر منه وشدة هذا التأثير العصبي ليس دليلا على شدة العصب بل على ضعفه كما لا ينبغي على علماء الامراض فكون اعصاب المرأة الطف تركيكا وادق بنية شاهدها عليها لا لها

وأما مسألة العقل وارتباطه بمحجم الدماغ فامر مقرر خلافا لما زعمت حضرتها والنظر في هذه المسألة كما في جميع المسائل لا يصح الحكم فيه الا بالنظر الى الكل لا الى الجزء والا فهناك اسباب كثيرة يكون فيها كبر الدماغ مرضيا لا فيزيولوجيا فهذا لا يعول عليه وهذا هو موضوع الخلاف في تلك المناقشة التي اشارت حضرتها اليها والتي وهمت منها ما ظنته دليلا على الضد . فكبر الدماغ الفيزيولوجي يراقه دائما اتقان في نسيجه وارتقاء في بنائه . ومن المقرر المعلوم ان معدل ثقل الدماغ هو اقل في شعب سافل منه في شعب عالي وفي اقل الناس عقلا منه في اعقلهم وفي النساء منه في الرجال وغير ذلك نادر والنادر

لا يعتقد به . ويوجد أيضاً نظر آخر هو سبب هذا الوهم فلا يخفى ان الدماغ لا يبقى حجمه ولا وزنه على معدل واحد في سائر اطوار الحياة فذلك الجاهل البليد وذلك العالم الفيلسوف المتقد ذهنياً في بعض اطوار حياته او في ابان صحته قد يطرأ على دماغها قبل موتها او في مرضها ما يغير تركيبة فاذا وزنته بعد موتها وجدته اما كبيراً جداً خارقاً للعادة أو اصغر مما يلزم فتحكم على ان القول بنسبة العقل الى كبر الدماغ خطأ ويكون الخطأ حقيقة في حكمك نفسه . وهذا هو سبب اكثر الخلاف في هذه المسألة والأف فلا خلاف اذا نظر فيها الى الكل

واما ما ذكرته من فضائل المرأة وانها المعزية الحزين والمفرجة المكروب والصابرة على مضض العيش ونقص الحياة والراضية بمشاركة الرجل في سراته وضراته الخ فاصواف نسبية ولا تدل على شيء مما نحن بصددده ويشترك الرجل فيها اكثر منها احياناً وقد تقدم الجواب عليها في الرد السابق وهي لا تثبت لها الا بالتهذيب الصحيح والا فتقلب فيها الى ضد ذلك وتكون المرأة حينئذ بلوى الرجل المكثرة صفوه والمنقصة عيشه والزائدة حزنه والجالبة كربه والقاصفة عمره . فالذي يذكر لها تلك الصفات الحميدة ينبغي ان لا يذهل فيها ايضاً عن هذه الصفات الذميمة اقول ذلك لا بقصد التحامل عليها ولكن بقصد استيفاء الموضوع لاننا في معرض نحاول فيه تقرير الحقائق فكما ان المرأة المهذبة ملك كريم هكذا المرأة الجاهلة شيطان ذميم وما اخرى هذا القول ان ينهنها جميعاً الى تربية المرأة والاعتناء بهذيبها تهذيباً صحيحاً يزيد جمالها جمالاً لا تهذيباً مبهرجاً يزيد شراً ووبالاً



(٤) اني اقول رداً على خطاب حضرة السيدة الفاضلة م . م . الثانية انه لم يلجئني ملجئاً للتحامل على النساء ولكني قصدت في مقالتي تقرير الواقع ولا انكر ان المتصرين والمتصرات ضدي كثار كما قالت ولكني اقول ان الحق لا تهوله الكثرة فكيف فته صغيرة غلبت فئة كبيرة باذن الله . واني اسلم معها بان المرأة على خفة عظمها ودقة عضلها لا يوقفها عن الدفاع عن نفسها صلابة عظم الرجل وغلظ عضله لاني لا اجهل ان لها سلاحاً آخر

غير سلاح القوة هو سلاح الحيلة والدهاء

سألت حضرتها ثلاث مسائل (١) هل كانت المرأة في اول عهد الاجتماع مساوية للرجل (٢) هل هي في الحالة الحاضرة مساوية له (٣) هل تكون مساوية له في المستقبل. واجابت على كل ذلك بالايجاب بل ربما توسمت فيها سبقاً عليه ايضاً. وانا اوافقها في جوابها على السؤال الاول وان كنت اخالفها في التعليل الذي يصرفني عن بسطه هنا ضيق المقام واخالفها كل المخالفة في جوابها على السؤالين الآخرين. اما كون المرأة مساوية للرجل في الحالة الحاضرة فليس لها عليه دليل سوى قولها « ان المرأة اقدر على اعمال الرجل مما هو على اعمالها بناءً على ان من النساء من نبغن في الطب والفقه وحسن الملك » ولما كان الجواب على ذلك مستدركاً في مقالتي السابقة بقولي « لا تبعد ان تكون سيادتهن قد استتبتهن » لاسباب اخرى إما لارث ملوكي واما لنبوغ غير اعتيادي ». قالت حضرتها « فنحن لا نقول الخلاف لاننا نعلم ان الرجل منذ اتيح له وضع القوانين والشرائع وتفضيل نفسه على المرأة وهضم حقوقها وتميازاتها لم يعد يتهاى لها تولي المناصب العظيمة » فبم تحجب حضرتها يا ترى لو سألتها لماذا « اتيح له وضع القوانين والشرائع وتفضيل نفسه عليها الخ » ولم يتح لها ذلك . لا شك في انها تحجب لانه اقوى منها . وبذلك تحجب ايضاً لو قلنا لها عن طبيباتها وفقهاتها « انه لا يعلم انهن سرن الا على خطوات الرجال مقلدات غير مخترعات » وعن ملكاتها « انهن لم يحكن حكمن » الا بمساعدة الرجال « ولا يحسن الملك بهن » الا اذا كن في صورة لا حقيقة كما في ملكة ارقى الشعوب اليوم والا فيسرن بالملك الى الويال كما دلت عليه التواريخ . واما قولها ان المرأة ستكون مساوية للرجل في المستقبل بل ارق منه فهذا لا دليل لها عليه ومناقض لما علم من ستن ارتقاء الرجل والمرأة حيث تقرر ان الاتي اقوى من الذكري في الحيوانات السافلة ومساوية له في الحيوانات المتوسطة واطف من في الحيوانات العالية اللهم الا ان تكون تخاف على الهيئة الاجتماعية في المستقبل من الانحطاط فيتحقق قولها ولا اظن ان حضرتها تعد لمستقبل الهيئة الاجتماعية مثل هذا الشر

على اني اعجب غاية العجب من تحامل حضرات السيدات علي وتوهمن بي سوءاً

وانا لم اجسهن شيئاً من حقوقهن بل بالضد من ذلك بحثت في امرهن بحثاً طبعياً لتقرير مقامهن في العمران وهذا يعد انتصاراً لهن لا تحاملاً عليهن . او ماذا يقلن (وهن لا يحتملن مني ذلك) في الشرائع التي يدين بها والتي تجعلهن تحت الرجل بدركات وتحظر عليهن اموراً كثيرة لا تحظرها على الرجل . أليست هي القائلة فيهن « المرأة ضلع من الرجل والرجل رأس المرأة » حتى لا تأتي الا بالخف ما قالت فيهن . او ماذا يرغبن في مزاحمتن الرجال وطلبهن المساواة بهم أبرغبن ان يشتغلن اشغالهم فان كان كذلك فلقد طالما جد الرجل وكد وسعى في طلب الرزق حتى كل ومل المرأة عائشة على نفقته مرتاحة من اتعابه خالية من تجشم أهواله فلتفضل حضرتها ان كانت تجد من نفسها قوة وتجد منها الجند وتؤلف العمال وتشد الاعمال وتسعى وتجد وتكدر وتكد في طلب العيش فقد آن لها ان تشتغل وللرجل ان يستريح فان كانت تستطيع ذلك فلتقدم عليه فيكون لها به اجر المحسنين والا فلا تضع الوقت الثمين في طلب المستحيل ولترض بمركزها فانه ليس اقل اهمية من مركز الرجل



(٥) لقد طاب لي المقام وطال بي الكفاح والصدام في هذه الحرب مع السيدات حتى صار الخروج منها الى حرب ذوي لحم وشوارب^(١) غبناً وامي غبن ولذلك اقتصر في الرد على جناب الاديب (خ . س) بالاشارة الى الوم الذي جعله يعترض اعترضه علي في مقالته التي وضعها تحت عنوان « الرجل والمرأة وهل يتساويان » حتى اذا اتبه اليه اصلحه وهو في قوله اولاً « والذي يلوح لي ان الانثى والذكر متساويان في القوة اصلاً ثم كلما ارتفعت في سلم النشوء انحطت قوتها الخ » وثانياً في قوله « ولما كان القائلون بامتياز الانثى على الذكر قوة في الحيوانات السافلة لا بد لهم من مستند يقررون به قولهم فنطلب الى الدكتور شمائل ان يفيدنا عن بعض مستنداتهم هذه » فنجيب حضرة على القول الاول بان المسألة ليست من قبيل اللوح حتى يلوح له بالحدس

(١) كان من الذين كتبوا في هذا الموضوع رجل فاضل نشر رده في ذيل ردود السيدات قباله الكاتب بهذا القول من باب المدافعة

والتخمين ولكن من قبيل اليقين المقرر بالمراقبة والاختبار . وعلى القول الثاني بأنه لو اتبته الى معنى قولنا « فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة الخ » لعلم ان المراد بهذه الشدة ان الانثى اكبر من الذكر في جسمها واشد في بنيتها وأقوى في قوتها كاتني النحل والزناير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات فهذه هي المستندات التي يطلبها حضرة وفي ما عدا ذلك فاني شاكره لحضرتي على انتصاره لي واطرائه علي والسلام ختام



المقالة الثالثة عشرة

﴿ القضاء على القضاء ﴾^(١)

ما خلص الانسان من شباك علم اللاهوت وامتيازات الرؤساء حتى وقع في جبال اشد وادى وهي علم الحقوق او اللاهوت الاجتماعي كما صار اليه اليوم والثورة التي يتضمنها تغيير هذا النظام المقدسيكون موطأ خديداً لتأصله في قلب الاجتماع وامتداده الى اعماق نظاماته . ولكن اليوم الذي سيتخلص الاجتماع منه ويرده الى شكله البسيط سيكون نعمة عظيمة ايضاً اذ تنصرف القوى الضائعة فيه بذلك الى تمجيد السبيل القويم لسرعة ارتقائه الارتقاء الحقيقي

﴿ لو انصف القاضي استراح الناس ﴾

اليك اكتب أيها القاري العاقل والعاقل المتأمل ولا اطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديمة وحكمة بليغة بل اطلب منك عقلاً حلت قيوده وتفتحت منافذه واقام التفكير مقام الاعتقاد والبحث مقام المقرر يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا يخس مستنبطات العقل حقها . فاعرني سمك قليلاً ولا اكلفك حلاً طويلاً قبل ان ترميني بالاغراب لاستغرابك

عنوان مقالتي وتقول من ذا الذي يريد قلب الموضوع وتغيير المطبوع لاني على يقين بانك اذا اعنت نظرك وسرت معي شوطاً غير بعيد في هذا البحث الاجتماعي لم تعد ترضى بالوقوف عند الحد الذي أوقفك عنده تعاليم وضعها الناس على ما بهم من الجهل والقوابة وأدخلوها الى عقلك بالارهاب والترغيب حتى رسخت فيه وصارت في اعتقاده قضايا مسلمة لا قبل التغيير وجرت على أسنة الناس مجرى الامثال واعتبروها من الحكم الباهرة وهي لو تفحصتها وجدتها اوهى من نسيج المنكبوت يمزقها التمهيص تمزيقاً ولا تثبت على حجر الانتقاد بل لو دقت البحث فيها جيداً لاستغربت جداً كيف يستطيع العقل ان يضل هذا الضلال ويحيد عن الجادة المثلى والامثلة التي امامه من الطبيعة كثيرة ترشده الى خلاف ذلك وتعلمه طريق الصواب . والطبيعة هي الكتاب الوحيد المنزل الذي ينبغي ان يعول عليه وان نرجع في احكامنا اليه



جرى على أسنة الناس مجرى الامثال قولهم « لو أنصف الناس استراح القاضي » وربما لم يخطر على بال احد انه سيقوم أناس يعتبرون مثل هذا القول خطأ ويرون الصواب في عكسه ويؤيدون قولهم بادلته تطبق على العلم وقبلها العقل ولا يجرحها الا كثرة عدد الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع والراقد على اديم التواتر

والعلماء والحكام لا يهمهم ذلك ولو نالهم منه صدمة قوية زعزعت اركان مصالحهم . ولكنها لا تستطيع شيئاً على افكارهم والمستقبل لهم اي لمبادئهم ف هؤلاء الناس يقولون « لو أنصف القاضي استراح الناس » ويريدون بالقاضي هنا القضاء عموماً لا الاحكام الخصوصية التي يصدرها القضاة احياناً كثيرة وتكون عرضة للانتقاد لحكم الحاكم الالهية في قضية الاختلاس الذي وقع في احدى مصالح الحكومة اذ افلتت القوي عملاً بقوله

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتبقى مريض المستأسد الضاري وخفت العقاب على المرتكب الاصيل وشدته على الشريك فثل هذا الحكم لا يوجد له لفظة تقوم بوصفه في قاموس اللغة الفصحى ولا يوجد له ذلك الا في اللغة العامية واللغة العامية ولا ينبغي تعبر احياناً كثيرة عن معانٍ لا تصل اليها اللغة الفصحى فالعامية

تطلق على مثل هذا الحكم اسم « حكم كروي » وربما لم يعد العلماء وصفاً لمثل هذا الحكم ينطبق على علم الاعصاب الحديث فاطلوا عليه اسم (حكم هستيري) فمثل هؤلاء الناس يعتبرون ان عدم الانصاف كائن في القضاء نفسه وهو سبب متاعب الانسان في العمران



فالقضاء هو احدى الشريعتين العظيمتين اللتين تتوليان قياد الهيئة الاجتماعية وهما الشريعة الدينية والشريعة السياسية فيحسب حال هاتين الشريعتين تكون حال الانسان في العمران وقد انقضى الزمان الذي كان الجهل سائداً فيه على العقل والذي كان الانسان يقول فيه

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي
فليس للانسان شرائع منزلة الا ما انزل جهله عليه من الخرافات والالوهام فشرائع
الانسان من صنع الانسان وهي تابعة لحاله من الانحطاط والارتقاء حقيقة توجب الفخار
لقليلها بمقدار ما تجلب العار على مقاوميه



فالعقاب الذي هو اساس الشرائع عموماً والقضاء خصوصاً أثر من آثار المعبجة وبقية من بقايا توحش الانسان الاول وما دام هذا المبدأ الفاسد أساس القضاء فاصلاح الهيئة الاجتماعية به امر مستحيل بل اذا دققنا النظر جيداً وجدنا انه سبب الشر « الكثير في العمران » كالقتل والسرقة وخصوصاً الكذب الذي هو اصل كل الشرور وان لم يكن سببها الحقيقي فهو السبب المساعد على انماؤها قال هولباخ « انا لا نرى هذا القدر من الجنايات على الارض الا لتضافر كل شيء على جعل البشر اشراراً جانين فان دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر فما عسى ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنانيته وتجعل قدر المسيء وامسائه ولا تقاوم اقبح الذنوب الا اذا كان مرتكبها

ضعافاً فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك لذنوب ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كباراً وكثيراً ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتعزيز شأنها »

فان هذه الشرائع التي لم ينظر فيها الا الى العقاب للانتقام وهذه المعاملات التي لم يقصد منها الا القسوة للارهاب هي التي ولدت اكثر الصفات الرديئة في البشر ولا نرجع الى العصور الخالية ونبتش قبور الذين عذبهم الغايات السياسية والمصالح الدينية ليس من الافراد فقط بل من الجماهير والامم لنثبت صحة هذا القول بل ننظر الى عصرنا الحالي فان الطمع الشديد المستحوذ على اهله والجنوح فيه الى استعمال الحيل والخداع والكذب دليل على انحطاط في تقرير الحقيقة والصدق وارتقاء مخيف في نمو الكذب وعلى من الذنب أليس على الهيئة الاجتماعية نفسها أليس الاطئاب في تعظيم هذه الرذائل والارشاد اليها جارياً على الالسة مجرى الحكم كما في قول الشاعر

ان لم يكن عندك حظ فليكن عندك حيلة

وما هي الحيلة يا ترى أليست الخداع وما هو الخداع أليس الكذب ولسان من عبر الشاعر بقوله

والصدق ان ألقاك تحت المطب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

أليس بلسان الهيئة الاجتماعية نفسها حتى صار الكذب شيئاً لازماً في الحياة الخصوصية كما في الحياة الاجتماعية . في صناعة الحب كما في صناعة الحكم على الجماهير . ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانه رأنا نواقبه على الصدق وان يسرق لانا حجبنا عنه ما يحتاج اليه فالكذب عادة الذنب في انتشارها على الهيئة الاجتماعية . وهو الذي يجرنا الى ارتكاب الجناية وهذه الهيئة التي تعلمنا ذلك وتجبرنا الى ذلك هي التي تطلب معاقبتنا على ما اكسبتنا اياه بالعادة ومكتته فينا بالوراثة

*
*
*

وانواع العقاب الكبرى ثلاثة القتل والحبس والتعذيب فهذه العوامل البربرية الثلاثة يسطو القضاء على الهيئة الاجتماعية التي وكلت اليه صيانة مصالحها ومما يدل على

ان هذه العوامل الثلاثة من آثار التوحش زوال بعضها وتلطيف البعض الآخر فان التعذيب الذي كان سلاح القضاء في عصور الحشونة كاد يزول من أكثر الممالك المتقدمة وقل القتل واصطلحت حالة السجون نوعاً فبعد ان كان الجاني يلقي في اعماق السجون المظلمة مجبوراً عن الهواء والنور اللذين من بهما الخالق على الاختيار والاشرار صار يسمح له بان يرى النور ويستنشق الهواء وهذا الاصلاح الطفيف الميب الذي يفتخر به القضاء اليوم هو عار على القضاء ووصمة تخجل منها الانسانية ولا يستطيع ان يفاخر به اقل الاصلاحات التي حصلت في اقل الفروع المعاشية التي تهتم الهيئة الاجتماعية وما دام القضاء لا يتخذ مبدأ له دفع الشر عن الهيئة الاجتماعية وتوفير النفع لها عوضاً عن العقاب للانتقام فهو بعيد عن الغاية التي تطلبها منه هذه الهيئة وهي صيانة مصالحها وتمييد طرق اصلاحها

وبما يكون دفع هذا الشر وتوفير هذا النفع أبالاعدام الذي هو قصص في الشرائع كما ان البتر قصص في الطب ولا يجوز ان الا اذا تعذر الاصلاح ام بالتعذيب وبالاشغال الشاقة وهي معاملة خشنة تمكن الانسان من الاخلاق الوحشية وتبعده عن الانسانية ام بالسجون التي هي قبور في الحياة لا يكتسب الانسان فيها الا فساد صحته من سوء الغذاء وقلة الهواء والنور والنظافة وفساد اخلاقه لما بها من سوء المعاملة وعدم الاعتناء بالتربية الحسنة يأكل الانسان فيها ويشرب وينام وقد يجتر كالحوان ويقل عنه في انه لا يعمل عملاً مفيداً ولا يكتسب عملاً مفيداً سقوفها تطر البق وارضها تابت القمل وجدرانها تشف عن الرذائل أفي مثل هذه الاماكن المدة في الاصل للانتقام تأمل ان نصلح الجاني وان توفر نفعاً للهيئة الاجتماعية كلانهم كلا فالهيئة الاجتماعية نظلمها واي ظلم اذا كنا نظن انها تطلب منا ان نقصص لها من جنايتها انتقاماً منهم حاشا ثم حاشا ان تطلب ذلك من نفسها ضد نفسها وهي في صحة عقلا وبالْحَقِيقَةِ من هم الجناة اليسوا من الافراد الذين يؤلفون الهيئة الاجتماعية نفسها . فلقد انقضت تلك المصور الحشنة عصور الجهل التي كانوا يغفلون فيها مصالح الافراد ولا يدركون قيمة لهم كأن ليس لهم حق في الحياة الاستقلالية وليس لهم شأن في الحياة الاجتماعية ولا يستحقون رحمة بهم ولا عطفاً عليهم من الانسانية ولكن

نور العلم الوهاج الذي يزداد كل يوم نوراً والذي هو نبراسنا الساطع في ظلمات هذا الوجود ودليلنا الذي لا يضل في مجاهل هذه الحياة آخذ في تمزيق غياهب الضلالات التي اورثناها الجمل وكل يوم يهتدي به العقل الى تعظيم شأن الافراد في الاجتماع الانساني كما هو شأنها في الاجتماع الطبيعي لتأييد دعائم الاقتصاد السياسي الذي هو نوع من الاقتصاد الطبيعي لان الافراد هم الاساس الذي تبنى عليه الجموع وتنشأ منه الجماهير وتتألف منه الهيئة الاجتماعية فالعبث بمقوق الافراد عبث بمقوق الهيئة الاجتماعية نفسها



ومن ينكر أن السجون على حالتها الحاضرة هي منشأ الجرائم والذائل وكل الشرور التي تتأصل في الهيئة الاجتماعية فلا شك أنه من افحة على جانب عظيم . وانه لعار على القضاء ان يكون الاخير في الاستفادة من مكتشفات العلم والصناعة وسائر معدات المتمدن ولثلا أرمى بالجسارة والتحامل اقول لنقابل بين المستشفيات في الماضي ومعاملة المرضى فيها والمستشفيات اليوم ومعاملتهم فيها وبين السجون في الماضي والسجون اليوم ومعاملة المسجونين فيها . فقد جاء في الكورسبوندانس مديكال بتاريخ ٣١ مايو من هذه السنة عن المستشقى المعروف باوتل ديو ياريز الذي هو اقدم مستشفيات اوربا (فانه انشيء في سنة ١٦٥١) نقلاً عن تقرير تون في سنة ١٧٨٦ ما نصه . وكانوا يطبخون في قاعات المرضى الطعام المعد لهم وكانوا يضعون عدة اشخاص في سرير واحد حتى كان الداخل اليها يكاد يختنق »



بل ننظر الى معاملة المجانين في المارستانات في الماضي كيف كانوا يضربون ويعذبون ويهانون ثم ننظر الى ما صارت اليه المستشفيات والمارستانات اليوم من الاقن البائع الغاية القصوى من توفير اسباب الراحة والاعتناء بالصحة حتى صارت تحاكي قصور الملوك لتتنظر الى ذلك وتقابله بحالة السجون والمسجونين في كل العمورة هل توجد نسبة بين الاصلاح المعيب الذي حصل في السجون والاصلاح البائع الغاية في المستشفيات والذنب في ذلك على من . أليس على القضاء نفسه الذي لم يعرف ان يستفيد من آعاب الانسان كما استفاد

سواء بل الذي لا يزال مستمسكاً بالقديم المنقل اليه من عصور غلب جهلها على علمها معتبراً أنه ما وجد إلا للارهاب والعقاب والانتقام وهو بذلك يزيد مصائب الهيئة الاجتماعية خلافاً لما يطلب منه وهو اصلاحها وتخفيف ويلاتها كأن اهل السجون لا يستحقون هذه العناية . فكيف يستحق مرضى الاجسام اعتناء رجال الفضل والحكومات بهم ولا يستحق مرضى الاجتماع منهم ذلك لان اهل السجون ليسوا بالحصار الا مرضى في الهيئة الاجتماعية سواء كان بالمعنى الحقيقي او بالمعنى المجازي

* *

بل اهل السجون هم مرضى بالمعنى الحقيقي مرضى في عقولهم مرضى في شهواتهم مرضى في ارادتهم مرضى في قوتهم المتصرفه فعلوم لكل ذي عقل ولا نحتاج الى اقلان العلماء والاستشهاد باقوالهم لاثبات ذلك ان اصحاب الجرائم قيمان قسم يرتكب الجرم بقصد الكسب او شهوة اخرى وقسم يرتكب الجرم مندفعاً اليه باسباب اقوى منه من دون أدنى روية أو تبصر في العواقب فالاول يسرق ويقتل ويرتكب الفحشاء ولا يستطيع القضاء غالباً ان يمد اليه يداً لأنه عاقل يتخذ الاحتياطات اللازمة لستر جريمته فهذا المسئول عن عمله والذي يجب على القضاء ان يماقبه فليبحث عنه لا في السجون وعلى مصاطب المحاكم بل في القصور على فاخر الرياش ووثير المهاد فالجرمون ليسوا كلهم في السجون كما ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات وليس منهم في السجون الا المرضى بالمعنى الحقيقي فعوضاً عن ان نعاملهم كما يعامل اخوانهم في المستشفيات نرانا شاهرين فوق رؤوسهم سيف ديموقلس اي سيف النعمة للاقتصاص منهم وهم اولى برحمة الطبيب

* *

اقول اولى برحمة الطبيب ولا ابالغ ولو عارضني معارض لهب لنصرتي من ارباب العلم والذكاء الوف كل واحد بمقام الاف من ابي الطب ابقراط المتوسد في قبره من عصور طويلة الى شركو وبال ولبروزو من مشاهير علماء هذا العصر واتباعهم الذين يعدون اليوم بالآلاف وخصوصاً هذا الاخير الذي يرأس المدرسة الحديثة التي تبحث عن طبائع المجرمين فلنسمع ماذا يعلننا شركو عن متشيطي الامس ومصروعي اليوم الذين

كثيراً ما يصيرون مجرمين . فقد كان الناس في العصور الحالية يعتبرون الهستيريات (اي المصابات بالهستيريا وهو مرض عصبي واللوآتي يصنعون لمن الزار في هذه البلاد) ان بهن شياطين فكانوا يحاولون اخراج هذه الشياطين بكل ما لهم من الوسائل الدينية والسرية فان لم تنجح عمدوا الى تمذيب الاجساد التي كانوا يزعمون ان الشياطين حالة فيها بكل انواع العذاب كالجلد والصلب والتقليب على شوكة الحديد والحريق بالنار بعد ان كانوا يقيدون بها بسلاسل الحديد ويلقونها في اعماق السجون المظلمة هذا ما كان يفعله رجال الدين ورجال السياسة بمثل هؤلاء المساكين قبل شركو ومن تقدمه من افاضل المصلحين وما كان عدد المتشيطين ليقبل بهذه المعاملة الوحشية واما اليوم فمن فضل شركو الذي افاد الانسانية من هذا القليل في سنين قليلة اكثر من كل الشرائع قبله صاروا يعتبرونهم من طائفة المرضى الذين يجب الرفق بهم ومعالجتهم في المستشفيات البالغة الغاية القصوى من الاقتان وما زاد عدد المتشيطين بهذه المعاملة الحسنة بل قل جداً مما يدل على ان الشياطين انفسهم يذعنون للمعاملة اكثر منهم للمخاشنة



و « بال » يعلمنا ان المجانين ليسوا كلهم في المارساتات فان افعال العقل المختلفة قد تختل من جهة مع بقاء الجهات الاخرى سليمة مما يمكنهم ان يعيشوا بين الناس بحالة لا تختلف ظواهرها عن حالة العقل السليم فاذا طرأ عارض هيج الجانب الضعيف ظهر الاختلال في العقل وربما جر ذلك صاحبه الى ارتكاب الجناية وسبق الى المحاكم . قال « مارييه » « يوجد بين الذين تحكم عليهم المحاكم عدد كبير من الخجلي الشعور واذادقنا النظر نجد ان اكثر الجرائم صادرة عن اناس غير مسئولين فالمعتوهون وضعفاء العقول والذين بهم حوول ورأفي واصحاب الصرع واصحاب الهذيان المزمن قد يصيرون مجرمين اذا عرضت لهم الفرص بسبب ما بهم من الخلل في القوى العقلية وهذه الفرص كثيراً ما تعرض لهم فيقتسونها »

ولا ريب بأنه سيكون للبروز في المستقبل في اصلاح المجرمين نفس الفضل الذي كان لشركو في معاملة اصحاب الامراض الهستيرية ولا نبعد كثيراً عن الزمان الذي

سيضطرب فيه القضاء ان يتموا دروسهم الشرعية بالاقامة ولو سنة في مستشفيات الامراض العصبية لبروا بأعينهم ويجسوا باصابعهم اوجاع الانسان ليعرفوا كيف يجب ان يحكموا فيها

والحاصل مما تقدم ان القضاء ما دام أساسه العقاب وما دامت السجون لا تحول الى مدارس تعلم فيها الصناعات وتهذب فيها الاخلاق وتحول فيها قوى المجرمين الى منافع وإلى مستشفيات يعالج فيها مرضى الاجتماع كما يعالج فيها مرضى الاجسام مدارس ومستشفيات بالغة النافذة القصوى من الاقنانه فهو عار على الانسانية وعقبة كبرى في سبيل اصلاح الهيئة الاجتماعية

~~~~~

## المقالة الرابعة عشرة

﴿ القضاء على القضاء <sup>(١)</sup> ﴾

﴿ استئناف ﴾

العادة ان الكتاب اذا نشر شيئاً في احدى الصحف ولو كانت سيارة بمس شخصاً آخر سواء كان انتقاداً أو مدحاً أو طعناً ان يرسل نسخة من العدد المنشور فيه ذلك الى صاحب الشأن اقتراضاً منه انه غير مشترك في تلك الجريدة او تنبيهاً له اذا كان مشتركاً وكثيراً ما وقع لي مما دلتني على ان هذه العادة الحميدة المتبعة في البلاد المتقدمة غير مرعية في هذه البلاد بين كتابنا وخصوصاً عند جرائدنا ولا يخفى ما يوجب ذلك من المؤاخذة ومن ضياع الفائدة احياناً كثيرة . وما حملني على التنبيه الى ذلك الان الا ما وقع لي مع جريدة السلام الفراء التي تطبع في الاسكندرية فانها نشرت مقالة لحضرة الكاتب البارغ الشيخ نجيب الحداد ردّ فيها على مقالتي « القضاء على القضاء » التي نشرت في احد اعداد البصير الاغر ولم يبلغني خبرها الا بعد نشرها بثلاثة ايام ولم يتيسر

لي الحصول على العدد المنشورة فيه الآن في اليوم الرابع اذ قصدت ادارة جريدة الاخبار البهية وسألها ان تنيلي هذه الامنية وقلت في نفسي هذا عقابي على محاولتي نقض العقاب ولم ادر انه اخف العقاب

فاغتنت هذه الفرصة لبدء ملاحظتي من هذا القبيل ورجائي ان كتابنا وجرائدنا عموماً يقبلون ذلك مني من وجهه الجيد ويضموا هذا الواجب الى ما لهم من الفضل في اعلاء شأن الكتابة والصحافة في بلادنا العربية

\* \*

وقد تصفحت هذه المقالة بما يجب على كل امرء من الاعتبار للافكار والاحترام للاشخاص تاركاً الاعراض والاعراض متمسكاً بالجوهر . وشكرت حضرة الكاتب على حسن ظنه بي واطرائه علي بما توهبه بي من قوة الحجة وحسن البيان وحسب الخبر والاحسان وان لم يشفق علي في انتقاده ولم يعترف لي بشيء من صحة البرهان اذ عد مقالتي نسيج اضاليل وباطيل وزخارف اوهام تجوز على بعض الافهام وتناقضاً من أغرب ما ورد عليه وضعف نتيجة مما تكني افهام القراء للحكم فيه ولا عجب فان الناس ينظرون الى الاشياء كل واحد من الجهة التي ألفها وانا لم اكن اشك لما كتبت ما كتبت وخالفت فيه من خالفت ووافقت من وافقت اني ساصادف عقبات تميد لها الجبال الرواسي والتي مقاومات تشيب لها النواصي فليس من السهل هدم بنيان راسخ تنزل اسسه الى أصل الانسان وتمتد الى الحيوان وتقطع سلاسل تربطه اليها من يوم هام في الاوهام وحل عقائد صقلت عندها لشدة ما تقادمت حتى صارت كالعروة الوثقى ومنشأها اضغاث احلام واصل كل ذلك فيه بعيد واثره فيه حتى اليوم شديد

نعم لم اكن اشك في ملاقة كل هذه الصعوبات ولم انخدع بحكم الجمهور الصارم في امري ولكن الذي لم اكن اتوقعه صدور مثل هذا الحكم القاضي من هم في مقام الخاصة كحضرة الشيخ الفاضل والخاصة هم قادة العامة وواسطة مراقبتها من حضيض الجهل الى ذروة العلم اذ لا فكر للعامة الا بهم ولا رأي لهم الا منهم

وغاية ما كنت اتوقعه مخالفتي في بعض الالوجه مع الموافقة ولو على البعض الآخر



واقل ما كنت انتظره ان تحدث مقالتي في العقل تأثيراً يحدث فيه تفكيراً يزحزحه عن مأوفه المتقادم عليه ويطلقه من عقاله المربوط فيه ويجيز له النظر في كل شيء واتقاد كل شيء ويسهل له سبيل الارتقاء والخروج عما افه بالعادة وتمكن فيه بالورائة وصار في اعتباره من البديهيات التي لا تقبل النقض لانا ان لم نطلق العقل من عقاله كيف نطمع بان نزحزحه عن ضلاله

الا ان حضرة الشيخ لم ينظر الى مقالتي هذا النظر ولم ير فيها هذا الرأي ولم ير في ما فيها من المباديء ولا ما يترتب عليها من النتائج فلم ير في قولي « ان العقاب الذي هو اساس القضاء اثر من آثار الهمجية وبقية من بقايا توحش الانسان الاول بل هو سبب الشر الكثير في العمران » واغفل قولي « ان لم يكن سبب الحقيق فهو السبب المساعد على انمائه » فكنت بذلك في نظره « كالذي ثبت ان المقدمة تزول اذا زالت النتيجة وهو عكس القياس العقلي تماماً لان الشر في الدنيا انما كان اولاً ثم كان العقاب من بعده فهو كالدواء الذي لم توجد له الدواء الا بعد وجوده والفاضل السبيل يقول اذا منعنا العقاب منعنا الشر اي اذا كسرنا زجاجة الدواء زال الدواء » اهـ



ولا نعود الى اصل الانسان في الحيوان لئين كيف ولد الشر لان حضرة الشيخ ربما كان لا يوافقنا على ذلك وان كان من الحقائق المقررة اليوم بل نكتفي بالقول ان الانسان وجد في اول الامر على الارض وكل شيء مباح له ويصعب ان يكون كثير الشر في هذه الحالة طالما يجد كوخاً يأويه وارضاً يخرج نباتاً ينفذه وماء يرويه ثم خطر على الضعيف ما ناله يد القوي والحاجة تدفع الضعيف الى السعي وراء رزقه والاثرة تحمل القوي على الاستبداد بما ملكت يده فنشأ عند ذلك الملك بوضع اليد عن قوة وكيف يستبد المالك بملكه ان لم يحمه بمعاقة كل من مد اليه يداً ثم كيف يسع الضعيف ان يقصر يده عن ان يمدها الى ما به قوام حياته فنشأت السرقة ثم اخذ يتفنن في الشر كلما زاد علماً وزاد صاحب الملك استبداداً فيه ومن هذا نستفيد فائدتين اولاً الاستبداد والعقاب صنوان وهما قديمان في الانسان غريزيان فيه يوم كان اقرب الى الحيوانية وثانياً هما سبب

اكثر الشرور التي لجأ اليها الانسان اليها في اول الامر دفعاً للظلم ورضوخاً لحاجات ضرورية لا يسهل ان يصم اذنيه عنها .  
فالعقاب لم يوضع في اول الامر ردعاً للشر لان الانسان الذي يسعى وراء رزقه لا يعتبر سعيه شراً وسعيه في اول الامر كن وراء رزقي مباح ما لبث ان خطر عليه باستبداد يد أقوى من يده فيه . وهو من آثار التوحش كما رأيت ثم كثرت المحظورات بتكاثر عدد الناس وانتظامهم في جمعية كبرى وتسلبت القوي على الضعيف ووضعت الحدود على ما شاء الاقوياء ونظمت الشرائع على هذا المبدأ ثم ألغى الانسان بالعادة وسوى نفسه عليها لان الانسان في استطاعته ان لم يستطع ان يغير الاحوال له ان يغير نفسه لها وهكذا بعد ان كان العقاب سبباً للشر صار يحكم هذه الحدود رادعاً له



فهذا الاعتبار يزول ما نسبة الى حضرة الشيخ من تقديم النتيجة على المقدمة ويستوي القياس العقلي ولا اخال حضرة الا يعلم حقيقة الاسباب والمسببات فالشيء الواحد يكون سبباً أو نتيجة بحسب الوجهة التي تنظر اليه منها . ومما يكن من ذلك فان ضربه مثل كسر زجاجة الدواء لشفاء الداء فيه شرود فان هذا المثل لا يصح الا اذا صح قياسه وصح ان العقاب هو الدواء اللازم الذي لا يقوم مقامه دواء لشفاء امراض الاجتماع لان نسبة القضاء الى امراض الاجتماع انما هي كنسبة الطب الى امراض الجسم وما نسبة العقاب اليه الا كنسبة الدواء الى الطب والاختبار يدلنا على ان الدواء متغير وسير الهيئة الاجتماعية في امر العقاب دليل قاطع على انه يمكن الاستغناء عنه واستبداله بطريق تدفع عن الهيئة الاجتماعية شر الجاني وتوفر لها منفعة باصلاحه لا بالعقاب بل بمعاملة معاملته معاملة الجاهل والمريض مما كما ابتأ في مقالتنا السابقة

على ان العقاب لا يسهل ان يصلح الجاني ولا ان يقوم اعوجاج الهيئة الاجتماعية لا بصورته القديمة ولا بصورته الحاضرة وهو في كلا الصورتين وحشي ونسبته الى الهيئة الاجتماعية واحدة فلما كان يتناول العذاب والقتل للتشفي والانتقام كان الانسان في حالة من الممجية تبعده جداً عنه اليوم فاذا كان العقاب قد تطف اليوم فالانسان قد ترقى

كذلك فإذا كنا اليوم نرعى الاقوام الذين تقدمونا وكانوا يستعملون العقاب على صورته القديمة بالتوحش فسقوم ابناءؤنا من بعدنا ويرموننا في العقاب الذي نستعمله اليوم بالتوحش كذلك . بل العقاب على صورته الحاضرة ما زال مفسداً للاخلاق مساعداً على انماء الشر يدخل به الجاني الى السجن بشرّ ويخرج منه بشرور وخوف العقاب لا يردع جانياً عن جنايته ولا يرد فاسداً عن فساد بل يحمله على الكذب خصوصاً وفي الشرائع الاجتماعية ينبغي ان تكون وجهة الشارع اصلاح الفاسد لا حمله على التقن في اساليب الفساد خوف العقاب ولو جاز لي ان أمر اليك ما تخاطب به ربك عند اعترافك له بخطاياك لأبنت لك ان الانسان ينجل من ان يكون الدافع له نحو ربه خوف العقاب أو الطمع في الثواب ( لا خوفاً من جهنم ولا طمعاً في النعيم بل حباً بك يا رب ) او يكون مثل هذا القول كذباً

\*\*\*

ولا ادري باي قياس عقلي جاز لحضرته ان ينكر ان خوف العقاب هو الذي علم الانسان ان يكذب وكيف يفهم قوله « اننا لم نعاقب المجرم لانه يصدق بل لانه يقر بذنبه في ذلك الصدق » ومتى علم الانسان انه اذا صدق في اقراره بذنبه يعاقب ألا يرى حضرته انه يحاول حينئذ عدم الاقرار به وما هو الكذب يا ترى غير ذلك وأليس خوف العقاب من قول الصدق في ذلك الاقرار هو الذي حمله عليه ام لا يجوز لنا ان نقصد النتيجة البعيدة من قولنا ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانه رآنا نعاقبه على الصدق « وهل يجوز ان يفهم منه غير ما تقدم أما كان يفئنا هذا الفهم عن التلاعب بالالفاظ حرصاً على المعاني . فها يمكن من ذلك أليس خوف العقاب هو الذي يدفعنا الى الانكار فأقل شرور العقاب الكذب وهو المصاوي ألا ترى الطفل الصغير قبل ان نموج طبيعته المستقيمة أو نزيد اعوجاجها اذا كانت عوجاء بتربيتنا له الترية السيئة كيف يميل الى قول الصدق ولا يصدل عنه الى الكذب الاً خوفاً منا ومن عقابنا فإذا كسر ابنك صحناً او زجاجة دواء ولو فارغة وسأله بانس أقر لك بالحقبة فان بادرت بالتهديد والوعيد او كنت قد عاقبت على ذنب سابق فانا اضن لك انه لا يقر لك مطلقاً ويحاول بكذبه النجاة من غضبك ولهذا السبب ولسوء معاملة الوالدين لاولادهم كان

اكثر الاطفال ينشأون كذابين . فهل ينكر هنا تأثير العقاب في افساد طبائع الاطفال

\*\*\*

ام بأي قياس عقلي يرى التناقض في هذه الحقيقة الواضحة في قولي « ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يسرق لاننا حجينا عنه ما يحتاج اليه » وهل له ان يفهمنا كيف تولدت السرقة في الانسان أولاً ولا نخاله الا يسلم بأن السرقة نشأت في الاصل عن احتياج الانسان الى شيء حجب عنه وهذا الشيء في اول الامر كان من الضروريات لحياته لان احتياجاته الاولى كانت بسيطة جداً لسد جوع أو ارواء ظمأ وقد أبتأ في ما تقدم كيف حجبت عنه هذه الحاجات الضرورية وكيف اضطر ان يسلك للاستحصال عليها بالالتجاء الى السرقة وغيرها من الوسائل التي صارت ذنوباً ووضعت لاجلها الحدود وسنت الشرائع ولا نريد من ذلك الرجوع بالانسان الى الاباحية التي تجعل كل شيء مباحاً له وانما غرضنا ان نبين ان الشرائع التي وضعت في الاول لصيانة حقوق القوي التي صارت حقوقاً بالطرق التي تقدم بيانها لم تستدرك مراعاة حقوق الضعيف فلم تفرض على القوي ما يكون بمثابة تمويض للضعيف على ما اهتمهم من حقوقه ولا ذنب له الا ضعفه بل جعلت كلها لصب جام النعمة على رأسه وهذا الذي يسمى رجال الاصلاح في كل الاقطار لتحويل الانظار اليه لاستداركه

وأما الماعى في عرض ذلك الى ذكر الفوضوية والاشتراكية وذكرهما على اسلوب يوم القاريء انهما وصمة لا يريد ان ينسبهما الي ثلثا اتلطخ بعارهما فلا اريد منه ان ينجبل عني منهما اذا فهمهما بمعناها الحقيقي وكما افهمهما أنا فاما الا اخوات تلك الجمعيات أو بناتها — ومنها الجمعيات المسيحية في اول عهد النصرانية — التي ما بقي الانسان يؤلفها منذ صار عقله قادراً على ان يفهم مبدأ الشرائع وما فيها من الحيف والتي ليس لها غرض سوى مقاومة أصحاب السلطة وتحويلهم عن اعوجاجهم وحملهم على السلوك في سبيل اقرب الى مصلحة العموم ولولا فضل هذه الجمعيات في كل المصور على اختلاف اسمائها واتفاق معانيها لما تزحرج الانسان شبراً عن المكان الذي اجلسه فيه شرائعه الاولى والفوضوية او الاشتراكية لا تطلب حقيقة الا ما نراه كل يوم في نظام الطبيعة

الصامته من اشترك الجمهور في مصلحة الجمهور واعتبار الافراد ضروريين للجمهور والزام الجمهور برعاية مصلحة الافراد فلو وجد في الحكومات ( وسوف يوجد في المستقبل ) نظام مثلاً ينظر الى مصالح الافراد بحيث يحمل الجمهور ينتفع من قوى كل فرد ولا يضع أقوى فرد ويحمل هذا الفرد ينتفع كذلك مما فيه من القوى ألا كنت تظن ان الحالة الاجتماعية تكون أصلح مما هي الآن فقل مصائب الافراد وتقل الشرور وتكثر منافع الجمهور . ولا نجدنا في غايات هذه الجمعيات ما نراه من الوسائط المشجوبة التي يعمد اليها أكثرها فنظمتها الغاية المقصودة منها فما هي بالحقيقة الا سلاح الضعيف لمقاومة القوي وتحويل الافكار اليها وايقاظ العقول الخاملة وتنبيهها الى التبصر والافتكار



ثم دفع قولي ان العقاب من آثار التوحش القديم قال وكان دليله على ذلك تعديل القصاص وتلطيف انواع العقوبات والعذاب فكأنه بذلك يستدل على ان كل شيء يجري فيه الاصلاح بعد حدوثه يكون فاسداً في اصل وضعه وان القضاء ما دام يمكن اصلاحه فهو فاسد الوضع وان العقاب ما دام يصلح ويلطف فهو ظلم من اصله ولا وجوب له في هيئة الاجتماع فاذا قلنا له ان الطب يمكن الاصلاح دائماً ( وهو في مقاتله قد شابه بين الطب والقضاء ) فهو اذاً من آثار التوحش الذي لا وجوب له في هذا العهد الخ « فيه من التكلف والاضطراب ما لا ينبغي ويجرنا الى مبحث يصرفنا الاشتغال فيه عما نتوخاه في بحثنا من الممانى فاننا لم اقل ان القضاء لا وجوب له وهو للاجتماع كالطب للابدان وهل يجوز ان يستتج ذلك من طغي في العقاب ام هل العقاب هو القضاء نفسه ام ليست نسبة العقاب الى القضاء كنسبة الدواء الى الطب فاذا حكنا بفساد الطرق العلاجية ( والطب قديم وقد تغيرت هذه الطرق فيه جداً ) بدليل تعديلها او تبديلها فهل يلزم من ذلك ان نستتج ان الطب لا وجوب له وهنا يعذرني حضرة الشيخ اذا اظهرت متعنى استرابي ورحم الله الشيخ جمال الدين الافغانى فانه كان كلما عرضت له مشكلة من هذا الطراز لا يجد جواباً عليها احسن من قوله « سبحانه الله »

وأما كلامه في السجن فلا يختلف عن كلامنا فهو يوافق على اصلاحها انما يخالفنا في

غايتها فهو يريد بها ان تبقى محلاً للعقاب ويزعم ان الاصلاح لا يتم بدون ذلك وهو بذلك متفق مع نفسه لاعتباره العقاب الدواء الافضل لتقليل الجرائم ونحن نريدها مدارس ومستشفيات لتهديب الاخلاق وتقوم الموج من الطبايع وغرضه ان يدفع الشر عن الهيئة الاجتماعية ولو بتضحية هذه الهيئة لقلة اعتداده بالافراد وغرضنا دفع الشر عن هذه الهيئة مع توفير المنفعة لها بتوفير اعضائها وقد تقدم ان العقاب بمعناه وطرقه لا يفي بذلك بل هو عقبة كبرى في سبيله . هذا واتي في الختام اشكر حضرة الشيخ الفاضل لان مقالي لم تذهب عنده من دون صدق وان كان على غير ما احب فلكل منا فكر يلزم اعتباره فهو يرى ان ليس في الامكان ابداع مما كان وانا ارى ان في الامكان ابداع جداً مما كان

## المقالة الخامسة عشرة

﴿ احناء وانحاء <sup>(١)</sup> ﴾

اشد القُرُ . واقرسني البرد . ويوت القاهرة لا للحر . ولا للبرد . فليجأت الى وقود الفقير . وهو في الشتاء دفاً وفي الصيف سعي . فقامت امشي مثاقلاً كأني من اسد الشرى . او من صيد الشرى . ومالي من بأس ولا شرى . فيتبهنى الناس بالمعجب وانا ارمقهم بالمعجب . كأني لا ادرك ما بهم من العبامة وكأنهم يجهلون ما بي من الوصب . وما زلت انحون نحوهم واراهم كأنهم ينحون علي . حتى شعرت كأن سلطان غلهم قد افرغ الي . فذكرت . ما قلت :

مصر هل أنت غير ما هنّ ان لنا شداداً وان قسونا ركاكاً  
ذاك خلق من صنع فرعون لا شاد اهرامها تناغي السكاكاً  
ولكم نصرتهم في معمة . فذكرت قول ابن صعصعة :  
فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

ولولا خوفي ان يشكل الایماء . حتى على واضع رسالة الغفران . ومجيز الشعراء في الجنان . لما ذكرت هنا البيت . ولا ككتبت . بالتلميح عن التصريح — وما ضرب صاحبها على هذه الغنة . الا ليقول لنا ان الشعراء قد يكونون من اهل الجنة . وحولهم الحور والولدان . والقيان والدنان . يفترون من انهارها بمرافد من عسجد . وهم فيها متكون على ارائك من زبرجد . وكأني ارى عليها حافظاً واحداً<sup>(١)</sup> . هذا يسبق وذاك يزرد وما كدت افرغ من هذا الانحاء . ومن التأمل في ما في الاخلاق من الاحياء . حتى عارضني من صدقي عن الطريق القويم . وارجني من سماء ما كنت فيه أهيم . فرفعت نظري واذا انا بصديق قديم . قتل من اين . والى اين ؟ فقال اليوم اتيت من غربي . ونزلت الى الشوارع افرج كرتي . فهل لك ان تقبلي معك في الطريق . قتل له نعم الرفيق . — واذا بصوت يصدع . تتبعه حوافر تفرع . وشيء كالصندوق قائم على عجل يشق هذا المجتمع . فقال لي ما هذا الذي ارى ؟ رجل يسابق الجياد فاين السبق؟<sup>(٢)</sup> قلت هذا باق من عصر سبق . وكأنه من بقايا عصر الصوان . لما كان الانسان . في مقام الحيوان . وهذا الصندوق يصون مقترشاً لا كبيرين من الاعيان . ولكن ذلك قد قل . لان عندنا اليوم ما هو أجل . واذا بصغير يكاد يمزق اذن الاصم . وشيء مندفع كالسهم . فقال ما هذا ؟ قلت من السيارات . التي امطرتها سماء المضاربات . والذي عليها ولا يفرئك حسن بزته لص ولكن انظر الى الناس كيف يرفعون له القبعات ويفترون بها الثرى . لانه أترى كما ترى . قال وهذا الذي اراه . كانه في نعمى تفوق نعماء ؟ قلت هو من سلالة الوزراء . ولكن عرشه اليوم في الصحراء وعلى الماء

ثم علت الضوضاء فقال ما هذا الصخب . كأن الناس في شغب . فنظرت واذا بالناس يجمهرون ثم ينفضون والمركبات وقوف . والكل عجل ملهوف . قتل هذا موكب الامير فحش وبش . وتهباً للسلام قتل مهلاً وقد يمر الربع والنصف قبل ان يركب . وقبل ان يمر الموكب . وما هذا الا تمهيد الطريق للمسير . قال وكيف ؟ أفي هذا التعقيد تمهيد ؟ أما ترى ما في هذه المصادرة . من المتافرة ؟ وكأني ارى هناك ان بين بعض الناس

(١) شاعرا مصر حافظ ابراهيم واحمد شوقي . (٢) اشارة الى « المجري » الذي يدنو امام الخيل

ورجال الحفظ مهاترة . هؤلاء يصدونهم عن الطريق . واولئك يتدمرون من هذا التعويق . ألا ترى ان الامير لو اخذهم فجأة لراءهم على ما هو احب . والمفاجأة ادعى لاطهار الحب . فقلت له لعل الامير لا يعلم لانه يحب شعبه ويريد ان يحب وما زلنا نسير . ويسألني عن القليل والكثير . حتى اقبلنا على بناء لا بالفخيم ولا بالذميم . وقبل ان يبادرني بالسؤال . قلت له هذا ملهى تمثّل فيه مختلقات الخيال . من الوضع المناقض للطبع . ولولا مناجاة النفوس بالحن الموسيقى . لكانه كل ما فيه ملفقاً على الطبيعة تليفاً

ثم التفت وقال وما هذا الذي ارى الناس فيه يدخلون ويخرجون . ألهه مصلّى . قلت كلاً . ثم قلت له مه وصه . ثم همست في اذنه وقلت . هناك اناس جالسون على منصاتهم كالارباب . يقضون في مصالح الناس بلا ارباب . يلبسون اردية كاهل المسافر . حتى اصبحوا في كل اعمالهم يستسكون بالاعراض ويعرضون عن الجواهر . مقتنون بقانون ليس للعدل فيه ام ولا اب . وبنظام أعقد من ذنب الضب . هذا يصعب الدخول فيه والخروج منه على العالم الفطّاح . وذلك يتيه فيه صاحب الحق ويصول فيه صاحب البطل . والطريق الوعر صعب المسالك والطريق السهل اقرب الى العدل . — فقال دعني من التحكك بهم واتي لغني عنهم باذن الله . قلت لا يعلم ذلك الا الله ثم قلنا راجمين فاذا به يقول فما هذا النقص . فاذا الناس كأنهم في شجار . وتغار . يرتفعون بعضهم فوق سنام بعض . كأنهم من خلف . ذلك السلف . قلت هذا معهد في الصورة صغير . وفي المعنى كبير . فهو نادي اخوان . اكتشفوا سرّاً ولا سر « مركوبي » وقد يشبه سر « لموان<sup>(١)</sup> » فيلعبون على الهواء من غير جبل البهلوان . وهذا سبب ما ترى في البلاد من الرخاء . قال واين الرخاء . قلت قل اذاً من البلاء والخسران



واذ نحن في التجوال . رأينا جمعاً يموج كالبحر الزاخر . تجلله السكينة والوقار والمهابة والجلال . حتى انك لتحسبته ساجياً وهو مائر . فقال . وهذا الجمهور . قلت هذا يوم تجلي

(١) محتمل زعم انه اكتشف سر صنع الالاس . والمراد بالنادي البورصة



الشعور . ولعله اعظم يوم في تاريخ مصر . من اول الدهر <sup>(١)</sup> . فسلام على الروح التي في الحياة مثله . والف سلام على الامة التي بجليل هذه المظاهرة احية . ويا حبذا تلك المنابذة . من جمهور التلامذة . ويا حبذا ذلك التفور



ولكي تعلم الفرق بين ما ترى وما تقدم . اذكر لك ما كان عليه القوم . قبل اليوم . اذ كانوا يصادرون . فلا يفوهون . كأنهم لا يشعرون . واذا احس احدكم فكانه ملجم . حتى قلت يوماً من كلام ظاهره الهزل وباطنه الجد . وبالضد يتبين الضد . وذلك في أوائل الاحتلال على عهد اشتداد الخصام . بين المقطم والاهرام

في مصر قامت ثورة بين المقطم والمهرم  
من عهد عادٍ ما سمعنا مثلها بين الامم  
جاشت عليه «جيوشه» حتى اذا كادت تنهم  
لاقت عني من «هوله» كادت تشيب لها اللهم  
. . . . .

وتساقط الاشلاء واصح طبغت مياه النيل دم  
تلك المياه واين من محرّها صافي الديم  
كست الطبيعة حلة خضراء فاضت بالنعم  
حربٌ ولكن نارها برد لا يقاظ المم  
وتنبهت من بعد طول رقادها تلك الرمم

قال نعم الانقلاب . ثم قال وما مصير الاحزاب . بعد هذا المصاب . قلت له مادام «ذنوب» . لا يقال ولا يأوب . فلا خوف عليهم ان يفقدوا ناصرها . فهو كل يوم يشدّ لهم اواصرها . ولاجله فليحمدوا الاحتلال . في كل حال ولما اعيانا التعب . وكنت قد دفنت قمت اداري ما بي من الوصب . فركبنا عربة عند الاصيل . وقصدنا النيل . إله مصر المحيي . وغشيها المروي . حتى وصلنا الى التهر .

(١) اشارة الى ما كان عليه مشهد المرحوم مصطفى كامل من الهابة والجلال

فوقتنا بين الجزيرة والجسر . والمركبات تمر امامنا مرور السهم . فخذ كرت قول علي بن الجهم <sup>(١)</sup> . واذا بصاحبي يقول وما هذا القصر ؟ القائم على ضفة النهر . فقلت هذا قصر العميد الجديد . قال وهل كان قبله عميد ؟ قلت كان قبله قرم عنيد <sup>(٢)</sup> . قال وهذا ؟ قلت لا رحو ولا شديد <sup>(٣)</sup> . كأنه يسير بقوة الاستمرار . او بالانكسار على الاقدار . وليس فيه شيء من تلك الاثرة . كانتا معه في زمن الفترة . فاما ذلك منه دهاء . ووراءه نعمة . واما صفاء ووراءه نعمة . واما اليوم فلا حديث للناس على عهده الا بالازمة <sup>(٤)</sup> اه

## المقالة السادسة عشرة

### الاذكار والاناث <sup>(٥)</sup>

ان نظر ديوزن اليوم في سبب تولد الذكر والانثى يقرب جداً من نظر القدماء فقد قال الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي في عرض كلامه على تولد الاجنة « ان من الناس من يولد انثى فيستحيل ان يولد ذكوراً وذلك بسبب استحالة المزاج لا بسبب ان الزرع تارة خرج من الذكر وفيه اجزاء عضو الذكر وتارة خرج من الانثى وفيه اجزاء عضو الاناث » وهو قول صريح بان اختلاف جنس المولود ناشي عن استحالة في الزرع لاستحالة في المزاج لا عن سبب آخر وهو من أعجب ما وصل اليه عن القدماء في شأن القول بالتحول . ولا يخفى ان استحالة المزاج انما تكون بالتغذية وهو عين مذهب ديوزن والتغذية حاصلة في الزرع ايضاً والقدماء علموا ذلك فقد قال محمد بن زكريا « ان الزرع في غاية القلة فلا بد من قوة غاذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن تكون الاعضاء منه » . وهو عين مذهب الفيزيولوجيين اليوم

- (١) عبود المي بين (الجزيرة) الرصافة والجسر . جلين الهوى من حيث ادري ولا ادري  
(٢) الفورد كرومر (٣) السير فورست (٤) اشارة الى الازمة المالية التي اقضت  
على مصر على اثر الشركات الكثيرة التي انشئت فيها حتى تناولت الارض الجرداء والماء وكادت تهتك  
الهواء وعلى اثر المضاربات باورائها الموهومة والحكومة ناظرة لا « تهش ولا تلهش »  
(٥) نفرت في المتطلف سنة ١٨٨٢

وقد عال الرازي ذلك بما لا يختلف عن تعليل ديوزن معنى وان اختلف عنه لفظاً قال : « ان السبب الاصيل للذكورة سخونة الزرع والاثوة برده » ولا يخفى ان سخونة المزاج وبرودته حالتان من احوال التغذية . والبرودة او كما يقال الرطوبة أيضاً تكثر في اصحاب خصب البدن المفرط وبمكس ذلك السخونة او اليوسة قاتها تغلب في القضيف وهذا هو نظر ديوزن حيث قال ان كثرة الغذاء سبب الاثوة وقلته سبب الذكورة . ثم ذكر لهذه السخونة اسباباً منها « ان يكون زرع الاب غالباً في الكيفية والكمية على زرع الام » وهو كقول ديوزن « كلما غلبت قوة احد الوالدين التناسلية على الآخر غلب ان يكون النسل من جنس الغالب » ومنها ايضاً « حصول هذه السخونة بسبب الاغذية والبلدان والفصول والاعراض النفسانية والحركات البدنية أو ما يتركب منها » وهو يعنى ما يتناوله مذهب ديوزن على الاطلاق لانه اذا ثبت ان التغذية سبب الاذكى والایناث فلا يعود في الوسع انكار ما لاحوال الخارجية والنفسانية من التأثير في ذلك بناء على ما لها من التأثير على القوة الغذائية نفسها . وبناء على ما لهذه الاسباب من الاثر اليسى وعلى كثرتها واختلاف نتائجها باشتراكها مع سواها ومع بعضها وقال ايضاً « واذا تعددت اسباب الذكورة لم يلزم في من اشبه اباه في الذكورة ان يشبهه (في الصورة) بل ربما اشبه الام او ربما اشبه جداً بعيداً<sup>(١)</sup> وليس يبقى له زرع فقد حكي ان واحدة ولدت من حبشي بنتاً بيضاء ثم ان تلك ولدت ابناً اسود<sup>(٢)</sup> ومما ذكره في المشابهة مما يجمل النظر فيه عند المتأخرين قوله « واما المشابهة في الصورة والشكل فقد عرفت ان زرع المرأة ليس فيه الا القبول وزرع الرجل ليس فيه الا التأثير فانه اطاع زرع المرأة لقبول صورة الاب ومادة الاب لا شك انها تقتضي تلك الصورة لا جرم يخرج الولد على صورة الاب وان كان لا يقبل الا صورة الام اضطرت القوة الفاعلة الى ان تفيدها تلك الصورة فلا جرم يخرج الولد على صورة الام وان كان لا يقبل لا هذه الصورة ولا تلك حصلت صورة اخرى استعدت المادة لقبولها بحسب اسباب معدة جزئية لا يحصى عددها » وقد بسط

(١) وذلك ما يعرف في مذهب دارون بناموس الرجة او الاتافيسم (٢) مراده ان تلك الدت ولدت من ايش ابناً اسود

الكلام على هذه الاسباب قال « وقال قوم من العلماء ان من اسباب الشبه ما يتمثل عند العلوق في وهم الرجل او المرأة من الصور الانسانية تمثلاً متمكناً اقول ( والقائل الرازي ) والذي يدل على صحة ذلك وجوه احدها اننا نرى الحيوانات البرية قريبة التشابه بعيدة عن الاختلاف ونرى الصور الانسانية قوية الاختلاف بعيدة التشابه ونرى الحيوانات الاهلية متوسطة في ذلك وما ذلك الا لان الانسان بسبب احساساته وتخيلاته الكثيرة تختلف صور اولاده واما الحيوانات فتخيلاتها قليلة جداً فالحيوانات البرية لما كانت محسوساتها قريبة التشابه لا جرم كانت احساساتها كذلك وكانت صورها متشابهة واما الحيوانات الاهلية فلما كانت محسوساتها مختلفة وتخييلاتها قليلة كانت في التشابه والاختلاف في حد التوسط وثانيها اننا نرى الانسان تختلف احوال بدنه بحسب اختلاف احواله النفسانية من الغضب والفرح وامثالهما فما المانع ان يكون لذلك اثر في اختلاف الزرع وثالثها ان الرعاة يشهدون لاختلاف حال الانعام بحسب اختلاف محسوساتها في الالوان والاحوال واذا صح ذلك ثبت ما امر به الصادق المصدق من ان الانسان ينبغي ان يتخيل حال المباشرة صور الصديقين الصالحين » . ومثل ذلك قال ابن سينا في كلامه على الأذكار حيث ذكر ان الأذكار هو في حرارة زرع الذر وغزارته ومخنه اي في غلبته على زرع الانثى وفي البلد والفصل ومما قاله في ذلك « ان الريح الشمالية تعين على الأذكار والصد على الضد » وما قال ذلك الا لاعتقادهم ان الريح الشمالية تجفف الابدان . ثم ذكر تأثير الاحوال النفسانية واستحضار الصور في الذهن عند المباشرة على نحو ما ذكره الرازي قال « ويكون الانسان في اسر حال واطيب نفس وابهج مشوى ويفكر في الأذكار ويحضر ذهنة الذكران الاقوياء ذوي البطش ويقابل عينيه بصورة رجل منهم على اقوم خلت وانبث هيت » وليس في هذا الامر شيء من التراب اذا اعتبرنا ما تقدم من تأثير الاحوال النفسانية وسواها في التغذية انما لا ينبغي ان يطمع فيه باكثر مما تقتضيه الاحوال لكثرة الاسباب التي تعترض ذلك وثانياً لان اثر الاشياء وان يكن ينطبع على الاعضاء انما لا يثبت فيها الا على مقدار ملازمة عاملها ويضعف كلما كان مفارقاً

وبما ذكر الرازي في ذلك قوله « والذكر من الاجنة تمام تكون خلقته اسرع من تمام تكون الانثى وذلك لان الذكر اقوى حرارة واقل رطوبة فالزرع الذي هو مادته يكون كذلك » وهو نتيجة لازمة لما قدمه هو وديوزن في سبب الاذكار والاینات ولعل علم تولد الاجنة يثبت ذلك فان المولودين في الشهر السابع يغلب كونهم ذكوراً نقول ذلك عن ظن لا عن يقين

واعلم ان التغذية المفرطة وقلة الحركة ربما اورثا العقر ايضاً لما ينشأ عن ذلك من احتباس العضلات وضعف القوة الحيوية ودليلاً قلة نتاج الحيوانات المسمنة التي لا تعمل في الارض بخلاف التضيئة المجهودة في الاعمال الشاقة فانها كثيرة النتاج غالباً ولذلك كان يكثر العقر في المنعمين القليلي الرياضة المكثرين من الغذاء ولهذا كان احسن علاج لهم الاقلال من غذائهم والاكثر من حركتهم حتى تنشط ابدانهم وتعتدل قواهم وتحسن افعالهم اي تنظم وظائفهم

### ﴿ وفي هذا المعنى ايضاً <sup>(١)</sup> ﴾

قال بقراط « لكل شيء سبب طبيعي وبدون سبب طبيعي ليس يكون شيء » وكلما تعمق العلماء في مباحثهم تحقق لهم صدق هذا القول . ولقد طالما عد الناس تولد الذكر والانثى من الاسرار التي يقصر العلم من ادراكها والظواهر ان هذه المسألة كسواها من المسائل الطبيعية لا تخرج عن هذا القيد فقد ذكر هكل من عهد غير قريب في كتابه الانثروبولوجيا وكتابه تاريخ الخلق الطبيعي ان التذكير والتأنث من افعيل التغذية . وقد ذكرت الجرائد في هذه الاثناء كتاباً لاحد العلماء المدعو ديوزن طرق صاحبه فيه باب البحث عن سبب التذكير والتأنث وقال فيه ان زيادة الغذاء وشدة التغذية سبب تولد الانثى وقلة الغذاء وضعف التغذية سبب تولد الذكر وقد اورد على ذلك براهين كثيرة وادلة مختلفة . وقد ذكر المتتطف في عدده الماضي تحت عنوان « سر التذكير والتأنث » ملخص هذا الكتاب باوفى بيان واحسن اسلوب ومرادنا هنا ان نذكر ثلاثة ادلة ترجيحاً لهذا القول وهي

اولاً ان النحل اذا ماتت ملكته عمد الى نحلة من النحل الجاني الذي ليس بذكور ولا انثى وحوثها الى انثى تقوم مقام الملكة التي ماتت وذلك بوضعها في بيت خصوصي اكبر من سائر بيوتها وبالاغتذاء بنحلها وزيادة فيه . ومعلوم ان بيض النحل الغير الملقوح يولد الذكور والملقوح يولد الاناث ومعلوم كذلك ان البيضة من الكائنات الحية التي تقتضي وان القاح من الغذاء وهذا كله دليل بين على ان الجنسية نتيجة التغذية ثانياً قد تبين من امتحانات دُرن ويونغ على دعاميص الضفادع ان الدعاميص التي يكثر غذاؤها ينقلب نحوها الى اناث والتي يقل غذاؤها الى ذكور ثالثاً ان في الحل التوأمي ثلثي التوائم ذكور كما يعلم من علم الامبريوجنيا اي علم تولد الاجنة وسبب ذلك قلة الغذاء فاذا استوت تغذية التوأمين كأن لم يكن لهما سوى كيس واحد ومشيمة واحدة متصلة او عتيها بعضها ببعض كانوا كلاهما من جنس واحد اما ذكرين واما اثنتين . فان كانت المشيمة مزدوجة فتختلف تغذية التوأمين غالباً ويكونان غالباً من جنسين مختلفين وكل ذلك يوافق ما ذكره ديورن من ان كثرة الغذاء تولد الاناث وقلة تولد الذكور . وهنا ايضاً ترى الاسباب الطبيعية تقوم مقام الاسباب الفائية

## المقالة السابعة عشرة

### ﴿ فكرة الخير والشر ﴾<sup>(١)</sup>

قال الشاعر العربي :

والظلم من شين النفوس فان نجد ذا عفة فلعله لا يظلم  
وقال المتتطف : « كنا نراقب في هذه الاثناء ولدين صغيرين صبيًا وبناتًا عمر الصبي نحو سنتين وعمر البنت نحو اربع سنوات فرأيناها يكذبان ويخدعان ويمتالان . ولو رأها علماء الفلسفة الادبية الذين يقولون ان اصول الآداب مودعة في نفس الانسان ولا تنفك عنها البتة لغيروا اعتقادهم »

وذهب فريق الى ضد ذلك فقالوا ان اصول الآداب مودعة في الانسان فهي في نفسه وعقله وان فكرة الخير عامة مطردة في البشر وهي لازمة ضرورية وغير ممكن ان تنفك عن القوى البتة

قرأت ذلك في المقتطف وتذكرت المثل : «النفس اثمارة بالسوء» وقلت في نفسي: لماذا هذا الاختلاف العظيم بين جمهور المفكرين فلا بد ان يكون هناك اسباب جعلت كلاً من الفريقين يرى رأياً مضاداً للآخر . فما هي هذه الاسباب كل انسان علت مداركه او انحطت تراه اثبتين في آن واحد يحدث فيأمر بالمعروف ويعظ فيحث على الفضيلة ويكتب فينهى عن المنكر ثم يفعل فتجد افعاله في الغالب مناقضة لاقواله . ويشهد هذا التناقض اكثر عند النظر الى هذا المعروف الذي يأمر به والمنكر الذي ينهى عنه بحسب الوجهة التي ينظر اليها منها . فلا بد لذلك من سبب جوهري يفعله الباحثون في هذا الموضوع

أكثر الباحثين في افعال البشر ينظرون اليها كأنها افعال مجردة وقلم ينظرون الى العلاقة التي بينها واذا نظروا اليها فن اطرافها البعيدة وهي شديدة الاختلاط كثيرة التضاعيف كالحلقات المتسلسلة بحار العقل فيها ان لم يردّها الى بساطتها افعال الانسان قائمة على مبدأ مشترك بين سائر الكائنات فاناموس الالفة في الجماد وحب الذات في الانسان من مبدأ واحد وغايتها واحدة اي حفظ كيان كل واحد منهما وفعالهما البسيطة اي المجردة عن كل روية واحدة ايضاً في دفع الاذى وجلب المنفعة وتسمى طبيعية في الجماد وبديهة في الحيوان والانسان وهي كائنة ايضاً في النبات ولا عبرة بالاسم وانما العبرة في ان كلاً من العوالم الثلاثة من جماد ونبات وحيوان خاضع لنفس هذا الناموس في حفظ كيانه فاذا نظرنا الى هذه الافعال والغاية المترتبة عليها وهي حفظ الذات لا يسمنا الا ان نقول ان الغاية الاولى منها ليست الشر بل الخير . وخير الحجة ما ابتدأ بالذات كما في المثل المعروف

ولا ينكر ان هذه الافعال يترتب عليها حدوث الشر ايضاً فان الجماد الذي يفك اثتلاف سواء لخيره الذاتي انما يضرّ بذلك السوى اذا اعتبرنا مثل هذا الحل اضراً

وكذلك النبات الذي تنطبق أوراقه على الذباب الواقع عليه حتى يموت . والحيوان الذي يفتك بسواه لمصلحة نفسه . فان مثل هذا الفعل المترتب عليه الخير الذاتي لم يقع بدون اضرار . فان كان القصد من البحث في هذا الموضوع معرفة الفكرة الاولى المرتبة عليها هذه الافعال فلا يسعنا الا ان نقول انها الخير لان الشر حدث معها عرضاً ضرورة لتعذر وقوع ذلك الخير بدونهِ . واما اذا كان القصد للخير مجرداً والشر مجرداً فالبحت حينئذ

يستفد قوائنا ولا يأتي بظائل لان الخير والشر مجردين ليسا في هذا العالم وفي أفعال الانسان يخطط الامور كثيراً جداً لاشتراك الروية فيها وتختلف ايضاً لاختلاف هذه الروية وما استفادته من الاختبار ولكنها لا تختلف في الغاية التي تصبو اليها وهي حفظ الذات حتى ولو انكر الانسان نفسه واتى أفعالاً تخالف هذا المبدأ في الظاهر فلا ينكرها من جهة الاحبا بها من اخرى خوفاً من عقاب او طمعاً بثواب

ومعها اختلفت الروية فحورها واحد . هنا اثنان كل منهما ينظر الى مصلحة نفسه فهذا تدلّه مداركه على ان مصلحته لا تتأتى له مع مصلحة سواه فيستأثر بالمنفعة او ما يظنه كذلك . ويعتمد الاضرار بسواه ويقدم عليه مطمئن الضمير معتقداً انه يفعل خيراً كما في منازعات الاديان والاطوان مثلاً . وهذا يرى باختياره ان مصلحته لا تقوم الا بمصلحة سواه فلا يخططها وهو عالم كما في مسائل العمران عموماً

وأما الاستشهاد بالطفلين وكذبهما واحتياهما وخداعهما فليس بالدليل القاطع فالكذب ليس من طبيعة الطفل ولا من موجب له لديه فالطفل يصدق حتى يعلم ان صدقه قد يجني عليه فيعبد الى الكذب دفقاً للضرر . فالكذب عارض على الطفل من جنس تربيتنا له . خذ طفلاً ارتكب ما ننده نحن ذنباً ولم يعرض له في نفسه ولا شاهد في سواه ما يحمله على التروي قبل الاقرار واسأله من عمل هذا ؟ فلا شك انه يحميك على الفور بقوله أنا فاذا عاقبناه عليه كما هو النال أبقتسرب بعد ذلك اذا لم يصدقك اذا اتى أمراً غير جائز في عرفنا نحن لا في عرفه هو لان الطفل لا يعرف الجائز من غير الجائز في اول الامر ولا يعرفه الا منا وكيف يعرفه منا الا بالعقاب ولا يرى نجاته حينئذ الا بالكذب فيكذب ويكذب حتى في ذنب ارتكبه على مرأى منك وهذا ما حلني على القول في بعض مباحثي



« نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لاننا عاقبناه على الصدق » وأنا لا اظن ان هذه القاعدة تخلُّ اذا احسنا المراقبة جيداً وعلى فرض انها أخطت فلا يكون ذلك حجة على هذا المبدأ بل تأييداً لناموس آخر هو ناموس الوراثة اذ لا يخفى ان الصفات الادية حسنة كانت أو ردية تنتقل بسهولة في النسل . ومن الجاني حينئذٍ على هؤلاء الاطفال الابرياء ألسنا نحن الذين نعاقبهم على ذنب تطرَّق اليهم منا

ويا ليت الامر اقتصر على ذلك بل نحن في كل اعمالنا أمامهم مثال رديٍّ وهم اطوع من ظلتنا في تقليدنا واشد طواعية من الشمع في انطباع أفعالنا فيهم نكذب أمامهم ونكذب عليهم ونعلمهم ان يكذبوا عنا ونزوتهم ونمنبهم بكل ما يتبين لهم كذبه بعد قليل فماذا تنتظر من طفل ينشأ في مثل هذا الوسط . على ان الكذب على ما يظهر قد صار شراً لازماً في هيئتنا الاجتماعية كما هي فهو عدة التاجر الماهر والسياسي المحنك والامام الهادي والقاضي العادل والمحامي الفاضل والطبيب النطاسي والصحافي الصادق والوطني الغيور وقد خلق الشاعر فوقهم بقوله

الصدق ان القاك تحت المطبر لا خير فيه فاعتصم بالكذب

## المقالة الثامنة عشرة

﴿ لطمة على خد العالم <sup>(١)</sup> ﴾

حكم على دريفوس فساء فأل قوم وسر آخرون ولا ندرى هل جار القضاة في حكمهم ام عدلوا والذي ندرى ان الناس كثيراً ما يرون بعيني احوالهم لا بعيني عقولهم قضاة كانوا ام حكاماً ام من عامة الشعب . وذهب قوم الى ان الحكم جاء بنتيجة برداً وسلاماً على الامة اذ وقاها من شر ما كلن يخشى من القلاقل لو كان على ضد ذلك

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٩ على اثر تهديد مصانع انكلترا انها لا تشترك في معرض فرنسا الشهيد اذا لم يبرأ دريفوس

واستمر في القول الى ان الحكم وان لم يكن عادلاً فهو حكم سياسي يريد بذلك ان فيه من الحكمة ما يربي معه النفع على الضرر وتضحية الافراد للجواهر تهوئها نوايس العمران كما هي جائزة في نوايس الطبيعة الصامتة وزعموا بذلك ان البلاد وقيت شر ما يتأجج في صدور الامة من نيران الاحقاد والضغائن وان الحكومة أمنت على نفسها من القلب والوزارة من الابدال والذين يرون هذا الرأي لم ينظروا الا الى الاسباب القريبة وذهب عنهم ان الاسباب الجوهرية ابعد من ذلك واعرق في قلب الامة فالخطر على الحكومة لا يزول باقتضاء قضية دريفوس على اي الوجهين وقلق الامة لا يهدأ بذلك . فالامة الفرنسية لا تزال كما كانت من عهد مائة سنة لسان شعوب اوربا تنطق عن حاجاتهم وتمثل عواطفهم فاوروبا اليوم على وشك وقوع ثورة تمثلها فرنسا اشبه بالثورة التي كانت من عهد مائة عام واسبابها فساد نظام الاحكام وتقصرها عن احتياجات الهيئة الاجتماعية

هذا هو سبب القلق الحقيقي المستحوذ على اوربا كافة والذي نراه اليوم في الناية القصوى في فرنسا ومن يقول فرنسا يقول عصب اوربا الذي تحس به وعقلها الذي تفكر به ولسانها الذي تنطق به خلافاً لأولئك الذين يرون في حوادث فرنسا المتسabee منذ سنوات ما يطلق لسانهم المعقول وعقلهم الخامل ونظرهم القصير فيجورون عليها في الحكم اذ يرمون رجالها بالطيش وقلة الروية وعدم التبصر بالعواقب ولماذا لان طبائع رجالها المتحركة تخالف طبائعهم الميتة وعقولهم المتنورة تخالف عقولهم المظلمة ونفوسهم المتهيجة تخالف نفوسهم المستتية في الذل والخاضعة للظلم والغريب ان هؤلاء الذين كان امثالهم يجورون في الحكم على فرنسا في الثورة الاولى يمتدحون جسارة اليوم بانه لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هما عليه الآن ليس في فرنسا وحدها بل في اوربا كلها بل في العالم قاطبة . وهؤلاء الذين يمتدحون بذلك اليوم يؤاخذون شعب فرنسا على عدم رضاه من نظام احكام كانت تصلح له من مائة عام ولم تعد تصلح له اليوم لان الهيئة الاجتماعية المتقدمة ارتقت كثيراً عما كانت عليه من مائة سنة مع بقاء نظام الاحكام على حاله فجمهورية فرنسا كما هي اليوم والحكومات الملكية في سائر الممالك ليست

بالحكومات التي تصلح اليوم لشعوب اوربا ولن تصلح لم في المستقبل فاضطراب فرنسا وعدم رضاها من نظام جمهوريتها لا يفيدان كما يتوهمة قصار النظر انها تميل للرجوع الى الملكية او انه اذا قام فيها ملك حازم يستطيع ان يقبض عليها بيد من حديد ويسير بها كيف شاء . فهذا حلم يمحور على عقول الاطفال ولكن لا يمحور على الذين يدركون بعض الشيء من أسرار العمران ففرنسا لن تعود الى الملكية كما ان اوربا مستقلة الى الجمهورية ولكن الجمهورية التي تطلبها فرنسا عن حاجة في النفس مندفة اليها بالطبع لا عن اجهاد في قوى العقل والتي تتوقعها اوربا هي الجمهورية الحقيقية الديمقراطية التي تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء بخلاف حكومات اوربا وجمهورية فرنسا اليوم فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في قصصها ولو اختلفت في اسمائها وكلها مقصرة عما تتطلبه الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل القريب واقرب الحكومات الموجودة اليوم الى الحكومة المطلوبة جمهورية اميركا ولو كانت دون المطلوب

فسألة دريفوس سواء انقضت ام لم تنقض فالحال لا تزول من فرنسا لان أسبابها أهم من ان تقتصر على فرد أو تختص بحزب فالايام حالي ولا بد من ان تلد ثورة لا تذكر معها ثورة القرن الماضي تشترك فيها اوربا لا كما اشتركت في الماضي بقيام الدول كلها على فرنسا واقتياد بهائم شعوب تلك الايام الى دولهم اقياداً اعنى لنصر الجهل على العلم والظلم على العدل والتقييد على الحرية اي لنصر ظالمهم على انفسهم فالثورة المستقبلية والتي تتمخض بها الايام اليوم لا تكون لقيام الامم بعضها على بعض ونشوب الحرب بين الدول خلافاً لحلم قيصر الروم الطالب نزع السلاح والاقتياد فيها الى تمهيات مؤتمر لاهاي الطالب تأييد السلام واذا اصبحت الحرب بين الدول المتمدنة تمتعة اليوم فليس السبب احلام القياصرة ولا ضخم ملكهم ولا مداولات أقطاب السياسة في ذلك المؤتمر السخري بل السبب الحقيقي في ان الحرب اليوم اصبحت تدميراً وتخريباً على المتحاررين الفائز فيها والتخذول والمهاجم فيها والمدافع والمعتدى والمعتدى عليه بمحقان محققا ويسحقان سحقاً لكثرة الآلات المهلكة التي استنبطت في الربع الاخير من هذا القرن وقوتها في التدمير وامم اوربا لم تعد اليوم عياء البصيرة والبصر حتى تقدم من دون تبصر بايعاز

دولها على هذا القضاء المبرم والفناء المحتم ولذلك يصح ان يقال هنا الحرب أنف للحرب  
فالثورة المستطرة والتي لا بد منها هي ثورة تنصر الشعوب فيها بعضها بعضاً والامم  
بعضها بعضاً ينصرون بعضهم على حكوماتهم ونظاماتهم لقلبها وابدالها بما يكون اوفق  
لروح العصر واحفظ لمصلحة الجمهور ولا سيما ان الاسباب الداعية اليوم الى الثورة من  
نظامات الهيئة الاجتماعية واحكامها هي أثقل جداً على عاتق الامم مما في عصر الثورة  
الاولى فالثورة الاولى اسبابها الاستئثار بالاعناق والأرزاق لشرف المولد وقد كان الناس  
قليهم يدرك حق المساواة وأما اليوم فالثورة هي بين العمال واصحاب المال أي بين قوى العقل  
المستنبط واليد العاملة وبين فساد نظام الاحكام واستئثار رجال المال حتى اصبحت مستبطات  
العقول واعمال الايدي خادمة لاولئك يستفيدون منها هم وقلما يستفيد منها هؤلاء والناس  
قل من لا يدرك منهم اليوم هذا الاحجاف

وكان في الامكان تدارك الشر لو ان الحكومات لا تنقاد اقياداً اعلى لاصحاب  
الاموال او كان هؤلاء يخفون قليلاً من كبرياتهم ويمتثلون بحقوق من لولاهم لبارت  
تجارتهم وقل استثمار اموالهم ولكن الله لما اراد بمسكر فرعون شرّاً قسى قلب فرعون  
ولا اظن شيئاً يثير هذه الاحقاد ويبلغ بها الدرجة القصوى مثل النبأ البليد الذي جاء  
كاللطة على خد الانسانية والذي وافقنا به شركة روتر كي تنبيه العالم اجمع بان المساعي  
بين اصحاب المعامل والاموال متجهة الى احباط اعظم معرض في العالم اعظم معرض  
استجلى فيه المدنية بابهي مجالها اعظم معرض يقتخر به العلم على الجهل اعظم معرض يتباهى  
به الانسان بما استنبطه عقله وصنعت يده فكأن اصحاب الاموال يهددون العالم اجمع  
بقحة لا تماثلها قحة باتهم سيطسون بما اوتوه من سلطان المال اتوار العقل ويعيدون عصور  
الجهل لقد ساء قالمهم وما هم بذلك الا خامسون يمشون عن حفتهم بظلفهم فان هذا النبأ  
الشنيع سيكون له تأثير شديد في الجمهور كما كان له ذلك في الافراد ويعجل تلك الثورة  
المنظرة التي تعلق الهيئة الاجتماعية منذ سنين والتي بلغت اقصاها في هذه الايام ولا بد  
من ذلك لقوم يعقلون



## المقالة التاسعة عشرة

\* القتل الاجتماعي <sup>(١)</sup> \*

الناس في كل أطوارهم على مبدأ واحد فهم لا تتبهم الحوادث بنفسها مهما كانت شنيعة ولا تتبهم الا بمصاحبتها فالقتل باشنع صورته جار في كل يوم بين افراد الناس وفي الحروب بل في الرعايا الآمنين وفي كل ذلك قلما تنتفض اعصاب الهيئة الاجتماعية انتفاضها لقتل رئيس امة كسلطان او ملك أو رئيس جمهورية ولعل هذا هو السبب الذي لاجله يعتمد الفوضويون وسائر الناقين على نظمات الهيئة الاجتماعية قتل احد هؤلاء الرؤساء لا انتقاماً منه أو تشفيماً من هذه النظمات وقد يكون المقتول من افضلهم والاشرار منهم آمنون بل تنبيهاً به للأفكار واثارة لحركة الخواطر فلا يقف البحث حينئذٍ على الفصل نفسه بين استحسان وتشنيع بل يمتد الى أبعد من ذلك كثيراً فيتناول موضوعات كثيرة اجتماعية تناسى معها الجناية الاولى الصغرى وينتبه فيها الى تلك الجنايات الاخرى الكبرى التي تجلبها تلك النظمات الخائفة التي تضجى فيها الافراد والجموع وتبذر القوى وتصد عن استعدادها للنفذ ان لم تدفع الى التخريب والراضي عنها الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع بقوة العادة او الاكتفاء او المطامع الميسورة حتى لا يظن ان في الامكان أبدع مما كان . فحزقة الافكار عن هذا الاعتقاد السقيم الذي هو سبب جميع مصائب الاجتماع هي غاية كل مصلح في الهيئة الاجتماعية يسعى اليها عقلاء المصلحين بالذين كبث الافكار السامية والحث على نشر التعليم والانتقاد وكل ما من شأنه ان يدعو الى الاصلاح بالطرق السلمية البطيئة بنتائجها في كل الاحوال ويسعى اليها الناقون منهم الذين فرغ صبرهم بالعنف ولو ان فيه تضحية انفسهم على مبدأ دفع الشر بالشر لما يحدث ذلك من الرعدة التي يقصدون بها نزع أعصاب تلك الهيئة البالية من حاكم ومحكوم وظالم ومظلوم فيهب اصحاب الحقوق المهضومة كمن نشط من عقال للمطالبة بما هضم من حقوقهم

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠١ على اثر مقتل الرئيس ماكنلي

فوق ارض اصبحوا فيها كأن لا حق لهم ان تقلهم وتحت سماء كأن لا حق لهم ان تظلمهم وينته الظالمون فيخفون من وطأتهم ولا تعيهم مصالحهم عن مصالح سوام ومن ينظر الى تاريخ العمران من يوم نشأته الى اليوم لا يسه الا التسليم بان مطالب الناقين في كل عصر حق مهضوم ولولا ذلك لما سار الاجتماع مرتقياً باقرار الفريقين على النحو الذي سار عليه نارة بالسكينة والهدوء ونارة بالثورات والقتال جرياً على سنن ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي حذو القذة بالقذة . والاصلاح المطلوب لا تزال الحاجة اليه ماسة اليوم كما كانت من قبل والفرق ليس الا نسبياً فقط فكما ان الحاجة الى الارتقاء في العالم الطبيعي لم تقف بعد كذلك الحاجة الى الارتقاء في العالم الاجتماعي اي العمران لم تنته أيضاً فلا يجوز لعاقل ان يقف عند حد قول الحاملين او المكتنفين او الطامعين المنتفعين بانه ليس في الامكان ابداع مما كان

قتل ما كنلي رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد شغل الجرائد ودار على السنة الناس واقلق الرؤوس المتوجهة اكثر من قتل شعب آمن يؤدي الجزية لحكومته وهو صاغر او قتل الالوف المؤلفة في هذه الحرب الجائرة الجارية في جنوبي افريقيا واكثر من قتل مصالح الجمهوري في كل يوم وفي كل حكومة من حكومات الدنيا ولواتها في اعلى ذرى الاصلاح . شغلهم جميعاً لا للبحث في ادواء الاجتماع ومداواتها بازالة ما يسببها من المطامع والمظالم والمفادير بل للضرب على ايدي الظالمين يعنون بذلك الفوضويين حتى اجتمع الماهلان العظميان اللذان يقبضان اليوم على دفة الدنيا واخذوا يفكران لا بالخفض من كبريائهما واصلاح شأن الجماهير بما يدفع البؤى ويقلل الشكوى بل بالوسائل التي تضمن لها صولجان الملك ليسوقا به الاتام كالانعام وتضمن لفئة من لصوص الاجتماع اسباب السلب والنهب يصادرون ويرابون ويجمعون المال بالاحتياال للاستثمار بمنافع الاعمال التي لا ينال القائمون بها الا ما يتلفون به من العيش . لصوص يسرحون ويمرحون وتحميم الشرائع التي تعززها الحكومات

على انه وان كان الجمهور قد نظر الى هذه الفعلة الشنيعة بنفسها من حيث شناعتها فقط الا ان اناساً وان كانوا قليلين نهبت فيهم الحواطر للبحث في اسبابها بما دعا

الاجتماعيين لتعنين مواطن الداء لوصف الدواء وتقريب الشفاء ولو ان هذا القريب بعيد جداً في تاريخ الاجتماع ولكنه اقرب من الابد وكل خطوة فيه الى الامام تعد نقصاً لحجر من ذلك البنيان الهائل الذي شادته ايدي الظالمين على مناكب الغافلين

## المقالة العشرون

### ﴿ كتاب فوضوي <sup>(١)</sup> ﴾

حكم « جورى » محكمة السين بباريز على الفوضوي اتيفان بالاعدام لمحاولته قتل اثنين من رجال الحفظ . واتيفان المذكور هو في ما نعلم اول فوضوي متعلم واسع الاطلاع بعيد النظر الفلسفي حاول ارتكاب الجناية بنفسه كما يظهر من الكتاب الاي الذي كتبه الى احد اصدقائه بعد القبض عليه بايام قليلة . وفي نظرنا ان المحكمة ارتكبت جناية في حكمها عليه بالاعدام كما يتضح من تدقيق النظر في الكتاب المذكور . ولو كانت ادق نظراً في الامور واوسع اطلاعاً في علم الاخلاق لوجدت لها مخرجاً يحفظ الرجل ويصلح ما به من الضعف للانتفاع بما به من القوة . ولكن الجورى كما ان له حسنات في حل قيود القانون له سيئات في ان رؤوس اكثر اعضائه غالباً فارغة من الافكار السامية وفي ان احكامه متناهية تتناول احد الطرفين وليس فيها شي من احكام القانون التي بين بين . والكتاب هو معرباً

باريز في ٣٠ يناير سنة ٩٨

صاحبي العزيز

اخذت كتابك الذي تخبرني به عن اضطراك الى تغيير عنوانك واشكرك على زيارتك لوالدي فقد اخبرني ان زيارتك وزيارة باقي الاصدقاء كانت اعظم معن لقلبه في وسط احزانه

تقول ان الفياياري مصيب واتالا انكر ان في كتابه في « الحكومات الظالمة » افكاراً كثيرة جليلة الا انه ليس بينها في ما اذكر سوى فكر واحد صحيح وهو قوله « ان الخطر من القول أو الفعل سواء في عصره وفي الحكومات الظالمة » على ان هذا الرجل المتعشق للعدل نظير سائر فلاسفة عصره ربما كان يستقبح وجود اناس منها لكن في سبيل الحرية مع انه كان يدعوهم . ولكن الذي لا اقدر ان أسلم به قوله ان اليونان والرومانين كانوا بالحقيقة رجالاً . وهم لم يكونوا رجالاً اكثر من معاصري الفياياري ولا اكثر من رجال هذا العصر

والثورة الفرنسية التي بلغت فيها المنازعات لاجل الحرية السياسية مبلغ جميع منازعات العصور القديمة بل فاقها بعظمتها دليل واضح على ما اقول . وهب انه لم يقل ذلك الا عن اليونان في غزوها مقدونيا وعن الرومانين في عهد الجمهورية فانه مخطيء في ما يقول

وبالحقيقة فان الفياياري كسائر فلاسفة عصره كان يسير نحو المستقبل وعيناه متجهتان الى الماضي . والانسان الذي يمشي على هذه الكيفية قد يتقدم وانما تقدمه يكون صدفة لا يعرف الى اين يسير هل يسقط في حفرة ام لا فهو لا يدري اذا كان يمشي الى الامام ام يدور على نفسه ولا يدري حتى يعود من حيث اتى

وهذا عين الذي تم في الثورة فان الثورة لوقوع ذمامها في ايدي اناس كانت انظارهم شاخت الى بلاد اليونان ورومه كلف يقتضي ان تفسد فان جميع الذين تقدموها كانوا مغرمين بالقدماء . ألم يصرخ سان يوسف من اعلى المنبر قائلاً « العالم خال من ايام الرومانيون وتابليون انما اتى ليلأه بارجاعه ملكهم » والفياياري كان مولماً بالحرية القديمة كالأخرين وان كنت تريد ان تعرف ماذا كانت تلك الحرية فاسأل اسرى السبرطين فاذا كنا نريد ان نسير الى الامام واذا كانت الانسانية تريد ان تسير الى السعادة وإلى الحرية فلننظر الى ما حولها ولننظر جيداً ثم فلتختر غرضها ولتسر اليه دون ان ترجع الى هنا وإلى هناك غير مهتمة بما وراءها ولا بما يفكره عن ذلك الاقدمون والعلوم تكاد تكون جميعها قد تحررت بفضل الطريقة الاختبارية من قيود التقليد



الأعلم واحد يهنا أكثر من الجميع وعليه تتوقف سعادتنا وهو علم السوسولوجيا أي علم الاجتماع فإنه بقي واقعاً لأننا لم نشأ تقطيع هذه القيود احتراماً لما تناقله الخلف عن السلف وهذا هو السبب الذي نحن لاجله لا نزال نساء

ولقد بقي كبلر يحث ١٥ سنة حتى وجد نواميس حركة السيارات لأنه لم يستطع أن يحرر عقله من التقيد بقيود النقل.

فقد راق لارسطو في القديم أن يثبت — ولا يعلم لماذا — أن الكواكب كائنات كاملة وأن الحركة المستديرة حركة كاملة فكان يلزم أن تكون حركة الكواكب كذلك وبقي علماء الفلك قروناً عديدة يجهدون العقل ويخالفون الواقع لكي يثبتوا صحة ما أثبتته استاذهم من قبلهم ولم يجسر احد منهم أن يتساءل لماذا الكواكب هي أكل من سائر الكائنات وبماذا الحركة المستديرة هي أكل من سائر الحركات

وبسبب هذا الاستمسك المقدس بأقوال المعلمين وهذا الاحترام للقدمين بقي كبلر خمس عشرة سنة يحسب ويعيد الحساب حتى وجد أن السيارات تتحرك في اهليلجيات تشغل الشمس احد محترقيها

وإذا علمنا أن نيوتون اكتشف ناموس الجاذبية العام بتبحره في نواميس كبلر لتعليقها وأنه من هذا الاكتشاف العظيم يتبدى تاريخ اعظم العلوم المصرية أعني علم الفلك الرياضي ترتد جزءاً من عظم العاقبة التي كان تعليم ارسطو يقيمها في سبيل تقدم الانسانية لو مات كبلر بعد أربع عشرة سنة من أبحاثه

ففي علم السوسولوجيا كما في كل شيء آخر إذا كنا نريد التقدم بسرعة ينبغي علينا أن ننظر الى كل شيء وأن لا نحترم شيئاً غير ما يعلمنا إياه الاختبار

نعم أن العالم القديم تضغط علينا فإن جميع شرائعنا وعاداتنا وتعاليمنا الدينية والادبية والسياسية والاقتصادية منتقلة إلينا من الماضي وتمنع المستقبل من أن يفتح لنا

جميع هذه التعاليم أصولها في الماضي القديم ليس في القديم العلمي فقط بل في التوحش الأول من الحيوانية

واسبابها جميعها أفكار مسلم بها عموماً وهي بعد أن ولدتها ساعدت على نموها وحفظها

وهذه الافكار تظهر لنا من المراقبة ان اصولها موجودة بحالة بداهة في الحيوانات التي تكوينها يشبه تكويننا . فالخدر من ان نأخذ امثلتنا عن الاقدمين كما فعل الفياري وفلاسفة العصر الماضي اذا كنا نريد ان نبلغ السعادة في الحرية التي لا حد لها . انتهى  
هذا هو الرجل الذي حكمت عليه محكمة باريس بالاعدام لمحاولة القتل كأنها ارادت في حكمها ان تثبت على نفسها ما جاء في كتابه من الحقائق التي سيؤيدها المستقبل ويحكم عليها لاجلها بالقتل ادياً فان الافكار المنطوي عليها هذا الكتاب كلها حقائق لا يبرمج منها الاضغاف العقول وما ذنب كاتبه في محاولته ارتكاب الجناية الا زيادة التحمس قبل زيادة بلادة الهيئة الاجتماعية والتحمس كثيراً ما يؤدي الى التهور والذنب انما يكون على هذه الهيئة وحدها



## المقالة الحادية والعشرون

### ﴿ الاشتراكية <sup>(١)</sup> ﴾

في كتابك لي على صفحات « المؤيد » طلبت مني ان اثبت حقيقة وادفع شبهة . طلبت ان اين لماذا ادافع عن الاشتراكيين وان اتوسع في الموضوع « لان ما كتبتك على صفحات « الاخبار » لم يكن مقنعاً » وان ادفع عن نفسي « سوء الظن بي » كأن الاشتراكية وصمة وأنا قد تلوثت بجماتها وانت لا تريد لي ذلك او انك تريد ان اين الحقيقة الناصعة وان أخرج منها طاهر الذيل . فشكرتك على حسن ولائك ولو اني اعجبت اكثر بدعائك

كنت افهم قبل اليوم ان الاشتراكية في نظر خصومها مطلب بعيد المنال فاذا هي فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لاقبح المظان ليس في نظر الجمهور فقط بل في نظر الخاصة أيضاً

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ ردأ على خطاب من سليم افندي مركيس على صفحات المؤيد

خفف عنك أيها الصديق فما هي بأول وصية الصقت بي ثم عاد الناس الى الهدى من ربع قرن نشرت في اللغة العربية مذهب دروين ولم يكن معروفاً فيها من قبل فقامت القيامة عليّ من كل صوب كأنني جثت امرأاً اذاً حتى بلغ التحمس من بعضهم ان قصدي للتعرف بي لا للسلام والكلام . ولكنه ضل السبيل فقصدي في غير المكان الذي أنا فيه واعترضته البحار فاطفأت منه جذوة تلك النار ثم مرت السنون والناس بيننا يرتقون حتى صار مذهب دروين بيننا ( او كاد ) كذهب كوبرنيخ في الكون او غليلي في الارض وحتى بلعهما في جوفه

وما الاشتراكية كما يرميها خصومها باضغاث احلام ولا أصحابها ظلام ظلام فهي لا تركب بمطالبتها متن الخيال وتخلق بالانسان الى جنات النعيم ولا تكبله بحبال الخيال وترزجه في قعر الجحيم بل تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض فتسترد له الفردوس الضائع تسترده من ايدي مرده الاجتماع وأبالسته فتخفض من كبرياء وترفع من نفوس وتقرب بين صولجان الملك وعصا الراعي حتى يتم تكافؤ الفضل بينهما أراني ركبت متن الخيال في قولي انها تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض والاولى ان اقول انها تريد ان تقتل من ويلاته فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه بعد ان تفرض عليه واجباته وترفعه من تحت مواطيه الاقدام الى مقامه كائنات وتعلمه انه عضو من الاجتماع لا يجوز ان يبقى عالة عليه غير نافع وانه عامل فيه لا يجوز ان يبقى غير منفع وان تبادل المنفعة ينبغي ان يكون على قدر العمل

هذا هو مبدأ الاشتراكية ومن ظن غير ذلك فهو واهم وهذا هو المبدأ الذي أدافع عنه فهل فيه مأخذ عليّ لعاقل أو مظنة بي لجاهل ؟

والاشتراكية ترجمة لفظة سوسيليزم الافرنجية وضعها كتابنا الاولون وجري عليها الجمهور وهي خطأ في التعريب جر معاً خطأ اعظم في الفهم والصواب الاجتماعية من الاجتماع أي العمران واصحابها الاجتماعيون ولكننا جاريانام هنا عملاً بالمثل القاتل خطأ مشهور خير من صواب مهجور

وهي ليست مذهباً من المذاهب بل هي نتيجة لازمة لنظر الانسان في الاجتماع وهي

قديمة كالا اجتماع نفسه ومشبوة في تعاليم الفلاسفة وسائر المصلحين في جميع العصور وكما ارتقت مدارك الانسان وزاد اختباره زادت انتشاراً واقتداراً . وهي لا تعلم اقتسام المال ( كن مطمئناً على ثروتك او ثريتك ما شئت وما شئت النحاة تصغير ثروة ) بل العدل في تقسيم المنفعة بين العمل ورأس المال

ولاً بدلي قبل التوسع في الموضوع ان أزيل وهما وقع لك واحذر ان يجررك ذلك الى وهم آخر لا اقصد فلا أعود اعرف كيف أتخلص منك وانت كشبكة الصياد فانا لم أقم « في الاخبار » للدفاع عن خطة بل عن مبدأ اعتبره مشتركاً بين سائر المصلحين - والاشتراكيون أعظمهم اليوم - وهو اصلاح مركز الانسان في العمران وما دفعني الى ذلك الا ما كتب هناك مما يوهم ان الاجتماع على هدى وان الاشتراكيين يدفعونه الى الضلال لئلا يكون لذلك تأثير سيء في الافكار المتقلبة التي تحتاج الى تنشيط فيجئها عن التوغل في فيافي هذه المباحث ويرميها في الجود

ولذلك لم أقف عند الاسماء ولم انجس احداً حقّه فساويت بالفضل بين جميع الذين ناهضوا الاجتماع في سائر اطواره بقصد الاصلاح من الفلاسفة المصلحين الى دعاة الاديان أنفسهم ولم انكر فضل اولئك الذين تطوعوا في هذا الجهاد فكأنوا كالأعضاء فيه ولو أنهم اتوا أحياناً أعمالاً مشجوبة قضت عليهم وذهبوا فيها شهداء نظام الاجتماع ولا ريب ان الاشتراكية هي الدعوة المنصبة نحوها الافكار والمعقود عليها الامال اليوم وهي وان كانت متفقة في الغاية الا ان فيها اختلافاً كبيراً في الاراء شأن كل فئة في دعوة مثل هذه كثيرة العقبات واي مذهب من المذاهب الكبرى علمياً كان او فلسفياً أو دينياً لا تكثر فيه المسائل الخلافية من دون ان تمس جوهره بشيء

ولذلك رأيت ان البحث في هذا الموضوع الشاسع الاطراف البعيد المرمى لا يأمن صاحبه الزلل والخط في تيه فيافيه ان لم ينخه من اقوم السبل واصحها وأي اصح من رد الشيء الى اصله ووضع في محله

فالاجتماع طبعي هو وكل ما فيه مستفاد من الطبيعة والنواميس التي تسوس نظامه هي نفس نواميسها واعظم هذه النواميس اثنان احدهما يوجب التنازع وهو تكافؤ القوى

في العمران كتكافؤها في الطبيعة والآخر يوجب الارتقاء وهو تكافل العمران بتوفير قواه كتكافل العالم اجمع بتوفير قواه في ارتقائه

فالاتحاد شديد التنازع قليل التكافل لشدة ما فيه من التبذير في القوى التي له ولذلك لا يزال منحنياً جداً بالرغم من اندفاعه البديع في القرن الماضي لانك كيفما جلت بنظرك فيه رأيت اموراً يأنف منها الطبع وينكرها العقل وقد ينفر الانسان منها حتى لا يقدر ان يضبط نفسه عن القيام ضدها . تراها في شرائع ونظاماته وعاداته ومعاملاته في كلياتها من حيث الغاية منها والباعث عليها وفي جزئياتها من حيث تطبيقها على كل فرد من أعضائه حتى ان البحث فيها لا ينضب

أو ليس من العار على الانسان الذي يمتاز عما سواه من الكائنات بقوة العقل والاكتساب بالاختيار ان ينتظر ارتقاءه من الطبيعة نظيرها وهو القادر ان يتصرف فيها بما له من المدارك لمصلحته ؟ وبأليته أقصر على ذلك ولكنك تراه دائماً يستخدم هذه المدارك لاقامة العقبات في سبيل ارتقاء العمران ولكم صده عنه وقضى عليه بالتقهقر لشدة التباين بين أعضائه في العقل والعلم والقوة وقامت الآثرة مقام تبادل المنفعة فارتفع قوم الى الارجح وانحط آخرون الى الخفض وكما قل هذا التباين قلت العقبات لاقتدار الاضداد حينئذٍ ووجوب الاضاحه لهم

وهل العمران كما هو الآن يستفيد من قوى كل فرد أو يعرف ان يستفيد منها أو ليس هذا هو التبذير بعينه . وان كان لا يعرف أفلا يكون هو الذي يدفع هذا الفرد الى الاضرار بنفسه وبالمجموع كله عملاً بناموس هذا التكافؤ

كثيرون يطرقون هذا البحث ويكثرون فيه من المن على الانسان فيطلبون الاصلاح له . اضعيفه وسقيه ومن لم تمتد الطبيعة بالقوة الكافية للحصول على ما تستقيم به . أموره . يطلبونه له رافة به وشقة عليه . أما نحن فنقول ان الانسان في الاجتماع في غنى عن رحمة الراحمين وشقة المشفقين فلا نطرق هذا البحث بتحريك العواطف ولا ندع للانسان على الانسان مناً لاننا ننظر في ذلك الى المصلحة المشتركة . في العمران كما في الطبيعة لا يضع شيء ولا يضع تأثيره . والتأثير الذي يحده الفرد في الاجتماع لا يدرك

أهميته الا الذي يقدر ناموس تكافؤ القوى في الطبيعة قدره . فكم من تأثير اذا نظرت اليه مباشرة يترآى لك عديم القيمة ثم بالانتقال والتفاعل يتحول مع الزمان ويصير ذا شأن عظيم في الطبيعة ولنا في الافعال المتجمعة مثال محسوس مثل الشرارة للبارود وعليه المثل « سبب النار شرارة وسبب الشر كلمة » ومن هذا القليل الزلازل وسائر نكبات الطبيعة الفجائية

فعلى هذا الناموس تتمشى افعال الانسان في العمران فاذا احسنا أو اسأنا الى الاجتماع فانما نحسن ونسيء الى انفسنا . وما نصنعه في سوانا يرد لنا هذا السوى « بفرطه » كما يقال في لغة المالمين — فالاجتماع كما ترى اكبر مراب ولكن على عكس المرامين فهو يرد لك كل شيء تنفحه به برباه ولو تبرعت به تبرعاً ووهبته له هبة خذ مثلاً لذلك الامراض . هنا اناس جمعوا بذ كلهم اودهاثم الاموال على ظهور العمال فسكنوا الاحياء الفسيحة الارعاء تنفذها الشمس ويلعب فيها الهواء وتحف بها الحدائق وبنوا فيها القصور يرحون فيها على وثير المهاد وفاخر الرياش وتحوطوا بكل ما تصح به الاجسام وتنقي الاسقام . وعلى قيد قصبات منهم اكواخ متراكمة بعضها فوق بعض كالتلال يزدحم السكان فيها كالذباب لا شمس ولا هواء ولا ماء الا ما يكفي للاختار وجعلها بورة البوار ومعمل الدمار حيث نجد الامراض مرتعاً خصيباً — فاذا يقيك من شر ما جنيت أيها المطمئن بعزيتك وانت شريك جارك في الماء والهواء والغذاء حمالة الامراض وقاتلة الوباء وهذا مثال آخر من امثلة كثيرة يضيق عنها الحصر وتتجدد امامك كل يوم وتذلك على نقص نظامات تلك الشرائع القائمة على مبدأ تأييد القوي وارهاق الضعيف . غني يتقاضاك مالاً لا يزيد في غناه بلغة والله يعلم من اين اتى وكل ما في مسكنك من مقتنيات لا يفي بسداده وانما يكفي ليصون عيالك . فالقانون الذي لم يعرف كيف يستفيد من عملك لينتفع بك وينفعك يقضي عليك ولو ادى ذلك بك وبممالك ان يأويكم العراء ويصدر القاضي وقد مات منه الضمير — حكماً مصدراً باسم ملك البلاد الخ . ثم يصب البلاء على العباد — فعلى من اللوم اذا تراكت امثال هذه الافعال بناء على هذا الناموس وحدثت تأثيرها المتجمع في المجموع فقاموا يصادرون الاجتماع ويحدثون الثورات كالثورة

الفرنساوية وثورة العمال القائمة اليوم والتي سيكون هولها اشد من تلك ان لم تدفع بالحكمة  
 لانهصار تلك في بقعة من الارض وفي شعب من الشعوب ولا تنشر هذه في كل العالم  
 المتمدن . بل على من اللوم اذا تمادوا وركبوا متن الغلو ولسان حالهم يقول  
 ماذا يهمني اذا خربنا ما دمت خراباً أنا وانت  
 منم تبيت فوق الريش وذا انا ابيت في الحشيش  
 ان لم يكن على الحصى في البرد تحت الشتاء وغطاي جلدي

ولولا نهضة رجال الثورة في الماضي وسريان روحهم الحية في اعقابهم لبقى الانسان  
 يرسف في قيود الجهل حتى اليوم ولتقهقر الاجتماع عما كان عليه ايضاً بالرغم عن ناموس  
 الارتقاء العام اما وقد بلغ التنبه في الافكار مبلغه اليوم فلا خوف عليه ان يتقهقر لا تنشر  
 العلم وانتشار مبدأ الاشتراكية بسبب ذلك واقتدارها على تنفيذ مطالبها بل كلما تقدمنا  
 ستزداد هذه الحركة الارتقائية سرعة وتقرب الامم بعضها من بعض فتقل الحروب  
 ويتفرغ الانسان للاشتغال لمصلحة العمران والقريب ان كل واحد منا في حديثه وكتاباته  
 كل يوم يخدم دعوة الاشتراكيين ولا يدري وقد يخدمها من حيث يريد منا هضمتها  
 ايضاً . ولعل هذا التهميد الوجيز كاف لان يملك ايها الصديق بأن مبدأ الاشتراكية  
 ليس مما ينجل منه ولا هو مما يجب ان يحجم عنه

## المقالة الثانية والعشرون

### ﴿ المريض <sup>(١)</sup> ﴾

عركت صروف الزمان وجسست باصبعي مصائب الانسان فلم أجد اشق من  
 المريض  
 رأيت الفقير في أقصى الفقر يسكن كهفاً كالقبر او يتوسد النبراء ويلتحف بالسماء

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٩ وكان قد اصاب الكاتب روماتزم حاد اضناه الله المبرح

فلم أجد أشقى من المريض

رأيت الفاعل يشتغل في الحرّ والعرق يتصبب من بدنه كالقطر ليطعم سواء من جناه ولا يتاله من ذلك إلا أنزيسير لا يفي بحاجة زوجته العارية ولا يخذ صوت اولاده الجياع فيطون الليل على الطوى ملتفين على انفسهم وبعضهم على بعض ضاغطين معدم بايديهم ليخففوا ما يعانونه من ألم الجوع وليس لهم ما يتدفأون به من البرد غير حر انفسهم رأيت ذلك فلم أجد أشقى من المريض

رأيت الكريم وقد اختى عليه الدهر واسقطه الى أدنى مهاوي الفقر فلم أجد أشقى من المريض

رأيت الام تبكي ولدها والزوجة بعلها والاخ اخاه والابن اباه فلم أجد أشقى من المريض

رأيت الجاني المحكوم عليه بالقتل واجف القلب مشنت العقل فلم أجد أشقى من المريض

ذقت ذل السؤال بعد عزّ الافضال وعرفت خيبة الآمال وصبرت على تغطرس أصحاب المال فلم أجد أشقى من المريض

رأيت المفضل فوق الفاضل والفصيح يداحي الالبكم والعالم يخضع للجاهل والعاقل يخاطب من لا يفهم فلم أجد أشقى من المريض

رأيتك تصنع المعروف فتجازى بالمتلوف وتصادق من يخدعك وتسمع من لا يسمعك فلم أجد أشقى من المريض

رأيت الغني الشبعان يبيع الجمل ولا يتستر والفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الاسمر والقانون يكافي ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات فلم أجد أشقى من المريض

رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل ودعوى الهداية والعالمية تسري عليهم تحت قلانس المكر وعمائم الجهل فلم أجد أشقى من المريض

رأيت الحر يرى كل ذلك ولا يجد بداً من الصبر عليه فلم أجد أشقى من المريض



وأي شقى ممن اظلمت الدنيا في عينيه واربحت الارض تحت رجله وصغرت نفسه حتى اصبحت الحياة المحبوبة عبئاً ثقيلاً عليه اذا شرب الماء الزلال الملعق وجده مرّاً كاللعق أو ذكر اشهى الطعام لديه جاشت نفسه عليه او توسد وثير المهاد فكانه يتقلب على شوك القتاد مفكك الاوصال اذا كف قطع خيط القطر خاتمة القوى مقطع الامال اذا قدمت له خزائن الارض أعرض عنها ورأها هي والدمع على حد سوى ليله طويل بما يمانيه من الآلام التي تحمره لذة المنام فاذا طلع النهار زال ما كان قد امله فيه من زوال الاسقام الاصحاء يحلمون بالاموال يحشدونها والمذنب للكسب يفتحونها والمراتب العالية ينالونها يحلمون بالزوجات والبنين والبنات والقصور الشاهقة والاملاك الواسعة والحداثات الفناء ولا يقفون في احلامهم عند حد والمريض المسكين لا يطلب الا امراً واحداً يفديه بكل حطام الدنيا يفديه بما له يفديه بما ياله يفديه بكل ما له من المطامع من واقع وغير واقع يفديه حتى يجزء من عمره بل بعمره كله اذا وجد ان لا خلاص له من الاسقام الا بتجرع الموت الزؤام يطلب ما لا يراه الاصحاء ولا يراه الا هو يطلب الصحة التي هي تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى . بل اي رجل تجوز عليه الشقة اكثر ممن تمكن منه الداء وعزّه الشفاء غنياً كان او فقيراً صعلوكاً كان او اميراً حتى لم يبق عنده في قوس الامل منزع ولا في النفس منزع فاذا كان هذا حال المريض الامير فما قولك في حال المريض الفقير . فالفقير المعدم والجاني المبكل بالحديد والثكلى التي لا تريد ان تتمزى والرجل الذي اخنى عليه الدهر بعد العز والحر الذي يصبر على مضض البلوى يجردون في نفس شكواهم مصرفاً لهمومهم وفي قوام الصحبة منشأ لآلمهم فالجائع اذا اعيت الحيل تطاير الشرر من عينيه وشدة حبلاً من مسد على حقويه ونهض على ساقيه يطارد بهما الغزلان وشمع عن ساعديه يتسلق بهما الجدران ولبس من ظلام الليل ثوباً يقيه كالحجاب من عين كل مرتاب يتلصص تارة ويسرق اخرى متقماً لنفسه من ظلم الانسان ومن فساد ما سته من الشرائع في العمران والثكلى تتناثر دموعها الحزرى فتخفف ما بها من ألم الجوى كأنها تبدد بها سحب الهموم كما يبدد مطر السماء سحب الغيوم واما المريض المسكين فلا تقيده الشكوى الا زيادة البلوى وقد يخفت صوته فلا يقوى عليها وقد تشل

حركاته حتى لا يستطيع ان يعبر عنها فيرسل اليك نظراً منكسراً ذليلاً يقطع الصلب وينفذ القلب يقطع صلباً لا من صلب الحديد بل من عصب وعظم وينفذ قلباً لا من قلب الحجر بل من لحم ودم

فيا ايها الذين لا يزال بهم بقية تتأثرا اكثر قليلاً من الحجر والذين لم تضرب مطامعهم على ابصارهم غشاوة ولم يحتم الله المال على قلوبهم ان كنتم من اهل الاحسان الذين يريدون التقرب حقيقة الى الله المعبود او من اهل الفخر الذين يفاخرون باشياء هذا الوجود فدونكم واغاثة اخيكم المريض بل اغاثة انفسكم — فمن منكم يضمن لنفسه السلامة من الداء — بتخفيف مصايه وتقليل اوصابه بما في وسع الانسان بحسب تدرجه في العمران وليس لذلك اصلح من المستشفيات والاكتثار منها على ما بلغت اليوم من الاتقان فهي قبل المعابد ان كنتم تفقهون وكأني بكم جميعاً تؤمنون على ذلك ولكن لا اعلم لماذا لا تفعلون أينقصكم فيها المجد وهي عنوان المجد والفخر ام الاجر وهي متهى الاجر فلينهض منكم بضعة اناس من علية القوم يؤلفون جمعيات متفرقة من كل جنس ومذهب وموطن تجمع المال بالاكتساب من الفقير قبل الغني كل حسب قدرته كما تفعلون في بناء المعابد التي تخدمون بها مطامع الانسان اكثر مما تخدمون بها ارادة الله وانتم ايها الاغنياء خاصة فاني اعرف منكم الغني الكبير الذي جمع من المال القناطير ومات ولم يترك سوى ذكر الاختلاس من اموال الناس او الذي بنى شاهق القصر الذي لا ينفع لا للسكن ولا للقبور ألم يكن مثل هذا الاحسان افضل ذكرى وادعى الى الفخر وامام من تريدون ان تقتشروا أليس امامنا فاذا ذمناكم قالذنب عليكم ورحم الله من قال  
ومن يك ذا فضل ويخل بفضله على قومه يستغن عنه ويندم



## المقالة الثالثة والعشرون

﴿ بمعزل عن الناس ﴾

أو

﴿ حلم في اليقظة اويقظة في الحلم <sup>(١)</sup> ﴾

صدر المشير هذه المقالة — والمهدة عليه — بالكلام الآتي قال :

محرم المشير حرامي

سرقة جائزة

« الدكتور شميل في السماء »

اعترف لقراء المشير انني ارتكبت في هذين اليومين جريمة القوصية « ولعل ذنبي لا يكون اعظم من ذنب حواء و آدم فانهما سرقا ثماعة لانها كانت لذينة الطعم وانا سرقت مقالة من منزل الدكتور شميل لانه كان بخيلا بها . فاذا وصل هذا المدد من المشير الى صديقي الدكتور الفاضل وذهب الى مكتبه وقتش على ما كان فيه فلم يجد ما اقول فارجوه ان لا يطالب البواب او الخادم . انه هو الذي فتح ابواب منزله لطالبي فضله والى القراء اليبان

بلغني من مقالة قرأتها في المقطم بقلم الدكتور شميل انه مصاب بمحدر ( روماتيزم ) ضرورت الى منزله الامر اعوده نحو الساعة السادسة مساء فقال الخادم ان الطيب خرج في عربة للترهه فدخلت الى مكتبة الدكتور وجلست بين الكتب والاوراق التي بخط حضرته في عربته و اردت ان اسلي نفسي بالترهه ريثما يعود ثم حانت مني التفاته الى مكتبه واذا هناك اوراق مبصرة مكتوبة فدلني سليقة الصحافي التي عندي انها اصول مقالة يكتبها الدكتور وحتني الوقاحة المذمومة في كل انسان الا الصحافي على الاطلاع عليها ونظرت الى ما حولي فلم ار من يراقبني فاخذت تلك الاوراق وقرأتها واذا هي مقالة بدأ بها الدكتور شميل وكتب منها ثلاثة اوراق لا غير وبدأ بالرابة ثم الظاهر ان الحدار اصابه وهو يكتبها فتركها على ان ينجزها متى شفي . والمقالة المذكورة بيان مفاوضة بين الروح الالهي والدكتور فلما قرأتها ذكرت ما ورد في التوراة عن يعقوب اذ صارع الله وضرب حق فخذه فأنخلع . قتلت في نفسي ان يعقوب لما صارع الله ضربه على فخذه وهذا صديقنا الدكتور صارعه اليوم فضربه بمحدر حتى لا يتم مقالته ولكن جاءت الضربة الاخيرة على الفخذين . اما انا فاخذت اوراق المقالة ووضعتها

(١) نشرت في المشير سنة ١٨٩٩ ولها علاقة بمقالة « المريض » السابقة

ليجبي قاعلا للخدام ان الطيب تأخر وانا لا استطيع الانتظار . وها انا انحف القراء بما بدأ بكتابته  
الكتور شميل ولم يتمه فان عاد يوماً ما فرضي عني ارجوه ان يوافينا بما كان يريد ان يجعله تكملة لها

وهذا نص المقالة المسروقة :

دع رجال الصحة يطاردون الطاعون . والناس من وجهه يهربون . فاما هم غالبون  
واما هم مغلوبون . فالعالم قديم والناس يمرون فيه مر السحاب بلا حساب . والفوز ليس  
دائماً من العلم او العمل . فقد يكون من الصدفة وقوم يقولون من القدر . وما هو علم الناس  
وما هم يعملون . دعهم في ضلالهم يعمهون

واعتزل الناس ومجالسهم وهو اجسهم ووساوسهم واركب معراج الفكر في سماء  
الخيال محلقاً الى ما وراء المحسوس وانغمض عينيك لئلا يستوقفك بهاء الكواكب اللامعة  
ويسحرك جمال الشمس الساطعة . واسدد اذنك لئلا يستهويك حفيف الافلاك في  
دورانها . فتلتبس الحقيقة عليك بين آثارها واعيانها . فاذا قطعت كل هذه العقبات . بل  
وقطعت كل صلة بينك وبين الكائنات . دخلت في العالم الاعظم عالم القوات . بل  
اصبحت والقوة الاولى متداخلين تعلم ما تعلم . علماً بكل ما يجعل الناس والله اعلم

ذلك صوت سمعته وانا في سنة الكرى . اتقلب من الحى على جبر الفضأ . فراعني  
ما سمعته في المنام . لئلا يكون نذير الحام . ولكن شاقني جداً خبر ما سأرى . فتجلدت  
وقلت في نفسي ما هي الأرقدة اسرعت ام أبطأت فلعل في الامر هدى . فلا تدع  
الصوت يذهب من دون صدى . ولا نجين كأنيك آدم يوم عصي

ثم قلت ايها الصوت المتصل الي عن غير طريق الحواس الظاهرة لاني اسمعك وحدي  
ولا يسمعك سواي كأنك مني او كأنني فيك من انت أملك الضلالة التي ينشدها الناس  
في كل زمان . أملك صوت مدبر هذه الاكوان . أملك انت الله الديان ؟ ولكن قل  
لي ما الذي اوجب بي هذا الاهتمام ووجب خرق النظام . حتى جئتني قبل يوم الحام .  
لاني وان لم اكن من سكان القصور . فلم اصبر بعد من سكان القبور . أملك استبطأتني  
فاتيت الي كأنك تريد ان تحاسبني قبل يوم الحساب . وقبل ان يزال عن النفس الحجاب  
كأنني وحدي مخطيء والناس كلهم مصيبون . لكنني لا ارى احابتهم ملأت العالم خيراً

ولا خطائي جلب عليهم ضيراً . فانا غير آسف على الدنيا لاني لم ار فيها يوماً واحداً حجب اليّ الخلق . وانت تعلم - اذا كنت كما يصفون - اتي اقول الحق . واني لم اكذب في عمري الا من حيث كذبتني امالي . ولم اسمي الى احد ولو ساءت به حالي <sup>(١)</sup> . وما ذنبي الا لاني وضعت ثقتي في غير محلها . وصدقت ما بي من القوة فصرقتها في غير اهلها . بل انت تعلم اني كنت احسن الناس نية . واسلمهم طوية . فقومي يقولون ان عثرتي من عدم التكافؤ . وقومك يقولون انها منك وذهلوا عن تبعة ما نسبوا اليك من مثل هذا التواطؤ . كأنك لم تعطني القوة الا لتعظم عليّ ألم السقوط من شاقق . ولم تجعل كل هذا الامتياز الا لتمييزي من حالي . فانا لم اقصد ذلك لاحد من الوري . فانا احسن منك اذا كنت انت كما الناس يرى . - وانا غير خائف من الاخرى لانه اذا صح قول قوم فالعلم خير من هذا الوجود الذي لا يستطيع الماقل الا ان يرى فيه صفر الموجد والموجود . واذا صح قول آخرين فانا لست بخائف اذا انتصب الميزان . لاني ادفع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ام لا يجوز في محكمة الله الديان . ما يمد العدول عنه اليوم استبداداً في محكمة الانسان . فانا لا اخاف من الوقوف امام محكمة العقل الاول . ألم تقل لنا انك عدل بل رحمة في كلامك المنزل . وان كنت قد ملأته من التهديد والوعيد . ما لا يليق بالخالق مع العبيد . لانك اردت ان تجعلهم مسئولين عما انت وحدك مسئول عنه . وتنسب اليهم ما هم في شرع الحق برائة منه . . . . .

فقال الصوت مهلاً ايها المعجب بجهنانه . المغالي بقوة برهانه وحسن بيانه . المدعي القوة والضعف له جوارحه . والمتظاهر بعدم الخوف والجبن ملء جوارحه . يدل على ذلك ما اتيت به من الاسراع في الدفاع . قبل ان تعلم حقيقة الصوت ايها المرتاع . فانت ما

( ١ ) قلت ذات يوم اعارض المرعي في قوله :

هذا جنّاه ابي عليّ وما جنيت على احد  
بقولي هذا :

فلو ارتخيت بما جناه ابي عليّ وما افرد  
لم اشك الا دهرنا وبذلك تحزية الولد  
لكن جنيت انا عليّ وما جنيت على احد

زلت بعيداً عن هول يوم الموقف . فابق دفاعك الى ذلك اليوم انت كنت ترجو فيه من منصف

قللت من انت اذا ايها الصوت الذي اشكل علي امره . وعظم لدي سره . فقال الصوت انا صوت الشعور العام . وهياً لسة الكلام . فأصابتني رعدة خلفها القاضية على حياتي . وارتي مماتي قبل يوم مماتي . ثم اقلت واذا انا في عالم تحار في وصفه العقول لانها لم تألف ما فيه من المناظر . وتقصردونه الالفاظ والمعاني لان معانيه لم تمر من قبل بخاطر . فأخذت اسبح عني لا جلوبصري وانا لا احس بيدي ولا اهتدي الى عيني . وافرك جيني كي استحضر فكري وانا لا اهتدي الى جيني . قللت ما هذا ايها الدليل اهدي ما اري ام تضليل . فأنا اشعر بنفسي اتي موجود . ولكن اين أنا من الوجود . فقال الصوت انت قد قطعت الآن عالم الكائنات . ودخلت في العالم الاول من عالم القوات

المشير — الى هنا وصل الدكتور في مقاله ثم اصابه الحدار كما اصاب فخذ يعقوب من قبل وفي عدد ٢٤ يوليو نفرت في المشير جواب الدكتور شميل على كتاب ارسله اليه اساله فيه اذا كان حاقداً عليّ واسأله ان ينجو المقالة وهذا نصه :

مصر في ١٨ يوليو سنة ١٨٩٩

حضرة الفاضل صاحب المشير المحترم

اخذت كتابك . أما انا فغير حاقدا عليك لسرقتك لي . والسرقه جائزة اذا لم تكن مضرة واذا نفعت مع ذلك فهي لا تعد جريمة كما يعدها القانون المفتون به اناس كثيرون ولكنني انا لست به مفتون . فاذا كانت سرقتي كما تقول قد افادتك شيئاً فانا لم تضرنني بشيء . اما طلبك قيمة المقالة المسروقة فانت تعلم انما وصلت يدك اليه منها انما هو مسودة كتبت على نية التفتيح والاطمئنان ثم فاجأني الداء فقطع جبل افكاري ولم استبل منه الا من بضعة ايام ولكنني اراني به قد رددت الى عالم الحقيقة وصرفت عن عالم الاحلام . فانا الآن منهمك بالماديات ولا ادري متى يجوز لي الاشتغال بالروحانيات فاجابة طلبك ليست ميسورة في الحال ولا استطيع ان اعدك بها في الاستقبال ولا سيما ان مصارعة الالهة ليست بالامر السهل . وها انا شاهد من بعد ويعقوب شاهد من قبل . على ابي وان

طمعت بجلم الآلهة فلا اطعم بجلم البشر . ولذلك جاء في الامثال . ليس كل ما يعلم يقال .  
ولا كل ما يكتب ينشر <sup>(١)</sup> . فها قد بسطت لك امري . فاقبل عذري  
الدكتور شبلي شميل



## المقالة الرابعة والعشرون

### ﴿ الانتحار <sup>(٢)</sup> ﴾

#### « بحث اجتماعي بسيكولوجي »

لقد تعددت حوادث الانتحار في هذا القطر في الايام الاخيرة خصوصاً في الاسكندرية ومصر حتى خيف من انتشار هذه الآفة الاجتماعية بالاقتداء بين شباننا الشديدي التأثير القليلي التبصر كأنها مرض ينتشر بالمعدوى بل هي مرض حقيقي من امراض الاجتماع . فالاجتماع كما وصفه بعض علماء السوسولوجيا جسم يشبه جسم الحي في تكوينه ووظائفه واطواره وله نظيره امراض تشبه امراضه باسبابها ونتائجها وطرق انتشارها والفرق بينهما نسبي فقط في كبر الجسم وطول العمر فالاجتماع حيوان هائل والوف السنين ليست بالشئ الكثير في حياته والبحث في امراض الاجتماع هو بحث بسيكولوجي سوسولوجي يتناول البحث في قوى العقل واميال النفس والاسباب الاجتماعية التي تؤثر فيها غريزية كانت كالوراثة العامة الراجعة الى الاجتماع نفسه والخاصة المتعلقة بالاهل او مكتسبة كالتربية البيتية والمدرسية وتوع التعليم مما يجعل هذا البحث وعراً المسالك

فالانتحار مرض من امراض الاجتماع بهم المجتمع الانساني باسبابه ونتائجها فهو ينزع من هذا المجتمع اعضاءهم غالباً في مقتبل العمر والموجود مما يكن خيراً لهذا المجتمع من

(١) ومن اراد الا المزيد فليه برسالة العاطس لابن جلا جعلتها صدى رسالة الغفران للمعري

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

المفقود خصوصاً اذا عرف المجتمع بشرائمه ان يستفيد من قوى هذا الموجود النافعة لان الاضرار بهذا المجتمع ليس من اصل الطبع في نظام هذا الكون بل من الامور العارضة بالنسبة الى تطبيق الوضع على الطبع . فالانتحار مرض عارض لعدم تطبيق الموضوع على المطبوع واسبابه في نظمات هذا الاجتماع وتعالجه

فالانسان ليس كائنًا واحدًا في جسمه وطباعه وعقله واخلاقه بل هو ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضا . فالانسان الفطري ليس لنا مثال يمكننا من وصفه وصفاً ثابتاً وغاية ما يقال فيه انه معد اعداداً تاماً لقبول تأثير المؤثرات فيه طبيعية كانت او ادية . ولا يمكن لنا ذلك ولورددناه الى الحيوان لانه في هذه الحالة ايضا يبقى متأثراً ولو لعوامل المكان انما بالتجريد يمكننا ان نتخيله بصفاته البسيطة الشاملة لمادة هذا الكون واول هذه الصفات فيه حب الذات وأبسطة اي حب الذات ما كانت الغاية منه المحافظة على الحياة . فالانسان الفطري هو اذاً محافظ على حياته المادية لا ينوي لها شراً ولا يبغي بها بدلاً . فالانتحار ليس من طبع الانسان ولا هو من طبع الحيوان وما نسب الى بعض الحيوان من ذلك على ندرته لا يجوز ان يحسب من هذا القبيل واكثره عن جنون حقيقي يصيب الحيوان كما يصيب الانسان وقتل النفس فيه نتيجة لا غاية مقصودة كما هو في الانتحار

بل لو بحثنا في طبقات البشر السفلى التي هي اقرب الى الفطرة لم نجد ما يحملنا على الخروج عن هذا المبدأ . فالانسان المتوحش اذا اودى بمصلحته او عرض في ارادته يحاول ان ينتم لنفسه لا يقتل نفسه بل يقتل من حال دونة وتصدى لا يذاته وان خاف على حياته من خصمه ولم يجد مفرّاً لتجاة من يده يفضل ان يقع صريعاً وهو يدافع عنها املاً بالتجاة وطلباً للانتقام من ان يقتل نفسه بيده

فالانتحار ليس في صفات الانسان الفطرية ما يحمل عليه ولا هو معروف عند الانسان المستغرق في المهمية بل هو طاريء عليه من نوع التربية والتعليم . ويلزمنا ان نصعد الى عصور الجاهلية الفاصلة بين عصر التوحش وعصر التمدن بمعنى انها آخر الاول واول الثاني حتى نجد بعض حوادث منه من وقت الى آخر بعيد وفي ظروف خصوصية نادرة . فلا يخفى ان الصفة الاولى التي تبهت في الانسان في هذه العصور اي عصور



الجاهلية هي الانفة ولذلك كانت حوادث الانتحار في هذه العصور متصورة على امر واحد ليس فيه شيء من صغر النفس او قلة العقل كما نرى اليوم كأن يقع الانسان في اسر عدوه او يمشى الوقوع في اسره وقد سدت في وجهه سبل الدفاع وهو هالك في الحالين فيفضل ان يقتل نفسه بيده ليحرم عدوه من لذة الايقاع به وهو في كل ذلك لم يتخط حب الذات فدافعه عن نفسه يحمله عليها حب ذاته وقتلها يده لئلا تهان يد عدوه بحمله عليه حب ذاته ايضاً

ثم جاء عصر التمدن بما خالطه من التعاليم المتباينة والمبادئ المتناقضة من اجاعة ودينية وادبية قووى في الانسان عواطف وامات عواطف وحوئل عواطف قووى في الانسان الخيال واضعف فيه الثقة بالنفس والاعتماد عليها وصرفه عن الحال بالآمال فصغرت الحياة الدنيا في عينه حتى احترقت الحياة المادية وعظمت الحياة الاخرى حتى صارت تفضل عليها الحياة الادبية

ولم يقتصر الانسان على بسيط هذه المبادئ والا لم يكن الشر عظيماً خصوصاً اذا كانت النتائج متفقة معها بل وقع تناقض كلي في تربيته وتعاليمه فبعد ان بذلوا الابدان الى حد التشفى ورفعوا الآمال الى مقام الاماني عادوا فرفهوا الابدان الى حد الترهل مع التصرف بالمبادئ الادبية بما لم يضعف من قوئها بل حوئل وجهتها وافسد غايتها فضعف الجهاز العصبي المستولي على العواطف بالترية المرهلة للابدان وتمادى العقل في الخيال حتى تناهى في الضلال وكثر التناقض بين الحياة النظرية والحياة العملية فكثر الانتحار بين الموسرين لاسباب اديية تهيج بها العواطف متطرفين فيما تربوا عليه من ان قتل الآمال لاشد من قتل الاجساد وكثر بين الفقراء لاسباب اجتماعية تضيق عليهم المذاهب فعدوا اليه متمزين بقول الشاعر

والموت اطيب من حياة مرة      تقضى ليايلها كقضم الجمد

ولا يفهم من ذلك ان الانتحار من آفات التمدن بدليل ما نراه اليوم بل التمدن الصحيح ينبغي ان يزيل اثره بالكلية من المجتمع البشري باصلاح التريبة وتقويم المبادئ بل هو من آفات تمدننا الحديث لما فيه من النقص والتذبذب في كل شيء فنحن حقيقة

في دور من ادوار ارتقاء الانسان ينبغي ان يعد في تاريخ المجتمع البشري طور الانتقال فنحن في هذا الطور لم نبق على هجيتنا البسيطة ولم نبلغ مقام التمدن الصحيح ولقد مررنا علينا في هذا الدور قرون ونحن نتقلب متذبذبين بين الوقوف والتقهقر واستئناف السير وسيمر علينا قرون كثيرة ايضاً قبل ان نبلغ هذا المقام . وادوار الانتقال في حياة الجموع كما في حياة الافراد شديدة الخطر فكما ان الخطر على حياة الافراد يشتد في طور انتقال الطفل من الرضاع الى الفطام وفي التسنين هكذا الخطر يشتد على حياة الجموع في انتقالها من طور الى طور وكثيراً ما يمرض لها في هذا الطور ما يوقف سيرها ويوجب تقهقرها وتاريخ الاجتماعات البشرية مشحون بالدلة على ان هذا الوقوف وهذا التقهقر حصلاً لها في حياتها مراراً عديدة فاضطرت ان تستأنف السير والله يعلم ما يلزم لذلك من الزمان الطويل ويطول بنا الشرح لو اردنا ان نبين اوجه النص في تمدننا الحديث الذي تنباهي به اليوم كأننا بلغنا به القدرح الممل وما يعترضه من المخاطر التي يخشى منها على حياة العبران مما يوجب وقوفه وتقهقره احقاباً طويلة . ولا نطيل الوقوف على هذا التمدن « النى » في حياة الافراد في حركتهم المصطنعة التي ليس فيها شيء من الرجولة التي هي متهى الادب الحقيقي كأن ثبت الانسان رجله على اطراف قدميه ويحني رأسه الى الامام ويبرز بعجزه الى الوراء وينسط كفه لا الى حد العطاء ويضم اصابعه مبالغة في العياقة ويمد ذراعيه على زاوية لا هي بالمنفرجة ولا هي بالقائمة ويثبت كفه كأن بها حدوداً تؤلمها الحركة يظن بذلك انه بلغ متهى الكياسة وما بلغ به الا انحطاطه الى مقام اجداده القروء أو كأن يقف صمّاً على كلتا قدميه ويثبت ساقيه يأخذ بعجزه وجزعه يطول ويقصر وينحني وينبسط باسطاً كفه بسط المستجدي ماداً يده الى الارض ورافها الى رأسه وفه مكرراً ذلك بسرعة تخطف الابصار كأنه يغرف بها شيئاً من احد طرفيه ليضعه في الطرف الاخر وما يغرف بها الا جهله ليلد به على قلة عقله (اشارة الى السلام الافرنجي والتركي) وهذا التصنع الذي يعلمه بعضهم من التمدن ويا حبذا التوحش عنده لا يقتصر على حركتهم فقط بل يتناول حديثهم ومعاملاتهم وصدقهم ان صحت ان تسمى صداقة وسائر آدابهم فجميعها لا يتجاوز حد التكلف ومبدأهم فيها التبطن على خد قول المثل

الفرنساوي « جعل الكلام لتفضيل الافكار » او على حد قول الشاعر العربي يعطيك من طرف اللسان حلوة ويروغ منك كما يروغ الثلب ولا يخفى ما في ذلك من الرخاوة العديمة الطلاوة ومن النقص في الاداب الخصوصية والعمومية معاً ومن افساد اخلاق المجتمع البشري عموماً واقل اضرار ذلك التفضيل لفقد الحرية الدالة على الشهامة وعلو النفس

واذا نظرنا الى هذا التمدن المشحون بالمبادي المتناقضة في حياة الجموع تبدي لنا هذا النقص جلياً في نظاماته واحكامه وتعاليمه مما يحمل الخطر على التمدن الحقيقي من الوقوف والتقهقر شديداً جداً . فلولا هذه النظامات الناقصة والاحكام الفاسدة والتعاليم المضللة لما رأينا المئات من الالوف يذهبون جوعاً وبرداً وقتلاً بالسيف والامراض . ولما رأينا هذا التأفف من الهيئة الاجتماعية بسبب ذلك وهذا التحيز منها لقلب هذه النظامات انتقاماً للضعيف الزاح تحت عبء الظلم من القوي الساجد في بحور الفرور ولا يخفى ما في ذلك من الخطر على المجتمع نفسه . ولا نظن ان عصراً من العصور بلغ فيه توتر العلاقات التي تربط اعضاء هذا المجتمع بهذه النظامات مبلنة في هذا العصر لاتساع الفهم فاما ان تنقح هذه النظامات الى ما يكون اصلح للحال واما ان تقطع رباطاتها لزيادة الشد فيقع المجتمع في اواخر هذا القرن او اوائل القرن القادم في هرج لا تذكر معه ثورة اواخر القرن الماضي بشيء

وقد يتوهم القاري ان اسباب الكلام على التمدن الحالي ونظاماته وتعاليمه وسائر آدابه كما تقدم خروج عن الموضوع وغلو في النظر والحال ان اعتبار ذلك امر لازم في مثل بحثنا لان اسباب اتجار الافراد تمتد اعراقها الى اصل المجتمع البشري وتحتل كل طبقاته فاداب الافراد من آداب الاجتماع واخلاقهم من اخلاقه وقوام العقليّة وعواطفهم من قواه العقليّة وعواطفه فالاجتماع مسئول عن كل ضعف يظهر في الافراد ولا شك ان الافتحار ضعف في العقل يجر الى صغر في النفس سبباً تقوية بعض العواطف بسبب الترية وامانة البعض الآخر وتحويلها الى غير وجهتها الحقيقية بالتعاليم المتناقضة وعدم انطباقها على العمل فهذه الترية التي يفرط فيها اصحاب اليسار في البيوت والمعلمون في المدارس والتي

يفرط فيها اصحاب العسر كذلك يرهل البدن وتضعف اعصابه فيصير سريع التأثر ولذلك كان يكثر الاتقار في سن الصبا ما بين خمس عشرة سنة وخمس وعشرين سنة اذ يكون الجسم رطباً رخصاً فالترية البيتية تضعف البدن بالترفه والترية المدرسية تقوي العواطف وتفسح المجال واسعاً للخيال الى حد الضلال مع عدم مراعاة تطبيق ذلك على المعاملات فيخرج الشاب من بيته ومن المدارس وهو على هذه الحال من وهن المباديء الى المجتمع البشري حيث يصادف كل شيء على عكس ما قد تربى وضد ما قد تعلم فتشتد فيه الانفعالات وتظم عليه الصعوبات ولا سيما اذا كان ممن قد تعلق على قراءة كتب المجنون التي يبالغ اصحابها في تجسيم ما بني على الخيلة وتعظيمه مع بعده عن الواقع حتى يصبح الانسان اثنين متاقصين انساناً بالوسط الذي يعيش فيه وانساناً بما تربى عليه فيصير بذلك متأثراً لاقل سبب واحياناً لغير داع . وكتب المجنون هذه شديدة الضرر في تهيج عواطف الانسان على ان نهج بعض الكتبة فيها في اواخر هذا القرن النهج الطبيعي لتقرير الحقائق كما هي خطوة حميدة ستقلل الضرر الناشيء عنها

والاتقار يكثر في الاحداث لاسباب عشقية تسهل مداواتها ومعاكسات لاتصعب ملاقاتها لو كانوا اقوم تربية واكثر خبرة ولذلك هو يقل جداً بعد سن الاربعين واذا حصل حينئذ فلغير هذه الاسباب . لاسباب يزعمون انها تمس الشرف كما لو تورط انسان مستقيم لزلّة قدم فاستعمل مالاّ ليس له بناء على ان يرده لصاحبه بعد ان يصلح زلته فيبدد المال ولا ينهض من عثرته ويخشى اقتضاح امره فقد يقتل نفسه او وقع في مرض عضال تأكد عدم شفائه ولم يعد يطيق عذابه فقد ينتحر فراراً من العذاب واذا كان للاتقار مسوغ فربما كان هذا الاخير ابي المرض اصدق مسوغ له

وفلسفة الاتقار يختلف تعليلها بحسب الاسباب والسن ففي العشق يقصد المتحرر التخلص من عذاب ليس في طاقته احتمالاً وربما قصد باتقاره ارضاء حاسة وهمية هي قهر الحبيب اذا كان يعتقد ان حبه شاغل مكاناً من قلبه او كان يعتقد فيه وجود عاطفة الشفقة فقط وقلما ينتحر لمشوق يعتقد فيه الخلو من هاتين العاطفتين اصلاً وفي معاكسات الاهل يقصد تكديرهم كانه ينتقم لنفسه منهم على عدم مجاراتهم له في اهوائه واما الذي يينذل

حياته صوتاً لشرف نفسه فيقصد بذلك ترضيتين احدهما تخليص وجدانه من عذاب ما تجلبه عليه الالهانة . والثانية تلطيف هذه الالهانة بما يظن انه يعيها من الاعذار لدى الجمهور والمتحر ليس بمجنون حقيقة كما ربما يظن البعض لانه في انتحاره يقتل اي انه يفعل افعالاً مغيثة لا تخرج كلها عن حب الذات فاذا بذل حياته المادية فلاعتقاده ان الحياة الادبية افضل اولا لان عذابه تجاوز حد طاقته اولا سباب اخرى ذاتية والدافع له الى ذلك ضيق في العقل وصغر في النفس للاسباب الاجتماعية السابق ذكرها ولو اصلحت تربيته على المبادي المتينة لعم ان الشرف الحقيقي لا يكون بقتل النفس ولو بعد زلة كما يظن من لا حزم عنده وتساوده الترية الاجتماعية بل بمصادمة الطواريء بعزم ثابت وجأش قوي لعله يستطيع ولو في المستقبل البعيد ان يعوض على من اضاع عليه متاعه والا فيكون قد جاهد جهاد الابطال ولم يمت موت الانذال وان الشهامة التي يزعم الاحداث انهم يأتونها بانتحارهم لمعشوق زاد دلالة او قهراً لا بون لم ينيلام مثلاً ليست شهامة بل الشهامة في تلقي الصعوبات بصدر رحب وقلب لا يهاب للتغلب عليها

وأما الانتحار الذي يكون سببه الفقر فالباعث عليه الاضيق المذاهب على الانسان فتقل حيلته في تحصيل رزقه وفطرته لا تساعده على ما عده الهيئة الاجتماعية جنيات فهو لا يجد من نفسه ميلاً للسرقة او اللصوصية . فتصغر همته بازاء الصعوبات الكثيرة فيطلب النجاة من الذل بالموت

والانتحار هنا يكون غالباً مقروناً بالقتل فيقتل الرجل معه امرأته واولاده كأنه يريد ان ينجيهم مما هو واقع فيه معتقداً انهم يشعرون شعوره في مركزه وربما حملته محبة نفسه عن شعور مبهم على ان لا يدع نفسه يترك هذه الحياة من دون شريك له في مصابه فيعمد الى قتل من هم اقرب اليه وقتلهم اسهل عليه . والمسئول في هذه الجناية الفظيعة نظمات الهيئة الاجتماعية بلا ريب . وربما وضعت مقالة في فرصة اخرى ابناً فيها كيف يمكن ملافاة نقص هذه النظمات بما تقل معه مصائب الانسان ولا يخرج عن حد الامكان في هذا الزمان حتى لا يظن قصار النظر اننا نهم في الاوهام وان مباحثنا اضغاث احلام وحتى يتضح لهم انهم هم انفسهم ليسوا في نقطة بل في منام

## المقالة الخامسة والعشرون

\* رجال النقد <sup>(١)</sup> \*

إذا شئت أن تعرف مستقبل أمة فابحث عنه في أطفالها فهم نتاج الماضي وعنوان المستقبل ابحث عنه في صحتهم وفي تربيتهم وفي تعليمهم من يوم يحل بهم اجنة الى يوم يولدون ويربون في حجر امهم الى يوم يخرجون من المدارس وينضمون الى الهيئة الاجتماعية اعضاء عاملين . فعلى صحتهم وكثرتهم يتوقف نمو الأمة وعلى حسن تربيتهم وتعليمهم يتوقف نجاحها . فالام اول عامل يؤثر في الطفل واهمه وتأثيرها فيه اشد من تأثير الاب فهي تغذيه من دما اشهرأ وتسقيه لبنها اشهرأ وترثيه في حجرها سنين وما يكتسبه الطفل من امه بالاعداد الطبيعي والثروة الادبية والتعلم العقلي قد لا تقوى عليه المؤثرات اللاحقة ومهما قويت فلا تزال اثره . تصورا ما حققا لا تعرف من قوانين الصحة الا الكلى حتى على الشيع ومن آداب التمدن الا البهجة والتزين بالخلى العاطلة وهي عاطلة من حلى الآداب الحقيقية ومن العلوم غير ما تقوى به الاوهام وتفسد معه الاحكام عقلا اوسخ من بدنها تدفع العين عن طفلها بالقدارة وتمنع عن اتيان ما لا يجوز بغويته بالنفول والبعبع بمد الاب والطبيب وتدفع به بمدان تغذيه بدم الجهل وتسقيه لبن الحق الى مرضع لا تفضلها في شيء من هذا القليل وتنقص عنها في فقدان الخنو الوالدي الذي هو من العواطف التي تؤثر في اللبن تأثيراً عصبياً وتكيفاً تكيفاً حسناً يستمرى به الرضيع . فاذا تكون حالة هذا الطفل المسكين صحيحاً وادبياً وعقلياً . لا شك انها تكون رديئة جداً . ثم قابل هذا الطفل بطفل ام هي على تقيض ما تقدم عاقلة متهذبة متعلمة متحلية بالاداب الصحيحة عالمة ان نبلها قائم بسلطانها في معيشتها لا يهرجتها وان جمالها قائم بترتيبها ونظافتها لا بطلي وجهها ليس للاوهام عليها سلطان يدفعها الى الاستمساك بالخرافات وزرعها في رأس طفلها حتى يشب على الاعتقادات الفاسدة والاحكام الباردة بل تربيه

تربية تجعل عقله حراً غير مقيد بقيود الجهل والالوهام تحافظ على صحته بالمبالغة بنظافة جسده وملابسه والاعتناء بطعامه وشرابه وقاوة هواء غرفته متحاشية التأني الذي يجر الى الرفاهة المرحلة للابدان والآداب حافظة له شيئاً من الخشونة الجائزة المتوية للاجسام والاخلاق فان مثل هذا الطفل يشب صحيحاً اديكاً عاقلاً ليس فيه شيء من ميوعة المترهلين او خشونة الجافين متحلياً بالرجولة التي هي من صفات الحازمين مقدماً ولو زلت قدمه جليداً ولو خارت همته سخياً ولو نضبت كفه كريم الاخلاق يملكه المعروف ولا يلتم للمتلوف يعذر حيث يجب العذر . فللجهل عذر لا يفوت ذوي الفضل

كريم يقيم العذر في موضع العذر فللجهل عذر لا يفوت ذوي الفضل  
اذا ما رأى المعروف في بذل نفسه جفاها ولم يقبل فداء سوى البذل

والحكم بين الطفلين كالحكم بين الامين لا يقبل التردد وهذه النسبة تختلف بين اطفال امة واحدة لاختلاف الامهات والغلبة حينئذ لا كثرية كما انها تختلف بين اطفال امة وامة والغلبة هنا للامة المتقدمة فاذا خرج الطفل من حجر امه الى المدارس صادف هناك عقبات كثيرة كثيراً ما تهدم جسده وتطفي نور عقله من سوء المعاملة في التربية وفساد التعليم وهذه المسألة المهمة جداً في مستقبل الاطفال ومستقبل كل امة تحتل بسطاً واسعاً اذا اردنا الالام بكل اطرافها والمقام لا يحتمل ذلك فنقتصر فيها على كلام اجمالي يكون تمهيداً للتوسع في هذا البحث لمن اراد ولا نطيل الوقوف على المدارس الصغرى فان عدما افضل من وجود كثير منها ونحصر كلامنا في المدارس الكبرى فنقول ان التعليم على ما هو شائع وخصوصاً في مدارس المشرق ناقص جداً فنظام المدارس في التعليم والتربية قديم لا ينطبق في جلته على احتياجات العصر ومقبولات العقل وسنن الارتقاء فالاسباب الصحية مهملة في اكثرها للغاية من حيث نظافة الهواء والماء والمأكل والملبس فان القائمين بهذه التربية اكثرهم لا يمتنون بذلك وربما عدّه بعضهم من الامور الخافضة للمبادي القائمين بتأييدها فعدوا التذكرة نوعاً من التشفي الفضيل والنظافة افرطاً في الترهل الذميم وكثيراً ما يكون ذلك سبباً لامراض تؤدي الى الموت بعد الاعتلال . خذ مثلاً لذلك من امثلة كثيرة وهو مثال السكنين والملقعة والشوكة التي يستعملها التلامذة

في طعامهم فان كثيراً من المدارس حتى اليوم لا يسمح بنسل هذه الاواني الا مرة في كل اسبوع

والترية ناقصة كذلك واكثر القائمين بها اناس يجهلون بها فيعدون العقاب ومعاملة التلامذة بالخشونة والقساوة من القواعد الاساسية ويساوون فيها بين العموم لا يفرقون بين تلميذ وتلميذ جاهلين بالحكمة من قول الشاعر

ووضع الندى في موضع السيف بالعلمي مضر كوضع السيف في موضع الندى  
اي ان استعمال العصا حيث يمكن الاكتفاء بالتوبيخ اللطيف مضر كاستعمال هذا  
في موضع ذلك والامثلة على ذلك كثيرة وكل واحد منا في وسعي ان يذكر كثيراً منها  
واروي لك مثالين وقما لي في مدرستين متباينتين في الترية وبينهما فترة طويلة احدهما  
اتي كنت ذات ليلة قبل ميعاد النوم واقفاً مع صفي في مكان مكشوف للهواء وفي ايام  
الشتاء فخانني الصبر من طول الانتظار وقرصني البرد فتأففت من ذلك طالباً العجلة فلم  
يرق ذلك في عيني الملاحظ علينا وكان رجلاً احق اسمه الاب يانكي احق به مستشفي  
المجاذيب من مدرسة يتولى تربية الصغار فيها فما قبني للحال عقاباً اوسخ من عقله فاعترضت  
فشدد العقاب فرضخت للظلم لصغر سني وضمعتي وحفظت الغل في قلبي حتى اليوم ولو  
كان لي حينئذ قوة تمكيني من الدفاع عن نفسي لتفت ذقنه شعرة شعرة ثم وقع لي بعد  
ذلك بسنين في مدرسة اخرى ما اخجل انا نفسي من ذكره فاني طلبت يوماً ما وأنا على  
المائدة طعاماً غير موجود وكان ذلك جائزاً لنا فأباه المشي علي ففضبت لذلك جداً  
وقت من عن المائدة واندفعت الى المطبخ كالالة العمياء وتناولت الشيء الذي طلبته ثم  
رميت به الى الارض ودسته تحت قدمي . ثم رجعت الى مكاني وانا انتظر العقاب على  
ذلك واقفه الطرد . وكان للمدرسة رئيس من افاضل الرجال عاقل حكيم اسمه الدكتور  
بس اطل الله بقاءه فابلغوه الامر فكأنه نظر الى سوابقي الحسنة وربما راعى اجتهادي  
في الدرس كذلك فامهلني يومين ولم يقابلني وانا انتظر من دقيقة الى اخرى ان يطالبني فلما  
كلف اليوم الثالث كنت في ساحة المدرسة وحدي فرأيتة مقبلاً علي ويده كتاب  
فجسدت في مكاني وعلا في اصفرار الوجع وخفق قلبي فلما دنا مني تبسم ومال الى اذني



كأنه يريد ان يسر اليّ امرأً وقال لي بصوت منخفض « اذا غضبت مرة اخرى فلا ترتب على غضبك عملاً الا بعد اربع وعشرين ساعة » وتركني فقيت جامداً في مكاني لا اتحرك وعلائي احمرار الخجل واستولى عليّ الدوار ولا اعلم كم بقيت في هذه الحالة لا انتقل من مكاني وانما الذي اعلمه اني اعتبرت بهذا العقاب كثيراً وحسبته اشد من الضرب والطرده وادعى الى الاصلاح

واي قساوة وحشية تفوق ما اروه لك عن معاملة المعلمين للتلامذة في بعض هذه المدارس الكبرى فاني يوم كنت تلميذاً وسني بين ١١ و ١٢ سنة كان ملاحظ غرفة منامتنا كلما رأى تلميذاً مكشوقاً وهو نائم يوقظه بضربه بمصا رفيعة على رجليه عوضاً عن ان يغطيه كما كان يفعل ابوه او امه مع ان عمل الضرب لا يوجب على حضرته صرف قوة اقل مما يوجب عمل التغطية فاذا فعل هذا الطفل المسكين القاصر عن معرفة الجائر وغير الجائر وعن معرفة متى يكون مسئولاً ومتى لا يكون اذ يرى مثل هذا الوحش المتولي امر تربيته يفعل ذلك سوى ان يقوم في اعتقاده ان تكشفه في نومه ذنب لا يغتفر ولكنه ذنب ليس في طاقته ان يجتنبه فتقل ثقته بنفسه ويقع في رعب قد يؤدي به الى الخمول . واذ كراني كي اتقي هذه المعاملة الوحشية عمدت الى اللحاف وثبته في السرير ثم فتحت ملحفته وصرت ادخل جنسي بين اللحاف والملحفة كأني في كيس ولكني كنت حينئذ كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد اتقيت بهذه الحيلة عصا الرقيب ولكني وقعت بين انياب البق لان مسامير اللحاف كما يسمونها كانت ملائمة بقا

ولذلك ينبغي ان يكون المعلمون من الذين تربوا جيداً وبرعوا في علم الاخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملوه بحسب طبيعته وينبغي ان يكونوا كذلك من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابلية عقله ليردعوه عن الفاسد وينشطوه في الاستعداد الحسن والا كثرون لا يفهمون مقدار الضرر الناشئ عن عدم مراعاة ذلك فان عقولاً كثيرة من اذكي العقول ينطفي نورها كل سنة في المدارس من سوء المعاملة ومقاومة اميال العقل ولا ريب عندنا ان المستقبل سيجعل فن سياسة الاطفال فناً قائماً بنفسه تؤلف فيه المؤلفات ويقلق المعلمون في مدارس خصوصية تجيز لهم التعليم كما يفعل اليوم للاطباء والمتشرعين

اما التعليم في المدارس فقسمان العلوم الادبية والعلوم الطبيعية اما العلوم الطبيعية ويدخل تحتها العلوم الرياضية فلا يعترض عليها لانها واحدة في كل المدارس وهي من اصدق العلوم وتأثيرها في العقل جيد جداً اذ تربيته على القياس الصحيح

اما العلوم الادبية فواسعة جداً ويدخل تحتها علوم اللغة لا من حيث وضعها ونشؤها فان ذلك من المباحث الطبيعية الحسنة والمهمة في المدارس بل من حيث تعليلها والمنطق والفلسفة العقلية وعلم الاداب والسياسة واللاهوت الى غير ذلك من اجتهادات العقل واوضاعه فيها كثير من المبادئ التي يدخلونها في رؤوس التلامذة قسراً كأنها قضايا مسلمة وكثير منها ما يكون مغلوطاً ويربون العقل عليها حتى يفقد ما له من القوى الذاتية ويصبح كأنه مصنوع على قالب معلوم وناهيك بهذا المصنوع المبني على المغلوط وبعد ان يصنعوه على هذه الصورة يفرغون فيه العلوم حيث تبقى فيه عقيدة او تظهر بمظاهر متناقضة ولذلك كان اكثر الذين يقيمون في هذه المدارس زماناً طويلاً ويدرسون دروسها القانونية يخرجون منها متعلمين كثيراً ولكن فاقدين كل امتياز ذاتي في عقولهم واكثر الناس الذين امتازوا بخاصة ذاتية في عقولهم هم من الذين لم تسمح لهم الاحوال اما المرض وإما لسبب آخر باتباع هذه الدروس القانونية على التسق المعول عليه في اكثر المدارس ونجوا بذلك من الوقوع تحت سلطان هذه التربية العقلية فالمدارس لا يجوز لها ان تضغط على العقول لتصنعها على قالب معلوم وتضيق عليها المذاهب بل يلزم لها ان تعدها اعداداً عاماً وتوسع لها المنافذ حتى يسهل عليها التعرف في العلوم التي تعلمها والبحث في جميع الاشياء التي تعرض لها وبين المدارس الموجودة بيننا فرق عظيم في ذلك وفضلها ما هجر الخطوة الاولى وكان اقرب الى الخطوة الثانية والفرق بين تلامذة المدرستين واضح وارجحية الجانب الواحد لا تحتاج الى بيان ولو كانت حكومات المشرق من الحكومات المرتقية لاهتمت بهذا الامر جداً على الاسلوب الذي ألمعنا اليه والذي يحتاج بسطه الى تفصيل طويل

ولو كنت ناظراً للمعارف — لا اقول ذلك من باب التمني — لا كثرت التردد على المدارس لا في الحفلات الرسمية للاكل والشرب والطرب على نغم الموسيقى واستماع خطب

المدح الباردة ومبادلة العبارات الفارغة بل للوقوف على احوال التلامذة في ادق امورهم في مأثمهم وهوائهم وغذائهم ونظافتهم ومطبخهم واسرتهم وملابسهم فضلاً عن طريقة تعليمهم بل للوقوف على حال المعلمين من ذلك ايضاً فاني اذكر ان معلماً من معلمي المدارس الكبرى حضر مرة للتداوي عندي فلما كشفت لباسه الاسود كدت اتقيأ ما في معدتي من شدة سواد قيصه لشدة قذارته فكيف يرجي ممن هو بهذه القذارة في جسده ان يكون انظف من ذلك في عقله وان يكون مرشداً لهؤلاء الاطفال الى ما يصح به جسمهم ويدكو عقولهم وتسو آدابهم

ولا ريب ان بعض المدارس اصلح من البعض الآخر في هذه الامور وان كثيراً منها اصطلح جداً عما كان عليه من عشرين سنة خصوصاً في اوروبا الا ان البعض الآخر لم يزل كما كان عليه من عهد اربعين او خمسين سنة خصوصاً في سوريا ومصر من البلاد التي يهمننا التعليم فيها . والاصلاح الذي حصل في المدارس في النصف الثاني من هذا القرن هو في جعله دون الممكن ودون المطلوب خصوصاً اذا قسناه بالاصلاح الذي حصل في المستشفيات والفنادق ولا ندرى كيف تصبر الهيئة الاجتماعية والحكومات المتمدنة على ذلك مع علمها ان هؤلاء الاطفال هم رجال الند فعلى صحة ابدانهم يتوقف بناء الامة وعلى صحة عقولهم يتوقف نجاحها

واهمال الرحمة بالاطفال بالغ الغاية القصوى في بلاد المشرق واذا القينا نظرنا الى الاطفال في هذه البلاد خصوصاً ضاق علينا قاموس اللغة لوجود الفاظ تعبر عما يجيش في النفس من الاحتقار لرجال الاحكام وهيئة البلاد نفسها ولا سيما بعد ان عدوا انفسهم في عداد الحكومات والامم المتمدنة يتقلدون كأنهم لا يعقلون فيؤلفون الجمعيات للرفق بالحيوان كأنهم استوفوا ما يلزم لنوع الانسان مع ان الحاجة الى اقامة الجمعيات للرفق بالاطفال خصوصاً في هذه البلاد اشد واولى . فلا نظن ان العاهات التي تشوه الابدان والوفيات التي تذهب بالارواح بالنفة في بلاد مبلغها في هذه البلاد . فالرفق بهؤلاء الاطفال من اول واجبات الامة وواجبات الحكومة اذا كانتا تريدان ان تعملوا عملاً معقولاً مشكوراً ولا اقل من ان تنشأ لهم المستشفيات الكافية . ولا تستغرب ايها القاريء اذا

قلت لك ان في كل تركيا ومصر لا يوجد مستشفى واحد للاطفال فالحكومة تعتذر من عدم وجود المال ( الا اذا شئت ) وغالب اغنياء الامة ليس فيهم من يفهم قوة هذه الاعمال لجهلهم وقلة عقلهم مع ان الذي افقته حكومة تركيا ومصر على سياحة امبراطور غني كان في امكانه ان يسوع على نفقته وما تنفقه الامة من وقت الى آخر على الاحتفالات الصبائية البليدة كل واحد وحده يكفي لانشاء مستشفيات تأوي فيها اطفال البلدين معا والمضحك المبكي ان الحكومة والامة اللتين لا تهتزان لهذا الامر الجليل تنتفض اعصابهما رعباً لعمل مشجوب يأتيه بعض الزعاع من وقت الى وقت آخر بعيد كالايقاع بعظيم يسهل تعويضه لهوس تسهل مداواته ويأس تسهل ملاقاته فتقوم قيامتها وتبثان العيون والارصاد وتأخذان البريء بجريرة المذنب كأن القيامة قد قامت ويوم الحشر قد دنا . واغرب من ذلك ان هذه الغيرة قد امتدت الى جرائدنا في هذه الايام فقامت نجسم الاوهام وتؤكد المزعوم وتحذر وتنذر وتنبه رجال الاحكام الى خوف بعيد عنها قريب منهم كأنها احرص منهم على حياتهم واشد استمسكاً منهم بنظامهم مع بعدها عن امتيازاتهم منادية بالويل والثبور ذارة الرماد على مسترسل سطورها كأنها خافت على قصور اصحابها ان تنسف وامواهم ان تسلب وارواحهم ان تنهب وهم منها افرغ من فؤاد ام موسى حتى ارواحهم لم يبقوا على استقلالها مدفوعة بموامل لا يصح ان تسمى الانعطاف لان هذه الحاسة الثبيلة كثيراً ما تخونها في حوادث اشد من اعمال الفوضويين ضرراً واكثر منها مساساً بهم فكيف نرى الحاكم الواحد يضحي بمئات الالوف من النفوس والملايين من الاموال على مذابح الطمع والجهل ولا تبس بينت شفة فلو كانت هذه الحاسة الشريفة هي التي تدفعها الى ذلك لوجب ان تظهر فيها على نفس النسبة وحينئذٍ للمئات العالم ضحيباً وعجيباً فالحكمة تقضي في مثل ذلك ان يبحث عن السبب للملاقاة من اصله فالفوضوية والاشتراكية وكل الجمعيات المقاومة للنظام الحالي بقطع النظر عن كونها صالحة أو غير صالحة دليل على ان الهيئة الاجتماعية تشعر بتعب موجود حقيقة تقصر النظامات الحاضرة عن تدارك فاصلاح هذه النظامات لازالة هذه الاسباب احق واولى . وما اهمال ثرية الاطفال الذين فيهم بحثاً من جانب هذه الهيئة والنظامات الا سبب واحد

من اسباب كثيرة اجتماعية داعية الى تأفف الهيئة الاجتماعية  
فلعل جرائدنا تجد في هذا الموضوع ما يشغلها البحث فيه اشمراً وسنين فتفيد وتستفيد  
وخصوصاً نحن الشرقيين الذين نشعر بثقل وطأة الاجنبي ونحاول التخلص منه فهذا لا  
ينم لنا الا اذا وجهنا كل قوانا الى الاعتناء باطفالنا الذين هم رجال الغد حتى نستطيع ان  
نناظرهم من هم ارقى منا وحتى لا نبقي بهم كما قال الشاعر  
صبيانا في القبح مثل شيوخنا وشيوخنا في العقل كالصبيان

## المقالة السادسة والعشرون

### الاشتراكيون<sup>(١)</sup>

قرأت مقالة في الاشتراكيين وغاية ما فهمته من الانتقاد عليهم ان شكواهم من نظام  
الاجتماع فارغة ومطالبهم افرغ وهي على ما بها من الوهن غير واضحة حتى يتهدى بها  
وقائل ذلك لم يقل لنا رأيه في نظام الاجتماع نفسه كما هو اليوم وكما كان في الامس .  
والتبادر الى الذهن من سياق الحديث انه حسن في المهدى  
على ان نظام الاجتماع كما هو اليوم ليس الذي كان بالامس فهو اليوم اصلح نوعاً منه  
في الماضي ليس في كله بل في بعض المجتمعات التي عليها مسحة من التمدن ونسبها نحن  
متمدنة — والا فهناك حتى اليوم مجتمعات كثيرة يود الانسان لو لم يكن من اعضائها  
فلذا تغير هذا النظام ويتغير مع الاجيال من ارداء الى رديء ومن رديء الى  
حسن بالتدريج — وما هو الباعث على هذا التغير  
وما هو كذلك شأن مثل هؤلاء الناقين على هذا النظام في هذا التغير فوضوين  
كاثوا او اشتراكيين او مقلتين او مصلحين او فلاسفة الى دعاة الاديان انفسهم على  
اختلاف منازلهم وحسب كل عصر . ولعل المدقق يوافقي على ان شأنهم في ترقية  
الاجتماع عظيم

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨ وهي المشار اليها في مقالة المؤيد المار ذكرها

وليس شأنهم هذا بالنظر الى تعاليمهم ومبلغها من الصحة والمواقفة بل بالنظر الى موقفهم تجاه الاجتماع فان هذا وحده كاف لا يقاظه ومنعه من التفتقر وتمييد سبل الارتقاء له ولذلك كان اول خاطر يجب ان يخطر للباحث المدقق عند ذكر الناقين ليس الطرق التي يتدعون بها والخطط التي يسنونها لمقاومة نظام الاجتماع اذ قلما نجد حينئذ اثنين متفقين . ولا ما يخامر بعضهم من المطامع فالفنس اماره بالسوء وكل مصلح اذا استبد يحتاج الى مصلح يصلحه لذلك كان وجود الضد في نظام الاجتماع من أعظم مقومات الاصلاح وكلما اشتد الضد اشتد التنازع واشتد التغير ايضا سنة العوالم في نشوئها . بل الحاطر الذي يجب ان يخطر له هو لماذا هذا القلق المستحوز على الاجتماع والذي لا يفارقه في كل اطواره كما يدل عليه تدمير المتدمرين وثورات الثائرين في كل العصور فلا شك ان السبب هو نقص نظاماته عن توفير الراحة له . وارتقاء العمران في الاجيال يدلنا على انه يمكن اصلاح هذا النقص

قالى هذا يجب ان يقبه اولاً خاطر الباحث المفكر والمصلح المدبر عند ما يسمع ذكر مثل هؤلاء الناقين لا الى شجبهم وتقريعهم وتسفيه تعاليمهم مما يوم لاول وهلة ان الاجتماع كما هو على هدى وهم يدفعونه الى الضلال . واذا انتقدناهم فلتنبئهم الى ما قد يكون اصلاح لفائدة الاجتماع . ولا يجوز لنا ان نري مطالبهم بانها اضافات احلام قبل الثبوت . فكم من مثل هذه الاحلام المزعومة في الماضي صارت حقائق رائمة اليوم . ولا ان تؤول تعاليمهم على غير الحق اضعا فاما : فلقد طالما قال لنا خصوم مذهب دروين ان مذهبهم يعلمنا ان الانسان متسلسل عن القرد اي ان القرد نفسه سيرتقي حتى يصير يوماً ما انساناً نظيرنا والحال ان مذهب دروين لا يعلم ذلك بل يعلمنا ان القرد والانسان من اصل واحد وان القرد اقرب الحيوانات اليه

كذلك خصوم الفوضويين والاشتراكيين وسائر الناقين على الهيئة الاجتماعية يقولون لنا بعد ان يرسوهم من التقرير والوهم ان اكثر مطالبهم احلام لا يمكن تحقيقها ويجمعون في رأس هذه المطالب اقتسام المال — والمال احب الاشياء الى الانسان — يريدون بذلك ان ينفروا الناس تضليلاً لهم لئلا يهتدوا قسوء مصالحهم . لان مطلب

توزيع المال بالسواء لو وجد في تعاليمهم كما يريد خصومهم للد على سخافة ما بعدها  
 سخافة وكيف تمكن المحافظة على هذه المساواة لو أمكن هذا الانقسام  
 فتعاليم رجال الاصلاح تتناول غاية اعظم وتستند الى مبادئ ارسخ وكلها حقائق  
 ممكنة كما يدل على ذلك درس احوال العمران في اطواره المختلفة  
 فكيف نطبق بين ارتقائه في المصور واعتراضنا على الناقين وهو عليهم واحد في  
 كل المصور

فالمصلحون الاجتماعيون الطبيعيون يرمون في نظام الاجتماع الى غرض طبيعي ممكن  
 هو توفير قوى هذا الاجتماع حتى لا يذهب منها شيء سدى وحتى لا يبقى فيه احد غير  
 نافع ومتنفع معاً . فهم يطلبون من الانسان ان يفعل في نظام اجتماع الانسان ما يفعلونه  
 اليوم بقوى الطبيعة نفسها بتوفيرها والانتفاع بها وهذا ما نسميه « ناموس الاقتصاد  
 الاجتماعي الطبيعي » ولولا ان هناك انساناً نظريين ربما جاز ان يطلق على نظامهم « ناموس  
 الاقتصاد الاجتماعي القانوني » لما قلنا هنا « الطبيعي » لان الاجتماع في الحقيقة طبيعي هو  
 وكل نواميس مستفادة من الطبيعة فاذا رددناه اليها فاما نكون قد رددنا الشيء الى اصله  
 ووضعناه في محله

فهل في نظام الاجتماع اليوم ما تتوفر معه هذه الغاية ام هل في شرائعهم مع ما هي  
 عليه من سخافة المبدأ وقلة الاحكام ما يؤمننا ان يبلغها في عهد قريب . ولا نستنصر  
 الكثرة والشهرة فالتناسعها عظمت مكائهم على ضلال حتى يهتدوا . أفلا نرى ان  
 القيام في وجه هذه النظمات واجب لزعزعتها عن مألوفها ودفع الاجتماع في السبيل السوي  
 لبلوغ الغاية منه ؟ ام لا نرى الفائدة من وجود مثل هؤلاء الناقين على نظام الاجتماع  
 وقيامهم على اختلاف منازعهم لمصادرتها في نظامه وشرائعه تارة باللين واخرى بالعنف  
 هذا بالترغيب وذاك بالارهاب هذا بالجحيم وذاك بالنعيم هذا بمقاومة الجهل وذاك بنشر  
 العلم ؟ اولاً تروعننا مخاطرتهم بارواحهم وتعريضهم مصالحهم للعبث بها حتى لقد يبلغ  
 التحمس ببعضهم الى حد الهوس ولو ان كثيرين منهم من وراء ذلك احياناً كثيرة  
 مطامع قريية

فهل مثل هؤلاء يجوز لنا ان نسميهم كسالى لانهم لم يحركوا سوى قلمهم او كبار  
البطون لانهم يطلبون للاجتماع مرتعاً اخصب او صفار العقول لانهم يطلبون له مطالب  
تترأى للجمهور في حينها انها احلام ثم يرتقي الاجتماع فتبدو حقائق باهرة  
بل ما اقول في الفلاح الذي يحرق الارض ويكد حتى يضمن سواء وليس لخدمته  
من خدمة سواء له مكافئ بل ما اقول في ذلك الجندي الذي يسرح في النهار كالسائمة  
ثم يرد في المساء الى زريته نظيرها ولو عقل اكثر منها لما رضي ذلك لنفسه . ألا يظن  
ان الدود عن الاوطان حتى واكتساح البلدان يمكن بغير التجنيد على ما هو مألوف ؟  
ولا يخفى ان كلامنا في العمران عموماً ككلامنا على نواميس الكون لا على عالم من العوالم  
والا اختل التوازن

انا لا انكر ان الطرق التي يتندر بها الناقون احياناً كثيرة مشجوبة الا انه يظهر  
ان مثل هذا الهز لازم لاحداث التأثير المطلوب وهو ايقاظ الناقل وتنبية الفكر للبحث .  
بدليل ان نظام الاجتماع نفسه على ما هو عليه اليوم فيه من الفضائل ما هو مشجوب اكثر  
ولكننا ألفتاه فلا تمحرك له

وليعلم اني لم اقف عند الائمة لان مرماي الفرض ولم اصعب البحث في الجزئيات  
لان المقام لا يسمها اولاً ولا نها العرض واذا ضللتنا السبيل مرة فلا بأس من طرق سواء  
ولاني قبل كل شيء — وهذا المهم — اريد ان اقرر كلية كبرى حاصلة واخرى ممكنة  
اما الاولى فتقص نظام الاجتماع كما هو عن توفير مصلحته كما ينبغي ان تكون . واما الثانية  
فتكافل العمران بتوفير قواه . وكل مسمى في هذا السبيل من اين اتى فهو محمود ويلزنا  
ان ننظر فيه نظر الباحث المستفيد لا ان نقف في وجهه لصدده واذا وقفنا فلتحويله الى ما  
يتراءى لنا انه الاصلح





## المقالة السابعة والعشرون

### الاشتراكية <sup>(١)</sup>

قرأت في المقطع شذرات مختلفة في الاشتراكية بعضها مناقض للآخر بحسب نظر كتابها فيها

الناس ينتقدون الاشتراكية كما يفهمونها لا كما هي او كما يجب ان تكون شأنهم في اكثر المسائل الاجتماعية

الاشتراكية او كما سميتها الاجتماعية ايضاً قلما نظر أكتاب فيها حتى زعماءها انفسهم من الوجه الوحيد الذي يجب ان ينظر اليها ولهذا كثرت الاراء فيها وكثر الاختلاف بينهم وكثر انتقادها ايضاً . لان الجميع نظروا فيها الى المسائل الفرعية ولم ينظروا الى الاصول التي يجب ان تقام عليها الفروع

الاشتراكية كما يجب ان تكون ليست مذهباً فلسفياً اجتماعياً حتى يجوز لكل واحد ان ينظر اليها كما يشاء او كما يدله فهمه

الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول اليها ولو بعد تذبذب طويل

الاشتراكية كالاتحاد نفسه ذات نوااميس طبيعية تدعو اليها

ولكن الاجتماع نفسه هل يبحث فيه الباحثون اليوم جميعهم بحثاً طبيعياً . ما خلا كبار الطبيعيين الذين يعدون على الاصابع هل ينظر العمرانيون الى الاجتماع نظراً طبيعياً بحثاً ؟ الباحثون في الاشتراكية وفي الاجتماع نفسه اكثرهم من اصحاب النظر او من قصاره

في تاريخ الاجتماعي الطبيعي

متى اتصل الناس في مباحثهم الاجتماعية والفلسفية الى رد كل شيء الى هذا الاصل الطبيعي سهل قناعتهم وقل خلافهم واسرعوا الخطى في ارتقاتهم

مضى على الناس عصور تضع اصولها في اقصى ظلمات التاريخ قبل ان يستقروا في  
مباحثهم على هذا المبدأ الطبيعي  
هذا المبدأ الطبيعي هو بالحقيقة ابن امس لانه منذ امس فقط اصبح من العلوم  
الثابتة ولم يلزمه من الزمان حتى يهدم علوم الناس النظرية  
ومع ذلك فهو قد زعزعها بما لم يتسن لعصر قبله ان يفعله بالقوة التي زعزعها بها  
العلوم النظرية ليست نظرية بالحقيقة الا بالنسبة الى كونها اقيمت واتسعت على  
مباديء اختبارية قليلة ومغلوبة غالباً . والا فليس هناك فلسفة نظرية محضة حتى ولا  
الدينية نفسها

الفرق بين الفلسفة النظرية والحقيعية او العملية هي ان هذه بنيت على معرفة اتم  
بالطبيعة واختبار اعم في ارتباطها بعضها ببعض . والفلسفة النظرية جهلت ذلك او تجاهلتها  
وخصوصاً اهملت هذا الرابط

وسوف تلقيان في نقطة واحدة تردهما الى الطبيعة . فالمصلح الطبيعي ليس حالماً او  
واهماً او متنياً . واذا خافه علمه احياناً كثيرة فلا يني ذلك صدق ادراكه الذي يدل على  
ان في الامكان اصلح مما كان

الاشتراكية لا تضر الاجتماع لانها تطلب للاجتماع ما تطلبه نواميسه نفسها بل  
بالضد من ذلك تنفعه اذ تؤيد الفضيلة وتصد عن الرذيلة باتباعها سبل الاجتماع القويمة  
لان الفضيلة ليست الا انطباق اعمال الاجتماع على نواميس الاجتماع والرذيلة مخالفة هذه  
النواميس

الناموسان العظيمان اللذان يوسان الاجتماع هما تكافؤ القوى في العمران وهذا  
يوجب التنازع والثاني تكافل العمران بتوفير قواه وهذا يوجب استخدامها كلها لمنفعة  
فلا اشتراكية لا تطلب سوى ان تسير في الاجتماع على هذين الناموسين بحيث لا  
يضيع فيه شيء من قواه يمكن صرفه الى منفعة  
لا شك ان الاشتراكية اذا اريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل  
تكون حلماً بارداً

واذا كانت الاشتراك في هذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل فلا شك انها تكون جوراً ومميتة لكل اجتهاد

ولكن اذا كانت الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة على نسبة هذا العمل ألا تكون حينئذٍ عدلاً واكبر حاث على الاجتهاد ؟

ما قولك في رجل ينال اجراً معلوماً على عمله وآخر ينال فوق هذا الاجر كذا في المائة من الارباح على نسبة العمل واهميته فايهما يجد أكثر من الآخر وهل تقل ارباح رأس المال بذلك

ما قولك في رجل به كفاءة لان يأتي اعمالاً نافعة جمة ولكنه ينقصه شيء اداري كعمرة وجود العمل مثلاً وهذا ليس بالشيء النادر في الاجتماع . فمثل هذا الرجل المهم قد يموت جوعاً اذا ترك شأنه وهذا اقل الشرور منه لولا انه يخشى ان يتقلب عضواً شريراً في الاجتماع كثير الضرر كما هو الغالب

فلو كان في الاجتماع نظام يعرف كيف يستفيد من مثل هذا الرجل وينفعه معاً ألا يكون ذلك اصلح لحال الاجتماع

ما قولك في نظام اجتماعي يهتم بشؤون الافراد فينشيء ادارات تهتم بوجود اعمال لكل العمال كل حسب طاقته — وهذا ليس من الاحلام — ويقوم المستشفيات على نسبة السكان ويوفر وجود الماء للجميع على حد سوى ويقدم الصابون والكساء الاول البسيط لكل معوز ( لان الموسر لا يقبل ذلك ) تيسيراً للنظافة التي هي اول دعائم الصحة . فهل افراد الاجتماع الذين يتكفلون بذلك كل على حسب طاقته ينبغي من علمهم هذا . أفلا تربو ارباحهم عموماً على خسارتهم مادياً وصحياً وادبياً من توفير وسائل العمل للعمال . ألا يزيد هناؤهم في صحتهم وصفائهم في راحتهم ؟ ألا يقل التذمر في الاجتماع حينئذٍ ؟ أو لا يصبح الاجتهاد عنوان الفضل الصحيح ويكون ذلك اكبر حاث على العمل والجد ؟ وهذا ليس حلماً الا في رؤوس الذين تستقل طباعهم الخروج عن المألوف . وهذا النظام ولا ريب نظام الاجتماع المستقبل

وما قولك ايضاً في نظام الحكم عموماً كما هي اليوم فكأن واضعها ظن ان الانسان

ما خلق الا لكي يقضي عمره كله في دعوى تعرض له في حياته كأن ليس له شغل آخر وما هي النتيجة ؟ ان الدعوى الواحدة تؤجل من شهر الى آخر ومن سنة الى اخرى حتى ينتضي عمر صاحبها فيها وربما تركها ميراثاً وحيداً لا ولاده . وبئس الميراث تصرف فيه قوى الانسان الى جهة واحدة واية جهة !

ألا ترى ان الحاكم لو كانت موزعة في كل مدينة بل في كل بلد على نسبة سكانه بحيث ان دعاويهم تنقضي في اقصر الاوقات لم او عليهم اما كان ذلك ارجح حتى للخاسرين انفسهم ؟ او ليس هذا تبذيراً قبيحاً في هذه القوى ومنهما عن الانصراف الى شؤون اخرى انفع للاجتماع . ام ذلك من الاحلام التي يحلم بها حاملو الاجتماع ايضاً ؟ الاجتماع كما كان في القديم وكما لا يزال حتى اليوم ليس نظاماً طبعياً وكل موضوع ومشروع فيه مخالف لهذا النظام . ولكنه يحكم نواമيسه الطبيعية التي هي اقوى من كل ناموس وضعي سائر بالضرورة الى هذا النظام . وانما هو سائر اليه بعد اضطرابات وثورات وقلاقل قد تكون فيها مئات السنين كأمس الدابر بسبب نظاماته الموضوعة

ولكن هذا السير قد يسرع ايضاً بناء على ناموس تجمع القوى . وهنا يظهر فضل عقل الانسان . فكما ارتقى الانسان وزاد اختباره استخدم هذا الاختبار لتقصير هذه المدة ولا ريب ان القرن الماضي هو الذي امتاز باكتشاف سر الاجتماع وتقرير قضايا العلوم الطبيعية وهو الذي امتاز ايضاً بوضع الفلسفة العملية على قواعد علمية متينة وسيكون تأثير هذه الفلسفة عظيماً في اصلاح الاجتماع ومستقيه من التذبذب الكثير وتمنعه من التهمر وتدفعه في الارتقاء بسرعة تتمشى فيعمل على نسبة حساية لان القضايا القائمة عليها هذه الفلسفة اليوم ثابتة وفي حكم القضايا الرياضية نفسها والاضطرابات التي نشاهدها اليوم ليست الا لنفض الغبار القديم



## المقالة الثامنة والعشرون

### « الحزب الاشتراكي »<sup>(١)</sup>

« على المبادي الطيعية »

ايها الوطن الاغر ( المصري )

تمنيت عليّ — وما كنت حاملاً — ان اؤلف حزباً اشتراكياً يزج بنفسه في ما بين الاحزاب في هذه البلاد فصدعت بالامر ودعوت اليّ العقل والحجى والنهى والعلم والمعرفة والاختبار فانشأوا في الحال الحزب المذكور وقرروا بروگرامه وهذا اهم ما جاء فيه من الكليات :

### « القسم الاول »

« قهويضي تمهيدي »

اولاً ان تجمع كل الكتب السقيمة التي يضيع اولها في آخرها والتي يضيع الانسان عمره فيها وهو يقرأ ولا يفهم وتوضع على ظهور حملتها ويشحن الجميع في بالون يسير بهم الى القطب الشمالي لعلمهم يؤلفون هناك مملكة يكون بردها على نسبة واحدة بين ذلك الاقليم وتعاليمهم

ثانياً ان تلتقى مدرسة الحقوق وتمزق كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية

ثالثاً ان يوقف تنفيذ بروغرام الجامعة كما قرروه لثلاثين معاهد العلم النظرية واحداً قنزيد البلوى

رابعاً ان تلتقى المحاكم المختلطة لان شرها مركب من اسامها ومن نظامها فلا يطل

(١) نشرت في الوطن سنة ١٩٠٨ رداً على اقتراح فيه على الدكتور شبيل ان ينشئ حزباً اشتراكياً وكان المقترح ركب متن المزاج فاجابه الدكتور من ممده بكلام ظاهره الخول واطنه الجبد

علينا قضائنا من سماء اوليهم حتى يعودوا اليه مسرعين ولا يزالون هكذا بين لقاء ووداع وتأجيل في الدعاوي وتأخير الى ان تنقضي اعمار اصحابها . وهل تهمهم مصالح الجماهير اكثر مما كانت تهم حياة الناس ذلك الحاكم المصري الذي يحكي عنه انه قال ذات يوم العبارة الآتية « وهل نحن استلناهم بعدد » استدراكاً لخطأ ذهب فيه نفوس كثيرة ظلموا خامساً ان تلقى الحاكم كافة على صورتها الحاضرة ما دام مبدأها ذلك العلم الاقتصادي الذي يعلم ان تدمير قوى الاجتماع من دعائم ارتقائه سادساً ان تلقى شركة احتكار المياه وسائر الشركات الاحتكارية التي تمس المنافع العمومية

سابعاً ان تلقى الجرائد السياسية التخريفية وان يناقش اصحابها الحساب على كل كلمة تقرير وتضليل من مثل قولهم مسلم وقبطي ودخيل ونزيل حتى يبرزوا الحجة التي يدهم والموقعة بحتم محكمة السماء والتي تخولهم حق الاستئثار بملك الله دون سواهم من عباده وان يجلد اصحابها جلدة على كل كلمة سخافة وقلة عقل . وقرروا ان الجلد يكون بخيوط ناعمة جداً ومن يد طفل واعتبروا ان هذا العقاب كافٍ وربما لا يقوون عليه لكثرة التكرار

### ❖ القسم الثاني ❖

#### « انشائي بنائي »

اولاً ان ينشأ معهد علمي كبير يعلم فيه علم نشوء الارض والاجرام السماوية وعلم الاحداث الجوية والاقاليم واختلافها وتأثيرها في الانسان وفي العمران . الخ ثانياً ان يقام على انقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الافلاك

ثالثاً ان تنشأ الجامعة لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي وتطبيق ذلك على الانسان والطب وسائر العلوم الحيوية والانثروبولوجية رابعاً ان تنشأ هيئات قضائية على غاية البساطة في كل مدينة وفي كل بلدة على نسبة سكانها بحيث لا يتأخر الفصل في الدعاوي مهما كانت مهمة (وحيث لا تبلغ هذه الاهمية)

الأياماً معلومة حرصاً على مصلحة المتداعين وعلى مصلحة الاجتماع نفسه . لئلا يتو فيهم حب التداعي الى صرف قوام كلها في هذه الجهة فيخسر الاجتماع بهم بقدر ما تزيد فيهم هذه الملئكة

خامساً ان يتولى الاجتماع نفسه توزيع المنافع العمومية الضرورية من مثل الماء مثلاً  
سابعاً على عموم الناس

سادساً ان تنشأ كتائب في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية على نسبة السكان يعلم فيها الاطفال مبادئ العلوم الطبيعية البسيطة يفهمون منها طبائع الماء والهواء والجماد والنبات والحيوان ويوضع لهم شبه تعليم طبيعي يعلمون منه حقيقة الانسان ومركزه في الارض

سابعاً ان تنشأ جرائد تعلم الناس كيف يجب عليهم ان يكونوا نظاماً في اجسامهم في ملابسهم في ماكلهم . في مساكنهم وخصوصاً في عقولهم . وتعلمهم ان كل نظام حولهم في الارض والسماء . في الجماد والنبات والحيوان خاضع لنواميس طبيعية لا تزعزع وان سيرهم على هذه النواميس يقيهم عثرات كثيرة في معاشهم صحياً ومادياً وادبياً . وان ادابهم يجب ان تكون مستفادة من آداب الطبيعة نفسها . يعلمون كل ذلك لكي يعلموا ان كل عضو في الاجتماع له حقوق وعليه واجبات وان الاشتراك في المنفعة يقسم له على قدر اشتراكه في العمل وان المكافأة انما هي للاجتهاد لا للصنعة وحينئذ يظهر الفضل الصحيح وينتفي الفضل الكاذب

هذا أهم ما جاء في هذا البروغرام وسأوافيكم بما يجد من هذا القليل  
أرايت الآن يا صاحبي كيف ان المجون يصير جذاً وكيف ان الاحلام تصير  
حقائق وكيف ان التي يسمونها اليوم يقظة هي الحلم بعينه ولكنك يا للاسف حلم وسخ



## المقالة التاسعة والعشرون

﴿ وكما تكونون يولى عليكم <sup>(١)</sup> ﴾

« تركيا الفتاة وتركيا المعجوز »

من دق النظر في تاريخ الاجتماع البشري رأى ان نصيب الامم من تقدم ووقوف وارتقاء وانحطاط وانتشار وانقراض يتوقف على عوامل طبيعية يضمها ناموس عام يسمى « تنازع البقاء » يؤدي ضرورة الى ناموس آخر يسمى « الانتخاب الطبيعي » فما من امة قامت او انقرضت ارتقت او انحطت الا كانت عوامل هذين الناموسين هي القاضية في ذلك . فان كانت الارض على سعتها قد ضاقت بالانسان الاول وهو اثنان على قول البعض حتى قام الواحد على الآخر وقتله او كلن طوائف متفرقة على سطحها قامت على بعضها حتى ذل البعض وفاز البعض الآخر على قول الآخرين فما ذلك الا لان الانسان كسائر الاحياء لا يستطيع ان يفر من حكم هذين الناموسين فالتنازع سنة هذا الكون والانتخاب نتيجة هذا التنازع . هذا شأن الانسان في العمران منذ اول عهده وما زال هذا شأنه حتى اليوم ولن يزال كذلك حتى المتعدي

والحكومات مظهر من مظاهر الامة وهي تختلف باختلاف الامم فكما ارتقت امة في العماره ارتقت حكومتها كذلك . وهو معنى قوله « وكما تكونون يولى عليكم » فلا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة التي نشأت فيها بل لا تلام الحكومة اذا داست باخصها رقاب الرعية وهل تداس رقاب تأبى ان تداس وإن من ينتظر الإصلاح عفوياً من اية حكومة كانت يجهل لاشك تاريخ نشوء الامم في العمران . وها التاريخ امامنا يعلمنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يدعن للإصلاح اذ لم تقم العقبات في سبيله . وهل بلغت ام اوربا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتها لا اعمرى انما بلغت ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطاطة وتقويم الظهور



المقوسة والمشى على الاقدام لا الزحف على الركب وربط حكوماتها كما تربط القرناء واتلاها  
كما تمل السائمة وجرها وراءها قوةً واقتداراً . والامم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر  
اسباب القوة فيها عفاها الدهر واستغرقها التنازع ولم يبق لها الا اثاراً او لم يبق لها اثر  
وتركها خيراً مسطوراً



واسباب القوة في العمران كثيرة وترد الى اربعة تعد دعائم اثنان طبيعيان وهما  
العدد والجنس واثنان اديان وهما الدين والعلم ولا ريب ان كل امة كثر عديدها ولم  
يشب جنسها اختلاط وتوحد دينها وبلغ العلم فيها اقصى مبلغه في عصره بلغت من القوة  
مبلغاً حقق لها الفوز في ميدان التنازع والصد بالصد . فوحدة الجنس ووحدة الدين لازمتان  
لاتحاد الكلمة والأكثر الانشقاق وهو من دواعي الضعف والعلم ضروري جداً لاتقان  
الصناعة والزراعة وسائر الفنون التي تكثر معها الثروة والثروة عصب الاجتماع كما يقول  
الافرنج . وزد على ذلك ان العلم باقائه الصناعة يتفنن باختراع الآلات التي تكسب المنفعة  
في الدفاع وتحقيق الفوز في المواجهة وهو اعظم العوامل لتقليل الانشقاقات الناشئة عن  
الاديان فاذا علم ذلك لم يصعب علينا الحكم على مركز كل امة في الحال وما هو مقضي لها  
او عليها في المستقبل



فالامة العثمانية — وكلامنا فيها — اذا نظرنا اليها من هذا القليل وجدنا جميع  
الاسباب السلبية متوفرة فيها مما يجعل مركزها في الحاضر حرجاً ومستقبلها مشكوكاً فيه  
ولا نقول ان صعوبة مركزها من عددها فان عددها وان لم يكن كثيراً جداً الا انه ليس  
بالقليل فلا يصح ان يكون سبب الضعف ولكنها مؤلفة من اجناس مختلفة فمنها التركي  
والعربي والارمني والكردي والبلغاري واليوناني الخ . واديان مختلفة فمنها المسلم والمسيحي  
واليهودي والدرزي والمتوالي ويحت كل منها قبائل وطوائف مما يجعل اتحاد الكلمة بينها  
في حكم المستحيل ولا سيما اذا اعتبرنا حالة العلم فيها فانه يكاد يكون شيئاً لا يذكر والقسم  
الاعظم من الامة في جهل عميق ولو كان العلم منتشراً فيها انتشاراً كلياً لقلت جداً

الانشقاقات الناشئة عن اختلاف الاديان والشعوب وكبر الامل باتحاد كلمتها وتوسمنا خيراً في مستقبلها وتزيد قيمة ذلك كله اعتباراً في نظر الباحث اذا قسناها بالامم المجاورة التي هي معها بحكم ناموس الاجتماع في تنازع دائم فلي فرق بين معدات الامة العثمانية من هذا القبيل ومعدات باقي الامم وهي حقائق محزنة لا يسع المؤرخ الصادق الا الاعتراف بها واذا كان هذا حال الامة العثمانية فهل تستطيع المقاومة زماناً طويلاً والتنازع بينها وبين الامم الاخرى في حد حدته ومعظم شدته وهي بعيدة عن التكافؤ والتفاضل انما هو عليها لا لها واذا كانت لا تستطيع المقاومة فما هو مصيرها يا ترى وهل يرجى نهوضها وبأي الطرق يكون ذلك



يعلم الباحثون في طبائع العمران ان كل امة معها كل امرها مرتقية كانت ام منحلة لا بد ان تتنازعها قوتان عزيزتان فيها احدهما تركز الى المحافظة على الحالة الراهنة والاخرى تميل الى الطفرة عنها واصطلح السياسيون على ان يطلقوا على الاولى اسم حزب المحافظين وعلى الثانية اسم حزب الاحرار ويؤلف الحزب الاول من الهيئة الحاكمة ومن تابعها من الشعب والثاني ينشأ في الهيئة المحكومة ويكون في اول الامر مؤلفاً من افراد قليلين وهذان الحزبان يختلفان قوة بحسب حال الامة من العلم فهما متكفئان غالباً في الامم المتهدبة ومتفاضلان في الامم التي يكون العلم فيها غير موزع على السواء ويكون الفوز كله للمحافظين اي للحكومة في الامم المستغرقة في الجهل حتى قد لا يشعر بوجود حزب آخر سواء . ولقد مضت القرون الطوال ولا يسمع في الامة العثمانية صوت غير صوت الحكومة وربما لم يسمع سواء زماناً طويلاً ايضاً لقلة انتشار العلم في الامة لولا ان اسباب التمرد الاوربي انتشرت انتشاراً عظيماً في هذا العصر بحيث لم يعد في الامكان اقامة الحواجز ضدها ومنع تأثيرها ان لم يكن في العموم ففي الافراد وما يسمى اليوم حزب تركيا الفتاة دليل على ان هذا الحزب الذي بقي صوته خافتاً لقلة عدده وضعف عدده قد دبّت فيه روح الحياة حتى صار له صوت يسمع وطبل يقرع . وكنت اود ان اتحاشى الكلام في هذا الحزب لولا ان كثر فيه اللفظ وركب فيه كل كاتب مركباً يسير به على هواه

حتى كثر فيه الضالون وقل المهتدون وظن البعض انه ألحوبة كأبواق الصابون تملأها الانفاس فاذا انفجرت لم يكن من وراءها نار حتى ولا هواء يزيد النار اشتعالاً اذا اصابت ناراً اطلأتها او حياةً أمتتها ويحق له ان يظن هذا الظن اذا اخذ الاشياء بظواهرها وقاس الحقيقة على المجاز وخلط بينه وبين بعض الذين يكثرون من الجلبة والصياح فاذا برق الذهب ولاح وهطل غيث الدينار الوضاح تراكضوا الى المراح والسابق السابق منهم الجواد فهؤلاء ليسوا حزب تركيا الفتاة وانما هم حزب المازقين المنافيين الذين اتخذوا اسم هذا الحرب وسيلة لشفاء حزازات في الصدور وقضاء لبانات في النفوس وهم بعملهم هذا قد جاروا على دعوة هذا الحزب بجهلهم المتجاوزة الحد في الخصام واحجامهم على اسر سبيل عند نيل المرام . ولكنه اذا تدبر الامور تدبر العاقل الخبير علم ان هذا الحزب موجود حقيقة فهو مؤلف من كل عاقل هذب العلم وعلم الاختيار ودرس الامم درس المقابلة وعلم أسباب القوة في العمران فأراها متوفرة في الامم الناجحة فحدها وغير متوفرة في امم فاسف عليها والمقلاء في الامة كثيرون فالحكومة تخطي اذا كانت تظن ان هذا الحزب قاصر على بعض الافراد الذين ركبوا متن الحدة في المقاومة وجانب منهم غير مخلص في الدعوة كما تبين لنا وتخطي اكثر اذا كانت تظن انها باسترضاء هذا البعض الساخط تتمكن من ملاشاة هذا الحزب فالحزب نشوء في الاجتماع ليس عارضاً حتى يسهل استنصاله بل هو نشوء طبيعي جار على مقتضى نوااميس طبيعية ولن ترى لنوااميس الطبيعة تحويلاً . وان كانت تظن ان استرضاء هذا البعض يضعف حجة هذا الحزب عند الآخرين من الامة الذين لا افكار لهم الا ما يفكره لم الغير حتى لو قام غيرهم وحذا حذوهم لم يصدق الناس فربما كان ظلمها مصيباً بعض الاصابة وانما ربحها من هذا الجانب لا يوازي خسارتها من الجانب الآخر اذ ينتفض عليها المتزلفون لها عن غير اقتناع وهم الاكثر لانهم يرون ان سخط غيرهم كان ادعى لاستدراار النعمة من ترلفهم فيقبلون ساخطين ومهما يكن من ذلك كله فما هو الا امور عارضة لا تؤثر شيئاً في حقيقة الدعوة نفسها

\*\*\*

ولكن هل يفوز حزب تركيا الفتاة . فهذا هو الامر الجوهرى الذي يهم كل عثمانى  
(٢٥)

ان يعلمه . وللجواب على ذلك لا بد لنا من القاء النظر الى الامة عموماً وما تدخره من المعدات وما يكتنفها من الموانع . فاذا نظرنا الى الدعوة من حيث كونها صفة من صفات الاجتماع نقول ان الفوز محقق له لان الذي يدركه البعض لا بد ان ينتشر على تمادي الزمان ويم الامة كلها لا تنشر العلم الذي لا بد منه واذا انتشر العلم وكثر عدد المهذيين من الامة حتى اصبح العدد الاعم سقطت الحواجز التي تفصل بين عناصر الامة المختلفة وخصوصاً الترفض الديني فاجتمعت كلها وقويت حجتها ولكن الذي يروع عقلاء هذا الحزب طول الزمان اللازم لوصول الامة الى هذه الغاية وهو يخشى قبل ذلك ان يتحقق فيها قول المثل « قبل ان يصل الدواء من العراق يكون العليل قد فارق » وهذا هو السبب الذي يحمل القسم الاعظم من عقلاء الامة على ان يأسوا من نهوض الامة الى اصلاح حالها مع حفظ استقلالها لشدة التنازع الذي لا تنفك عوامله تعمل فيها من خارج وهي لا قبل لها على المقاومة فالامة العثمانية في نظرم مقضي عليها بحكم النواميس الاجتماعية التي هي في صرامتها كالنواميس الطبيعية بالتشتت والانفصال ققد ادركتها الشيوخة والمريض قد اشرف على الموت فلا يقبها دهاء تركيا المعجوز ولا تحبظ تركيا الفتاة دهاء وتخبظ لا يفيدان الا تعجيل الانحلال بزيادة الاختلال

## المقالة الثلاثون

### ﴿ أنحطاط الشرق (١) ﴾

#### « الادبي والعقلي »

الشرق لفظة تم بلاداً واسعة واقطاراً شاسعة مختلفة الاطوال والعروض والحر والبرد والخصب والجذب تضم فيها امماً وشعوباً وقبائل متبايني الاصل والفصل مختلفين في الشكل وفي قابليات العقل تجمعهم اليوم جامعة واحدة هي تراخي النظام وفساد الاحكام

وإنحطاط المدارك العقلية وفساد المبادئ الادبية لا علم بقيهم ولا عمل يحبيهم فهم بحكم تنازع البقاء معرضون للذل والشقاء يعملون لاسيادهم اهل الغرب واسيادهم بهم يعيشون فيقتادون اليهم صاغرين الى يوم يمحتون لان ناموس التنازع في الطبيعة صارم لا يرحم فالضعيف مقضي عليه امام القوي بالحاق او الضياع بالاستغراق . فجدير بكتاب الشرق ان يرثوه فهو ميت في صورة حي واذا ابنوه فلا ينصفوه لثلاث يشددوا عليه الملام والضرب في الميت حرام بل فليشفقوا عليه وان كلن الاشفاق لا يرضاه اهل الاستحقاق لان فيه من اعتقاد المسكنة بالشفق عليه ما تأباه النفوس الكيرة . فقاومة عدولي يتعرف بفضلني احب الي من اشفاق يأتيني من اهلي

فيا وطني ما خانني فيك خائن من الحب او اني رضيت به ندأ  
اريدك في عز ولكنني ارى على غير ما ارضى ارى العز قد ندأ  
فان جرت في حكمي فما انا جائر فما انا الباحث لم يجد بدا

جرى علماء الاخلاق اليوم مجرى اكثر الطبيعيين القائلين بالنشوء فعدوا الانسان الادبي والعقلي كالانسان الطبيعي ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضاً فاعتبروه قابلاً للارتقاء والانحطاط في آدابه وفي قواه العقلية بحسب العوامل المختلفة التي تؤثر فيه من طبيعية وادبية . والفطرة ليست بالحصر الا استعداداً مكتسباً في الاصل من طبيعة المكان والشرقي كما نريد به هنا يدخل تحت الصيني والهندي والافريقي والعربي والتركي والعجمي ايضاً وان اختلفت مراكز البلاد التي يقطتها بعض اللاحقين بهذه الاجناس مما يجعلهم في مركزهم الجغرافي واشتقاقهم الانثروبولوجي اقرب الى اهل الغرب منهم الى اهل الشرق الا انهم يجمعهم اليوم جامعة الوقوف والتقهقر في تاريخ العمران . ويطول بنا الشرح جداً لو اردنا استيفاء وصف كل من هذه الاجناس بحسب طبيعة بلادهم وشرائهم وتعاليمهم لانه وان كلن الجامع اليوم بين هذه الاجناس واحداً وهو التقهقر الادبي والعقلي الا انهم يختلفون فيما بينهم كثيراً في ذلك ويختلفون كذلك في الاصل وقابليات العقل بحسب طبيعة البلاد ويختلفون ايضاً في مركزهم الاجتماعي بحسب شرائعهم وتعاليمهم ولا شك ان طبيعة البلاد اثرها في الانسان شديد كما ذهب الى ذلك ابقراط في

كتاب الاهوية والمياه والبلدان حيث قال في الفرق بين اهل اسيا وأوروبا ما خلاصته :  
 « ان اهل اسيا تغلب عليهم السكينة ورقة الطباع لما هم فيه من رغد العيش بسبب  
 خصب بلادهم واعتدال فصولهم ولذلك لم يكن لهم شجاعة الرجال ولا الصبر على المشقة  
 ولا الثبات في الاعمال ولا علو الهمة وطنياً كان اصلهم ام غريباً ويغلب فيهم حب اللذات  
 على كل شيء بخلاف اهل اوربا الذين هم معهم على طرفي تقيض من هذا القبيل لصعوبة  
 اقليمهم وقلة خصب بلادهم »

ولكن الاقتصار على هذا الامر لا يكفي في مثل بحثنا فان الانسان وان يكن ابن  
 المكان فهو ابن التربة والتعليم ايضا وقد فطن الى شيء من ذلك ابقراط نفسه حيث  
 قابل بين حكومات اوربا وحكومات اسيا فقال ان اهل اوربا اشد نمجدة للحروب من  
 اهل اسيا بسبب طبيعة بلادهم بسبب نوع احكامهم ايضا فان اهل اوربا تحكمهم شرائعهم  
 وأما اهل اسيا فتحكمهم ملوك وشتان بين النجدة التي يقوم بها من يدافع عن نفسه والنجدة  
 التي يظهرها من يدافع عن غيره

ولا ريب ان اثر العوامل الادية في الانسان شديد جداً وربما كان اشد من أثر  
 العوامل الطبيعية حتى ذهب الباحثون في طبائع الحيوان الى ان الانسان لم يتغير في بدنه  
 كثيراً من يوم اتخذ الكساء واصطنع السلاح وبنى البيوت يريدون ان يثبتوا بذلك ان  
 الانسان قادر على مقاومة الطبيعة بالصناعة . واهم هذه العوامل العلم قال لثري معقبا على  
 ابقراط ما نصه ان ابقراط يقول ان طبيعة الاقليم والشرائع هي التي تجعل اهل اوربا  
 اشد نمجدة للحروب من اهل اسيا ومعلوم اننا رأينا على تراخي الايام ان الفرس الذين  
 غلبهم اليونان لم يقدر عليهم الرومان بعد ذلك وان اليونان ضعفوا جداً في عهد سقوط  
 سلطتهم وذبول شوكتهم وان العرب اتاهم يوم كان لهم فيه نصر في الحروب مابين وشرف  
 ينطح السماك بروقيه وعز يقاتل الجبال . فمثل هذه الامثلة تكفي لان تبين ان النجدة  
 للحروب لا تنحصر باقليم دون آخر وكذلك يقال عن الاحكام فان النجدة لا تتوقف  
 عليها كما انها لا تتوقف على الاقليم بل على النظام وعلم الحرب فان فرأ قليلين منظمين من  
 الاسوجين ظهروا على الروس الكثيرين الغير المنظمين في موقعة بلتاوا والانكليز قد

جندوا من الهنود جنوداً شديدة البأس في سنين قليلة وقد كان للمصريين على عهد محمد علي جنود باسلة فالأقليم والحكومات أثرها في نجدة الحرب قليل والنظام والعلم هما اللذان يفعلان كل شيء وهذا القول معاً فيه من الانحياز الى جانب دون آخر كما أبنا ذلك في محله صحيح باعتبار ان العلم من اقوى الوسائط المؤثرة في الانسان والمفيدة له ولنا مثال حديث في اليابان اليوم وما أظهرته من النهضة الاجتماعية والحرية في سنين قليلة حتى ظهرت على الصين التي تزيدها نحو عشرين ضعفاً في عدد السكان بفضل العلم فطبيعة بلاد الشرق بما توجب من الراحة للبدن تفسح للعقل مجال الخيال ولذلك كان الانبياء كلهم من المشرق وطبيعة بلاد المغرب بما توجب من المشقة على البدن تربي فيه النهضة والاقدام ولذلك كان أكثر الفاتحين من المغرب الا من قام من الشرق لدعوة دينية تدخل في حكم المؤثرات الادبية ولذلك ايضاً كان اهل الشرق كما قال الشهرستاني ميايّن للبحث عن ماهيات الاشياء وحقائقها واهل الغرب ميايّن للبحث عن طبائع الاشياء وكيفياتها اي ان هؤلاء اهل عمل وأولئك أهل نظر قد يجر الى الكسل وربما كان هذا من الاسباب الطبيعية التي لاجلها لا يستطيع الشرق ان يناظر الغرب اذا تساوت عندهما المعدات الادبية

فالشرق اذاً لا يستطيع ان يناظر الغرب الا اذا فاقت في المعدات الادبية على ان الشرق اليوم — ونحصر كلامنا في الاقوام الذين تجمعنا وياهم جامعة الوطن والسياسة — متمهقر جداً عن الغرب في هذه المعدات لقلة العلم فيه وثقل وطأة الوهم عليه ولا يخفى ما لذلك من الاثر السيء على العقل والآداب ولذلك كانت قوى العقل في الشرق اليوم ضعيفة والاداب متراخية ونعني بالاداب هنا لا كما يفهمها البعض تلك الاداب الذاتية الرخوة التي لا تتجاوز النفس ولا ينظر فيها الى الكل كالصوم والصلاة مع تربية الضغائن والاحقاد ضد من لا يصلي صلاتك ولا يصوم صومك فينسبك ذلك الجامعة الوطنية والسياسية في جنب الجامعة المالية في بلاد أكثر فيها تفرق المذاهب والاديان او تلك الاداب السطحية المتسقة التي من سفاسف اداب المغرب كالمشاشة والبشاشة والمفاخرة باللباس والطعام وايلام الولائم والتأنت في الحركات وسائر انواع المجاملة التي لا تتجاوز حد اللفظ مع التبطن

والرياء المتصلة بنا . اما بالورثة . واما بالتقليد مع التواء المقصد منها علينا لتمسكنا بالظواهر والاعراض واغفاننا الجواهر والاعراض بل نريد بها تلك الاداب الرفيعة الاجتماعية التي تدل على ارتفاع المدارك والتي ينطبق عليها قول المثل «عدو عاقل خير من صديق جاهل» كالخزم والعزم والشهامة وكرم الاخلاق الحقيقي والصدق والاخلاص ومحبة النفس من وراء محبة الغير ومحبة الوطن فوق كل شيء مما يبعث الى التعاون والتعاقد للقيام بالاعمال الجليلة العمومية التي يقوى بها الفرد لانه ينظر فيها الى قوة الكل ومعرفة اقدار ذوي الفضل منا للانتفاع بما خصوا به من المواهب لتنشيط هذه المزايا في الجمهور لا قتلها فيهم لقتلها فيه حسداً ولوئماً والاعضاء عن الهفوات في جنب الحسنات لا تحقير هذه وتعميم تلك تشفياً من الاجتهاد وانتقاماً من الذكاء فان الفرق بين الغرب والشرق في ذلك كالفرق بين اعمال الرجال واعمال الاطفال . ذكروا ان لامارتين الشاعر الفرنسي الشهير بلغت ديونه نحو ثلاثة ملايين فرنك فقامت الامة ووقتها عنه بجميع المال بالاكتاب ولم يمنعه ذلك من تجديددها ولا منع هذه الامة من تجديد الاكتاب لوفاتها . فكيف لا يقوم بين امة هذا اعتناؤها برجالها رجال كلامرتين واعظم من لامرتين بطبقات ووطر سكوت خسر اموالاً طائلة في التجارة وانكسر عليه نحو خمسين الف جنيه فعمد الى التأليف ووفاهها من كتاباته لانه كتب لقوم يقرأون ويدفعون ثمن ما يقرأونه بل لاعتبر بمثل بطل السودان وما صادفه من العناية البالغة الغاية القصوى من امته وحكومته مما لا يزال صدها يرن في الاذان ولتقابله بمعاملة حكومات الشرق وامه لا بطله اذا ظهر فيه ابطال فافل عقاب لم على اجتهادهم وامتيازهم الاقصاء الى الاقطار الشاسعة او الوضع تحت القفل والمفتاح حيث يطمس ذكرهم ويتناسى فخرهم . فكيف لا يقوم من اولئك رجال يذلون قوام ودمهم لخدمة وطنهم وامتهم وكيف لا تنمو فيهم مواهب الذكاء والاقدام على جليل الاعمال وكيف لا ينزوي هؤلاء في بيوتهم متقاعدين عن خدمة وطنهم بل كيف لا تموت فيهم هم الرجال

والغريب ان انحطاط الاداب في شرقنا بلغ مبلغاً لا يمهده له نظير في سوانا قري الصعلوك منا يظهر بمظهر الامارة على امير قوم والامير منا يتناهي في الحقارة والدناءة



لدى صعلوك اجني فالواحد منا جبار على ابن جنسه ولو فاضلاً وذليل لدى الغريب ولو انه أذل من ييضة البلد . فتبي بلغت الامة هذا المبلغ من الدناءة فاي خير ترجو منها . واي نهضة علمية او اديية او اجتماعية ترجو من مثل هؤلاء الاقوام الذين لا نجتمع جامعة ولا تقوم لهم قائمة الا بسيف كسيف محمد او بونابرت يعمل في رقابهم ويسوقهم سوق الانعام

ولا شك ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد فقد تقدم ان الفرق من عهد ابراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكها شرائعها وهذه تحكها ملوك وان تعدلت الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلها الا صورة لا معنى فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم فامانت حكوماتهم من الامة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت به على كواهلهم من الازلال وسائر ما يجر اليه الاستبداد وقوت فيهم كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما اخذت من قوى العقل باطفاؤها نور العلم واثرت ذلك فيهم لتتقدم عهده شديد وزواله منهم بعيد فلا عجب بعد ذلك اذا رأينا الغرب باسطاً فوق الشرق يديه طامحاً ببصره اليه مزماً ان يقبض عليه سنة الطبيعة في التنازع ولن ترى لسنة الطبيعة تبديلاً

## المقالة الحادية والثلاثون

### ﴿ سيادة الامم ومستقبل الملوك ﴾<sup>(١)</sup>

رأيت ان اتشبه بالانبياء وانا اجمل صناعتهم لكي اقول قولاً يكثر مجازته ليتسع تخريجه فلا تكذبه الوقائع وترضى به العقول الحريصة على المأثور ولو انها تأتج في تأويله كالمفضل فانبات منذ ربع قرن ان اوربا لا ينقضي عليها القرن التاسع عشر حتى لا يبقى فيها ملك يلبس البرفير والارجوان ويحمل الصولجان ويسوق بها حمر الانسان .

وها نحن الآن في المقد الاول من القرن العشرين والملوك كلاله على عروش مجدهم والناس كالسائمة في حقول جهلهم . فكنت بنبوتي الكاذبة نبياً كاذباً حلت له احلامه فاعتبرها حقائق . واثبت بذلك على نفسي جهلي بطباع الناس كما اني اثبت عليها خلوها من الذكاء الشرقي فلم اراع اثر الدهور في مقوسي الظهور ولا وطأة المداس في مطأطني الرأس كما اني لم اراع في مقابل الدهاء نعومة ملمس الرقطاء لاستطلاع مناجع الكلاء . على اني لا اكون عادلاً اذا جرت كل هذا الجور في الحكم على نفسي . لان نبوتي ان لم تصح كلها صورة فقد صح جلها معنى وما خطائي الا في ضربي الاجل وتعييني الزمان ولو قلت بعد زمان لا يطول لامنت الانتقاد ولحاكت بالخصافة ارباب السياسة ولكن الناس طبائع فهذا يستمسك بالاعراض وذلك لا ينظر الا الى الجواهر وانا ممن لا يقفون عند الصور بل ينظرون الى المعاني لا كما ينظر بعض كتابنا من قادة الامة فيستحصلون من التبر تريباً ثم ينبشون القبور ويسبقون من السم شراباً يخذرون به اعصاب الامة لتلا تشط من العمى قبصرهم في صور اجدادهم قبل العصر الحجري قروداً تهقه وعجائز يطمئن . بل انا انظر من خلال ذلك الى الزبد ولو انها كما في الخرنوب درهم دبس في قطار خشب . فكأنني حر كحرارنا ولكني غير دستوري فلا اقيد الحرية بالقانون ولو سن القانون لها لتلا اكون به حراً في استبداد او مستبداً في حرية . وما اغرب هذا القول في هذا العصر الدستوري خصوصاً بعد هذا الانقلاب الاخير الذي كنت اول المثمنين له ولكن آخر الخالمين به حتى قلت فيه لشدة ياسي منه — في مقال عنوانه وكما تكونون يوئى عليكم — « لا يأتي الدواء من العراق حتى يكون العليل قد فارق » وهذه نبوة ثانية لي كاذبة — على الاقل الآن — فكأنني الماطوس في معطس الدهر فكلما قلت قولاً كذبتني الحوادث حتى صرت اتمنى ان تفتح لي ابواب الجحيم لا كون على يقين من الفوز بنجات النعيم

وهذا هو السبب الذي لاجله لم اقبل ان انتظم في جمعية مشروعة انتظاماً قانونياً ولو انضمت الى مبدأها وكنت في طليعة الدائدين عنه لاني اريد ان تبقى لي حرية القول والعمل للبلوغ اليه غير مقيد فيه بنظام او زمان ولقد غرَّبني بعضهم من كتاباتي في اول

نشأتني وظن ان الذي يكتب ما اكتب لا يمكن الا ان يكون عضواً في تلك الجمعية الكبيرة السرية التي عفا جوهرها تقادم العهد ولم يبق منها اليوم الا تلك السخافات التقليدية والتهويلات الارهاية والتي فاقت في الاحتفاظ بها كل تقليد فكتب اليّ يطلب مني ان ادخله في الفرع منها الذي اتا منه وما كان اشد حيرتي حينئذ للجواب بما يدحض الظن ولا يؤلم العواطف لان تحويل الظن نفسه جرح وان كانت الكهولة لا تتألم منه الا انه في الناشئة أليم فكتبت له واقتصرت على هذا القول كأنه جملة انشائية « اما انا فلا اختص بجمعية دون أخرى وانما انا عضو في جمعية كبرى من ضمنها جمعيات » فلم يعطيني ان كتب اليّ ان ادخلي في هذه الجمعية فكان استغرابي حينئذ اشد من حيرتي وفضلت هجر الصمت على ألم التوقيم بالرد والرجل لا اعرفه ولا أعرف اسمه اليوم فليطمن من ذكر الحادثة

وما ذكرتها الاّ بياناً لسطوة المنظمات الموضوععة على العقول ولو المنشورة حتى انه ليزول جوهرها ولا يبقى الاّ عرضها ولا يزول سلطانها فكم من نظام وضع لمبدأ حسن ثم كان النظام نفسه مزيلاً لحسبانه مطلقاً لنوره وبقي نظامه راسخاً لا يتقلقل حتى تهب عليه عواصف الثورات فتقارعه عنوة كلما تقتلع الاعاصير يواسق الاشجار من جذورها ولكن بعد اضاءة الزمن الطويل اي الى ان تبلغ الافعال المتجمعة ضده مبلغها الهائل من الانتشار والشدة ولولا ذلك لساار الاجتماع في ارتقائه على وتيرة واحدة مع الطبيعة في نظامها الطبيعي الذي هو بالحصار لا نظام الا قدر المنفعة . وسرعان ما اسمع المترضين من احرار ومتهمقرين مقيدين وغير مقيدين دستورين وغير دستورين الا الذين استهواهم نظام الطبيعة المطبوع ولم يفتنوا بنظام الاجتماع الموضوع يصخبون ويقولون متموذين كأنك تدعو الاجتماع الى ان يكون الناس فيه فوضى لا سرة لهم وما هي الا الفاظ وضعوها هم وآباؤهم ما انزل الله بها من سلطان والا فالانظام الذي ندعو اليه ليس بدعة او ليس هو رائد ابداع قوى الطبيعة كما هو شأن الحياة او ليست مركباته ابداع مركباتها كما هو شأن الاحياء فكما ان الطبيعة ترقى اليه فالاجتماع لا بد من ان يقول كلمة اليه وما قوفنا في سبيله بمحض ارادتنا وبظاماتنا الاجنافية فوق جنائياتنا الاخرى عليه

وعدم احتفالي بالاغراض هو سبب عدم احتفائي بالنظامات الموضوعية غير ناظر من خلالها الا الى المبدأ والجوهر ولا يراد من ذلك اني أبدي احتقاري لها في غير مقام الانتقاد بل بالضد انا من اشد الناس احتراماً لها في مواقفها فاني لادخلن الجامع والكنيس والكنيسة وفي نفسي تأدب فوق خوف المتقين ومع ذلك فلم اسلم من شرها فقد وقفت مرة امام قاضي - غير موقف المتهم - فما عثم ان نظر اليّ مقطباً فبسطت له وجهي لعله يحل قطبة من قطب جيئه وكأنه استعظم سلطته فاراد ان ينتم بها لاجداده عن خمس عشرة الف سنة مضت فانهرنى كأني اجير في باب امير وما علمت اني اسأت الادب بحضرته الا بعد ان دلي على ان يدي التي كانت هنا يجب ان تكون هنا فصدعت بالامر صاغراً صوناً لكرامتي من اعظم في هذا المأزق الحرج ثم مرّ بخاطري بسرعة البرق التاريخ الطبيعي والاجتماعي واثر الماضي في الحال وسرعة هذا الانتقال وترجمت على الخليل فمذرتة وعلت لأول مرة ان التأدب غير الادب الحقيقي

واللانظام الذي ندعو اليه ليس كالأقدمين ولا فوضى المحدثين وانما هو نظام ايضاً ولكنّه متحرك فلا يستقر على مر الاجيال حتى تضعيه في الغاية التي وضع لاجلها بل يتغير لكل حال صوناً لهذه الغاية ولو راعى الناس في شرائعهم ذلك لما بدا فيها كل هذا الوهن ولما سببت كل هذه الحروب بين منكر ومقر وكافر ومؤمن وراش وبين الشعب من كل حزب ولما بدا مصلح الامس رزماً على مصلح الغد . ولكن هي الاعراض اُربت على الجواهر وكان ضررها في الاجتماع اشد لان الاجتماع عاقل فاضاف الى تباطي سيرة الطبيعة المطبوع تناقل نظامه الموضوع

ولكن نواميس الاجتماع كنواميس الطبيعة مصيرها فيه الى الارتقاء ولو ادت به الى الوقوف والتمهقر احياناً وسرعها فيه كسرعتها بالقلب كريع البعد واستخدام الانسان قوى عقله الصائب فيه تزيد هذه السرعة سرعة على نفس هذه النسبة . ومن يوم خطت اوربا خطاها في سبيل العلم الحقيقي واخذ ظل الاوهام يتقلص من العقول صار الامل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء ولا نريد بهذا القول انها على وشك بلوغ الغاية القصوى فيه وانما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية ولا ريب في انها ستكون الاولى في الاستفادة وسيكون

شأنها شأن المنارة التي يستضيء عمرانها في العالم اجمع لسهولة ارتباط بعضها ببعض وسيطرة بعضها على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة واول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الامم سيادة حقيقة وسقوط سيادة الملوك ولا يستتب لها ذلك على قواعد متينة حتى تنتشر وتتأيد فيها الاشتراكية الصحيحة المبنية على تقاسم المنفعة على نسبة الاشتراك في العمل لا كما يفهمها البعض من خصومها . وان من يقابل بين حالة اوربا قبل حرب السبعين وما آلت اليه بعهدتها من الارتقاء الحقيقي في كل شيء يرى ان سيادة الملوك في احتضار من ذلك اليوم . بل من يقابل بين حالة الشعوب الجرمانية من عهد غير بعيد وما هي عليه اليوم من الاشتراكية العظمى يستعظم مجرى الافكار فيها لخلع تلك السيادة ولا يتوقف تقريب اجل ذلك الا على حركات عاقلها اليوم لان شدة الضغط تسرع الانفجار وهي حركات لو كانت في عصر نابليون لاهبت العالم ولسجد لها كل معجب بسلطان الفرد ولكنها اليوم حركات يزدرى العاقل بها وقد لا تضر الا مؤتيتها

## المقالة الثانية والثلاثون

### ﴿ حلم هو الحقيقة <sup>(١)</sup> ﴾

بت ايلي وعوامل متناقضة تتنازعني . قليلا يوجب الشكر ويجلب الهناء . وكثيرها يلهب الفكر ويمزق الاحشاء . واذا بي كأني في قاعة تسطع فيها شمس الانوار وتجمل الليل ابهى من النهار . مكتظة باناس طلوا الظاهر فما زادم الطلاء الانميّة شفت عما في الباطن . وهم يشهدون تمثيلاً من عالي الوضع . ولكن مبتذل الطبع . رأيت الحب يتصرم فيقدم . ويتألم فيحجم . ثم يتهتك فيشين . ويتم فيخرب العالمين . والناس يعجبون ويصفقون ثم يقولون هذا هو الادب الرائع . فسألت قبيل لي هذا ملاهي الرجال . فقلت بئس الاطفال وخرجت

واذا بي في قاعة مظلمة كأنها الليل الدامس ثم انبثق نور لامع مرق سجعاً من ذلك الليل المدلم وإذا الجبال والادوية والانهار والبحار والمناجم والمصانع والحيوان والنبات والانسان والبلدان والمدن تمور موراً وتنقل بي وأنا في مكاني بين الاقطار الشاسعة . والاعمال النافعة . فقلت ما هذا قيل ملهى الاطفال . فقلت نعم رجال المستقبل ثم خرجت وإذا بي في قاعة كأنها القطب البارد قام فيها رجال يتكلمون الجلال . ويحدثون بانواع الكمال وإذا بهم في قرون الجمل والضلال يصفون الكلام بانسجام ليلها الناس عن الحاضر بالغابر . فالتفت مع الملتفتين ومددت رجلي مع المادين . وما اتبعت الا وعني من التلفت الى الوراء يكاد يضر . ورجلي امامي تتمتع . فصرخت من الالم ما هذا فقيل لي الجامعة قلت ما هي اذن بالنافعة

ثم انتقلت وإذا دوي يصم الاذان كأن فولكان التقدير يتهدد البشر بصواعقه وشرر يتطاير كأن جنماً استبطأت الناس قهات اليهم نارها . فاوغلت وإذا أنا في مكان رهبت منه رهبة اجلال اذ رأيت هراقة البشر يغالبون الطبيعة فينلبونها تعصف بالنار رياح كبرانهم كأنها نفخ الاقاعي فيذيبون بها الحديد كالشمع ويصبونه صبا كالزيت ثم يصنعون منه اسلحاً أدق من لعاب العناكب وينهالون عليه بمطارقهم فيدعونه صفائح ارق من دين الكافر فقلت ما هذا قيل لي « ورش بولاق » فقلت نعم المسجد

ثم انتقلت وإذا أنا في بناء غيم يملأ اربع زوايا المسكونة مزوق الظاهر مزخرف الباطن فنظرت وإذا في جهاته الاربع اقوام يتشاورسون يطولون ويقصرون ويقومون ويقعدون وغيرهم ينوحون ويحجبون او يستطيون ما يكرهون فخرجت ولم أسأل وقلت الجمل بهم خير من العلم

وإذا بعاصفة حملتني . ثم وقفت بي على شاطيء بحر رمله كحصباء الدر فاجلت طرفي من « مقش الموج الى مبسم الثلج » وقلت سلام عليك ايها الوطن الحبيب . وإذا اكمة كأنها كرمي الجوزاء قائمة تطل على ذلك البحر وعليها بناء غيم او هو سلسلة بنايات تناطح السحاب سمواً وكأنني فيها فرأيت ميازيب العلم تندفق منها كالبحر الزاخر علوم المعادن والحيوان . علوم النبات والانسان . علوم الطبيعة والكيمياء . علوم منافع الاعضاء

وطب الابدان . علوم الفلك والاحداث الجوية وعلوم اللغات بقدر ما يستطيع الانسان ان يفهم ما يعلم وان يعبر عما يفهم . فقد كرت عهداً مضى وقلت هذه مرضعة العلم الصحيح وذكرت قولي فيها يوم فصالي عنها

ايا نسيمات الريح مني تحملي      سلاماً على ربيع اطال تغزلي  
وباربع بلغ في حالك نحني      عروساً بكأس العلم في الشرق تعجلي  
عزيزة امثال ودان وصالها      تقول وقد ماست ثوب التدلل  
لقد طالما اتى الرحيق محرماً      ألافاشربوا من ذا الرحيق المحلل

فسلام عليك ايها المدرسة الكلية والى سلام  
ثم صحوت — واذا الحقيقة كللتنا

## المقالة الثالثة والثلاثون

### الزلازل غضب الآلهة (١)

لا ريب ان الانسان كما كان وكما هو اليوم لا يستحق رحمة من خالق ولا عطفاً من مخلوق . نهم جشع ظلي لا يرويه شيء يلهمه فتاك غدار سفاح لا يردعه دين او أدب . ولكنه مخلوق . . . . . فهل خلق مستودعاً للشر وقارورة للفساد ؟ ولماذا لم يخلق وديماً كاللؤلؤ وطاهراً كالحمأة وهما دونة في مراتب الخلق ولم يخصاً بما خص هو به من حلو آمال وجميل مآل . . . حتى قام عليه إله ابرهيم واسحق ويعقوب المستقم وامطره ناراً وكبريتاً ونسف به الارض حملاً لذاعاً ودفنه حياً تحت التراب يقاسي هول العذاب . وكان في امكانه ان يخفف عنه مشقة هذا الغضب ويخفف عليه عذاب هذا المصاب لو جملة اقوم خلقاً واصلح خلقاً . وما ذنبه وهو ليس كذلك ؟ بل ما ذنب هؤلاء المساكين الذين فتكت بهم الطبيعة العمياء فانشتت الارض بهم وابتلعتهم وجرفهم الماء الى قعر

(١) نشرت في البصر سنة ١٩٠٩ بعد زلزال سيبيريا رداً على اولئك الذين زعموا انه عقاب من الله

البحار؟ ولماذا كانوا عبدة لسوامهم ولم يكن سوامهم عبدة لهم ولا فضل لسوامهم عليهم؟ ولماذا لم يكن الحق شاملاً وهو عين الصواب لو صح القول؟ ٠٠٠ فأتقوا الله يا دعاة الله وكفوا عن نسبة مثل هذه المظالم إليه واعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ولا تجمعوا فيه بين النقيضين وتعيدوا لنا به عصر تيمورلنك وملوكنا الجبابرة السفاحين فلا تجمعوا الزلازل من غضب الآلهة وهي من الطبيعة الغشيمة وشرها اعمى . فليرحم الانسان الانسان ولا يشدد القضاء عليه في مصابه وهو ليس اصلح في نجاته منه في تكباته  
هل دريتم بما جئتم فظلو مون انتم واتم الظالمونا



## المقالة الرابعة والثلاثون

### ﴿ نظرة عامة في مسألة عامة <sup>(١)</sup> ﴾

#### « انتقادية فكاهية »

مالي اراك ايها القلم تتمتع وعهدي بك اجري من السيل وتتلم وعهدي بك امضى من السيف . افراغ جييك افرغ جيبك وفراغ الجيوب املاً لوطاب العقول وافسح لمجال الافكار . ام ترا كنت دونك العقبات فحشيت قول الشاعر « الجود يعدم والاقدام قتال » ونسيت قوله في صدر البيت « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ام لعلك نسيت قولك  
رب ساع بالهزم وهو ضئيل      ذك طوداً من راسيات الجبال  
ام كبرت عليك المطاعم فبطلت منك الهمم او لست انت القائل :  
رب ساع بالهزم وهو ضئيل      صار قيلاً من اعظم الاقبال  
ام راعك ان قراءك لا يبلغون نصف العشر ولا نصف نصفه <sup>(٢)</sup> فذكرت قولك :  
قد ينبي المرء لاقتضاء استواء      ووافق لسائر الاحوال  
وذملت انك انت القائل

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ (٢) كما ظهر من الاحصاء الذي عمل في ذلك الحين



غير ان الانسان يفعل في الاحوال ما قد يفعلن في الاشكال  
 ام نزاحت عليك المواضيع وانهاالت عليك الافكار فوقتت بينها حائراً كما وقف  
 حار « بوريدان » بين حزني الحشيش <sup>(١)</sup> لا تعرف باي تبدأ ولا اياً تختار . أبدأ  
 بقولك « الانكليز يصلحون فلماذا يكرهون » كانك تريد ان تثبت هنا حقيقتين  
 متناقضتين ولو بحثت عن السبب لزال منك العجب فالاصلاح واقع لانه ينطبق على مبادي  
 هذه الامة العظيمة وحكومتها لا يسعها الا ان تسير على رغائب الامة لان قيادها في  
 يدها . فمصر تحت سيطرة الانكليز انتظم ربهها واتسعت زراعتها واثرى فلاحها وصارت  
 حياتها ذات قيمة وانتظمت ماليتها حتى صارت موضع ثقة العموم وبلغت الحرية فيها  
 مبلغاً فتفتحت له ابواب السجون . فالاصلاح حقيقي ولو ابتلعت <sup>(٢)</sup> بواخرها في البحر  
 واغرقت بسنديلها في البر فالبوخر في البحر معرضة للحيتان والارض في البر معرضة  
 للطغيان ويقال ان سبقي رأية مصر تنفق في البواخر فوق رأية الانكليز كطر بوش صاحب  
 المؤيد فوق قبة القبطان <sup>(٣)</sup> واما كرههم فحقيقي ايضاً وله سببان الاول طبيعي فهم دخلاء  
 في البلاد والذليل لا يجب ولو جلس في اخريات الناس فكيف به اذا جلس في صدر  
 البيت على ان هذا السبب ليس بالجوهري فهو غالباً يزول اذا رأى اهل البيت في الذليل  
 كفاءة وامتياراً وانسوا منه حسن معاملة وصلاح حال . والسبب الثاني وهو سبب هذا  
 الكره الحقيقي عتو بعض افراد الانكليز وصلفهم واستبدادهم وتفطرسهم واساءتهم الى  
 الذين تربطهم بهم روابط المصلحة في دوائر الحكومة فالحق يقال انه يوجد بين هؤلاء  
 الافراد من لو شد الى قرن لم يقوَ عليه ٥٠٠ اثنان على انه كما يوجد فيهم عتاة يوجد فيهم  
 ايضاً من لو وضعته على جرح لكان كالبلسم كما في كل امة . وقد تعود الناس اذا رأوا  
 اساءة من فرد ان يطعنوا على هذا الفرد بالطن على جنسه حتى يظن الذين يسمعون ان كل  
 ابناء جنسه من طرزه فيتوهمون ان اعمال هذا الفرد المنايرة تنطبق على سياسة حكومته

(١) مثل فرنساوي للدلالة على الحيرة (٢) اشارة الى صفقة البواخر الحديوية واداضي  
 بسندلية التي باعته الحكومة يومئذ الى شركة انكليزية (٣) اشارة الى ان الرأيين الانكليزي  
 والمصرية مستغفان معاً فوق البخرة في آن واحد

ورغائب امته وهو خطأ فان حكومة الانكليز وامتهم لا ترضيان عن سلوك مثل هذا الفرد لوعلمنا به والذي يزيد عتوهؤلاء الافراد الذين هم على امتهم شرٌّ من الاعداء حين مرؤوسيههم واقياهم لتحكمهم حتى يتأدوا في احتقارهم وعندنا أدلة كثيرة على ان اللورد كرومر لا يسمح باهتضام الحقوق الى هذا الحد ويكون جذلاً مسروراً اذا كان الناس يرفعون اليه شكواهم ولا شك انه ينيلهم حقهم اذا كانوا محقين . فلو جرى الناس والجرائد على هذه الخطة عوضاً عن الطعن العام الذي يوغر الصدور لخدموا الامتين امة الانكليز لانها تعلم مكان الضعف فتداويه والامة المصرية لحصولها مع الاصلاح العام على احترام الحقوق الشخصية فتقوى روابط الالفة بين الامتين واقيا فرد فرد وأمة لامة قضاء طبيعي فالجائمة والحالة هذه خير من المحاصمة المعيبة فقد قال امام الشعراء ومن نكد الدنيا على الحران يرى عدواً له ما من صداقته بدءاً<sup>(١)</sup>

ام اتكلم في موضوع « كثرة الوفاق نفاق » هؤلاء يقولون ان الانكليز كل اعمالهم سينات واولئك لا يرون لهم الا حسنات ومهما حاول كل من الفريقين تأييد رأيه فلا نظن ان ذلك ينطبق على الواقع والعقل لا يسلم بإمكانه قمع الريبة وتسوء الخدمة التي يتوخاها كل واحد من خطئه ونعني بهذه الخدمة الخدمة العمومية وقد لا نشك نحن بان كلا من الفريقين قد يكون مخلصاً في دعواه ولكن زيادة التحمس كثيراً ما تؤدي الى تجسيم الوهم على حد قوله

وهناك ان تعطي فلوم تجد لنا لحنائك قد اعطيت من شدة الوهم الا ان عموم الناس لا يفهمون ذلك فتغرم الامثال والامثال ولا يخفى تجري مجرى الحكم ويشجعهم خصوصاً انطباق السجع فيقولون « كثرة الوفاق نفاق » ام اتكلم عن السجون فقد مرّ بك ذكر هذه اللفظة عرضاً وهي موضوع يستحق الالتفات كيف لا أليست السجون المكان الذي نختاره للراحة من عناء الاشغال وتبليبل

(١) انا لا اشك اليوم ان سياسة الوخز والفكر التي استمرت بين المحتلين وأهل البلاد مدة طويلة هي التي ولدت هذا الكره الشديد وعدم الثقة بنيات الحكومة حتى صارت الامة تنظر الى كل مشروعات الحقيقة الحاكمة بعين الريب

البال اذ تضيق بنا الحال فلا هبام بامرها مما يهم كل انسان فهي بين الفئادق والمستشفيات ومن يضمن لنفسه كبيراً كان او صغيراً أميراً او صعلوكاً غنياً او فقيراً عالماً او جاهلاً انه لا يحل يوماً ما ضيقاً على الحكومة في هذه البيوت المروضة للابدان المروقة للافكار . ونحن في عصر بلغ فيه التأنق والاعتناء بالفئادق والمستشفيات مبلغاً عظيماً وما ذلك الا لان احوال البشر اقتضت ذلك لانه لسوء الحظ او لحسنه زادت احتياجات الانسان بالتمدن حتى صار انتفاء اسباب الراحة التي تعودها يجلب له الضرر ولسوء البخت كذلك الناس في الهيئة الاجتماعية طبقات فلا يقاس العالم بالجاهل ولا يعامل المتعود على التأنق بالمعيشة كالتعود على كشف العيش فانزال الرفيع الى مقام الوضع لا يناسب احياناً كثيرة والعكس جائز هنا . والسجون وجدت لحبس الرجل عن الشر وترويض افكاره مدة سجنه فاذا لم تستجمع كل الوسائل الصحية والادوية اقبلت فائدتها وزادت الاخلاق فساداً اذا كانت فاسدة وربما افسدتها اذا لم تكن كذلك وكما ان الذنوب التي يرتكبها البشر درجات فالعقاب يجب ان يكون درجات كذلك لا في مدة السجن بل في نوع السجن ايضاً ومن الذنوب ما هو ارفع مقاماً من سواء ولو عاقب عليه القانون فالذنوب السياسية والكتاتية غالباً قلما يعد السجن فيها اهانة حقيقية تلبس صاحبها وصمة عار لا تمحى ونعني بالذنوب الكتاتية الذنوب التي يرتكبها كتاب لهم شأن محدود في عالم الكتاتيه لا الكتاب المتطفلون الذين لا شأن لهم مطلقاً فحبس مثل هذا المذنب مدة لا يراعى فيها مقدار ذنبه والضرر الذي نشأ عنه والضرر الذي يلحق به في حبس واحد مع القاتل والسارق والمركب بل حبس المتعلم والمتهذب مع من لا تربية له ولا اخلاق وفي مكان غير متوفرة فيه اسباب الراحة والصحة كما هو شأن اكثر السجون (١) . لا شك انه مفسد للصحة مفسد للاخلاق ولا نظن ان القصد من السجن ادخال الامراض على الجسد والعقل لقتلها وقتل مستقبل الانسان خصوصاً لذنوب كثيراً ما تكون هوائية واتي بتصوري في نفسي انه لو وقع لي مثل هذا الامر واخذت الى السجن لسقطة قلم او زلقة لسان (٢)

(١) سجون مصر كانت حتى هذا العهد سيئة جداً ولم يكن قد تم فيها شيء من الاصلاح اليوم

(٢) كان ذلك على اثر سجن بعض رجال الاعلام

وعملت هذه المعاملة لخرجت من السجن وعيناي قدحان شراراً لا اطلب الا الانتقام واؤكد للجميع بان طباعي الحقيقية تأبى الاضرار عمداً حتى بالحيوان بل اميل جداً الى تحمل الضيم وامثالي في الدنيا كثيرون فلماذا فسد اخلاق مثل هذا الانسان ولا نحاول اصلاح جانب الضعف فيه والانتفاع بما فيه من القوة فالعقاب يلزم ان يراعى فيه اشياء كثيرة غير مستدركة لا في السجن ولا في القانون

والقانون وما ادراك ما القانون مجموع شبهات وظنون في ما هو كائن وما لا يكون بل هو عقبة في سبيل تقدم الانسان في العمران ولو اغضب ذلك سادتنا القضاة والمشرعين ورموني بالجهل وعدوني متأخراً عن عصري خمسة الاف سنة او متقدماً كما يريدون وقد عده الناس لبونا برت الحسنة الوحيدة بين سيئاته انكثيرة وهو شر ما جنت يدها على الانسانية فلا قتله الا لوف المؤلف من البشر ولا تخريبه المعمورة مدة ربع قرن يقاس بشيء من اضرار هذا القانون الثابت فالشرعية ليست من العلوم الرياضية حتى تدوّن في بنود كنضابا مسلة تجري مجراها ولا تنفخ حتى يتفاهم ضررها ويكثر شرها فالشرائع لاتعاقب ذنوباً بل مذنبين كما ان الطب لا يداوي امراضاً بل مرضى فهي ابسط من ذلك جداً في اصولها واشد اختلاطاً في فروعها فلاحكام الاجتهادية افضل جداً من الاحكام القانونية ولا نظن ان البلاد التي تعول في احكامها على الاجتهاد لا على القانون كبلاد الانكليز اسوأ حالاً من البلاد القانونية ان لم تكن اصلح منها بكثير اقول ذلك ولا اقصد به امراً معلوماً او اناساً معلومين وارجو ان لا يحمل الناس كلامي على ما بين طائفة الاطباء والقضاة مما بين السنور والشم ( كلب الصيد ) خصوصاً بعد حكمهم الجائر في باريس على المنكود الحظ الطيب « لا بورت » <sup>(١)</sup> مما اثار غضب الاطباء عموماً على المحاكم وسلطوها في جرائمهم بالسنة حداد

وعلى ذكر الاطباء اقول ان هذه الطائفة — وقاك الله شرها — كثيرة النفع كثيرة الضرر اذ يتوقف عليها صحة الابدان وحياة النفوس فاصابة منهم قد تبحي وغلطة قد تودي وهم من هذه الجهة يتشابهون كثيراً مع القضاة والفرق بينهم كما قال بعضهم ان

(١) كانت حكاية الحكم على هذا الطيب في فرنسا شائعة يومئذ كثيراً ومستكررة جداً

الاطباء يدفنون اغلاطهم في الارض والقضاة ينشرونها في الهواء ( اشارة الى دفن الميت وتعليق المشنوق ) وهم لو اقتصروا على ما سنّه لهم ابرهم ابو الطب ابقراط حيث قال « على الطبيب ان يتوخى منفعة مريضه فان لم يستطعها فليجتنب الاضرار به » لوجدوا لهم من انفسهم عاذراً ولما استحقوا كبير ملام لان الطب كما قال احد حكمائهم « يشفي نادراً ويسكن غالباً ويعزّي دائماً » ولكن الاطباء بشر كسائر الناس يختلفون نظيرهم في العقول والاخلاق فهذا يعتمد على البساطة في طبعه كما يكون بسيطاً في لبسه ومعيشته وذلك على ذر الرماد في عيون المرضى كما يندره في عيون سائر الناس في سائر احوال معيشته فلكي يصف لك قدح ماء يستقطر البحر ويستقطر السحب ويستسيل الجند ومنهم من ينظر الى مريضه شزراً ويمسك الى جانبه ويميره ظهراً<sup>(١)</sup> وربما اراد ان يدل بذلك على خفة الداء لا على قلة الاعتناء ومنهم وكنت اود ان لا اذكر ذلك من يقصد تكثير الريح كأنه شريك الصيدلي ( اعوذ بالله من شر الصيادلة فهو لاء يلزم لهم فصل مخصوص ) فوضاً عن الدواء البسيط يعدل الى المركب وعوضاً عن ان يصف لك بعض قمحات في مقدار من الماء يمزجها ويقسمها اوراقاً او حبوباً او برشانات تزيد على المائة عدداً ويشغلك يومك وليلك في تجميع هذا الدواء على الساعات والدقائق والله اعلم بالعواقب . والحق يقال ان الذنب ليس كله عليهم فالتاس لا يرضون عن طبيب الا اذا قلبهم ظهراً وبطناً في ما يلزم وما لا يلزم وعادهم صباح مساء وظهر عشاء وكتب لهم من الدواء ما يخرج به من عند الصيدلي مستثيناً بالخوذي ومركبته فمن الاول يقولون انه « معتن » ولو لم يفهم شيئاً وعن الثاني انه « شاطر » ولا يصفحون عنك ولو فهمت حالة المريض من مجرد تحديق نظرك فيه وشفيته بدواء لم تمتد به دائرة المطبخ فاتهم لا يزالون يرمونك بالاهمال والجهل ولا يريدون ان ينسبوا ذلك الى نظرك الدقيق . على ان الاطباء مهما بالغوا في الدهاء فالمرضى يفوقونهم في ذلك فكثيراً ما لا يكافئونهم بغير تمزيقهم بلسانهم وانا انصح لك كلما سمعت احداً يذم طبيباً ان تسأله اذا كان دفع له حسابه فقال بما تجدانه لم يدفع لان الذين يدفعون قلما يذمون . وزد على ذلك ان الاطباء اشبه شيء بالضرائر ليس بينهم عصبية تحمي

( ١ ) اشارة الى مسك الكاتب في الاحوال التي كان يتحقق خفتها مما كان يجلب عليه الانتقاد

مصالحهم فليس لهم رأي عام كما يقولون ولو كان لهم ذلك لما تجاسر القاضي الذي حكم على « لا بورت » المذكور ان يصب عليه ذلك الحكم الجائر فقد قال بعضهم لو اعتصب الاطباء بمد الحكم على لا بورت ثلاثة ايام امتنعوا فيها عن تأدية وظائفهم لرأيت القضاة على ٠٠٠ ابوابهم يستسمحون

وعلى ذكر الرأي العام اقول ان كثيرين يذهبون الى ان الرأي العام في الشرق اسم بلا مسمى كالقول والعناء ومع ذلك فنحن نسمعه في الجرائد كثيراً ونفاه بعضهم عن المصريين بحجة قلة انتشار التعليم بينهم وفي الامر نظر <sup>(١)</sup>

## المقالة الخامسة والثلاثون

### ﴿ شواغل <sup>(٢)</sup> ﴾

انقطعت عنك ايها البصير زمناً طويلاً او قصيراً حسب اميال كل قاريء ووقع كتاباتي عنده موقع الاستحسان او الاستهجان لشواغل تهون لدى البعض وتعظم لدى البعض الآخر . والناس يختلفون فيما به يتأثرون . فهنا رجل يخوض بحار الافكار ويصادم تيارها الجارف ويقف سداً في وجه الحوادث كأنه الطود الراسخ لا تقفله ريح زعزع ولا اعصار ينسف الرمال ويقطع الاشجار وينتصب محروطاً يصل السماء بالبحار كأنه التين الحران ولكن رأسه في السماء ورجله في الماء . يصادم كل ذلك بجنان لا يرتاب وقلب لا يهاب ولكن يحار ويتعثر لشيء يذكر ولا يذكر قد لا يعتد به سواء ممن ينوء

(١) هنا بقية حذفت لعلها يامور خاصة واعلم ان الرأي العام المصري الذي كان مشكوكاً فيه يوم كتابة هذه المقالة اصبح اليوم شيئاً مذكوراً . وان الناظر اليوم الى حالة الامة المصرية من هذه الجهة يبرر سروراً لا يوصف اذ يرى سرعة تكون هذا الرأي فيها وتماطيه سنة عن سنة حتى صارت تقه جيداً مزايًا التضامن في السران

(٢) نشرت في البصير سنة ١٩٩٨ والعنوان من كلمة وردت في كلام لبعضهم في الكاتب نشر في ذلك العهد في جريدة الاخبار بتوقيع « آتوس » تحت عنوان كتاب العربية في مصر

تحت عبء اقل القليل مما ذكرناه . شواغل غير الشواغل التي اشار اليها « اتوس »<sup>(١)</sup> في وصفه لي وصفاً عقل لساني واطلق فيض قلبي فلم يبق لي غير دمة شكر اسالتها عيني على دمة فكري اسالها قلعة البليغ . شواغل لو قام لها الحريري من قبره ونظر الى ما حوله لبذل قوله :

اصطاد قوماً بوعظ وآخرين بشعر  
واستغزى بنخل عقلاً وعقلاً بنحمر

بهذا القول

اصطاد قوماً بمال وآخرين بمال  
واستغزى بمال عقلاً وعقلاً بمال

ولكسر القلم وانشأ مقالة سماها « رثاء القلم في بلاد الرم » اقتسحها بقوله :

مالي اراك حزينا ايها القلم هل مات قومك يا مسكين كلهم  
ماتوا ويا ليتني ما عشت بعدهم اما تراني وحولي كلهم رم

قف ايها القلم قبل ان تنهور من حائق فاعهدي بك ممن يتجر بالكلام هل غرك  
ان المثالب تشرى وتباع وتهتز لها عروش الملوك في الاصقاع<sup>(٢)</sup> ونسيت قولك « الناس  
مذاهب والنفوس مراتب » ام خشيت الملام<sup>(٣)</sup> وما قلت حتى اليوم غير الحق وما نطق  
بغير الصديق يعترف لك بذلك العدو قبل الصديق ونفسك من وراء ذلك لا ترتاب  
لانك في كل ما تقول تعرض عن الاشخاص ولا تشدد الطعن الا على المبادي فما انت  
ممن يحب في البحث التعرض للأحاد بل تنصدي للجموع ولا الوقوف على الجزئيات  
بل تتخطاها الى الكليات تشهد بذلك مباحثك كلها والكتابة مرآة الافكار والافكار

(١) هذا هو كلام « اتوس » قال في الختام ما نمه « والرجل ربة القامة مائل الى القصر  
اسمر اللون ممتلي المضل كهل عذب ولعل عزوبته كانت اعظم مساعد على اظهار مواهبه هذه حيث  
يتفرغ الفكر من « شواغل » المائلة وينصرف الى الامر الذي يلذ له وكذلك كان غالب المشاهير « اه  
(٢) اشارة الى غلطة بعض الكتاب ولا سيما على عهد حكومة عبد الحميد في هز خرائط العروش  
لاستدراار الاموال « فمن سكوت »  
(٣) اشارة الى نشر مراسلة بينه وبين بعض المراجع العالية بلغة ان المراجع المذكورة استاءت منها

صور الاميال فلا تخالف اميالك لان الشر في الدنيا انما نشأ عن مخالفة هذه الاميال  
لاعتقاد الاوائل ان العنصر الغالب في الانسان هو الشر فحاولوا في تعاليمهم كلها مقاومة  
امياله الغريزية وعلوه ان يخالفها فاكسب صفات غير صفاته الطبيعية صفات مشوهة  
يجهد الانسان نفسه لتطبيقها على طبيعة مختلفة عنها في المبدأ تنقلب شراً اذا خلا بنفسه  
عن نظر الرقيب مما يدل على انها صفات مصطنعة لا طبيعية . ولا يصح هذا المبدأ حتى  
يصح ان جمال الصناعة افضل من جمال الطبيعة « وليس التكحل في العينين كالكلحل »  
حتى صارت كل اعمال الناس مصانة تنطبق على قوله

ارائيك فليغفر لي الله زلتي بذلك ودين العالمين رياء

فالانسان لم يكذب الا لانهم عاقبوه على الصدق ولم يسرق الا لانهم حججوا عنه  
ما يحتاج اليه . ولا ريب ان كثيرين يستتريون هذا القول واستغرابهم له هو الباعث  
على ذكره لان استغراب الشيء يحدث في العقل رجة كثيراً ما تكون في اول الامر  
ضد هذا الشيء والمنبه اليه الا انها لا تلبث ان تحل هذا العقل نفسه على التفكير والبحث  
وهذا يزحزحه عن مألوفه المتقادم عليه ويطلقه من عقالة التحمول فيه والكتابة ان لم يكن  
فيها ما ينبه الافكار بسطاً او الماعاً ويفسح للعقل مجال البحث لم يكن فيها شيء مفيد  
وكانت كيت الشعر المستوفي قواعد الوزن والاعراب الخالي من المعنى اي كما كثر اشعار  
هذا العصر (١)

وهذا الميل في الانسان الى تشويه الاخلاق اي الصفات الادبية ظاهر فيه ايضاً  
في تشويه الخلق اي الصفات الطبيعية مثل تشريح الحدود عند الزوج والوشم عند اكثر  
قبائل الشرق وتشويه الرجلين عند الصينيين وذكر ابقراط جيلاً من البشر كان يطلق  
عليه اسم المكرو سفال اي الرؤوس المتطاولة كان يشوه رؤوس اطفاله حتى تتناول وذكر  
شعباً من الصقال كان يشوه صدور بناته بازالة ثديهن الايمن بالكي بالنار وهن طفلات (٢)

(١) لم تكن التهنة الشعرية اخذت مأخذها البالغ اليوم على لسان نوابتنا المروفين بل كانت  
الجرائد تشر قصائد وتواريخ مبتذلة في حركات الخديوي خاصة مما جعلني على القول لو ان الخديوي  
يجوز اصحابها بقرع المعاول الاذان من شر قرع مثل هذا الشعر  
(٢) ليكنهن من احكام استاد القوس لتهديد الرمي



وقد جرى الناس في تشويه الاخلاق مجرام في تشويه الاجسام وهم في الحالين يحسبون انهم يحسنون صنعا . الا ان تشويه الصفات الطبيعية قلما يكون له اثر يجاوز الواحد من الناس وقلما ينتقل بالوراثة فلا يخشى تأصله ولعل صعوبة انتقاله بالوراثة هو الذي صرف الناس عنه بسرعة اعظم من سرعة انصرافهم عن تشويه الاخلاق حتى قلَّ ذلك اليوم وانتفى اكثره من بين الجمعيات المتعدنة وانطقاً اثره بانطفاء المشوهين انفسهم . واما تشويه الاخلاق فارسخ اثرأ واسهل انتقالاً بالوراثة واصعب اتباعاً للسير ولذلك لا يزال اثره شديداً حتى اليوم في اعظم الجمعيات المتعدنة . ولهذا نرى الناس في تعاليمهم الدينية والادبية حتى الطبيعية حاولوا ادخال هذا المبدأ فعملوا قهر النفس وعدوا ذلك من الفضائل والمداجاة وعدوها من حسن السلوك والدعاء ومن قهر النفس الى انفجار غضبها وارتكاب المنكر ومن المداجاة الى الرياء والكذب لا يوجد الا خطوة فتولدت في الانسان اميال لم تكن فيه واكتسب عيوباً كثيرة كان يمكن ان لا يعرفها وكثير من الامراض المصيبة نشأ وتأصل وانتقل في نسله بسبب ذلك ولم يقتصر ذلك على العلوم الادبية بل العلوم الطبيعية نفسها لم تسلم من هذا المبدأ . فلقد طالما عدوا اميال الطبيعة ضلالات فاجتهدوا في مقاومتها فكف من مريض بات يتقل على جمر الحى فلا يسمحون له حتى ولا بالهواء ويشكو الظاء فلا يجودون عليه بمجرة من الماء وربما اكثروا له من الدثار واوقدوا في غرفته النار وان العقل ليحار كيف تولدت هذه التعاليم وكيف تمكنت من الناس حتى صار التسلسل بها يعد فضيلة وصواباً والخروج عنها رذيلة وخطأ وربما لم يكن الوقوف على اصلها متعذراً . والعلم بنشوتها ممتنع الا ان الافاضة في ذلك تدفعنا الى مبحث يطول به الكلام ولا يسمح به المقام وربما عدنا اليه في فرصة اخرى



## المقالة السادسة والثلاثون

﴿ القضاء المبرم <sup>(١)</sup> ﴾

« في اليد والقبلة والدرهم »

(صحية فكاهية)

لا نقصد بذلك يد الظالم التي يمدّها للفتك بك . ولا قبلة المداحي الخائن الذي يبيعك بالجنس الاثمان . ولا درهم جاسوس السوء الذي يتقاضاه ثمن هدر دمك . وانما المراد به امر عادي جار كل يوم في المعاملات بين الناس وهم على تمام الولاء والاخلاص غافلين عما قد يجره عليهم احياناً من السقم والبلاء

ذهب الاطباء الى ان امراض الانسان ناشئة عن اجسام حية تتوالد وتنمو كما ينمو الحيوان والنبات صغيرة جداً لا ترى الا بالآلات المعظمة سموها مكروبات منتشرة في الهواء الذي تنفسه والماء الذي نشربه والارض التي نطأها وعالقة بكل شيء لنا به اتصال واذا نجونا منها احياناً فلضعف فيها او لقوة فينا . فالهواء الاصفر الضارب اليوم في البلاد على اسلوب غريب لم يسبق له مثل في تاريخ الاوبئة والحجى التيفوئيدية التي تفتك بناس كل سنة فتكاً ذريعاً . والتدرن الكثير الذي لا يبيح ولا ينذر والدفتيريا التي هي طاعون الاطفال وغيرها من الامراض الكثيرة الخفيفة والشديدة اسبابها مكروبات خاصة بها تصل الينا غالباً عن طريق الفم بالطعام والشراب . وقد عرفوا ايضاً طرق اهلاكها فهي لا تقوى على النار التي تطهر كل شيء . فاذا بقي الطعام والشراب منها مع ما في عصابات المعدة من الحوامض المفسدة أمن الناس شرها . وقاوة الماء تكون بالترشيح وافضل من ذلك غليّه وقاوة الطعام تحصل بالطبخ الجيد . تلك امور لا نقصد الاقاضة فيها هنا وقد صارت معلومة اليوم . ومرادنا فقط ان ننبه الى انتقال جراثيم الامراض بواسطة

ثلاثة عوامل مهمة وهي « اليد » « والقبلة » « والدرهم »

فاليد اهم اعضاء الانسان في المعاملات يدها الى كل شي ثم يردّها الى فيه وعينه فان لم تكن تقية كانت سبباً لنقل العدوى . وهي العضو المستعمل للسلام مصافحة والسلام باليد عادة لا نبدي رأياً في قبها او حسنها وانما نقول انها شديدة الخطر اذ ان الناس يتفاوتون في الاعتناء بنظافة ايديهم وقد يحملون بها جراثيم امراض كثيرة وربما استنبروا اذا قلنا لهم ان السلام مصافحة قد يكون سبباً لا يراهم حشفهم ولا تلاف عضو من اعضائهم كالعين . ولاتقاء ذلك على الناس جميعاً ان يمتنوا بنظافة ايديهم وما ضنّ الله عليهم بالماء فالفقراء والاغنياء ( ونستثني من ذلك سكان مصر والاسكندرية ) في التمكن من الحصول على ذلك سواء فلا يمدرون . ونعم ما فرضته عليهم بعض الشرائع لو انهم يفعلون ونعم العادة المصطلح عليها اهل الشرق وهي غسل ايديهم قبل جلوسهم على الطعام وافضل منها غسلها كلها تمكن الانسان من ذلك

والقبلة وما ادراك ما القبلة . صلة القلب بين العاشق والمعشوق وصلة النفس بين الام والولد وربما توسعوا فيها بين الصديق وصديقه وهي هنا صلة لا نفر لها اسماً اذ انها غير طبيعية . فامراض الغم والرتين كثيراً ما تنتقل بواسطة القبلة . فكمن طفل بريء اصيب بداء رديء بقبلة من مرضته . وكمن عاشق اخذ الداء بقبلة من عشيقته وهنا نستطيع العفو من سادتنا الشعراء فليس برد الانياب دائماً ربح الخزامى او نشر القطر كما في قوله :  
يعلّ به برد انيابها اذا غرّد الطائر المستحر  
ولا الريق دائماً بالشهد كما في قوله

فقلت ارشف من شهد الهى وانا اقول « هذا شفاء فيه للناس »

على ان الشعراء يتبعهم الغاؤون وهم في كل واد يهيون وكثيراً ما ينطقون بما لا يصدقون فالخدر من القبلة فكمن تورث الجسم علة والقلب دبلة  
واما الدرهم المفرق بين الام والولد فلا مشاحة في انه عصب الهيئة الاجتماعية كما يصنفه الافرنج اذ تتوقف عليه قوة الافراد والامم . وكما انه عصبها سيكون يوماً ما سبباً

لتزيقها ايضاً بما سيحدثه من الكوارث والقلاقل بين الشعوب لانحصاره في جانب وانحصاره عن الجانب الآخر وهو الاكبر ولسوء البخت هذا الحصر آخذ في الزيادة يوماً عن يوم بما لم يسبق له مثيل في تاريخ العمران وهو علة الاضطرابات الداخلية الحاصلة في كل مملكة وتآلف العصابات لمقاومة اصحاب المال وان لم يتدارك ذلك ارباب السياسة بالحسنى لا بالنف يخشى ان يكون سبباً لخراب الممالك هذا بالنظر الى الاقتصاد السياسي واما اذا نظرت اليه طياً فانك تراه يصدق عليه قول الحريري

تباً له من مارق ممازق اصفر ذي وجهين كلنافق

فان الدرهم يتداولها الناس بايديهم ويضعونها في جيوبهم ومنهم من يضعها في فمه فتحمل جميع المكروبات التي تصادفها في طريقها وتنقلها من واحد الى آخر مكتسبة كل مرة مكروبات جديدة على حد اكتسابها بالربا . ومن العادات السيئة اعطاء الدرهم للاطفال فانهم لا يتأخرون عن ان يضعوها في فمهم فاذا كانت عالقاً بها جرثومة مرض كالزهرى او الدفتيريا او السل فتصور الضرر العظيم الذي يقع على الطفل من ذلك فهذه ايها القاري اللبيب عوامل ثلاثة لنقل الامراض مهمة جداً نهنالك اليها حتى اذا عرفت الداء سهل عليك الدواء راجين لك بذلك النجاة من شر المكروبات وهذا افضل ما تتمناه للقراء انكرام على رأس هذا العام

## المقالة السابعة والثلاثون

﴿ لحس الاصابع <sup>(١)</sup> ﴾

« نصيحة طبية »

رأيت فى يلعب بالترد وهو كلما اراد نقل حجر ارسل اصبعه ( السبابة ) اولاً الى فمه ولحسها بلسانه وهكذا كان يفعل قبل نقل كل حجر . وكان يفعل ذلك بسرعة وخفة

لا يحاكمه فيها سوى ذوات الايدي الاربع كأن الامر فيه عادة مألوفة ليس للروية فيها ادنى دخل وهذا ما استلقت نظري اليه خاصة لاني رأيتُه وأنا مار في الطريق فذكرني ذلك عادة كثيرين من الناس تراهم دائماً يشركون ألسنتهم في كل ملموسات ايديهم فالتقاريء في كتاب يلحس اصبعه عند تقليب كل ورقة من اوراقه والبائع يلحسها عند فرز كل بضاعة والللاعب عند تناول كل ورقة من اوراق اللعب وبعض الكتبة يلحس الحبر عن الورق كلما اراد محو شيء كُتِبَ للفور

وهي عادة قبيحة جداً وقدره وبعضها مناف لآداب المجالسة وتجعل مجالسك ينقرز منك وهي على العموم مضرة بالصحة وقد تكون واسطة لنقل امراض قد يكون بها القضاء على الحياة اذ لا يخفى ان الامراض تنتقل بسهولة عن طريق الفم كالسل والحمى التيفوئيد والهواء الاصفى وسائر الامراض البسيطة والويلية

ولا يخفى ان اليد اقدر عضو في الانسان فهي التي يصادف بها عند التسليم ويتعرف بها كل ما يقع تحت نظره من الملموسات ويقبض بها كل انواع العملة . والعملة اقدر ما يتعامل به البشر لانتقالها في الايدي الكثيرة ومن فم الى فم كما يفعل اكثر السوقة من الناس وكما يفعل الاطفال انفسهم كلما وقع اليهم شيء منها . واذا تحريتنا جيداً نجد ان العدوى بالامراض عن سبيل اليد هي على نسبة اعظم جداً منها بواسطة الطعام والشراب في الذين لا ينتبهون الى هذه الصلة بين اليد والفم

ولعل هذه الاشارة الوجيزة تكفي لحل الذين يصل اليهم علم ذلك على الاقلاع عن هذه العادة المزدوجة القبح بقذارتها وضررها بالصحة ولعلها تكفي ايضاً لتربية الانسان نفسه على الحذر من يديه واعتبارها من حين ما يخرج من بيته الى ان يعود اليه عدوتين له لا يأمن على نفسه منهما فلا يقربهما من فمه حتى يشلها جيداً بالماء والصابون ويكثر من الغسل كلما تيسر له ذلك

وباليت الناس يقلعون عن المصافحة باليد التي هي من شر العادات ويستغنون عنها اما برفع اليد الى الرأس او برفع العمامة عنه اذا كانت قبعة يسهل رفعها واليد اذا لم يتق الانسان شرها هي اعظم جان عليه فهي التي تجره الى مواقف

الردى في المحاكم والامراض ولذلك اذا وجب على الانسان ان يحذر لسانه مرة وجب عليه ان يحذر « يده » الف مرة

## المقالة الثامنة والثلاثون

﴿ ضحايا الجمل (١) ﴾

أو

« الانسانية المظلومة »

لو نجد الانسان مما غرس فيه من بواعث التفريق بعله الاديان لما اتى منكراً بحق اخيه الانسان

على ان الاديان تنهى عن المنكر وهي كسائر الشرائع التي يقصد منها اصلاح العمران تعلم العطف على الانسان

ولكن الاديان كسائر مخترعات البشر تهول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب في ايدي اولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الانسان

رؤساء الاديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الاديان وكم قاموا يبيعون دينهم بدائق وفرطوا بمال الايتام وكم خدموا به اغراض عتاة حكامهم ليقسموا معهم الدنيا ولو داسوا الدين بالاقدام

قامت النصرانية في العصور الوسطى بفضائح تقشعرها الابدان حاشا للانجيل ان يكون الامر بها وما قام بها الا اولئك الذين هزأوا بالدين ليسحقوا به الانسان بالاتفاق مع الحكام الظلام

ولو كانت النصرانية تأمر بهذه الفضائح لما رأيناها في الممالك التي ارتقت بالعلم شديدة العطف على الانسان . الا اني لا يزال الجمل نخيماً فيها والتي لا يزال اليهود يذبجون فيها

على مذبح الجهل ذبح الاغنام مما يجعل الذنب كل الذنب على اولئك الرؤساء الطغام الاسلام دين اجتماعي ينهى عن كل شر لا يقاتل الا الذين يقاتلونه ولا يعتدي على الانسان ويأمر بالودود عن المستأمنين الآمنين في ظله وحاشا ان تأمر بغير ذلك شريعة القرآن . فالقرآن بريء من الفظائع التي ارتكبت وترتكب كل يوم بعله الدين في مملكة بني عثمان

فيا مقلسي الجهل ومعصي الضلال اين رأيتم في اديانكم ما يسمح لكم ان تزرعوا في رؤوس اتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس الى حد التباضع والقتال حتى قامت اليوم قيامتهم يقتلون بعضهم تقتيلاً في الوطن الواحد يعتقدون على الآمنين لخلاف لا علاقة له بالدين

لوقامت الانسانية في كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الاديان الذين هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التي ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين نسرة نسرة لما وفق حق الانتقام منهم لما جؤوه حتى اليوم على الانسان عنوك ايها الانبياء الكرام على قول ويا ايها الرجال العظام على قول آخريين مما جناه باسمكم على الانسانية هؤلاء الجملة الطغام الذين قلم فيهم ان لهم عينين ولكنهم لا يبصرون واذنين ولكنهم لا يسمعون صم بكم عبي فهم لا يرجعون

## المقالة التاسعة والثلاثون

### الامم والحروب <sup>(١)</sup>

الارض واسعة جداً وحتى الآن لم يملأها الإنسان فهذه قارة افريقيا على سعتها تعد اقل القارات سكاناً واضعفا فيهم نسبة ومجاهاها الواسعة غنية جداً ولكنها لا تزال على الفطرة بكرة حتى اليوم لم تطأها رجل فاتح ولم تبقر بطيها يد عامل فخيرها محفوظ في

(١) نشرت في البعير سنة ١٩٠٨ وكانت غيوم السياسة الاوروبية متلبدة بسبب المطامع في البلقان بعد اعلان الدستور النمالي مما كان يندر بالحرب الا ان الكاتب كان يعتقد غير ذلك

تربتها لا محراث يشقها وكنوزها مدفونة في جوفها لا معول ينشها  
وهذه بلاد روسيا على ضخامة ملكها وكثرة شعبها لا تزال متسعة جداً للانسان  
وصحراء سبيريا لا تزال موطناً للديبة تسرح فيها وتمرح ومنفى لمساكين الاشقياء  
والاحرار الذين عثت بهم ايدي الظلام فقطعوم عن جسم الانسانية لينها لهم العيش  
وربهم هناك في جب العزلة يلبسون المسوح من جلود الديبة ويقتاتون ييا بس العشب  
وصديد القديد ويعاملون ولا معاملة الانسان للحيوان بل اشد من معاملة الحيوان لعدوه  
الحيوان الى ان تموت نفوسهم او يقضى عليهم جوعاً وبرداً وعرياً بعد آلام في النفوس  
هي اشد من عذاب الاجسام

وهذه بلاد الصين فع انما تعتبر نملة البشر فساحتها فوق ما تقم من الناس بكثير  
وهذه بلاد الهند فخراجها لا تزل ملجأ وحوش الغاب واوديتها مواطن الاقاعي  
ومستنقعاتها موارد الخوف

وهذه قارة اميركا وحكومتها ارقى الحكومات وشعبها ارقى الشعوب فاتحة ابوابها  
لكل عامل نافع تجود عليه بالارض ليعمل فيها ويزيد في عمرانها  
وهذه المملكة العثمانية تستطيع ان تأوي فيها فوق ما فيها من السكان اضغافاً مضاعفة  
وهذه اوروبا المتمدنة اليوم المتضايقة اكثر من سواها لم تبلغ الدرجة القصوى  
من الماراة

فانت ترى ان الارض لا تزال واسعة جداً على الانسان رغمًا عن تشاؤم المتشاثنين  
واحصاء الاحصائيين تقوم بأوده مما زاد في عدده الى ان يتاح له ركوب متن الهواء  
لافتتاح السماء والمهاجرة الى الاجرام والسفر اليها بمراكب الحقيقة بعد مطايا الاحلام  
فاتنازع بين الانسان ليس سبب المدافعة عن القوت والحروب ليس الدافع اليها  
الخوف من الجوع . واتما هي المطامع تحمل الانسان على قتل الانسان والمطامع هي جوع  
النفوس وهو أشد هولاً من جوع الاجسام

ألا ترى ان الانسان كما جاء في اساطير الاولين وفي كتب الدين ما صار اثنين حتى  
قام قايين على هابيل وقتله لانه ظن ان الله فضله عليه اذ خصه بالضريع وهو لم ينحصر الا



بالزعر والتفضيل مشكوك فيه . لا غرو اذا بقي الانسان حتى اليوم اعرق في المطامع واميل الى الشر لانه بحكم الرواية من نسل قايين اللعين  
وهي حكمة عرفها السلف عن طبيعة الانسان في حب التنازع لانه ابن هذا التنازع  
في ناموس الوجود فبعر عن هذه الحقيقة الصاعدة بذلك المجاز الرائع  
واعمال الانسان في جاهليته الاولى لم تخرج عن ذلك فلم يكن الواحد يهب من رقاده  
حتى يعلو ظهر جواده متأبطاً شره للنهب والسلب والتثيل بعدو له لم يره قبل طعنه بستان  
رحمه او ضربه بحد سيفه ولا يزال يرود في طلب غنيته بين الظعن والمضارب ولا يرجع  
الى الخيام الا تحت جناح الظلام ولا يهنا له عيش حتى ينام على اثم . حتى صار ارتكاب  
مثل هذا الوزر عنوان الفخر الذي لا يعلو عليه غر فديج الاصمعي قصة عنتره عبس العرب  
ونظم هو، ميروس ملاحم اخيل اليونان هذا يقتخر بانه جندل اعداءه حتى تركهم كما في قوله  
وقرا الطير والكلاب القيولا

وذاك برصه ابدع حقيقة في ايراده عدوه اشنع مورد حيث يقول :

تحموم عليه عقبان المنايا وتحجل حوله غربان بين

فوصفها كما راها في حقيقة حالها تأكل منه حتى تشبع وتحجل حوله حتى تجوع ونهبها  
لا يدعها تفارقة . ولم يزل هذا شأن الانسان حتى في انفسه اسراً وقبائل وامماً تربطه  
بعضه ببعض صلة الرحم فالمثبت فالمصلحة

وما اقتضاض الاسكندر المكدوني بحمافله على الشرق ونابليون على الغرب وانبيال  
في اقتحامه الاهوال وقطعه الجبال وما نهم كسرى في مجده وتعسف نبيرون في ظلمه عن  
ضيق في الارض او شظف في الميش واتماهي مطامع افراد ضاق بنفوسهم فسيح الغبراء  
حتى لو افتحوها لوقفوا يفكرون في كيف انهم يفتتحون السماء

ملوك سودتهم نفوسهم وهونت عليهم ركوب الاهوال واقتحام المخاطر فاندفعوا  
ورؤوسهم على اكفهم مقامرين غير هيايين وساعدهم جمل الجماهير فسادوا عليهم ورموا  
بهم من كل حائق فاندفعوا يدفعون بارواحهم ثمن مجدهم سوام . يحصلهم الموت بمنجله  
وملوهم يتمتعون بثمار فوزهم ويرفعون على جثثهم قباب مجدهم . هكذا كان شأن الملوك

في كل العصور من كل عصامي جبار الى كل عظامي بليد يوم كانت الملوك كل شيء وكانت الامم لا شيء لا غرو اذا كانوا كل حين في مطمع وكل يوم في حرب . وكما اثاروا حروباً هدرت بها دماء الرجال ورملت النساء ويتمت الاطفال لقضاء شهوة بهيمية وجر الناس يظنون انهم يقضون واجباً عليهم . ما ارفع الانسان اذا عزّ وما ادناه اذا ذل . ذاك يتأصب آلمة العدوان وهذا ينحط الى ان يحاكي الحيوان . وما زال ذلك الى ان اقضى زمن الخاصة او تداعى وقامت سيادة العامة او كادت قنبيته في الامم عاطفة المصلحة تجمعهم فيها تارة جامعة الاديان وطوراً جامعة الاوطان واثاروا لاجلها حروباً تشيب لها الولدان وقد ضعفت تلك اليوم كثيراً في مجامع الامم الراقية ولكن جامعة الاوطان ما زالت عزيزة الجانب يتدعون بها الى اثاره الفتن بين الامم وحملها على تقتيل بعضها بعضاً على انه كلما ارتقى الناس قلت الحروب وزاد الخير منها بزيادة معدتها اذ ليس امنع للحرب من الاستعداد للحرب ولذلك قل الخوف من الحروب بين الامم المنبعة وكما ارتقى الانسان ادرك ان التساهل والتسامح ادعى لمصلحة العمران وان الحياة اغلى ثمناً من ان تضحي على مذبح الوحش والجهل فان لم يكن هذا السبب الاخير هو الذي يصد الدول عن الاشتباك في حرب تراها تبرق لها وترعد اليوم فلا شك ان الذي يصرفها عنها خوفها مما لكل واحدة منها من الحول والطول فليس من امة من امم اوروبا الراقية اليوم ترضى بان تضرم فيما بينها حرباً ليست الحروب الماضية بالنسبة اليها الا كلالاعاب النارية التي تطلق اليوم في الاعياد وكل هذا التهديد والوعيد ليس الا دعوة لاجتماع تتوازن فيه مصالح الجميع وسيتهي عما قليل كنف يوم الصيف تحل بالندى<sup>(١)</sup>

(١) وبالواقع انتهت المشكلة المذكورة بعد ذلك ولم يجردها حكام



## المقالة الاربعون

﴿ اب ت ث ﴾<sup>(١)</sup>

نشر البصير في احد اعداده المتقدمة مقالة عنوانها اب ت ث فاعجبني العنوان وقت اطالعها وانا انتظر ان يكون موضوعها كما قام في ذهني الحث على تعلم القراءة البسيطة لمعوم الاهالي خصوصاً بعد ما ظهر من الاحصاء الاخير ان البلاد في تأخر عظيم من هذا القبيل فان سكان القطر يبلغون زهاء عشرة ملايين وعدد الذين يقرأون لا يبلغ نصف مليون نصفه من الغرباء الذين اكثرهم يحسن القراءة . وهذا العدد قليل جداً ويضعف الامل بنهوض البلاد من خمولها في زمن قريب . واذا هي مقالة بليغة تبحث في اصل الحروف الهجائية تهتم المتبحرين في علم اللغات ببيدة عما قام في ذهني عنها في اول الامر . غير ان نفس العنوان افادني ان به افكاري الى هذا الموضوع المهم اعني وجوب نشر القراءة بين الاهالي قبل ان نعم بينهم تلك المباحث التي لا يفقهها الا العلماء الذين أوتوا من العلم شيئاً غير قليل لئلا نكون كالكتابين على صفحات الماء او الحاططين في الصحراء ولا يخفى ان العلم اليوم دخیل في الشرق اي انه لم ينتشر فيه على قواعد سنن النشوء والارتقاء فلم ينشأ في الامة عن ميل عام فيها اليه دفعها الى الترقى فيه شيئاً فشيئاً بل جاءها من خارج مفاجأة لاسباب طبيعية واجتماعية هي تقرب المسافات بين الممالك بالاختراعات العظيمة وسهولة اختلاط امم المغرب بامم المشرق بسبب ذلك فتألفت من الاولين جمعيات لنشر العلم بين الآخرين ومقصدها من ذلك نشر لغاتها وترويج مصنوعاتا وبسط حماياتها . وبالطبع لم يتيسر لهذه الجمعيات ان توفد وفودها الى جميع الاماكن على حد سواء فخيماً تمكنت من هذا الامر انتشر العلم الى درجة تعادل انتشاره في اوربا مع بقاء البلاد الثانية في ظلمات متلبدة من الجهل وهذا القول يصح خصوصاً على الممالك العثمانية فان وفود هذه الجمعيات تمكنت من بعض البلاد تمكناً عظيماً وبلغت

في نشر العلم فيها اقصى مبلغه في اوروبا نفسها كما في بلاد سوريا وخصوصاً ولاية بيروت وجبل لبنان وقد استفاد من ذلك المسيحيون اكثر من سائر الطوائف فانك لا تكاد تجد اليوم مسيحياً هناك لا يقرأ مهما كان فقيراً للمناظرة الشديدة التي قامت في تلك الجهات بين المرسلين الاميريكانيين والمرسلين اليسوعيين . ولكن اذا كان قسم من البلاد هناك استفاد كثيراً في ملة من مثله فجهات كثيرة من الممالك العثمانية لا يزال اهلها على الفطرة لا يعرفون الا الف من المأذنة ولا الياء من القصعة ومثل هذه الحال تجعل مركز الفريقين صعباً جداً ومركز الجامعة الوطنية من اخرج المراكز . وحكومات البلاد لم توفق الى احسن من ذلك لانها قامت من الاهالي فلا يصح ان تكون في استعدادها اصلح منهم ولكن حب التظاهر الذي يكون في الضعيف يبلغ منه في القوي حمله على ان تجري نظائرها من الحكومات الاخرى التي تعتقد فيها الارتقاء في الصورة قطع لا في الحقيقة وفي الظاهر لا في الباطن فاخذت عنها كل ما رأتة عندها على سبيل التقليد ووضعت في صدر البيت للزينة والتباهي لا للفائدة والقوة فشادت في عاصمة بلادها معالم للعلم كالقبور المكسلة تمتدح العين ظاهراً بحيث لو رآها الغريب الذي يكتفي بالظاهر ولم يسبر اعماق البلاد بالوقوف على سائر احوال الامة لحكم بان البلاد كسائر الممالك المتمدنة لا يتقصها شيء من معدات التعليم ولكنه لو طاف البلاد وزار القرى والديساكر وخبر احوال الاهالي لضحك من سخافة عقول الحكام على هذا الفخار الفارغ لعدم توفر المدارس البسيطة التي تعلم الناس ان يقرأوا اب ت ث

ولهذه الاسباب كانت احوال الاهالي في ممالك الشرق متباينة جداً غير متناسبة كارض مختلط غورها فجدها فانك لتجد فيها العالم اكبر يجنب الرجل الذي لا يزال على الفطرة مما يجعل منظر البلاد مشوهاً كالوجه المشوه عينان جميلتان وانف كاف ابن حرب ومركزها الاجتماعي مضطرباً جداً لعدم تقارب الجمهور في الافكار والاميال واذا امتنع التناسب من امة في القراءة والعلم خفت صوت الجرائد ولم يلتفت الى مطالبتها لان الحكام كسائر البشر ربما ثقل عليهم الارشاد فضلاً عن انهم في مراكرهم التي نالوها يذل النفس والنفس احياناً لا يطلبون بعد تحقيق الامل الا الراحة من العمل ان لم يخشوا

عصا الامة وكيف نخشى عصا امة لا تقرأ ما يطلب لها ولا تعرف ما تحتاج اليه ولذلك كانت اصمخة آذان أكثر حكام المشرق مسدودة الا عما يחדش مسامعها الشريفة البالغة الغاية القصوى في الاحساس من هذا القبيل فقط

واذ قد بسطنا الكلام على الداء وجب علينا البحث في الدواء ولا يكفي ان نقول ان الدواء نشر التعليم فهذه الكلمة قد أكثرت الجرائد من ذكرها حتى ألفتها الاذان وصارت تمر على مسامع الخاص والعام من دون ادنى تأثير يحدث في العقل اقل تفكير واذا كررت السؤال وحددت الكلام بادهك اصحاب الشأن بين تقليب الشفاء وتقليب الجباه بقولهم انا عارفون بما يطلب منا وقد علمنا كثيراً ونحن في غنى عن تطفل امثالك قالوا ذلك اذا تنازلوا لمقابلتك وسمع كلامك واذا قرأوه في جريدتك قالوه في وجه جريدتك آسفين انهم لا يستطيعون ان يقولوه في وجهك . وما يقول هذا القول الا جاهل واجباته مخدوع بنفسه آمن بسيطرة الرقيب والدليل على صحة ذلك انه لا يجسر ان يقول هذا القول بل ينقلب كله اذناً ناصتة في البلاد الجمهور فيها رأي يعتقد به تلك هي اخلاق البشر عموماً والشاذ لا يعتقد به . بل يلزمنا ان نبسط الكلام على اقرب الطرق التي تبيننا ذلك

ولا ريب ان حكومة مصر من هذا القبيل اصلح نوعاً من أكثر حكومات المشرق قلنا أكثر حكومات المشرق لان اليابان اصلح منها . فقد عملت اشياء ولكن لا يزال ينقصها اشياء ربما كانت الامم لانها الاساس . بنت للعلوم العالية معالم لا ينقصها شيء من المعدات اللازمة لائقان العلوم والفنون ولكنها أهملت التعليم البسيط الى الغاية القصوى والانكليز مع اتيانهم للاصلاح في جميع الفروع الادارية لم يأتوا في امر التعليم اصلاحاً عظيماً كما ينطق بذلك احصاؤهم بعد خمس عشرة سنة من احتلالهم للبلاد والسبب هو ان الحكومة الانكليزية في فتوحاتها قلما تهتم بالتعليم ولا تجرد الحسام الا لتفتح طريقاً لتشر ثوب الخاتم توسيماً لنطاق تجارتها لتحويل ثروة الامم الى خزائنها . وان من يقابل بين آثار احتلالها لمصر العملية كل هذه المدة مع توفر اسباب السلم وآثار الاجتلال الفرنسي على عهد بوناپرت مدة سنتين فقط مع كثرة الحروب الداخلية والخارجية .

يتعجب من اعمال اولئك الرجال كأنهم كانوا من نسل اقترض اليوم حتى من نفس الذين هو منهم يسمى نسل الجبارة فان اعمال الحملة الفرنسية العالمية لا تزال حتى اليوم موضوع اعجاب اصحاب الافكار في كل الاقطار

على ان نشر معرفة القراءة في مصر غير صعب ويمكن بسرعة ايضاً اذا ارادت الحكومة ذلك يمكن فيها رفع عدد الذين يقرأون الى ٦٠ و ٧٠ في المائة في زمن اقصر جداً مما يظن وذلك بجعل العلم اجبارياً كما ان التطعيم للجذري اجباري ايضاً واقامة المدارس البسيطة في كل المدن والقرى على نسبة عدد الاهالي . مدارس يعلم فيها اب ت ث وشي اكثر من « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » يعلم فيها المعلمون غير الجليلة والصياح وهز الرؤوس والظهور في اماكن ينفذها الهواء انظف من مذاود البقر يعملون فيها ان مصر قطعة من افريقيا وان الصحة تتوقف على النظافة والنظافة تقوم بغسل الوجوه واليدين والرجلين وتغيير الملابس وغسلها بالماء والصابون قبل ان تبلى على الاجسام وان النظافة لا تتوقف على الثنى فان فلاح جبل لبنان اقفر من فلاح مصر وهو مع ذلك في بعض الجهات انظف منه بكثير يلبس الثوب المرقع ولكنه يلبسه نظيفاً وان البشر كلهم خلقه الله ليس بينهم كافر او مؤمن ولا طاهر او نجس الا الذي رواحه يكاد يغمر عليك منها وان العبادات لا دخل لها في المعاملات « لكم دينكم ولي ديني »

وانا اسمع من هنا معترضاً يقول ومن اين ننفق المال على مثل هذه الاعمال والجواب ان الحكومة لو اهتمت لما وجدت الامر ممتنعاً على انه توجد طريقة والغاية تبرر الوسطة سهلة جداً وهي ان تكفل كل بلاد وكل قرية وكل دسكرة بنفقة مدارسها تؤخذ من مواردها المختلفة وما فقها بالشيء الكثير اذا توزعت على هذا الوجه وكنت اود ان ارى حكومة الانكليز التي يدها قياد البلاد تتصرف فيها كما تريد لما تريد تفعل امر التعليم في بلادها مثلما هي متغافلة عنه في مصر كيف كانت تقوم قيامة الشعب والجرائد عليها وانما هناك يوجد شعب يقوم وجرائد يخشى بأسمها . وهنا لا يوجد الا حكومة ان اصابته مرة فقد تخطي عشرين اذ لا رقيب عليها تحسب له حساباً لا من الشعب ولا من

الجرائد فلا هم لها الا ان تأمن شر المعاهدات لقضاء البانات فاذا امنت ذلك نامت على اذنيها كما يقول المثل الفرنسي ولا افهم كيف ينام الانسان على اذنيه . والمراد انها نامت مطمئة البال من كل لبال

على ان اللوم كله ليس على الحكومة وحدها فاعيان البلاد واصحاب الثروة منهم خصوصاً الجالسون في صدر القوم لا يسلمون من الملام لتقاعدهم عن كل الاعمال العمومية التي ينفعون بها ابناء وطنهم وتكسبهم الذكر الحسن فاننا لم نسمع بمشروع نافع مدوا اليه يد المساعدة غير بناء زاوية في مسجد واقامة وليمة لامير واحسان الى فقير والله غني عنهم والامير كذلك والفقير واحد الفقراء فابن المستشفيات التي تداوى بها الاسقام وتخفف فيها مصائب العباد التي جلبوها واي امير من امراء مصر واي وزير من وزراءها ممن ينفقون عن سعة وما ينفقون الا بما جمعوا من عرق الاهالي وقف شيئاً من ماله لاقامة مستشفى وبناء مدرسة تحديداً بالافرنج الذين يحبون تقليدهم في كل شيء وفيهم من جمع الملايين ولا نعرف له اثرأ ينفع الجمهور ينفق عليه من فضل ما جمع . فاذا كان هؤلاء الكبار الذين « يفهمون الصورة ايه » كما يقال في اللغة الدارجة لم يقدموا على هذه الاعمال فهل تنتظر ذلك من فلان الشيخ وفلان العمدة من اصحاب الثروة الطائلة الذي اذا افتخر فائما يفتخر كما افتخر ذلك المتصدي للولاية بان جده اكل حمل حمار من الخيار يتباهى الواحد منهم بانه يأكل خروفاً على « وقته » ويجمع قرابة ماء في « شربته » فهل من رجل خطير ينهض في مقدمة القوم والاهالي ينقادون لكبارهم يسعى في جمع شيء من المال للشروع في هذه الاعمال ويكون عوناً للحكومة فينال خالص الشكر ويترك من بعده جميل الذكر ليشكرهم المرضى بافضلة عظم الجليل عندها عظيم ما قاسته من الادواء ويشكرهم الاطفال بالسنه تعلمت ان تقرأ الف باء ثاء (١)

(١) قد تغير الحال جداً في مصر من ذلك العهد الى اليوم سواء كان في انتشار التعليم او في التعاضد في مسائل كثيرة اجتماعية من نفس الامة

## المقالة الحادية والاربعون

﴿ التعليم العملي <sup>(١)</sup> ﴾

نحن قد تسرعنا بطلبنا قلب نظام التعليم — لا من نظري بحت الى عملي بحت فان ذلك قد يعده بعضهم بدعة في الشرق وفي الغرب ايضاً — بل من نظري غالب الى عملي اغلب . ولكن الذي نسطره بلاء الاسف بعد سبع وعشرين سنة من الاحتلال البريطاني وبعد اكثر من مائة سنة من محمد علي الكبير هو ان المدارس الاميرية المصرية عوضاً عن ان ترتقي من هذه الجهة في هذا الزمان الطويل تهقرت جداً عما كانت عليه يوم اسسها ذلك الرجل الفطري العظيم فقد كان التعليم العملي فيها — وكل شيء نسبي — أوسع جداً منه اليوم . كان نظامها على عهد مؤسسها يتقصد منه تخرج رجال عمليين يكفون البلاد حاجتها ويشيدون استقلالها على اساس مكين . وبامات حتى اخذ ذلك النظام يتفكك والغاية الحقيقية المقصودة منه تحول الى ان اوشكت العلوم العملية ان تموت وحتى بلغت العلوم النظرية اوج زهوتها اليوم . والمصري بحكم الفطرة غير محتاج الى تقوية ملكة العلوم الجدلية فان قوة النطق فيه مستوفية النمو في كل مراكزها وانما هو محتاج ككل شرقي الى تقوية مراكز قوى العمل ولم تكف الحكومة المصرية بذلك بل ادخلت في مدارسها نظاماً هو في شرع كل منصف بدعة فقد قررت تعليم العلوم الدينية فيها وقد طرب لهذا القرار جمهور الامة واعضاء الجمعية العمومية وسيصفق له البرلمان البريطاني بكلمات راحية واقامت مسجداً فيها للمسلم والعدل يقضي بان تبني كنيسة للمسيحي وكنيسة لليهودي وهيكلًا للبوذي ومذبحاً للمجوسي فما من احد من هؤلاء الا وله في ذلك حق والحكومة ممثلة الجميع وتقاضى مالها من الجميع اللهم الا ان يكون معطلاً او لا يملك فيها شروى تدير فهذا يسقط حقه في الاعتراض ويحق له اذا كان يملك قيد شبر يدفع عليه الشيء النزر . وحينئذ لا يبق لزوم لتلك الجامعة الدينية الكبرى الا وهي



مدرسة الازهر اذ تصير مدارس الحكومة معاهد دينية بحتة . ولعل قلة اهتمام الحكومة اليوم بذلك المعهد الديني الكبير توطئة لهذا التحويل

على ان الحكومة لا تعمد نصيراً من متخرجي مدارسها اذا استمسكت بالتخصيص ولم تشأ التعميم ولا شي . اسهل عليها من استحصال فتوى من مدرسة اللاهوت الاجتماعي التي بجانبها تصدّرها « بما » و « لان » وتنتهي فيها « بحيث » وتكون اطول واعرض من فتاوي علماء الكلام في الاستحالة والوجود الواجب . تثبت هذا الحق وتدفع عنها هذا الاعتراض وتسفه رأي القائلين غير قولها وربما عدتهم من المصدعين

على ان الشعوب الضعيفة اول ما تفتح عينها تحب ان تشبه بالام القوية وحكومتها لا تأنف احياناً ان تنسخ نظاماتها عن نظمات اوربا ولو ان عليها مسحة من الف جيل . فاوربا نفسها شاعرة اليوم بهذا النقص في التعليم وهي وان لم تصرّح بطلب هذا القلب الكلي في نظامه محافظة على كنز موهوم واثباتاً لبقية باقية حتى في نظر الخاصة من اعتقاد العامة او خوفاً من تصعيب المطلب بتعميم الطلب الا انها تأتينا كل يوم بدليل على انها مسيرة في هذا السبيل الى غايته الكلية بما تطلبه من التغيير في الفروع الجزئية ومن احدث الانباء التي وردت الينا من هذا القبيل تقرير ضاف وضعه الدكتور رو صاحب اكتشاف مصل الدفتيريا لاصلاح التعليم في مدارس الطب تجدد خلاصته في الكلام الآتي قال

« ان التعليم في مدارسنا ليس كما ينبغي ان يكون فالاساتذة الذين يعلمون والطلبة الذين يتعلمون متفقون على هذا القول وجميعهم يعترفون بان الدروس النظرية متسع المجال لها كثيراً في مواد تدرك فقط في قاعات التشرح وفي معامل الامتحان وعند سرير المريض . ولا ينكر ان كلام الاساذ يحلو سماعه ولكنه مما كان يليقاً لا يسمعه ان يقوم مقام المشاهدة ولا مقام الاختبار . والاطباء الخارجون حديثاً من مدارسنا ناقصو الاستعداد سواء كان لاجراء البحث العلمي او لممارسة صناعة الطب نفسها واذا عرف العيب فلا شيء اسهل من تداركه وذلك بالاستعاضة عن الدروس الكلامية بدروس عملية في معاملنا ومستشفياتنا يتسع المجال فيها للعمل ويضيق فيها مجال النظر الا ما يلزم

من الكلام لشرحها وتفهمها « انتهى  
وهو كلام حق لا اعتراض عليه ولكن روري في مدرسة العمل بين انبيك الكياوي  
ومشراط المشرح ونخرج على ايدي اكبر عالم عملي واتى باعظم اكتشاف طبي علمي  
علمي معاً فلا غرو اذا رأى هذا الرأي الصائب ولكن هل يرى رأيه الذين تخرجوا في غير  
مثل هذا المكان . والتريب ان الحقيقة بسيطة ملووسة امامنا كل دقيقة ومع ذلك فنحن  
ندور حولها متلسين ولا نريد ان نهتدي اليها ولو وضعوها تحت انوفنا

## المقالة الثانية والاربعون

### ﴿ ماذا اكتب <sup>(١)</sup> ﴾

بيننا انا افكر في ماذا اكتب به اليك ايها البصير انجازاً لوعدي لك واقول مع الشاعر  
اتما المرء مثلاً السيف يصدأ عقله ساكناً بلا اعمال  
يصدأ السيف بالخباء ولو كان شديد الصقال حد النصال  
واذا بكتابك ورد علي يطالبني بالوعد ولكنه ورد علي في ليلة ينطبق فيها علي قولي  
كم تبيت الدجى وطرفي ساهم يرقب النجم في الليالي الطوال  
انت خال وملوء جفئك نوم وانا ملوءه حبوب رمال  
ولكن شتات بين السهدين فشهد الشاعر عن كلف بالحبيب يعله الامل بالوصال فهو  
عذاب في انتظار لذة وأما انا فن الم مبرح احرمني الرقاد وتركني ليلي كله اقلب علي  
سريري كمن يتقلب علي شوك القناد ليل خلت انه ليس له آخر كل دقيقة منه كأنها  
شهر وكل ساعة كأنها دهر

عذاب الفتى في يومه مثل عامه ولذته في العام يوم وينقضي  
ألم يسميه الاطباء داء الفاصل ويذهبون فيه مذاهب والاطباء كالشعراء يتبعهم

« المغرورون » وهم في كل واد يهيمون وأما انا فاقول مع الشاعر العربي  
وجع المفازل وهو ايسر ما لقيت من الاذى  
جمل الذي استحسنه والناس من حظي كذا  
والمر مثل الكأس ير سب في اواخره القذى

ألم انقض على كفتي اليمنى كأنه ونخر النصال واقفلها كأنني كلفت بها حل الجبال وعطل  
حركات اليد كلها فكأنني أصبحت اشل اليدين لان اليد اليسرى بالترية على قول البعض  
ومن اصل الفطرة على قول البعض الآخر عاجزة عن القيام بوظيفة اليمنى ومهما يكن من  
هذا القول فاني في مثل هذا المقام حسدت المسراي الذين يستعملون يسراهم كما يستعمل  
سائر الناس يمناهم ولو كان في ذلك شيء من الانحطاط كما يذهب اليه « دولني » ومن  
نحاهم من العلماء الذين يزعمون ان المياسرة اي استعمال اليد اليسرى دليل على الانحطاط  
واليمانة اي استعمال اليد اليمنى دليل على الارتقاء واستدل من ذلك على ان المرأة احط  
من الرجل لان المرأة تياسر اي تذهب في حركاتها ذات اليسار والرجل ييامن اي يذهب  
ذات اليمين وهذا ظاهر حتى في عرى ثيابهما وازراها فان حركة التزير في المرأة يسارية  
وفي الرجل يمينية واما انا فاخالف دولني في ذلك واعتبر ان المرأة من هذا القبيل ارقى من  
الرجل لانها اقدر منه على استعمال الحركتين

ولا اعتبر هذا الفرق من اصل الفطرة بل اكثره من نتيجة التربية فلوربي الانسان  
منذ الصغر على استعمال الحركتين على السواء لاستطاع ذلك ولعل الاباء والامهات في  
اليوت والمعلمين والمعلمات في المدارس ينتبهون الى هذه المسألة المهمة جداً في امر المعاش  
فيربون الاطفال على استعمال اليدين على حد سوى لا على استعمال اليد اليمنى وحدها  
زاجرين الطفل كلما عمل عملاً باليسرى حتى يرسخ في اعتقاد هذا الطفل المسكين ان  
استعمال اليد اليسرى ذنب لا يقتفر

ولا ريب ان اشد مصائب الانسان الامراض فالمرضى ولو كان ذا ثروة يسكن  
القصور ويتوسد الحرير مسكين تجوز عليه الشقة فكيف به اذا كان معدماً لا يجد مأوى  
يأوي اليه ولا فراشاً يستلقي عليه ولا ممرضين يمرضونه ولا اطباء يعودونه . واذا نظرنا

الى كثرة عدد هؤلاء المساكين في كل مكان وقلة ما اتخذته الهيئة الاجتماعية من الاحتياطات لتخفيف مصائبهم فلا نستغرب اذا رأينا الانسان ينقلب على الهيئة الاجتماعية باللوم والتعنيف وهو سبب من الاسباب الكثيرة التي تحمل الانسان على الخروج الى الفوضى ومحاوله دفع الشر بالشر واللوم في ذلك ليس على هؤلاء المساكين الذين اخرجتهم مراكرهم فاخرجتهم الى اليأس بل على الهيئة الحاكمة وعلى رجال الثروة من كل امة الذين في مقدرتهم مداواة هذه الادواء وهم لا يفعلون فيحملون الحاققين على الهيئة الاجتماعية على الايقاع بهم وهم يقولون

اذ لم يكن غير الاسنة مركباً فلا يسع المضطر الا ركبها

وافضل الوسائل لتخفيف ويلات المرضى خصوصاً الفقراء منهم اقامة المستشفيات الكثيرة في كل مدينة وهذه المسألة اذا نظرنا اليها في بلاد مصر خصوصاً وجدنا الحكومة والهيئة الاجتماعية مقصرتين فيها كثيراً فان المستشفيات الموجودة صورة لا معنى هي دون ما تدعو اليه الحاجة بكثير فان عدد الاطفال حتى لا تتكلم الا عن قسم من اقسام الهيئة الاجتماعية الذين يموتون والذين تصيبهم العاهات بسبب الامراض الكثيرة وقلة الاعتناء لا نبالغ اذا قلنا انه يتجاوز الثمانين في المائة فلو وجدت مستشفيات للاطفال مثلاً كافية وافية لمبط هذا العدد كثيراً وهبوطه ربح للحكومة والهيئة الاجتماعية فالخطأ في هذه المسألة من وجهين خطأ من جهة الاقتصاد السياسي وخطأ من جهة الانسانية لانه على صحة هؤلاء الاطفال وكثرة عددهم تتوقف ثروة كل امة وقوة كل مملكة

وانا لنعجب كيف ان شريعة البوذيين تناهت في هذا الامر حتى اقامت مستشفيات للحيوانات وشرائع الامم المتقدمة لا تزال مقصرة به حتى في حق ابناء جنسهم فقل للذي يتباهى ببناء حائط في كنيسة او زاوية في مسجد او باقامة ولية لاميير — والله غني عنه والاميير كذلك — ان كان يقصد بعمله هذا فخراً فبناء المستشفيات فيه فخر عظيم وان كان يقصد به اجراً فاجره من ذلك اعظم فقد اتفقت الشرائع المنزلة على ان علم الابدان مقدم على علم الاديان فذكر عليها تنفع الذكرى



## المقالة الثالثة والاربعون

## ﴿ كُتِّبْنَا (١) ﴾

يستغرب الباحث في طبائع العمران ما وصل اليه اهل المشرق عموماً والذين تجمعنا بهم جامعة الوطن والسياسة خصوصاً من الخول حتى اصبحوا على عاتق الاجماع وقرأ لو اطلقت عليهم شريعة النحل لقضي عليهم بالهلاك قتلاً لان النحل الجاني يقتل كل سنة النحل الذي لا يعود له نفع ويعيش على جنى غيره . أتفريت سنن الطبيعة وضلّ العلم في تقريره سنن الوراثة ام لسنا نحن نسل اولئك الذين بلغوا في معالم الحضارة القذح المملّى فنبغ الفينيقيون حتى قبضوا بأيديهم على تجارة العالم والمصريون حتى صاروا نبراس الامم يقصدهم الناس من الاقطار الشاسعة لآخذ العلم والفلسفة عنهم واستنارت افكار الفلسطينيين وسكان بادية العرب حتى قام منهم هداة الافكار وسنوا الشرائع التي يخضع لها اكثر سكان المعمورة اليوم في معاملاتهم وعباداتهم او ما هو السبب

حتى انقضت تلك السنون واهلها فكأنا وكأنهم احلام

ولا نلقى راحة سكان القبور بالبحث عن اسباب ذلك في ما تقدم من المصور بل نكتفي بالقاء نظرنا الى ما حولنا وقصره على جزء منا فان في ذلك تبصرة قوم يعقلون ونسأل انفسنا لماذا لا ينبغ منا كتاب شهيدون كما ينبغ في كل امة لاتنا مع احترامنا للذري اليسير من اصحاب الاستعداد الفطري الذين لو ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لربما كانوا يتمكنوا من اظهار مواهبهم الى درجة يتحدث بها الخاص والعام وتميد لهم في عيون الغرباء ما كان لابائهم من الشأن لا يسعنا الا الاقرار بان لا كتاب عندنا اذا ذكر كتاب المغرب ذكروا معهم كأنداد ينثرون الافكار ويستنزلون درر المعاني من سماء العقول حتى يُلْقَطْنَ باليد ويسرون شوطاً بعيداً من دون ان تخور منهم القوى . والسبب بسيط اذا علمنا ان الانسان ابن الضرورة وصنمية الحاجة . فلخاطب انما يجمع الخطب

لقوم يصطلون والكتاب انما يكتب لقوم يقرأون الاول لا يستطيع ان ينتقل من حاطب فقير يحمل الحطب على ظهره الى تاجر تعظم ثروته وتتسع تجارتها ان لم يجد من يشتري حطبه والثاني لا يستطيع ان يصير كاتباً مجيداً ان لم يجد من يقرأ كتبه فالشرق في تأخر عظيم من حيث انتشار العلم وعدد الذين يقرأون فيه القراءة البسيطة فقط شيء لا يذكر فلن يكتب هؤلاء الكتاب وكيف تحسن حالهم لتجيد قرائهم ويفرغون للاستفادة والافادة وهم لو فرغوا لذلك لطوام الفقر قبل ان يطويهم القبر وهذا ما حملنا على التنبيه في مقالاتنا اب ت ث الى وجوب نشر التعليم وشددنا فيها التكرار على الحكومة واعيان الامة بكلام اقرب الى التقرير بعيد عن الالتباس لاعتقادنا ان في ما تنبه اليه قوة لا يئالونها بدونه وغراً تتباهى سائر الامم بمديد السبق اليه أليس ما تراه من افتخار كل امة بكتابها واقامة التماثيل لهم بعد موتهم بمئات السنين من الدليل المقنع على ما لهم من اليد في تشييد معالم فخرها واحياء ذكرها . ولا يثنيانا عن ملامتنا اعذار يلتسبها بعضهم للحكومة تخفف من مسؤوليتها كهدم وفاء عدد المعلمين اللازمين لنشر التعليم بالسرعة التي طلبناها وما اخاله يراها متغايرة متهاكة في سبيل هذه الدعوة

ومن الاسباب القاضية على نبوغ الكتاب في المشرق سلوك حكومتهم معهم فقد تعودت الحكومة ان تنظر الى هذه الطائفة كأنها من الآفات التي ينبغي مقاومتها اكثر من تنشيطها لا تميز عفا من سمينها ولعل السبب عدم مقدرة كثيرين من الحكام على معرفة ما لها من الاهمية وما لكبارها من النفع في رفع شأن الامة وما مثل اكثرهم الا مثل ذلك الوزير الذي طلب اليه ان ينشط بعض المشروعات العلمية فاجاب ان مشروعه ان كان منه فائدة فهو ينجح من نفسه وعذره واضح اذ لا يعرف قدر الشيء الا ذووه . فها اجاد الكتاب في حكومة هذا شأنها ومهما اظهروا من الاستعداد لان يكونوا من التوابخ فلا يصادفون الاعراض منها بحملهم على احد امور ثلاثة اما كسر القلم واما تحديده ضدها واما اذلاله لها الاول يختاره اكابرهم والاخير يعتمد اليه ضاعفهم حتى يخط مقام الكتابة بهم والبلغ من ذلك في الاساءة تخريب ذم الكتاب ومشتراهم بالمال لا مشتري قلمهم ومواهبهم لنفع الامة بل مشتراهم ليكتبوا غير ما يفكرون او يصمموا عما يعتقدون والنتيجة

من ذلك في كلا الامرين قتل الافكار وافساد الاخلاق وموت الكتاب الذين يقتخر بهم وما وجدت الحكومات لمثل هذا . نعم ان غرض الحكومات من ذلك انما هو كف الاقلام عن توجيه المطاعن ضدها ولو علمت ان هذا السبيل انما هو السبيل الوحيد الذي يفتح الباب واسعاً لهذه المطاعن لانه اذا « مات منهم طاعن قام طاعن » لعدلت عنه الى السبيل القويم الذي يكسب البلاد اصلاحاً والحكومة اعتباراً وهو تشييط الكتاب الذين يدل استعدادهم على نزاهتهم وسمو مداركهم والاصفاء اليهم حتى يقتدي بهم سواهم ممن يجد ان الاقتداء بهم يبلغ لنيل المجد والمنفعة لا افسادهم لا افساد غيرهم بهم فلو سكت الحكومة هذا المسلك لقل الطاعنون عليها طمعاً يقصد منه التهويل اكثر من اصلاح بسبب سياستها التي ليس فيها شيء من الحكمة ولنبلغ الكتاب المشاهير الذين يرفعون شأن الامة ويشيدون فخارها فالفخر في احياء هذه المواهب لا باطفاء نورها وهم يحسبون انهم يتقون نارها

## المقالة الرابعة والاربعون

### ﴿ أم الجرائد ﴾ (١)

المشهور ان الجرائد من مخترعات اهل اوربا وان اول جريدة مطبوعة ظهرت في مدينة البندقية ( فينيسيا ) في القرن السادس عشر للميلاد . والذي علم لنا اليوم ان هذه الدعوى باطلة فالصحافة ليست من منشآت اهل اوربا فقد عرفها اهل آسيا قبلهم بزمان طويل كما عرفوا اميركا قبل خريستوف كولمبوس والطباعة قبل غوتنبرغ وكما عرفوا البارود والبوصلة التي عليها الموعول في فن سلك البحار وكما عرفوا كذلك صناعة الحزف ونسج الاقمشة البديعة التي لا يجاريهم فيها مجار حتى اليوم . والبلاد التي سبقت اوربا الى كل ذلك هي مملكة الصين اوسع ممالك الدنيا ارضاً واكثرها سكاناً

فمن ضمن الجرائد المعرة التي قرأ حتى اليوم في مملكة ابن السماء كما يسمون مملكة امبراطور الصين يوجد في مدينة بكين ( ومعناها عاصمة الشمال ) جريدة يومية تدعى « كين بان » ومعناها المجموعة السنوية ظهر اول عدد منها منذ الف ومائة سنة وجريدة أخرى شهرية تدعى « تسين راو » ومعناها المجلة ظهر اول عدد منها منذ اربعة عشر عشر قرناً والحروف التي استخدمها الصينيون لطبع هاتين الجريدتين من الخشب

« تسين راو » ابتدأت شهرية اي تصدر مرة في كل شهر وبقيت كذلك حتى اليوم واما « كين بان » فابتدأت شهرية كسالتها ثم وسعت مواضيعها ولم تقتصر على ما يهم الخاصة بل تقربت من العامة فاكثر نسخها وانتقلت يومية منذ سنة ١٨٣٠ لليلاد ثم زاد انتشارها كثيراً فاخذت تصدر ثلاث مرات في اليوم وسبقت امريكا واوروبا في استعمال الورق الملون للدلالة على طبعتها المختلفة قطعة الصباح لون ورقها اصفر وطبعة الظهر ابيض وطبعة المساء رمادي

وفي اول نشأتها كانت مقتصرة على تقييد الحوادث السياسية المهمة من دون ان تبدي فيها رأياً وذكر جميع الاخبار ذات الشأن التي كانت تأتيا من كل جهات الصين وملحقاتها اليابانية والالمانية والكورية نسبة الى بلاد انام وكوريا وهكذا كانت توقف قراءها على حوادث ايام السنة واصفة الاعياد والاحتفالات والجمعيات ولم تحرمهم كذلك من فكاهات القصص والحكايات الخرافية ولا من ترويض العقل بنشر الاشعار التي كان يوافيها بها مشاهير الشعراء

ثم صارت تبدي رأياً في الحوادث السياسية ولكن مع التزام جانب الاعتدال وتذكر كل ما يقال ويجري في المدينة كما تفعل اعظم جرائد باريز ولوندره . وبما يستحق الذكر ان هاتين الجريدتين لم ينصب عليهما غضب الحكام بالتعطيل والانفاء ولا ثار عليهما الشعب بالمظاهرات العدوانية والسبب اعتدالهما في كلامهما واتفاقهما على مبادئ هي بين الصينيين واحدة لمسك البلاد كلها بشريعتهما كأنها فيها رجل واحد ولعدم وجود الاحزاب بسبب ذلك وربما كان هذا هو السبب ايضاً في ان هذه البلاد التي هي بالحصر مهد الانسان ومنشأ العمران وام الجرائد التي هي من اقوى عوامل المدنية لم تقدم منذ مئات



من السنين بل لبثت واقعة كالبلية رأسها في الولاية حتى حركت عليها مطاعم الدول الاوربية من عظيمة وصغيرة وغنية وفقيرة فاندفعت نحوها كل يطلب نصيبه انكاثرا وروسيا والمانيا وفرنسا حتى ايطاليا هاجتها المطامع فكأنها اصبحت كما في قول الشاعر

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحي سامها كل مفلس

ولعل نفس السبب الذي اوقعها في الخول سيكون السبب ايضا لوقايتها من الوقوع في حبال الدول الاجنبية زماناً طويلاً فيتحول خولها الى نهضة بمحاكة الدول الغربية لها واقتباسها عنها أسباب تمدنها قهبا حينئذ حزباً واحداً وقوماً واحداً من جنس واحد ولغة واحدة ودين واحد فتزد عنها مطاعم الاحتلال وتحفظ لنفسها الاستقلال ولذلك يرجح ان الدول الاوربية تشتغل هذه المرة لمصلحة سواها ضد مصلحة نفسها خلافاً للمشهور حتى اليوم فالصين مستقبليها لها من قبل ومن بعد والآتي اضمن لها



## المقالة الخامسة والاربعون

### ﴿ الجرائد في الشرق ﴾<sup>(١)</sup>

مركز الجرائد في الشرق صعب جداً لان الجرائد التي تنتشر انتشاراً يترتب عليه اثر لا بد لها من معدات كثيرة لا تتوفر لها الا اذا كان جمهور الذين يقرأون كثيراً . والشرق ولا يؤخذ علينا في تأخر عظم من هذا القليل لان عدد الذين يقرأون محدود لا يكفي للقيام بنققات كل ما يكتب وينشر وربما كان هذا هو السبب الذي لاجله سيبقى الشرق محروماً زماناً طويلاً من الكتاب الاعلام والمؤلفين العظام والجرائد اثرها اعظم جداً من أثر الكتب لا تشارها بين الجماهير اكثر منها وسلطانها على الافكار اعظم جداً مما يظنه الانسان لاول وهلة لاستمرارها والفعل الضعيف

اذا استمر يكون له اثر . تتجمع عظيم جداً ومن أمثال العامة « الجبل على تمادي الايام يقطع خرزة البير »

فالجرائد قوة من القوات التي يعتد بها في الهيئة الاجتماعية بل هي القوة الاولى في المجتمع الانساني ولها المقام الاول في الحكومات المتعدنة لانها تستطيع على هذا المجتمع ما لا يستطيعه سواها فلا صولة الملوكة ولا سطوة الجيوش ولا قوة القوانين تعادل قوة الجرائد فالكاتب الذي يخط بقلم ضئيل على القرطاس الصقيل كلمات هينات ربما لا يدري ان كلماته هذه سيكون لها في الجموع اثر لا يصد ولا يقف عند حد

وبالنظر الى ذلك كانت الجرائد كثيرة النفع كثيرة الضرر ايضاً بحسب الخطة التي تسير عليها واللهجة التي تنطق بها فتكون كثيرة النفع اذا سكت طرق التنبيه الى مواضع الخلل والارشاد الى سبل الاصلاح وبث المبادئ الصادقة بين الجماهير بلغة لا تقطع في الالتئام الى التذلل ولا ترتفع في الطلب الى المحاشنة والضد بالضد . وما من أحد من أصحاب الجرائد الشرقية يجمل ذلك بل كل جريدة تصدر تبدأ ببيان خطتها والغاية التي تنويها في مقدمة تضمنها من المبادئ العامة ما يرتاح اليه كل عاقل ويرجو الخير منه كل قارئ ولكنك اذا تعقبت هذه الجريدة في مستقبل الزمان وجدت ان سلوكها في الجزئيات لا ينطبق على مقدماتها في الكلليات واذا خلوت باصحابها قالوا لك ما العمل فنحن انما نعيش في مجتمع يصدق عليه قول المعري

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

فنحن انما نفعل ذلك مضطرين لانا اذا صدقنا اغضبنا فنضطر الى المداخلة احياناً والى المجافاة احياناً اخرى والا جفت موارد جريدتنا . وثروتنا التي هي غالباً مجموع ارقام سلبية لا تساعدنا على الاستقلال وما تعود أهل الشرق في مثل هذه المشروعات التعاون على جمع رأس المال وهو عار يلحق باصحاب الجرائد وان لم ينهأ منه سواهم فالحق يقال ان السبب هو في عموم الهيئة الاجتماعية نفسها فنحن معاشر الشرقيين ما زلنا أطفالاً في سلم حياة المجتمع الانساني والاطفال لا يؤخذون بما أخذ الرجال ولا يؤخذون الا بالترغيب أو الارهاب والانفروا منك ولم يتقادوا اليك . وكما تكونون بولي عليكم . وهذا هو السبب

الذي لاجله اضطرت أكثر الجرائد المهمة بعد ان قصدت ان تسلك مسلك الاعتدال ان تقفز الى أحد الطرفين وتقسّم جرائدها الى جرائد « فرشة » وجرائد « قشة » فن لم تستطع ان تأخذه بمصا موسى شهرت عليه عصا فرعون ولكن ضعفت بذلك ضرورة خدمتها العامة وقويت مطامعها الخاصة ولا يخفى ما لذلك من الأثر السيء على المجموع لما لها عليهم من السلطة في تحويل الافكار

أقول ذلك عن جرائد مصر المعول عليها ولا ادمج في سلكها تلك الورقات البذيئة التي لم توجد الا لتشر المثالب الصيانية من دون تعقل والتي تقضي على الحكومة بان يكون لها قلم مطبوعات يردع مثل هؤلاء المتطفلين على الصحافة وليس عندهم أقل أسأل علي أو ادبي واغفل كذلك ذكر الجرائد الثمانية اي التي تطبع في الممالك العثمانية فان هذه الجرائد لا يذكروها عاقل الا لشجبها والقضاء عليها لا لانها ليس لها أدنى منفعة بل لانها مضرة وأي ضرر اذ لا شأن لها الا التويه والتقليق والتضليل والتفرير واتي أقسم بكل عظيم لو كنت ناظراً للمطبوعات في الممالك المذكورة وكان لي بعض السلطة لجمعت هذه الجرائد اكساداً وأحرقها على مشهد من العموم وكملت أصحابها بالحديد وألقيتهم في السجون الى يوم يتوسدون تربهم ويقابلون ربهيم ويمجاوبون عن كذبهم

وكأنني بك أيها البصير قد شعرت بصعوبة الخطوة وخرج المركز لان الخطوة التي وعدت انك تسير عليها وهي خطة الاعتدال صعبة جداً في مجتمع مثل المجتمع الذي يسير فيه اهل الشرق اذا مدحت لم ترض بمدوحاً لانك لم تبلغ بمدحه واذا انتقدت عدا انتقادك ذمّاً فاغضبت في الحالين

وكأنك علمت ان خطة كهذه لا تقبح الا في مجتمع بلغ من المدنية والاختبار والتعقل مبلغاً يصف معه سلطان الافراد ويقوى سلطان المجموع فيقلب فيه العقل على الهوى حتى يقوى على احتمال الانتقاد ولا يسكر بخمرة المدح فتقوى اعصابه حتى لا ترجها رجة الغضب ولا تهرها هزة الطرب

على ان ما لا ينال كلة لا يترك جلة واتي ارى ان المثابرة على خطتك اولى وتيجنها للبلاد أنفع ولو اعترضتها صعوبات شتى لا يجهلها من كان في مركزك لما للجرائد من السطوة

على الافكار ونحويل مجراها وانما ينبغي عليك ان توفي خطتك حقها كما وعدتنا في مقدمتك  
البلغة وانت تقول الحق ولو عليك ولا تميل مع الهوى وان تجنب المحابة والمداواة  
وخصوصاً ان تجنب التذبذب لاني اراك « كبالع موسى » أو كالضفدع في الماء

قالت الضفدع قولاً فسرته الحكيم

في في ماء وهل ينطق من في فيه ماء

نحوم على الحقيقة ولا تجسر ان تقولها بكلام صريح خوفاً من ان تغضب هذا ولا  
ترضى ذلك وان تجعل لعتك في الطلب بين الاتماس والامر وفي الانتقاد بين لين التليق  
وخشونة المجافاة أي ان تجعل كلامك كلام رجال يخاطبون رجالاً فان تهيج هذا المهيج  
فالمستقبل لك



## المقالة السادسة والاربعون

### ﴿ أرق ليلة ﴾<sup>(١)</sup>

أرقت ليلي لأزمة في الصدر هي لي أوفى الاصدقاء لانها لم تفارقني منذ حدثني  
وكم من صديق يتركك في الطريق — . فانتبهت وكأن على الصدر أثقالاً . وأخذت  
اجاهد كأني اعالج أجيالاً . ولما قلت حيلتي ونخت ان تطول ليلي قلت لعل الذي لا  
تفجع فيه عقاقير الاطباء تفعل فيه مطارحات الادباء . لان العلل العصبية كثيراً ما تتور  
وتزول بالعوامل النفسانية

ولكن من أين لي في هذه الساعة المدهمة بالشدودي ، وحافظ ، وسركيس ،  
والخازن ، ونصيري منهم في النهار لا يكون الا في ساعة معلومة ...

فقلت اطلب ذلك من بطون الاوراق . فمددت يدي الى ما حولي غير مخبر فوقعت  
على شيخ المجلات ناشر لواء العلم في الاقطار العربية كلها واظنك عرفت أي اريد  
المقطف . وان لم يكن لاصحابه سواء من الآثار لكني وحده لتخليد ذكركم والاقرار

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٧ بتوقيع « ممدى كرب »

بفضلهم . فقرأت فيه « أسايا <sup>(١)</sup> » و « الشفاء الغريب » . وقلت لعل بعض العلماء راجعون بنا الى ما وراء المنظور لحيلة قد انطلت عليهم أو لغرابة لم يفجل لهم سرها . والاعرب ان شيخ علماء العقليات الماديين « لمبروزو » الشهير مال ميلهم من قبلهم . ولو انهم اجتهدوا قليلاً لربما لم يجدوا صعوبة في تطبيق ذلك على الشائع المعروف من غرائب الطبيعة ولا استفنوا عن هذه الطفرة ولكن هذه المرة الى الوراء . ولكن ماذا نعمل بناموس « الرجعة » والانسان نسيج متوارثات

ثم قرأت فيه قصيدة عنوانها « فكتور هوجو » لنقولاً افندي رزق الله فاستوقفتي منها هذان البيتان

وبتنا وباتوا مثلما شاء ظلمهم      فريقين سادات قساة واعباد  
وخافوا اتحاداً بيننا فتوسلوا      بدينين للتمزيق عيسى واحدا  
قلت من هو هذا المعري الجديد ؟

\*\*\*

ثم وضعت يدي الواحدة ومددت الاخرى واذا بالنار يتلألاً فيها بانوار الجلال وهذه المجلة اكبر تمزية في قبره لفقيد الامة والدين حجة الاسلام في هذا العصر الامام الاكبر الشيخ محمد عبده القائل

ولست أبالي ان يقال محمد      ابل أو اكتظت عليه المآتم  
ولكن ديناً قد اردت صلاحه      أحاذر ان تقضي عليه المآتم

والغريب ان الانسان يستعمل عقله في كل امر فاذا وصل الى الدين عقل عقله مع ان الاديان بنيت غاياتها على العقول ووضعها اناس ان لم نسلّم جميعنا بانهم اولياء كرام فلا خلاف بانهم رجال عظام أي من ذوي العقول الكبيرة . والظاهر ان الشيخ رشيد يتوخى في مناره حل هذا العقال لتجريد الدين من كل ما يشين مما ادخله عليه صغار العقول من كبار المآتم وذوي الغايات السافلة من أصحاب المقامات العالية لتسلّم له حقيقة وهي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

( ١ ) المشموذة الشهيرة اشارة الى ما ذكره المتطّف من اهتمام العلماء بأمرها حتى اوقفهم في الرب

وبما قرأته فيه ترجمة حجة الاسلام ابي حامد الغزالي ولا خلاف في انه من اكبر ائمة الدين المصلحين والفلاسفة في الاسلام . حتى وصلت فيها الى قوله عن تربية نفسه بنفسه . « حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكرتُ عليَّ العقائد الموروثة » فذكرني ذلك قوله في أحد كتبه « لو لم يكن في ذلك الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى به نفعاً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يصبر ومن لم يصبر بقي في العمى والخيبة » وقوله أيضاً في محل آخر ما معناه « اذا وجدت تناقضاً بين العلم والدين فخير لك ان تعتمد الى التأويل من ان ترمي الدين بتهمة الضعف » وقلت في نفسي ان امة فيها مثل هذا الامام لا يستغرب نجاحها في معتزك الحياة

ثم قابلت ذلك بما قيل ونشر في الكتب وعلى صفحات الجرائد من عهد غير بعيد في أحد المشايخ من ذوي المقامات « ان من كرامات جده انه اكل حل حمار من الخيار » وقلت ان امة فيها مثل من تقدم كيف تأمن العثار

\* \*

وبعد ان فرغت من ذلك مددت يدي . . . وماذا أجد . . . ولا أخفي عليك يا بني شعرت كأني قد سررتُ عني . قلت هذه مجلة سر كيس . وسركيس هو الكاتب المتفنن الشهير ومجلته هذه على حداثة عهدها قد طبقت شهرتها الآفاق

فقرأت اولاً هجومه ولم أعجب لاقتراحه ذلك عن نفسه وهو أعلم من كل صحافي بطرق الرواج . والفخر لا يأتي دائماً عن طريقه المؤلف . وقد استوقفتني في قصيدة المجاز قوله

فهباء مثلك ليس فيه تكلف وارى مديحك كلفةً وعناء

وهي لناظمها الياس افندي فياض الهامي

ثم انتقلت الى باب حسنات الشعراء فقرأت الايات الآتية

من كل ناطقة الجلال كأنها أم الكتاب على لسان القاري

دلت على ملك الملوك فلم تدع لأدلة الفقهاء والأجبار

من شك فيه فظفرة في صنعه تمحو اثم الشك والانكار

قلت والبرهان بسيط — الى قوله

أوبابن داود وواسع ملكه      ومعلم للز فيه كبار  
هوج الرياح خواشع في بابه      والطير فيه نواكس المنقار<sup>(١)</sup>  
قلت ويا ليتها كانت أكثر اطمئناناً ويا ليت ابن داود كان عمر . ولكن الشعراء  
ياب عمر . . . . .<sup>(٢)</sup>

والايات من قصيدة لاحد بك شوقي يصف بها دخوله الاسانة يوم عيد الجلولس  
الهايونى — ولما فرغت من تلاوة هذه الاشعار قلت مقسماً ان أحمد هو ابو تمام هذا  
الزمان اذا علا لا يشق له غبار



ثم لما فرغت من كل ذلك تناولت شيخ المحلات الادبية بلا منازع ولو لم يكن له  
من العمر الا خمس عشرة سنة ناشر آداب القوم وصاحب المقالات الانشائية الاجتماعية  
والاقتصادية واللغوية والروايات التاريخية التي لم يسبق اليها في اللغة العربية واظنك  
عرفت اني اريد بهذا الوصف «الهلل» وفضل زيدان صاحبه على آداب العرب خصوصاً  
بعد الفتح الاسلامي لا يربو عليه فضل فقد حبب الى الناس مطالعة توارى هذه الامة  
في نهضتها وكبوتهها ، وسهلها عليهم بروايات ، واستخرج لآكيء تمدنها من مفاصها في  
مؤلفاته ، وفي الامرين له فضل المنشىء المجتهد والمؤلف المبكر

والعدد الذي وقعت يدي عليه هو الاول من السنة السادسة عشرة وفيه عدا عروس  
فرغانة التاريخية وغيرها من المباحث من المقالات الموافقة للمقام ما يدل على حسن ذوق  
صاحبه في انتقاء المواضيع « كاستقلال امريكا من سلطة الانكليز » و « مصر والشام »  
و « حرية الصحافة في انكلترا ومصر » . وفي مطالعة كل منها عبرة لقوم يعقلون ولا سيما  
في هذا الدور الذي بلغت فيه عندنا فوضى المطالب مبلغاً تاه فيه الزعماء قبل الاحزاب .  
فدرس اسباب ارتقاء الامم مفيد لنا فتجنب ضلالهم في عثارهم ونهتدي بهديهم في نجاحهم .  
ذلك خير لنا من اثاره هذه الحرب بيننا على احزاب لا وجود لها الا في رؤوس زعمائها

(١) من قصيدة لشوقي في مدح عبدالحميد (٢) اشارة الى ظلم عبد الحميد وعدل عمر والفرق  
بين مقام الشعراء في باب كل منهما

حتى سخر بنا النازلون بيننا من الامم الراقية من مباحثنا العقيمة . فكأننا نلنا كل ما ارتقت به الامم ولم يعد يتقصنا الا الاحزاب

والاحزاب يا سادتي اذا جاز لي هذا القول هي في نظام الاجتماع من الكاليات ونحن لا نزال في حاجة الى اقل الضروريات . ونشؤها لا يكون باتلاها بل تنشأ من نفسها متى اكتمل الاجتماع فزعماؤنا يحاولون ان يخلقوا في نظام اجتماعهم جسماً مشوهاً ولكي اثبت ان زعماءنا رؤوس بلا اجسام فلينهضوا ونرى كم ينهض وراهم . فائقوا الله في الامة التي انتم هداها وانظروا الى مصلحتها وابذوا الغايات . ذلك اجلب للمنفعة وادعى للفخر

اراني تهت في الموضوع فن الحلال الى الاحزاب بون شاسع ولكن تسلسل الافكار ينقلك من اقصاها الى اقصاها لاقل سبب : سنة الطبيعة في كل اعمالها

ثم قرأت فيه قصيدة لحافظ افندي ابراهيم في فكتور هوجو وفيها هذان البيتان  
كعب المنقي سطرّاً للذي جاده العفو ألا اقرأ وأعجب  
ابري\* يعفو عنه مذنب كيف تسدي العفو كف المذنب

وحافظ — ولا اطريه — شعره كالبنيان المرصوص متين لا تجرد فيه مهتداً . وقد لئنه يوماً على اقلاله وقلت له أعلل الشهرة اضاعتك فقال لي وهل نسيت المكان والزمان ام نسيت . . . فاقهتني عني ووجدته صادقاً في القولين . ثم قرأت له فيه هذه الايات في « مصر والشام »

ماذا جنيت وما جناهُ بنوكِ أظلمتهم يا مصر ام ظلموكِ  
فبسمت للغرب الطوبوح واهله ومنحتهم فوق الذي منحوكِ  
وعبست في وجه الشام وانما قطر الشام وان عبست اخوكِ

وكان بها مسك الحتام وختام التوبة . وقد انبلج الصباح وقامت الاطيار تغرد فقامت الى الورق ودونت فيه ما خالجنى من الافكار كما رأيت فان احسنت قتل ان من الشر خيراً وان من العسر يسراً . والا فلي تأسية بقول شيخ نهضتنا الحديثة امام المنشئين الشيخ احمد فارس : فصلته لكن على عقلي فا مقياس عقاك كان لي معروفاً



قال في وصف النوبة في الربو أي الازمة الصدرية المشار إليها في المقالة السابقة

في نوبة من النوب<sup>(١)</sup> اعدّها شرّ النوب<sup>(٢)</sup>

صحت من نومي مذ عوراً على صوت النوب<sup>(٣)</sup>

لكنّا انقامها ليس بها داعي طرب

فيها صرير وصفير وصليل وصخب

خرخرة حشرجة وكل أنواع اللجب

\*\*\*

وفوق صدري جبل يهوي به ثم يثب

ومن جيني عرق منحدر مثل الصب

والانف مفتوح الكوى مصفراً لا عن غضب

يمحّ في سحب الهوا وكم يعاني من نصب

\*\*\*

واذا أنا بالجوّ مربّذ باكداس السحب

ينلّنا بطر منه كافواه القرب

كأنّي ميزانة فكيفاً مال اقلب

وكلّا زادت به رطوبة زدت كُرب

\*\*\*

فذاك داء مزمن والطب فيه ما حطب

وقال في هذا المعنى ايضاً

وبي علة في الصدر لو انها خلت

لقد لزمتي والشقا منذ خلقتي

اكاد اذا ما فارقاني لحظة

كأنّي وما بي صرت عكس بني الورى

ففي صحتي دائي وفي راحتي السنا

## المقالة السابعة والاربعون

﴿ ان من العلم لسحراً ﴾ (١)

كلما زاد الانسان علماً زاد تفتناً في العمل فلا غرو اذا كنا نرى في عصرنا هذا على ما هو عليه من التدقيق في العلوم والاتقان في الصناعات اموراً يصنعها البعض ويشكل كشف سرها على كثيرين فيقبلها بعضهم كأمور روحانية ويحل بها الوم عنده محل الحقيقة مع انها ضرب من الشعوذة التي لا طائل تحتها والموجودة عند جميع الشعوب ولكن على صور مختلفة تناسب روح كل شعب . وكلها اما من باب صناعة استخدام القوى الطبيعية بطريقة محكمة التوقيع واما من باب الخفة . ومن هذا القبيل الكتابة الروحية التي يدعي اصحابها انها من صنع الارواح والتي كثيراً ما يتحدث بها القوم في مجالسهم كأنها من البراهين القاطعة على صحة ما يدعون . والغريب في ذلك هو ان هذه المسألة اخترقت صفوف العامة ودخلت الى قاعات العلماء وجرت المباحثة فيها علنياً في الجمعية العلمية الانكليزية وشوشت افكار البعض حتى تعرض اخيراً لكشف هذا السر العلامة لنكستر استاذ طبائع الحيوان في مدرسة لندن قادركه وهالك البيان

قصد العلامة المسمى اليه المدعو هاتر المدعي الوساطة بين الناس والارواح وسأله ان يستدعي له الارواح للمجابهة على سؤالاته . ولا يخفى ان الارواح لا تجاوب جهازاً وانما تتم عملها تحت مائدة يكون الوسيط ألصق بسطحها السفلي اللوح الحجري المعد لكتابة الاجوبة الروحية . ولإزالة كل شبهة يأمر الوسيط السائل بان يضع يده تحت المائدة على اللوح ويضغط عليه بكل قوته حتى لا يتغير وضعه والقلم يكون موضوعاً بين المائدة وبرواز اللوح بحيث لا يستطيع الانسان ان يستخدمه

فلنكستر تظاهر بأنه منذهل جداً من افعال القوات الروحية . واخذ يراقب حركات الوسيط جيداً فتأكد بان هاتر يكتب الجواب بسرعة عند ادخال اللوح تحت المائدة

لتسليمه للارواح . والوقت اللازم لذلك يطيلة هاتر تحت علي شتي ويحدث حينئذ بعض الاصوات ليخفي صوت صرير القلم على اللوح الحجري . وفي هذه الفرصة يكتب الكلمات السحرية اما بالقلم المد للارواح واما بطرف قلم آخر موجود تحت ظفر سبائه وقد لاحظ بان المرفق الذي يبق وحده ظاهراً من اليد كان يهز مدة هذا العمل المهم فلما ايقن لنكستربا اكتشاف السر حضر في اليوم الثاني ومعه احد الاطباء وقدمه كمنكر يريد ان يقنمه ولكنه هذه المرة لم يستظر استدعاء الارواح بعد عرض السؤال بل مد يده حالاً تحت المائدة واخذ اللوح فوجد الجواب مكتوباً عليه . ولا يخفى ان الوسيط لا بد ان يكون ماهراً جداً في توقيع الجواب وسرعة الكتابة

## المقالة الثامنة والاربعون

### ﴿ ظواهر لا تفسر <sup>(١)</sup> ﴾

الى صاحب جريدة « الكوريه دوريان »

قرأت في جرنالكم مقالة تحت اسم « ظواهر لا تفسر » منقولة عن جريدة « الكنستيتسيونال » بشأن ما رواه الدكتور « دلفيتش » الانكليزي من انه سمع صوت صديقه المتوفى في مدينة حلب يدعوه باسمه . سمع ذلك وهو مار بالقرب من بيت صديقه المذكور في لوندرة . وقد تحقق من اخبار البريد ان صديقه هذا كان يحتضر في الساعة التي سمعته يناديه فيها . والظاهر ان هذه الحادثة المستغربة أدهشت الجمهور وتحطت احاديث العامة الى نوادي الخاصة حيث كانت موضوعاً لمباحثات بعض ذوي المكانة في العلم وحسبها بعضهم برهاناً جلياً على صحة علم مناجاة الارواح

(١) عنوان رسالة باقة الفرنسية نشرت في جريدة « الكوريه ودريان » التي تطبع في الاستانة في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ . كتبها يوم كنت في الاستانة وقد مررتها مجلة الطبيب التي تطبع في بيروت . ونشرتها هنا قلاعها . اما الاصل الفرنسي فلم يحفظ عندي

وقد افاض الكاتب في الموضوع . على انه جعل جل اعتماده فيه على التاريخ فسر عدة حوادث تاريخية شبيهة بما تقدم . اما البراهين العلمية فقلما تعرض لها . لذلك رأيت ان اسهب الكلام فيها في المقالة الآتية لعلها تجلو الامر بعض الشيء .

لا يخفى ان الدماغ هو العضو الرئيسي للحس . وهو يتسلط على كل قوى حياة النسبة فيتأثر بما ترسله اليه هذه القوى بواسطة اعضاء الحواس التي لا يمكنها اتمام وظائفها الا بمقدار ما تسمح به حالة الدماغ الصحية باعتباره كونه مادة . فيفهم اذاً ان اعضاء الحواس ليست الا آلات لنقل التأثيرات الى المركز العام الذي هو وحده قادر ان يحكم فيها فيبقى ضررها بالقوة التي له على اصدار الاوامر اللازمة بحسب حكمه . وهذه القوة في الحكم والامر والنهي والعمل تختلف باختلاف الاشخاص والاحوال والبنية الموروثة والمكتسبة بحيث يختلف الشعور والفعل بحسب ذلك كثيراً

ومن ذلك يفهم عند ما تتأثر من الشعور بالسمع او البصر أو الشم أو الذوق أو اللمس ان هذا الشعور انما يكون في الدماغ وليس في الاعضاء الأخرى . فان هذه الاعضاء ليست الا سطوحاً ترسم عليها التأثيرات الآتية من الخارج والدماغ هو الذي يحكم فيها وانما يحكم فيها في مكان هذه الاعضاء نفسها وهذا ما يجعلنا ننسب الشعور الى الحواس نفسها حال كونه واقعاً في الدماغ حقيقة . وبعبارة أخرى ان مركز السمع هو الذي يسمع ومركز البصر هو الذي يبصر ومركز الشم هو الذي يدرك المشموم ومركز الذوق هو الذي يحكم على الطعم ومركز اللمس هو الذي يدرك الملموس وليس الاذان او العينان أو الأنف أو اللسان أو الجلد . وهذا الشعور سمي شعوراً خارجياً (١)

والشعور في الدماغ على طريق الحواس وهي الناقلة لهذا التأثير والمدركة له يظهر في باديء الرأي قولاً غريباً وامراً مستحيلاً . ولكننا اذا أمننا النظر نرى انه بذلك يحصل الدماغ على نظام اكثر ووضوح اتم في اعماله أكثرية المتواصلة . لانه لو كان

( ١ ) أي انه آت عن طريق الحواس من الخارج للفصل بينه وبين الشعور الداخلي الذي يقوم في الدماغ ويرد تصوره الى الحواس من دون ان يكون مع ذلك للاسباب الخارجية الواصلة دخل في الامر كروية شخص غير مائل امامنا وسماع صوت من دون وجود صائت على مسع منا

ينبغي لكل احساساته ان تتم ويحكم فيها رأساً في مراكزها الدماغية بدون معونة الاعضاء الاخر التي هي مراكز مختلفة ايضاً لتأثيرات مختلفة للزم ان يكون في وقت من الاوقات في غاية ما يكون من التشويش من تراكم الاحساسات التي ترد عليه والوامر المختلفة التي يرسلها على الدوام . ولنا على ذلك برهان اجلى على لزوم هذا النظام من الشعور الصادر من الداخل بدون تأثير خارجي والذي مصدره على الغالب الذاكرة . فالذاكرة تذكر الدماغ بالتأثيرات المرسلة اليه سابقاً من الخارج ولكنها تذكره بهما في الحواس الخارجية الخاصة كما هو الحال في الشعور المسمى شعوراً داخلياً

والشعور الداخلي هو تأثير داخلي محض لا علاقة له واصلة بالمؤثرات الخارجية وان بني عليها ويحصل في الدماغ عن تهيج فيه لاسباب قد تخفى احياناً كثيرة بعضه خاص بقوة الادراك التي تصور تصورات بسيطة او مركبة والبعض الآخر خاص بالذاكرة التي تحضر للدماغ صور الحوادث التي تأثر بها سابقاً وهي اما بسيطة كما يشاهد في الاحلام التي هي من نفس طبيعة التخيلات او غير عادية وتكون نتيجة مرض في حالة الدماغ العصبية . لان الدماغ مثل باقي اعضاء الحياة معرض لامراض عارضة وقتية او ملازمة دائمة عضوية او وظيفية . امراض يصبح ان تسمى خللاً عصبياً يكون على جملة وجوه ويحدث جملة ظواهر واحياناً يكون من الامراض التي تجلب اليأس للمريض والطبيب معاً . وفي درس الدماغ وامراضه ما يوضح لنا هذا الخلل العصبي الذي شوه في الماضي وسيشاهد ايضاً في المستقبل توضيحاً وان يكن قاصراً بالنظر الى جلاء الاسباب كنقص جلاء بقية التواميس الطبيعية والكبالية والحيوية الا انه يكفي لرفع كل شك بلبك العقول من هذا القليل

وبالحقيقة ما الفرق من جهة المصدر بين صوت ملفوظ وطنين اذن صادرين كليهما من الداخل ؟ لا يوجد فرق بينهما سوى ان الصوت الملفوظ مركب اكثر من الطنين الذي ليس هو الا صوتاً بسيطاً . فلماذا تعجب من سماعنا الاول ولا نلتق اذنى اهمية على الثاني . وما الفرق كذلك من جهة السبب بين صورة ترى ومصدرها داخلي و«بين» قشعريرة عارضة اورجفان عضو وكلاهما من مصدر واحد أي اتها داخليان ليس

للاسباب الخارجية الواصلة دخل فيها ؟ والجواب على ذلك ان لا فرق بينهما مطلقاً بل نحن نعلم جيداً بان رجحاناً شديداً عارضاً في عضو ما عائد الى تشويش وقي في المركز المحرك او في الاعصاب الناقلة للسيال العصبي . فان كان الامر كذلك في الحوادث المذكورة فلم لا نسلم بصحة ذلك ايضاً في المرثيات والاصوات الداخلية بدون ان نفتش على التعليل عنها في ما هو فوق الطبيعة

الدماغ بالنسبة الى هذا الشعور الداخلي اما صحيح واما مشوش تشويشاً عارضاً واما مريض تماماً كما في الجنون

في الحالة الاولى هذا الشعور الداخلي او هذه التخيلات كما يسببها البعض هي بسيطة يعني اننا نسمع صوتاً بسيطاً او مركباً او نرى صورة او صوراً ولكن على نوع هو بهذا المقدار سريع حتى لا يكون لنا وقت لتحقيق ما يجري فينا وهذه الحوادث تعرض تقريباً لكل الناس وأنا من جملة اولئك الذين سمعوا آخرين يدعونهم باسمهم مراراً كثيرة وغالباً من اناس اعرفهم وحدث لي بأني وقعت احياناً في الطريق لتحقيق الذي يدعوني مع انه لم يكن لذلك حقيقة في الخارج ولم يكن سوى تخيلات

وفي الحالة الثانية الامر اهم . فاننا نظن اننا نرى اشخاصاً تبقى صورتهم مرتسمة امامنا مدة طويلة ونسمعهم احياناً يتكلمون ويستمررون على حديث طويل فيه بعض الالتلاف . وهذه الحالة اندر مما تقدم وقد رويت عن كثيرين من أصحاب العقول الثاقبة وكان جان چاك روسو من هذه الرتبة فكان كلما انفرد يخال نفسه انه مع اشخاص يكلمونه والاحلام هي من هذا القليل وتدل على تشويش وقي في الادراك

والحالة الثالثة اشد جداً مما تقدم . الدماغ في حالة التخيل والانخداع الدائم كما في الجنون . ويختلف التخيل عن الانخداع بانه شعور داخلي محض متعلق بانحراف عصبي مركزي . والانخداع متعلق بانحراف محيطي في الاعصاب الناقلة نفسها فتنتقل التأثيرات الخارجية على غير حقيقتها

والاعتراض الوحيد الممكن في مثل هذه الاحوال هو ما يأتي : لماذا نرى احياناً ان الامور تتم كما تتي عنها او توحى بها أو تشير اليها التخيلات فاجيب على ذلك وعن

الاحلام ايضاً جواباً بسيطاً وهو ان كل ممكن يجوز ان يتحقق ولكنه لا يتحقق دائماً وهذا ما يجعل اكثر التخيلات لا تتحقق غالباً . هذا وان عدداً عظيماً من الحوادث المذكورة في التاريخ القديم حكايات لا طائل تحتها كما ان الحوادث المأخوذة عن التاريخ الحديث ربما كانت اختراعات المدعين علم ما فوق الطبيعة

القسطنطينية في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٦

## المقالة التاسعة والاربعون

﴿ صدي النفوس <sup>(١)</sup> ﴾

« ورجع الصدى »

مي قصيدة بثت بها الى الهلال وقد ضمنها رأيي في اقتراح الهلال على الشعراء « ان الذين جزء من الوجدان واكبر تعزية لبني الانسان » وصدرتها بمقدمة في الشعر والشعراء قلت فيها

كلمات املاها عليّ اقتراح الهلال تكاد تكون غير متفأة ليس لها من رنة الروي ما ألفتة الاسماع العادية من تناسب الوقع . والروي للشعر العربي كالموسيقى للغناء . فان لم تبلغ في اجادة المبنى حدّ الإفادة في المعنى فهي لغير شاعر

شعر ليس له من صناعة التنظيم غير الوزن . عاطل من كل جمال الأجلي الحقيقة ولكن الحقيقة فيما يقال ليس لها جمال الخيال . فان فعل في البعض فعل الوباء في الجرذ فالاطباء كالانبياء انما ارسلوا رحمة للعالمين

موضوع ينبو الفهم عنه وليس يلزم ان يكون سليماً . ولقد قال احد الحكماء اذا قرأت شيئاً ولم تفهمه فاحص فهمك أولاً واحذر ان يخونك العلم اذا صدقك الفهم صوت من بين ملايين ملايين الاصوات هل يجزع منه . وان لم يضرب على وترها

فهل يقدها لذة نعمها وهل تكدر قطعة صفاء البحر العظيم اذا وقعت فيه . وان كدرتة  
فما اعظم حماة

ما احلى الالاماني لولا انها خيال شاعر وما أمر الحقيقة لولا انها السبيل الى الرشاد  
خواطر اوحث بها الي تلك النفس الطاهرة صاحبة نفوس الشعراء (١) فقلت ابن  
نفس القائل :

وان مدح الناس حق وباطل      ومدحك حق ليس فيه كذاب  
اذا نلت منك الود فالل هين      وكل الذي فوق التراب تراب  
من نفس القائل :

اقول للحيان وقد صفرت لهم      وطايب ويومي ضيق الجحر معور  
هما خطئا إما اسار ومنة      واما دم والقتل بالحر أجدر  
واخرى اصادي النفس عنها وانها      لمورد حزم ان فعلت ومصدر  
هذا قاله شاعر البداوة على قمة جبل يلقي عليك به درساً عالياً في الاخلاق ولم يثنه  
الإباء عن مآثي الحصافة والحزم لئلا تكون الصلابة القاصمة خرقاً في سياسة المنفعة  
وذلك قاله شاعر الحضارة قائماً يسأل على اعتاب المدينة مع انه امير شعراء المولدين  
في صناعة النظم وكبر النفس

أنت تستطيع ان تترجم شعر هوجو وموسه وروستان وتستفيد من ذلك غرضاً  
اجتماعياً وبخاً ادبياً اخلاقياً وعبرة تاريخية . ولكنك لا تستطيع ان تترجم شعر المتنبي وابي  
تمام والبحري ولا ان تستخلص منه شيئاً من ذلك غير بعض الحكم والامثال مشتتة في  
تلك الادغال لا رابط ينسجها . ولماذا ؟ لان هوجو اطل في شعره على العالم اجمع فنظر  
الى الحقائق وبما له من قوة الخيال وحسن السبك ربطها وكساها من شعره حلة مهيبة  
رهية في النفس كما كساها موسه رقة وجمالاً وروستان نظر الى الوقائع فاكسبها من قوة  
خياله ومثانة شعره وقفاً في النفوس جعلها ابلغ في العظة

( ١ ) مقالة بهذا العنوان المرحومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الحوري الشرتوني نشرت في المتطفت  
في شهر مايو سنة ١٩٠٨



فلو عني المتبني واقراءه بالامور نظيرهم وقصدوا فيها الى مراحي اجتماعية عالية اكان خاتمهم خيالهم ؟ او ما كانوا فاقوا شعراء الافرنج في دقة الوصف وقوة التصور وسعة الخيال . فعوضاً عن أن يتبسطوا في ذلك الاسلوب الجاهلي ويضعوا لنا ما اذا روي روى مطامع النفوس وظلماً العقول — بل عوضاً عن ان يفخوا التحق الذي نحاه بعدم شعراء الافرنج في وصف الطبيعة الصامته والناطقة وينزعوا الى اغراض اجتماعية استفواهم ذلك البذخ الذي عاشوا في وسطه واستهوت الخلاعة نفوسهم فاذلوا لها قرائعهم ونهجوا في شعرهم ذلك المتهيج الغريب في المدح والغزل والتصانيب والاستجداء حتى غلب هذا الاسلوب على صناعة الشعر العربي والفتة الطباع واستسهلت السلائق لعدم الارتباط فيه بقيد وصار جماله لا يقوم الا بالاغراب في تلك المعاني المبثثة

وكيف يترجم ردف بقصد صاحبه كأنه كئيبان عاج وقلب يحرق بناره الرجلين ويثب من الصدر الى العين . وقد رأيت قلباً خرج من تحت الابط في صدمة قطار ولكنني لم ار قلباً تخطى سنن الطبيعة في خروجه من الجسم والشاعر العربي الذي يمكن ان يترجم اكثر شعره من غير ان تفقده الترجمة جماله هو شاعر الحقائق القائل :

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له      ولا صلاةٌ ولا صوف على الجسد  
وانما هو ترك الشر مطرَحاً      ونفضك الصدر من غلٍّ ومن حسد  
ما دامت الوحش والانعام خائفةً      فرساً فما صح امر النسك للاسد

والقائل :

وقد زعموا هذه النفوس بواقياً      تشكل في اجسامها وتهذب  
ولو كان يبقى الحس في شخص ميت      لا ليت ان الموت في الفم اعذب  
والذين يقولون هذا القول هم الذين يحبون الحياة اكثر من سواهم . والقائل :

كذب الظن لا امام سوى « العلم » مشيراً في صبحه والمساء  
انما هذه المذاهب أسبا      بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء  
ولا شك ان أبا العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء قاطبة واكثر شعراء العرب علماً

وارجحهم عقلاً وهو الوحيد بينهم الذي ترفعت نفسه عن تلك الدنايا ومال عقله عن  
سفساف القول الى الحقائق ومحاربة الضلال

لا اقول ذلك خطأ من سليقة شعرائنا المولدين من متقدمين ومتأخرين فانهم وأيم  
الحق اعلی الشعراء كعباً في الصناعة واوسعهم خيالاً ولا اقول اسماهم . وانما اقول ذلك  
طعناً في اسلوبهم العقيم المبذل فانهم وقفوا تلك القرائح المجيدة على امور لا تفيد القاري  
فائدة ادبية او اجتماعية او تاريخية ولو كتبوها نثراً لخلجوا من دنا نفوسهم وسخروا من  
اغراب عقولهم

ولعله كان للمولدين من شعرائنا يدٌ ليست اقل شؤماً من يد علماء الكلام في  
تقهقر التمدن العربي كما ان تلك الاشعار الحماسية في عصور الجاهلية وأثرها في النفوس  
كانت مبعثاً لقيام دولة العرب في الاسلام وبزوغ تمدنها وبلوغها فيه الشأو الذي بلغته  
ولعلنا اليوم على فجر نهضة جديدة فأني أرى من بعض شعرائنا نزوعاً الى وضع الشعر  
في اسلوب يرمي الى غاية اجتماعية ولا نعدم قرائح متوقدة من شعرائنا المطبوعين فلعلهم  
لا يلبثون طويلاً حتى يرونا منهم امثال هوجو وموسه وروستان وسوام فان النظم طوع  
بنانهم فما عليهم الا ان يعملوا عقولهم ويحيوا نظرم في ما حوهم فلا تضن الطبيعة عليهم  
بمكوناتها والاجتماع باسراره والتاريخ بعبئه ولا اقل من ان يدخلوا بنفوسهم الى  
أعماق نفوسهم

أما القصيدة فهذه :

فؤادك ما بين المنية والمنى يسائل ام ما في حجاجك من الظل (١)  
اذا ما ترامى العقل بجلو حقائقها شكا القلب ان النبن في ذلك الجلال (٢)

(١) أفتبك الذي وقف بك بين الموت ومنى النفوس بالبقاء يتساءل لتحقيق ما به من الرجاء ام  
عقلك الذي وقف بك هذا الموقف لما به من الظماء لاستجلاء الحقائق والشفف بها ؟ (٢) اي ان  
العقل كلما انجلك له الحقائق قلت امانى القلب فشكا النبن فكان كثرة الاماني فيه وانجلاء الحقائق للعقل  
على طرفي تقيض لا يجتمسان

|                                      |                                       |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| وما النّبين الاّ أن يرى القلب هائماً | وتنحني على العقل الحقائق في الدني (١) |
| لقد قلت ان الدين ضربة لازب           | وجزة من الوجدان في اعماق الحشا (٢)    |
| وانا اذا لم نعبد الله ربنا           | عبدنا ولو الاّ (٣) اقناه من صوى (٤)   |
| فلولا من النفس السجينة بارق          | يمزق مسجف الجسم ما كان ذا الصبا (٥)   |
| ولوانت أعلمت الروية لا الهوى (٦)     | لادركت ان الدين لا صوت بل صدى (٧)     |
| صدى حبنا البقا لهول حقيقة (٨)        | وزلني دلفنا للذي يحفظ البقا (٩)       |
| وماذا عزاء المرء من بعد موته         | اذا حبة للذات لم يدفع الاذى (١٠)      |
| وأنى له دفع القضاء محملاً            | فلم يبق الا باسم الوهم مرتجى (١١)     |
| هو الحب اكسير الوجود بلا مرا         | ولولاه ما كان الوجود كما ترى          |
| فكل الذي تلقاه في الكون سره          | وهاديه في افاله ككيفنا نحا            |
| هو الحي مولوداً هو الميت فاناً       | هو النجم قد أسرى هو الصبح والدمج      |
| هو الكل في كل مبيداً ومبدياً         | وما نحن الاّ فيه من صور الفنا         |
| وليس فناء ما نراه وانما              | هو العود للاولى هو البعث للآلى        |
| قضوا خيبتنا واقضينا بعودنا           | اليهم وغير الكل ليس له البقا          |

(١) أي ان النّبين الحقيقي هو ان يرى القلب مسترسلا في امانيه والعقل جاهلا للحقائق لان ذلك شر في الدنيا مؤكّد (٢) الوجدان عند الطبيعيين هو الذات التي يقوم بها شعور الفرد وهو في اجزاء البدن وملامز له . وهو النفس عند سواهم ويتفضي ان يكون مفارقاً مستقلاً (٣) الاّ الاّ الله (٤) جمع صوة وهي علم من حجارة (٥) فلولا طموح النفس الزلية في الجسم الى المرجع الاعلى ومحاولتها تمزيق الحجاب الذي يبعدها عنه لما كان بها هذا الخين اليه (٦) يريد بلهوى اميال القلب (٧) وبالصوت والصدى الجوهر والعرض (٨) اي لهول حقيقة الموت (٩) أي صدى حبنا البقاء ولما كانت حقيقة الموت صادعة رجونا البقاء في صورة اخرى . وتزلنا للذي غلظناه بقدر ان يهينا هذا البقاء (١٠) قال اذا كان حبنا لقائنا لا يدفع عنا اذى الموت بما يتخلق فينا من الامل بالبقاء بعده في صورة اخرى ذاتية فاذا يكون عزاء الانسان بعد الموت اذا كان هو مشتهى حياتنا الحقيقية وليس لنا ما يدفع عنا هذا الموت الذي لا مفر منه والانسان لا يفارق هذه الدنيا الاّ مكراً (١١) ولما كان ذلك كذلك لم يبق له من الرجاء بالحياة الاّ ما يسم له من الوهم بأنه خالد فاحب الاستسناك بهذا الرجاء ولم يشأ التعمق فيه ليعلم هل هو حقيقي ام هو منالط نفسه فيه لانه رجاء يحمله

وما الحب من ادنى فاعلي الى الرجا  
ترقى بنا حتى النهى وهو دونها  
حيثا (٢) الذي فينا حيثا رجاءنا  
وهما به في الارض طوراً وثارة  
فما فوق الا الشوق في كبد السهى (١)  
كما في نيوب الليث او في حشى الصفا (٢)  
حيثا الذي نرجو كحب لمقتى (١)  
صبونا الى ملك وطوراً الى السما (٥)

عبدنا به رباً مثيلاً معاقباً  
رجوانه رجاءنا اردناه عادلاً  
دعونا اليه الناس بالحلم والتقى  
ويقضي ولا ردُّه ويقضي كما يشا  
خشيناه جباراً كملك اذا عتا  
دعوانهم بالنار والسيف في القلى (١)

(١ و ٢) ان حب الذات هذا الذي ترقى بنا من ادنى الى اعلى الى الرجا فانصى درجات الكمال العقلي ليس خصيصاً بنا بل هو مبعوث في جميع مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان وهو نفس الشوق او الجاذبية العامة التي تحفظ نظام الاجرام المعب عنها بالسوى ونفس القوة الموجودة في الحيوان الدائم غن نفسه بسلاحه ونفس القوة الموجودة في الجماد الحافظ لقاته بالجاذبية الالتصاقية والانتفاجية المروعة بالالفة ايضاً . يريد بذلك ان كل القوى الموجودة في الانسان موجودة في سائر ما دونه من الكائنات وان الاختلاف بينها اختلاف نسبة فقط وارتفاع في التركيب وانها كلها تعمل لغاية واحدة هي حفظ الذات . اي انها كلها من اصل طبيعي واحد كما في قوله :

لولا الهوى وبديع الشوق يهديه ما صح في الكون معنى من ممانيه  
ولا سرى النجم في المياه وانتظمت له المواقع تقصيه وتدنيه  
شوق تكامل من ادنى الوجود الى اعلى فاعلي الى اعلى اعاليه  
حتى تنهى قلب المرء تلهيه نار من الحب يدكيها وتدكيه

(٣) حب الثلاثي غير مألوف ولكنه جاء في قول الشاعر \* ووالله لولا تمره ما حبته \*  
(٤) ثم فر هذا الحب بانه محبة الذات الفريضة فينا التي نجعلنا نجح كل ما فينا ونحب بقادما وهي التي جعلتنا نجح رجاءنا لما تولد فينا جأ يقاومنا ونحب الذي رجونا منه تحقيق هذا الرجاء واستسكاننا بذلك استسكاننا بكل شيء حبيتنا فامتلكناه (٥) اي قنا بهذا الحب نهي في طلب رغائنا فطيناها اولاً في الارض فبهدنا الجماد والنبات والحيوان والانسان قسه ثم صبونا الى السماء فبهدنا الشمس والكواكب . وكنا كلما انجحت الحقائق لنا اكثر تنتقل فيه من شيء الى اخر حتى طفرنا الى ما وراء الطبيعة (٦) اي عبدنا رباً تصورناه كمائة ملكونا واطلقنا عليه كل ما اطلقناه عليهم وتقرينا اليه بالخوف والتعلق كما تهربنا اليهم ودعونا الناس اليه تارة باللين وثارة بالشدة بحسب مركزنا من القوة او الضعف وبحسب مصلحتنا

فان كان هذا الميل هدي نفوسنا      رؤيتك ان الكائنات به سوا<sup>(١)</sup>  
فاين مكان النفس فيها من القوى      واين نبي العالمين الى الهدى<sup>(٢)</sup>

وان كان كالوجدان غير مفارق      فلم لا نراه في جميع بني الورى<sup>(٣)</sup>  
ووجداننا هل أنت الفيت انه      يقوم بغير الجسم ان حل<sup>(٤)</sup> ما استوى<sup>(٥)</sup>  
ألم تر أنا فيه تحت طواريء      تعدد<sup>(٦)</sup> فيها أو نعد له الرقى<sup>(٧)</sup>

اذا ما منينا بالحقائق مرة      فهل في القمي خير ما يبلغ المني<sup>(٨)</sup>  
نقيم به من حائل الوم معقلا      وكذا نلاني ان نشأ دكه عنا<sup>(٩)</sup>  
تري المرء في رشد الى أفق دينه      هناك يغيب الرشد والصوب والنهى<sup>(١٠)</sup>

ولوع القمي فيه ولوع بعادة      ترسخت الاجيال فيها على المدى<sup>(١١)</sup>

( ١ و ٢ ) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود حبا يقاتنا دليلا على صحة هدى نفوسنا افلا ترى اننا وسائر الكائنات فيه سواء فاين معبودها واين نبيها اليه وكيف تفرق نفوسها عن قواها اللازمة لها اسوة بما فعلناه في اقتناعنا نحن ؟ ( ٣ ) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود كالوجدان غير مفارق كان يقتضي ان يكون تاما على الجميع كالوجدان والحال ان كثيرين لا يشعرون به ( ٤ ) الضمير للجسم ( ٥ ) الضمير للوجدان . ثم عطف وقال ان الوجدان نفسه ليس شيئا مستقلا عن نظام الجسم وتركيبه فلو حل الجسم ما استقام الوجدان ولا بقي له من اثر الا مثل ما في البسائط المنحل الجسم اليها على حد قوله : ان اركاننا تدوم وثقي تلك اعياننا تميش سنيانا

( ٦ ) اي يشدد ( ٧ ) وعزز ما تقدم بقوله ان الطواريء التي تمرض الجسم في الحياة كالامراض والآفات تؤثر في هذا الوجدان فتجعله غير واحد في الجسم الواحد فتري الانسان مثلا في وجدانين متميزين . فاما ان نمل ذلك حينئذ بان الوجدان حالة من احوال البدن كالصداع والزكام مثلا ونعالجه كما نعالج سائر امراض الجسم والا فتضطر الى استعمال الرق لزوم القول حينئذ بالحلول المتعدد اخراجا للارواح الشريرة كما يفعل المشعوذون وهذا مناف للملم كما لا يخفى ( ٨ ) اي اذا كانت الحقائق على غير ما نحس ونهوى فهل تمنينا قلب الحقائق ويقلنا ما نرغب ( ٩ ) فضلا عن انه لا ينفكنا مرفوينا هو كثيرا ما يقوم حالنا في سبيل ارتقائنا اما بالانصراف اليه عما به منقعتنا في هذه الدنيا واما بوقوفه عقبة في سبيل كل اصلاح بما يكسبنا به من الجود فلا ننتقل عنه الا بكل مصوبة وبشورات كثيرا ما تجلب الدمار ( ١٠ ) اي ان الانسان يستعمل عقله ولا يأني البحث حتى يصل الى دينه فيفقد حينئذ كل رشد ( ١١ ) اي ان الانسان يستمسك بالدين كما يستمسك بكل مادة اخرى انتقلت اليه بالوراثة والتي يكون سلطانها اشد وارسخ كلما تكررت في الاجيال

ولكن العادات مهما تضاءلت فانموسها الرجى وانموسنا الرجا (١)  
 لئن كان في الاديان ردع لجاهل فكم قد جنى جان علينا بها بنى  
 وان كان فيها من عزاء لبائس ولكنها لا تقنع العقل والحجى  
 وان يك للانسان قسط مؤجل فهلا هدى هاد بنير الذي هدى  
 اذا كان مخلوقا كما شاء ربه فاذا جنى غير الذي ربه جنى  
 وان قلت مخلوق وحر مهذب فهذا مقال لست افهمه انا (٢)

## المقالة الخمسون

هل في الوجود عالم آخر (٣)

(١)

سيدي صاحب الهلال

اني ارتاح دائما الى قراءة هلاك وانتظره بتشوق لطلاوة مباحثه . وقد قرأت في  
 عدده الاخير مقالا لك في « هل في الوجود عالم آخر » استرسلت فيه من مقدمة الى  
 أخرى الى وضع هذه الاولى وهي : « ان نظام هذا الكون يدل على حكمة فائقة في

(١) اي ان العادات مهما ضمنت بالعلم قلما يستطيع الانسان ان يتخلص منها بسهولة لحضوعه  
 فيها لناموس في الوراثة شديد الوطأة هو ناموس الرجعة (Atavisme) ويراد به انتقال صفات  
 الاجداد الطبيعية كانت ام ادمية الى الاحاد ولو لم تظهر في الابناء كانتا تمر فيهم كامنة الى سواهم ولذلك  
 كان من الصعب جدا ان يتخلص الانسان من اثر المتوارث ولو مهما ارتقى الا في الاجيال البعيدة  
 والمصير المتطاولة . وبناء عليه فالرجاء معقل لنا قوي لانه عريق فينا اولا ولانه آخر ملجأ لنا نلوذ  
 اليه دفعا لما نكره حبا يقاومنا فلا غرو اذا استسكننا به واندفعنا معه الى غير ما تدلنا عليه الروية  
 (٢) الايات كلها مثلها في قولي :

قسم الناس بين خلق مجازى ثم قوم بعد ذلك مجونا  
 بين خلق نمد فيه الماعى ونمد المألوم والمسكين  
 هل درتم بما جيتتم فظلو مون اثم واتم الظالمونا

(٣) نشرت في مجلة الهلال سنة ١٩٠٩

وضعه ونرى هذه الحكمة في كل عمل من الاعمال المادية « ثم نظرت الى الاعمال الادبية فقلت « اما الاعمال الادبية قلما نرى حكمة فيها » . واستنتجت من ذلك ان الحكيم الذي وضع هذا النظام الكامل في العالم المادي لا يعقل ان يدع هذا النظام غير كامل في العالم الادبي فلا بد ان يكون قد جعل لهذا الكون « تمة تسد هذا النقص » ولما لم تظهر لك هذه التمة في هذا العالم البادي قلت « ولا يمكن ان يكون ذلك الا في عالم آخر نظامه متم لهذا . وبما ان ذلك النقص متعلق رأساً بالانسان فلا يسد ذلك الخلل الا اذا وجد الانسان في ذلك العالم وهو لا يكون هناك الا مبعوثاً » . اهـ

وليس غرضي هنا النظر في النتيجة التي اتصلت اليها كما بدا لك مع ما هو معلوم من ارتباط الاعمال الادبية بالاعمال المادية نفسها وارتباط نظام الكل بالكل مما يجعل مثل هذا القول ضعيفاً . بل توجيه النظر الى ان ما اثبتته من الحكمة الفاتئة لنظام العالم المادي ليس باقل وهناً مما نفيته عن العالم الادبي . ولا سيما انك نظرت الى الانسان في هذا الكل كأنه عالم مستقل

قرأت ذلك في ليلة اشتد حرها وكثر بعوضها حتى لم يعد يقي منه واق فحزمت المنام للسمع كأنه وخز الحراب اولدع النار والفكر لا يهجع فاخذت انتقل من موضوع الى آخر حتى وقفت على سؤالك : « فهل في الحوادث الطبيعية ما ينافي هذا القول » اي الحكمة الفاتئة في نظام الاعمال المادية . ففطرت واذا بالمنافي كثير وعجبت كيف انه خفي عليك لا سيما وانك نظرت الى الانسان من خلال ذلك نظراً خاصاً وهو في نظامه المادي ليس اكثر استقلالاً من سائر انكثانات ولا اكمل منه في نظامه الادبي . فخطرت على بالي الايات الآتية ابث بها شكوى وأصدع بها الى بيان حقيقة وهي :

|                   |                 |
|-------------------|-----------------|
| يا برغشاً ارقتني  | من فرط ما حرقني |
| هل انت مخلوق الذي | بحكمة خلقتني    |
| وأين هي فليقتني   | كل حكيم لقيني   |
| هل هي بخلق مطلق   | أردى ولا يقيني  |
| من زائد او ناقص   | او جالب للمحن   |

فكل مخلوق به زوائد كالدرن  
 زوائد خالية من كل معنى بين  
 منقصة الخلق لولا انها في الزمن  
 كان لها معنى دليل ففهمها للبدن  
 فضمرت اذ أهملت لسنة في الفن  
 وسوف لا تبقى به كأنها لم تكن  
 هي حكمة في النشء لا في خلقها ان نفطن  
 تربطها بما مضى مثل بقايا الدمن  
 والنشء مضطربها والخلق فوق السنن  
 نتيجة لا غاية من دونها الخلق يني  
 وغاية الحكمة خلق كامل لم يهن

✽ هل في الوجود عالم آخر <sup>(١)</sup> ✽

(٢)

حضرة صاحب الهلال

لما كتبت اليك موجزاً ومشيراً لم يكن قصدي ان أفتح معك باب المساجلة في مسألة اعتقادية خلافية تتعلق بالمبدأ والمعاد خشية ان يجرنا الدخول في ذلك الى اخذ ورد لا يتنهان لاختلاف نظر كل واحد فيها بحسب مواقفه واهوائه وبقننا والجمهور معنا في مقالات اجتهادية عقلية لا يكون معها تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت شيئاً مذكوراً وانما كان قصدي التنبيه الى مسألة علمية بسيطة لا يصح ان يجاز علينا فيها ما قد يجاز في المسائل النظرية العقلية البحتة . وهي نسبة العالم المادي الذي قلت ان نظامه التام يدل على حكمة فائقة — الى العالم الادبي الذي لم تجد فيه هذه الحكمة . وما قلت



قولك هذا الغريب في العلم الا لتستخرج منه هذه النتيجة الاغرب في الحكم « من ان الصانع الحكيم لا يعقل ان يتم شيئاً ويدع الآخر ناقصاً فلا بد ان يكون قد أعد الكمال للناقص هنا في عالم آخر هو عالم البعث »

ولا يخفى ما في هذا القول من الاضطراب مع مخالفته للمقرر في العلم الطبيعي من تلازم العالمين الواحد للآخر وتوقف احدهما على الآخر . ولو لم يجعل سنلك هذا العلم لتقرير مقدمتك وتبينك لما جاز لي الاعتراض عليك

ولقد اشرت في ما كتبت اليك بكلام صريح الى ان فقد الحكمة من العالم الادبي كما تقول والذي قلت انه نقص في الخلق كائن هو نفسه أيضاً في العالم المادي نفسه اذا نظرنا اليه نظرك اي بالنسبة الى غاية الخلق وهو واضح جيداً في عالم الاحياء الذي منه الانسان المقصود بالذات من البعث . وكلامي هناك على ما فيه من الاقتضاب كافلاً لان ينيه من ذهب عليه ذلك لا لنقص في العلم بل لباعث آخر غلبه فيه فصرفه عنه لعله يراجع نفسه فيصحح حكمة في ما بناء على مثل هذه المسألة العلمية المنافية لفرضه لتلايكون التثبت بذلك ادعى الى الوقوع في مغالطات علمية أيضاً تكون الجناية فيها مزدوجة على العلم والاعتقاد معاً

على ان يانك الذي اتيت به بعد ذلك دلتني على انك لم تعبأ باهمية هذه الاعضاء الاثرية فلم تعتبرها آثاراً منافية لغاية الخلق الاستقلالي ومنقصة لتلك الحكمة الفائقة في الخلق بل صرفت النظر عنها وأخذت تدلني على تلك الحكمة الفائقة في نظام العوالم وتوجه نظري اليها تارة في الافلاك وطوراً في الارض من نظام الاجرام السماوية الى نظام الاجسام الارضية من الانسان فالحیوان فالنبات حتى الجماد

والحق اقول اني غير صعب المراس وان كنت غير متساهل في القياس فجاريتك الى ابعد من مبتغاك ونظرت معك في نظام الافلاك وتحول السدم الى شمس واقمار وزدت عليك باني نظرت وحدني الى انحلال هذه الشمس والاقمار ورجوعها الى السدم . ونظرت الى حركات الرياح وتساقط الامطار وأعجبتني منك قولك فيها « وتسلسل اسبابها » ونظرت الى تحليل المواد وتركيبها على نسب محدودة وقلت في نفسي هل كان يمكن

يا ترى غير ذلك . ثم نظرت الى توالد الاحياء من بيضة أو جرثومة ثم قلت ما الحكمة من وجود هذه الاعضاء الاثرية التي لا معنى لها في محفظة هذه البيضة أو الجرثومة التي اختصر فيها هذا الخلق البديع المستقل . نظرت في كل ذلك فلم اجد في بعض ما ادركته مما أوسعت له مجال الاسهاب تلك الحكمة المقصودة ولا تلك الغاية المرغوبة وانما وجدت في سردها من الاطباب ما هو ادعى في بعض المواقف الى الاعجاب . على انك لم تقصد بذلك الا اكثار الادلة لبيان الحكمة الفاتحة في الخلق لا بديع ما في قوله « ويسألونك عن الالهة » . ولكنه يان لو تدبرناه جيداً لوجدناه يرمي الى ضد ما تقصد فانك قت تؤيدني من حيث قصدت ان تناقضني . اقول ذلك لا عن تغت كاربما تظن بل عن برهان واليك البيان

الذين يقولون بالمعاد في غير هذا العالم هم اصحاب الخلق . وهم اصحاب الخلق الاستقلالي اولاً — قلت اولاً لان بعض هؤلاء يميلون اليوم الى القول بالخلق الكلي — هؤلاء يحملون كل جنس مخلوق من المخلوقات التي يتألف منها العالم اجمع خلقاً خاصاً . واخص هذه المخلوقات عندهم الانسان الذي خلق كل شيء من منظور وغير منظور لاجله . فهو عالم مستقل بنفسه علاقته بهذا العالم المنظور عارضة لا يلبث ان ينفك عنها الى العالم الآتي غير المنظور الذي هو مقره الدائم والذي علاقته به جوهرية . أليس هذا هو الاعتقاد الشائع الذي تعلم به الكتب الدينية والذي هو اساس اوليتك ؟

ولنحصر كلامنا في هذا الانسان الذي هو محور هذا الاجتهاد من كل هذا البحث بالنظر الى معاده ل ترى اولاً ما اذا كانت علاقته بهذا العالم عارضة أم جوهرية . وثانياً لتعلم ما اذا كان الذي يطلق على كل الطبيعة يطلق عليه أيضاً ام هو ممتاز علمياً يميز له الافراد وحده بامتيازات يجعله فوق الطبيعة للتجرد عنها

لا يجوز لي في هذا المقام بالنسبة اليكم ان ادخل معكم في بيان كون الانسان في تكوينه حيواناً في أعلى درجة من سلم الحيوان تربطه به روابط تدل على انه مرتق عنه وان كان في بعض المصور غيره الآن . فاني لا ارتكب مثل هذا الخطأ مع من اعده يعلم ذلك جيداً كما هو مقرر اليوم في العلم والذي هو نفسه يقول لي « كم من الحكمة في نمو

النبات بتحويل المواد الترابية الى مواد حية وفي نمو الحيوان بتحويل المواد النباتية الى حيوانية ثم ترجع تلك المواد بعد الموت الى التراب » فأنتم تعلمون جيداً ان في الاحياء وخصوصاً في الانسان أعضاء اثرية أي زوائد لا معنى لها في خلقه كما هو الآن . وان كنتم تقولون مع ذلك « على اننا اذا تدبرنا هذه الزوائد رأيناها تقتصر في عالم الحياة وهو جزء صغير من المخلوقات »

ولا أقف عند هذا القول لارد عليه بقولي : اما كون عالم الحياة جزءاً صغيراً من المخلوقات ففيه نظر سواء نظرنا اليه بالنسبة الى ارضنا أو بالنسبة الى العوالم الاخرى التي لا نعلم عنها شيئاً من هذا القبيل . وهو في ارضنا ليس صغيراً بالقدر الذي يستفاد من هذا الكلام . وصغيره يكاد يكون مائلاً الارض كلها ومتخللاً كل اجزاء الجداد وله في تحليله وتركيبه وتحولاته شأن عظيم — فان هذا البحث ليس من غرضنا هنا . بل أقول انه مما يمكن من ذلك فعالم الاحياء جزء مهم جداً في بحثنا لانه يشتمل على الانسان الذي هو موضوع البحث في العالم الآخر

وانتم تعلمون ان هذه الاعضاء الاثرية التي ليس لها معنى في تكوين الانسان كما هو الآن كان لها معنى في الماضي يوم كان تكوينه غيره اليوم . وهي كثيرة جداً وليس المقام مقام بيان وجودها واثبات عدم نفعها فيه ونفعها في سواء كما هو مبسوط في محله وكما تعلمونه جيداً . بل انتم تعلمون ان هذه الآثار اقوى دليل على تسلسل الخلق وترابطه وعلى ان الانسان مشتق من الحيوان بالارتقاء . ولكن بعد هذا العلم ماذا يكون مقامها في الخلق الاستقلالي وأين الحكمة فيها حينئذ ؟ ولا اخالك تعدد هنا الى القول بان الحكمة التي لا تبدو لنا فيها دليل على جهلنا لا على عدم وجودها . وربما كان يجوز مثل هذا التخلص لولا انك تعلم ان العلم عرف فائدتها لا اكتشافه حقيقتها في الاحياء الاخرى الادنى واثبت بذلك ارتباط الانسان بالحيوان بل نشوءه عنه وافر ذلك على أساس علمي متين . فهل لنا بعد ذلك مناص من انكار مذهب الخلق الجزئي الاستقلالي والا فكيف يمكن لنا حينئذ ان نوفق بين هذا الوصل في المبدأ وذلك الفصل في المعاد وان نسد ذلك الى العلم نفسه ؟ بل كيف يمكن لنا ان نوفق بين الحكمة الفاتكة في الخلق ووجود مثل هذا

البحث في المخلوقات لان وجود مثل هذه الزوائد غير النافعة فيها والضارة بها احياناً ليس الا عبثاً بالنسبة الى المخلوق نفسه

بل كيف يمكن لنا ان نوفق بين هذا النشوء المتسلسل الذي ثبت لنا ان العوالم بأكملها التي تبدو لنا اليوم كما هي لم تكن كذلك في الماضي القديم و ( بين ) مذهب الخلق الكامل الذي يقول ان العوالم ومنها الانسان وجدت بصورتها الحاضرة كما هي الآن — فلم يبق امامك الا القول بالخلق الكلي وهو احسن ما يعتصم به المستمسكون بالخلق اذ ينسبون حينئذ كل تحولات الطبيعة الى نواميس عامة مخلوقة هي نفسها وهي العامل الثاني في نشوءها المتسلسل . واتما يبق عليهم حينئذ ان يرققوا بين ذلك ومبدأ الاديان القائل بان الماد في غير هذا المكان للانسان وحده وهو لم يكن انساناً كما هو اليوم في اطوار نشوئه ولا هو مستقل عن سواء في مبدئه حتى يجوز له هذا الاستقلال في معاده . أو انهم يطلقون البحث حينئذ على العالم كله لا باعتبار انتقال مواد فيه بتغير صورها بل باعتبار انتقال الطبيعة كلها باعيانها من مكان منظور الى مكان آخر غير منظور ؟ — هذا ولا يخفى عليك حينئذ ما يرد على الخلق الكلي نفسه من الاعتراض المعقول من ان الخالق والمخلوق لا يجوز ان يكونا منفصلين والاّ وجب ان يكون فعل الخلق الصادر من الخالق منفصلاً عن الخالق نفسه وهو خلف وان كان متصلاً به فكيف يكون هو نفسه غيره وهو خلف ايضاً

على ان هذه الامور المقررة اليوم في العلم والتي تنفي الحكمة من الخلق تصبح ذات شأن عظيم في مذهب النشوء اذ تبين حقيقة هذا الترابط الذي تشير اليه في قولك « ونجد الخلق بجملة تام النظام مترابط الاطراف » لتوقف كل تغير فيه على تغير في سواء أو لاحداث كل تغير فيه تغيراً مناسباً في سواء . وعليه فالعالم في مذهب النشوء لم يكن ولا هو كائن ولن يكون الا متظلاً لناموس عظيم فيه هو ناموس التناسب او المطابقة وكما ان العالم المادي مترابط ومن هذه الحيثية هو تام النظام في كل المصور فالعالم الادبي اذا نظرنا اليه نظراً علمياً وجدناه لا يخرج عن هذا الحكم فهو مترابط تام النظام ايضاً ولا يجوز ان يكون غير ذلك . لا سيما وان كل الاعمال الادبية متوقفة على نظام

المادة نفسها . قوى الطبيعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى قوى حيوية الى غير ذلك من تحولات القوى مترابط بعضها ببعض ومتراطة بالمادة نفسها . ووظائف الاعضاء في الاحياء متوقعة على حال هذه الاعضاء كوظيفة التغذية عموماً ووظيفة عضو عضو منها . فكما ان افراز اللعاب عمل من اعمال الغدد اللعابية فالعقل نفسه ليس الا عملاً من أعمال الدماغ بحيث لو انحلت مادة الدماغ الى بسائطها انحل العقل الى القوى المودعة في تلك البسائط ولم يتطابق منه شيء الى الخارج . حتى الوجدان نفسه الذي يتوهم البعض انه مزية يمتاز بها الانسان على سواه والذي ذكرتموه على صورة تؤيد هذا الامتياز اذا تدبرناه كما ينبغي يظهر لنا انه عام على العوالم كلها مع حفظ النسبة بينها من الانسان الى الحيوان الى النبات الى الجاد . فكل من هذه العوالم يدافع عن نفسه حفظاً لكيانه بحسب مرتبته مما يدل على انه شاعر بذاتيته ولو لم يكن له هذا الشعور لم يكن له ذلك

وما اتيت بهذا البيان لاعراض ايّا كان في ايمانه بل لادفع عن القضايا العلمية المغالطات التي قد نجحها فيها على انفسنا وعلى سوانا فقطع بها تارة ما يوصل ونصل بها اخرى ما يقطع لناية في النفس لنا سابقة نشؤها فينا معلوم لو تحريناها الى اصولها . وفي اللاهوت النظري ما يفتننا عن ذلك كله للغرض الذي تدفعنا اليه امانينا ويرتاح له وجداننا لا سيما وان المسألة مسألة اعتقادية بحثة

اما قولكم ان كثيرين من العلماء الاعلام لم يستطيعوا النفي البات في مثل هذا المقام فما ذلك بالبرهان على ثبوت دعوى خصوم النفي الذين لا يستطيعون ان يجدوا في العلم دليلاً واحداً للاثبات . وما مقام اللورد كلفن باعظم من مقام اغاسيز نفسه في العلوم الطبيعية فقد كان فيها اعلم من دروين ومع ان دروين بنى مذهبه وايده بابحاث كثيرة مأخوذة عنه فقد كان اغاسيز نفسه من ألد خصومه . ولا يثبت ذلك الا امرأ واحداً وهو شدة وطأة ناموس الوراثة وخصوصاً ناموس الرجعة كما دلتنا اليوم تصريحات لمبروزو نفسه على ما جاء في المتكطف من اقياده لشعوذة المشعوذين ووم الواهمين واعتبار ذلك من مرجحات الاعتقاد بالارواح وما شاكل مع انه كان من اشد انصار الفلسفة العقلية المادية

فالعالم مخلوقاً يحملنا على اعتقاد وجود العيب في الحكمة وهي غير مضطرة وهو خلف.  
وناشئاً يدلنا على ان هذا العيب ليس بالحقيقة عيباً بل رابطة ضرورية للتسلسل في التشو.  
والعالم مخلوقاً يحملنا على ان تقطع حيث يجب ان نصل او نصل الى نتيجة كلية لا تنطبق  
على غاياتنا الجزئية ولا على شيء من العلم . والعالم ناشئاً يدلنا على ان كل ما في الطبيعة  
منها وبها واليها

وعليه فالذي تقول انه خلق لا ينطبق على الواقع المقرر في العلم الا اذا قلنا انه  
نشوء والذي تقول انه غاية مقصودة لا يصح الا اذا قلنا انه نتيجة لازمة . والذي تقول  
انه حكمة فائقة هو عيب الا اذا قلنا تناسب ضروري لنشوء مترابط . والذي تذهب الى  
انه معاد خاص في غير هذا الممكن لا يجوز الا اذا قلنا انه عود على بدء في هذا الممكن.  
وهذا ما يقوله العلم وان تلجج في بعض القضايا العلمية المادية فلا يقول سواء كما في  
هذا القول :

هو الكل في كلٍّ معيداً ومبدئاً وما نحن الا فيه من صور الفناء  
وليس فناء ما نراه وانما هو العود للأولى هو البعث للأولى  
قضوا فحينئذ واتقضينا بعودنا اليهم وغير الكل ليس له البقاء  
أما الايمان الذي ترناح اليه نفوس الاكثرين لاسباب تعليلها واضح في مذهب  
النشوء لا يضيق به مثل هذا الحصر . وهو قام حتى الآن على غير العلم وفي امكانه ان  
يبقى في غنى عنه زماناً طويلاً أيضاً . وليس من الحكمة ان نحاول الباسه حلة علمية  
لا تناسبه ثم عن ضعفه أو تكون به كطيلسان ابن حرب — وفي الحتام اني معجب بك  
لسعة فضلك وغزارة علمك وان خافتك في مثل نتيجةك التي اتصلت اليها والتي كنت  
اود ان لا أخرج لمعارضتها ولكنك توافقني على ان لا محاباة في العلم كما انه لا حياة في  
الدين . وان سألت ما الذي اخرجني قلت مقامك عندي



## المقالة الحادية والخمسون

### ﴿ مناجاة الاحلام وقرع الاوهام ﴾<sup>(١)</sup>

لقد كثر الآن تحدث الناس بثرائب افعال العقل أو النفس كما يقال ايضاً وسائر أفعال الجهاز العصبي الخارجة عن المؤلف من مثل التخيلات والشعور بما هو فوق طاقة الحواس الاعتيادية وانطباق ذلك في بعض الاحيان على الواقع مما يختلط كثيراً على العامة ويربك الخاصة ايضاً . واشتدت المناضلة بين الباحثين فذهب بعضهم الى ان هذه الغرائب من خوارق الاعمال التي لا تنطبق على النواميس الطبيعية وعللها بانها من أفعال الارواح المحيطة بنا . ونقل بعض الجرائد العربية تصريحات المستر سيد بيا وقع له ولبعض اشياءه ونسبهم ذلك الى مناجاة الارواح . وقد كتبت مقالة في الجريدة اجابة لاقتراح بعضهم ادفع هذا الزعم نافياً الغرابة غير الطبيعية فيه ومطبقاً الصحيح منها على نواميس العلم الطبيعي وعلم الامراض العصبية . ونقل المقتطف مساجلة عالين طبيعيين يذهب كل منهما مذهباً مخالفاً للآخر . فرأيت ان اسهب الكلام هنا للالام بالموضوع من كل اطرافه لكي يتيسر للنظر بالمقابلة والاستقراء والاستناد الى العلم الطبيعي ان يحكم بما هو اقرب الى الحقيقة . وانا لا أشك في ان كل ما يجري فينا من هذا القبيل انما يجري تبعاً لقواعد طبيعية نظير سائر ما يقع في الطبيعة مما هو مقرر اليوم انه بحث طبيعي بحث . ولا أشك كذلك ان معلوماتنا الطبيعية اليوم كافية وحدها لتعليل ذلك تعليلاً يزيل عنه كل غرابة الا ما كان من قبيل الغرائب الطبيعية فقط

ان غرائب أفعال العقل والجهاز العصبي معروفة للانسان منذ القديم واشهرها الاحلام التي تعرض له وهو نائم — وهي تعرض للحيوان ايضاً — وقد كانت سبباً من اكبر الاسباب لاعتقاد الانسان ان فيه قوة غريبة عن جسمه تنفك عنه في حالة النوم وتطوف المعاهد منتقلة من مكان الى مكان ومن احساس الى احساس ثم ترجع اليه في

اليقظة وكثيراً ما تصدق في الانباء التي تنقلها مما حمل الاكثرين على الاعتقاد بها وظن بعضهم انه يمكن من مراقبة احوالها ان يستخرجوا احكاماً مطلقة وألفوا الكتب في تفسيرها حشوها تارة بالخطل وتارة بالدجل

وقد كانت اوهام الانسان في اليقظة كثيرة جداً في اول الامر لقلّة معرفه ما حوله من قوى الطبيعة اذ كل ما هو مألوف معروف لنا اليوم كان يبدو غريباً له . وقد بنى عليها كثيراً من اقايصيه المثلوية وحكاياته الخرافية واشتغل بها زماناً طويلاً قبل ان اسهلك كثيراً منها بالعلم شيئاً فشيئاً واقرّها في مكانها الحقيقي

وقد كانت الامراض العصبية ولا سيما العقلية والهستيرية نظراً لغرابة ظواهرها بالنسبة الى سائر امراض الجسم محل استغرابه بل موضوع تكهنه وتفرّعه حتى ان الالفاظ التي استعملت للدلالة عليها في كل اللغات تدل دلالة صريحة على الاعتقاد بانها حالات مستغاضة على الجسم غريبة عن مادته وعن جوهر قواه كأن يقال ان بصاحبها مساً أو دخلاً إشارة الى الروح الغريبة الحالة فيه . وكما عذب النساء الهستيريات وحلت بهنّ النّم لاعتبارهنّ ساحرات واحرقن ايضاً تخلصاً من الشيطان الحال فيهنّ قبل ان تداركنّ العلم برأته . ولا يزال هذا الاعتقاد شائعاً عند كثيرين حتى اليوم وان تلتطف بعضهم في تسميته كأن يقول ان الحالّ شيخ . ورأفوا في معاملة صاحبه فأحلوا الرحمة محل النعمة وعالجوه بالتعاون والرقى والقراءات وما شا كل . وكما انهم نسبوا بعض الحالات العصبية الشديدة الوطأة الى الارواح الشريرة واخشوا في معاملة اصحابها نسبوا كذلك بعض الحالات العصبية التي كانت تبدو لهم اللطف من تلك على الجسم المصاب بها الى الارواح الصالحة ورفضوا اصحابها الى مقام الاولياء والانبياء . ثم اخذ هذا الاعتقاد يصف حتى اثبت العلم اليوم ان مثل هذه الحالات ليست سوى امراض عصبية كسائر امراض الجسم ولها احكام طبيعية مثلها حتى في غرابتها

وكأن جمهور المعلمين الراقين لم ينفر الاعتقاد بالمصدر الغريب في مثل هذه الحالات الاّ عما كان يبدو خشناً فقطً واما الجمّ النفير فلا يزال حتى اليوم يعتقد ان في اللطيف منها محلاً للنظر ومتسعاً للقول . وكثيرون يميلون الى نسبتها الى الارواح للاعتقاد المتأصل



فيهم ان لم يكن رهبة فغربة والذي هو بقية راقية من مجموع تلك الاعتقادات القديمة الخشنة وقد عنت بهذه المسائل طوائف كثيرة من اهل الادب والعلم في اوربا واميركا وخصوصاً في انكلترا وأفوا لها الجمعيات الكثيرة ليلبسوا البحث فيها حلة علمية اشترك فيها المتتبع والواهم والمتردد وانضم اليهم الدجال ايضاً وكل واحد في ذلك مصلحته فلكي يمكن البحث في هذه المسائل على اسلوب يكون منه فائدة للعلم لم يكن بد من تحليلها قبل تحليلها لمعرفة الصحيح فيها من الخلق والممكن من غير الممكن . فلا نخدعنا اعمال المشعوذين الذين يأتون أمامنا أعمالاً كثيرة غريبة صناعية كوضع الشيء في مكانه ثم اخراجه من مكان آخر وكابتلاع السيوف والسكاكين ولم يبلغ منها شيء والتكلم مع اشخاص متباعدين . والمتكلم واحد وغير ذلك من الامور المدهشة التي يمجيزونها على الناظرين وليس فيها شيء من الغرابة سوى مهارة الصناعة فان أمرها اليوم معروف للخاصة والعامة وانما يقتصر هنا على المسائل المقررة اليوم والتي يعترف بها العلم ان جميع الغرائب التي تعرض للانسان تطرأ على شعوره فيحس أو يعلم بما هو فوق طاقة مشاعره وادراكه في حالته الاعتيادية وتختصر جميعها في ما نسميه هنا على وجه الاطلاق بالتخيلات وان اختلفت مسمياتها بحسب مدلولاتها وذلك بقطع النظر عن صحتها وعدمها لانها في اعتقادنا صحيحة كلها سواء طابقت الواقع كأن يرى الانسان وهو في مكان صورة صديق له في مكان آخر مثلاً أو لم تطابق الواقع كأن يعلم انه طائر في الجو كما يحصل كثيراً للاطفال في احلامهم وهم نيام . فكلهما تخيل حاصل لا يجوز للعلم ان ينفيه لئلا يتلجلج في تحليله وكلاهما شعور حقيقي وان اختلف سببها كما سيبيح وما اطلقت اسم التخيلات على كل هذه الغرائب مع قطع النظر عن اسبابها الظاهرة والباطنة والبعيدة والقريبة الا لاضمها تحت اسم جنس باعتبار ان اصلها واحد يسهل تحليلها وهي تشمل احلام النوم واحلام اليقظة كروية الاشباح وسماع الاصوات والاحساس بالمعوسات ومناجاة النفس التي يطلقون عليها اسم مناجاة الارواح وقراءة الافكار والوقوف على الانباء البعيدة وغير ذلك مما هو خارج عن مألف الحواس والادراك وبالحقيقة كلها في الغرابة سواء والذي يستوقف النظر في احدها يجب ان يستوقفه في

الآخر فليست قراءة الافكار باغرب من الاحلام ولا مناجاة الارواح باغرب من تخيل سماع الاصوات وكلها من مصدر واحد

وقبل التوسع في الموضوع لابد لي من التنبيه الى ان كل ما يقال عن الانباء بالمستقبل لا حقيقة له مطلقاً الا ما كان منه في حكم الواقع كان ينبيء الانسان بامرٍ مقبل يتوقف على امر حاصل وهذا يدخل حينئذ في موضوع البحث في ما هو كائن في الحال حقيقة مثال ذلك — كان عندي مريض منذ عشرين سنة وكان به اختلاط ذهن هستبري طال به اكثر من شهرين تقلب المريض فيهما على حالات مختلفة اظهر فيها عدة غرائب منها انه عرض له في طور من اطوار مرضه رعاف تكرر مراراً عديدة ففي اول الامر لم نكن ندري بالرعاف الا من مشاهدته ولكن بعد ان تكرر صار المريض ينبيء به بمقداره تقريباً قبل حصوله باربعة وعشرين ساعة وكان انباؤه يصدق وتعليل ذلك بسيط لان الرعاف الذي كان يحصل لم تكن مهيئته تقع في الحال بل لابد انه كان يسبقه بعض تغيرات احتقانية وغيرها فصار المريض اول ما يشعر بها يعرف انه سيعقبها رعاف فيندريه ومن شدتها وخفتها يندر بمقدار الدم الذي سيرعفه فانباؤه هذا ليس انباء بالمستقبل بل تقرير للواقع ولذلك كل ما تسمعه من قبيل الانباء بالمستقبل ان لم يكن له مثل هذه المسوغات مما يجعله انباء بالواقع حقيقة فهو مخرفة ودجل من قائله

وما نبهت الى ذلك الا لخلط الناس والعلماء انفسهم في هذه الغرائب واعتقادهم بان الانباء بالمستقبل من الامور المقررة الداخلة ضمنها . واعجب من ذلك اني قرأت من مدة قريبة في احدى المجلات الفرنسية بحثاً لطيب في هذا الموضوع وقد عد فيه الانباء بالمستقبل من الامور الداخلة فيه وهذا جهل قادح يستعظم خصوصاً من طيبب يجب ان يكون ملماً بنواميس هذه الغرائب لان هذه الغرائب لا تحدث اعتباطاً كما يتوهم بعضهم بل تعرض للناس بناء على نواميس مقررة لا تعرف عنها سواها كان في الصحة او المرض وتسير فيهما بانتظام على حدٍ سوى

فنحن الآن بين اقوال ثلاثة من ذوي المقام في الادب والعلم : تصرّيات ستد الذي يزعم انه يكتب احياناً متأثراً تحت سلطان الارواح وانه رأى صورة ابنه المتوفى

وسمعة يخاطبة . وفي العالم الرياضي نيوكم لهذه الغرائب ونسبة بعضها الى هواجس لم يعن بالبحث عن سببها وانما نسب صحتها في بعض الاحيان الى مجرد الاتفاق باعتبار انها من الامور الممكنة . وتسليم العالم الطبيعي السر اوليفرلدج بمحصل هذه الغرائب من تفاعل العقول او النفوس بناء على مبدأ التلبثا وميله الى ترجيح سببها الروحاني مما يجعل صدقها نتيجة للشعور بأمر واقع لا اتفاقا . وقد حاول ان يني نسبها الى الاتفاق باحصاءات تنفي الصدفة وتؤيد الارتباط السببي في زعمه

والحقيقة ان كلاً منهم على صواب وخطأ في آن واحد . فستد صادق في قوله انه رأى صورة ابنه وانه يشعر في نفسه بانه يكتب احيانا تحت سلطان شخص آخر . وانما هو مخطي في ادعائه ان ذلك من فعل ارواح غريبة عنه ولو درى انه مستهوى استهواء ذاتيا من جهة ومتخيل من جهة اخرى ما في ذاكرته من المحفوظات لاسباب معلومة لنا اليوم جيداً من درس نواميس الجهاز العصبي في الصحة والمرض بما عبرنا عنه هنا « بمناجاة الاحلام وقرع الاوهام » لما كان في قوله شيء يؤخذ عليه . ونيوكم مصيب في فيه التفاعل الروحاني عن هذه الغرائب ولكنه مخطي في انكاره سببها الطبيعية وتعويله في صدقها على الاتفاق وحده وان كان للاتفاق دخل في بعض الاحيان . واوليفرلدج مصيب في ان هذه الغرائب تجري على نواميس معلومة لنا اليوم بالتلبثا ولكن خطاه في نسبة ذلك الى تفاعل العقول أو الارواح لا يغتفر ولا سيما ان في المعلومات الطبيعية اليوم مندوحة لنا عن الخروج بها الى مثل هذا التعليل الغريب

وقد وقعت انا نفسي منذ ثلاث وثلاثين سنة في نفس الخطأ الذي وقع فيه اليوم نيوكم بتعليل صدق هذه الغرائب بالاتفاق وذلك في حادثة طيب انكليزي زعم انه سمع وهو ماري في لندن بالقرب من بيت احد أصدقاءه الذي كان يومئذ بمدينة حلب صوت صديقته هذا يناديه ثلاثاً ثم علم عند وصول البريد ان صاحبة كان في تلك الدقيقة بمحضرة . وقد تناولت هذا النبأ في ذلك العهد الجمعيات النفسية في انكلترا وهولت به كثيراً حتى ان الجمعيات العلمية شاركتها في هذا البحث وكتبت الجرائد فيه مقالات ضافية . وكنت يومئذ في الاساتذة فاطمت في جريدة « الكوريه دوريان » على فصل طويل عقدته

جريدة « الكونستيتيوشنال » الباريزية لهذا الموضوع وقلته عنها جريدة الاستانة المذكورة جاء فيه كاتبه على امور كثيرة من حوادث التخيالات الغريبة نسل اكثرها مما وقع لبعض مشاهير الرجال في التاريخ كنبوليون وقيصر وسواهما من ائهم كانوا يرون اشباحا ويسمعون اصواتا تخاطبهم لا حقيقة لها في الظاهر وذهب الى انها من الغرائب التي لا تدرك . فكتبت في ذلك الحين ردأ عليه باللغة الفرنسية نشر في جريدة « الكوريه دوريان » المذكورة في ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ وقلته الى العربية مجلة الطيب في بيروت . وقد حاولت في هذا الرد ان أدفع عن مثل هذه الحوادث كل غرابة غير طبيعية مستندأ في ذلك الى علم امراض العقل وما يعرض من التخيالات وانخداع الحواس في الجنون وفي سائر الحالات العصبية التدريجية التي بين الصحة والمرض وحصرت تحليل ذلك بما سميتُه هنا قرع الاوهام ويراد به قرع محفوظات الذائكة لمرآكر الحواس بالارتداد من الباطن الى الظاهر وذلك في الاعصاب المهيجة المنصرفة الى التفكير في موضوع ما أو الملتفة اليه لمناسبة ما كمناسبة المرور بالبيت الباعث على التذكر بصاحبه . وعلت صحة النبأ اذا صدق قائله بما يأتي :

« والاعتراض الذي يوجه الى ذلك في مثل هذه الاحوال هو هذا : لماذا تم الامور احيانا كما تنبئ عنها او توحى بها التخيالات ؟ والجواب على ذلك وعلى الاحلام أيضا بسيط وهو ان كل ممكن قد يتحقق احيانا ولكنه لا يتحقق دائما ولذلك كانت اكثر التخيالات لا تم حقيقة » اه . اي اتبي علّت ما يصح منها بالاتفاق كما علّاه نيوكم الآن ولكن الخطأ الذي كان يفتخر حينئذ لا يعتذر الآن بعد ان تقدمت العلوم الطبيعية وبأولوجية الامراض العصبية هذا التقدم الباهر

وازيد على ذلك اليوم بقولي ان غير الممكن لا يتحقق مطلقا كأن يحلم الانسان انه طائر في الجو او ساقط من مكان عال وهو لم يسقط فلا يمكن ان يكون مثل هذا الحلم موعزا به من الخارج او مبررا به عن حقيقة واقعة مع ان صاحبه يحس ويرى انه كذلك ويعمل في الاول بقرع الاوهام لذا كرتّه وتجسمها لدى حواسه بما يكون قد ذكر له في طفولته من مثل هذه الاخبار السقيمة وغيرها من الخرافات السخيفة التي يحشون بها

دماغ الطفل . وتعليله في الثاني تعب طراً على الجسم وهو نائم من وضع اوسوء هضم وابتغال الافكار الى المتناسبات والحواس في كل انتقل « به الشعور » من ضيق الى ضيق الى هول السقوط

ولكن هذا التعليل وان انطبق على الانفعالات الذاتية المنعكسة من الباطن وصرح على كل التخيلات الذاتية التي تعرض للانسان في الحلم واليقظة من رؤية الاشباح الى مناجاة الارواح التي هي عبارة عن مناجاة احلام الانسان نفسه بناء على ناموس قرع محفوظات الذاكرة للاعصاب المهيجة وناموس الاستهواء الذاتي الا انه توجد حالات اخرى مصدرها خارجي محض لا ينطبق عليها هذا التعليل . وتعليل صدقتها بالاتفاق وحده لا يكفي مثل قراءة الافكار والعلم عن بعدما هو مقرر امره في العلم ولا يجوز الشك فيه اليوم على ان العلوم الطبيعية والعلوم الباثولوجية العصبية قد تقدمت كثيراً من ذلك العهد واكتشفت غرائب كثيرة فيها غير خارجة في أعمالها عن نواميس الطبيعة حتى صار يجوز لنا فهم اكبر اعمال العقل غموضاً واستنتاج المجهول بناء على المعلوم

غير ان المتصمين من العلماء — وما تصعبهم لضعف البيئة بل لاقتصارهم في البحث على الجزئيات ولقلة تعويلهم على الاستقراء في النكليات — لا يزالون يميلون الى نسبة هذه الغرائب الى امور غير طبيعية مع علمهم الاكيد انها في غرابتها تسير على نواميس معلومة كغرائب الامراض العصبية مثلاً انقياداً لاوهامهم التي ورثوها ابائهم عن جد . وبعضهم ينصاع اضطراراً الى التسليم بطبيعتها المادية ولكن ما رسخ في ذهنه بالوراثة يحمله على الوقوف موقف المتردد غير الجازم متوقفاً ان يكشف له العلم نواميس طبيعية جديدة غير معروفة له اليوم . ولو تدبر هذا المتردد والمتني في سره فشل العلم في نفي امانيه لم انه لا ينتظر ان يكشف في الطبيعة من يوم عرف ناموس تحول القوى نواميس جديدة اصولها الطبيعية بمجولة بل كل ما ينتظر انما هو زيادة التوسع في معرفة تحولات هذه القوى واستخدامها لفرضنا بناء على انها هي والمادة من اصل واحد . والمعلوم اليوم من هذه التحولات البديعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى اشعة رنتجين الى اشعة الراديوم الى الاشعة الكيماوية التي ترقق الاجسام وتشغفها واستخدام ذلك لنقل

الاصوات بالتلفون وحفظها بالفونوغراف وخرن حركاتنا في السينماوغراف ونقل اخبارنا في النضاء بتلغراف مركوبي ونقل المراثيات الى بعد كل ذلك كافٍ لان يجلو لنا اليوم أشد هذه المسائل غموضاً . واذا اضفنا الى ذلك علمنا بان العالم لا فراغ فيه وهذا يستلزم ان لا يضع فيه شيء بل يحفظ فيه ويقول لعجبنا ليس من عروض هذه الفرائب لنا أحياناً بل من عدم عروضها لنا غالباً لان عروضها هنا هو القياس وعدمه كان يجب ان ان يكون الشاذ فاذا كان عروض هذه الفرائب لا يتيسر دائماً فلحوائل طبيعية ازال العلم الطبيعي اليوم كثيراً منها وايدى علم بسيكولوجية الدماغ والامراض العصبية نفسها كما ابنت ذلك في مجلد السنة الثالثة من مجلتي الشفاء في حادثة اختلاط ذهن هستيري من أغرب ما وقع لي ولسواي ايضاً

وبالحقيقة ان أثر كل حركة مادة او نبضة فكر يجب ان يصل الى كل شيء ويجب ان يحس به كل شيء بناء على ناموس حفظ القوى واذا كنا لا نشعر به دائماً فلاسباب مادية اما لضعف في حواسنا واما لضعف الاثر نفسه وتبدده قبل وصوله اليها فاذا امكنا ان تقوي مشاعرنا او نزيل الحواائل الأخرى لم يصعب علينا ان نقف على كل ممتع علينا في حالتنا الاعتيادية . وقد جاءت الاكتشافات المذكورة سابقاً مؤيدة لذلك كما قلت في الشفاء من ان لا بد لكل فعل من فاعل وقابل وناقل وقد تمكنا بالتلفون من تقوية الناقل ووقفنا من قراءة الافكار على قوة القابل وتمكنا كذلك بتلغراف مركوبي من تقوية الفاعل والقابل معاً وعرفنا كذلك ان هذا القابل قد يشتد تأثيره جداً في بعض الحالات العصبية المرضية الى حد ان الانسان يقدر ان يعلم عن بعد شاسع حركات سواء ويسمع كلامه كأنه على كسب منه ولكن يشترط في ذلك شروط تجعل هذا العمل خاضعاً لنواميس معلومة نظير سائر النواميس الطبيعية كأن لا يدرك الانسان الاحركات أشخاص معينين له بهم علاقة معلومة ولو معها ابدوا عنه ولا يدرك حركات سواهم ولو كانوا بالقرب منه لان أعصابه تكون متكيفة لقبول تأثيرات اولئك لشدة الاشتغال بهم خلافاً لهؤلاء

واذا كان هناك محل للشك فدرس غرائب الامراض العصبية المستيرية كافٍ لان

يزيله اذ أثبت استطاعة الانسان لان يتأثر بالمؤثرات الخارجية فيرى عن بعد شامع صور الاشخاص ويسمع كلامهم بما يفسر لنا جيداً شدة تهييج القابل فيهم حتى يصير يحس بما لا يحس به الانسان عادة ولان يفسر لنا كذلك حقيقة التخيلات الذاتية الصادرة من الباطن والتي هي سبب وهم سند واشياعه بان ارواحاً تخاطبهم او انهم يفعلون متأثرين بسلطان غيرهم فلا يخفى ان أصحاب المرض العصبي المستيري موصوفون بقوة الذاكرة حتى ان في وسع بعضهم في هياج مرضهم ان يذكروا ادق دقائق ما جرى لهم في حياتهم كأن الذاكرة آلة فونوغرافية سينماوغرافية حقيقية ينطبع على صفحاتها كل ما يمر بها من كلي وجزي فإذا عرض ما هيح هذه الصفحات بدا ما كان كأنما فيها كأنه ابن يومه . ومن أغرب ما أتى به المريض الذي اشرت اليه وذكرت حكايته في الشفاء انه في اثناء مرضه الذي دام به اكثر من شهرين ذكر تاريخ حياته بالتفصيل والاعجب انه ذكر وقائع دعوى كانت له في المجالس دامت ثلاث سنوات ثم خسرها وكانت خسارته له سبباً لاستيلاء المرض العصبي عليه بعد ذلك على الفور . حتى انه ذكر المرافعات التي جرت فيها امام القضاء كأنها منقولة بالحرف وبفصاحة تفوق طوره جداً في حال الصحة . فليس بدع ان يكون سبب التخيلات التي من مصدر باطني والتي تجعل الانسان في بعض احوال خصوصية يسمع ويرى ويلبس ما ليس له حقيقة في الظاهر قرع الذاكرة نفسها للحواس المتهيجة كما في الجنون وما دونه من احوال اضطراب العقل بالمؤثرات المختلفة في الاعصاب المتهيجة وهي درجات كثيرة بين الصحة والمرض . ومعلوم كذلك امر الاستهواء الذاتي حتى تصير احلام الانسان لديه حقائق وحتى يصير بالنظر اليها بوجدانين متباينين بحسب سرعة تغلب احواله العصبية يسمع احدهما يخاطب الآخر وكثيراً ما يشعر الواحد انه تحت سلطان الآخر يأتمر بأمره حتى يزول منه الاضطراب العصبي الكلي كما في الجنون والجزي كما في الاحوال المستيرية المتقلبة بحسب نوبها فيرجع انساناً اعتبارياً لا يتأثر بغير ما يتأثر به الناس عادة . ومن هؤلاء طائفة من الناس ليس بهم جنون حقيقي او ظواهر هستيرية ظاهرة للعيان بل بهم من كل ذلك ظاهرة واحدة مختصرة على أمر واحد فقط وهي تهييج مركز واحد من مراكز قوام العصبية بحيث يقتصر

الاستهواء فيهم على فكر واحد أو شعور واحد كما هو شأن سدد واضرابه في اعتقادهم انهم يكتبون أو يعملون عملاً تحت سلطان شخص آخر غريب عنهم. ولا شك ان كثرة اشتغال العقل بموضوع بخافة أو يهواه تبعه لاستيلاء مثل هذه الحالة عليه واحداث الاضطراب الشديد في جزء من اجزاء دماغه مع سلامة باقيه كما هو مشاهد كثيراً في عموم الناس لمن يتدبر ذلك كما ينبغي

والحاصل ان الحوادث الغريبة من مثل التي ذكرها سدد ليست بالحقيقة هذياناً خالياً من سبب طبيعي معلوم كما يذهب بعضهم ولا هي وحى أو شبه وحى كما يذهب كثيرون وانما هي تخیلات الذاكرة لمعلوماتها الباطنة أو تأثر الحواس تأثراً قياسيًّا بالمؤثرات الخارجية البعيدة الطبيعية لوجود كل من المؤثر أو ناقل التأثير أو قابله أو كلها معاً في احوال خصوصية تزيل من بينها كل حجاب كل يحول دون الشعور بما يلزم الشعور به في كل الاحوال لولا تلك الموانع العارضة والتي ازال العلم الطبيعي وعلم الطب كثيراً منها. وعليه فليس غريب في كل هذه الغرائب التي انجلت لنا اسرار جلها ان لم تقل كلها سوى غرابة قلة عروضها لنا وخصوصاً طفورتنا في تعليلها الى غرابة اقرب منها لا اساس لها الا تقل لا ينطبق على علم ولا يميزه عقل حرصاً على مبتغيات اوهام ومتغنيات احلام

### ﴿ كلمة مرة ولكنها حرة <sup>(١)</sup> ﴾

موسى نظر الى شرارهم وضررها بالصحة فدلهم على النافع من الطعام ومجد الى قذارتهم فأمرهم بالنظافة وعيسى الى اختلال آدابهم وضررها بالاجتماع فحثهم على الفضيلة ففعلوا اباء الانبياء الكرام على مذهب المؤمنين ويا ايها الرجال العظام على مذهب العقلاء عفوك عفوك الف مرة على ما يأتيه اتباعكم من الاعمال ويثيرونه من المباحث الدالة على سخافة العقول وهم يدعون انهم ابناء هذا العصر الذي يزعم اصحابه انه عصر المدنية والعلم

(١) نشرت في اللقطة سنة ١٩٠٤ على اثر مناقشات الجرائد في الموقودة وهل يجوز للسلم ان يأكل من ذبيحة النصراني حتى صمت الآذان وقرت النفوس من هذه المباحث المخيفة



## المقالة الثانية والخمسون

### ﴿ مخاطبة الاموات <sup>(١)</sup> ﴾

« تفنيد مذهب ستيد »

ستيد كاتب شهير وقراء معجبون به لبلاغته . فهو قال قولاً لولا شهرته واعتقاد  
الكثيرين فيه الرجاحة في الرأي والصدق في القول ولولا موافقته لاماني الاكثرين لما  
لفت أحداً اليه . ولو قاله سواه ممن ليس لهذه الميزات لعد ذابحة أو انه من الممخرقين  
على ان الشهرة لا تقي من العثرة . والاجادة في شيء ليست الاجادة في كل شيء .  
والاصابة ليست دائماً في جانب الاجماع فالعدد ليس حجة قاطعة أو هو وحده برهان  
القوة الوحشية فقط . والحقيقة ما كانت ادنى الى الواقع

\*\*\*

الناس في مجموعهم مذهبان متناقضان نظريون وحسيون . فالاولون وهم الاسبقون  
والاكثرون بنوا آراءهم في الطبيعة على تخربات واوهام قلقة تعرفهم لها في اول الامر  
وأوسعوا لمقلهم مجال النظر والاجتهاد فبنوا على هذه الشبهات تعاليم كان الفطير فيها  
اكثر من الخير . ثم الفوها مع الزمان بالتربية والتوارث حتى صارت لديهم في عداد  
الحقائق المقررة

والآخرون وهم الاخيرة والاقولون تعرفوا الطبيعة اكثر من اسلافهم فوجدوا  
المعلوم كافياً لان يفسر المجهول ورأوا انهم بذلك خطوا خطى صائبة في زمن قصير الدقة  
منه انت باعمال نافعة ملووسة قصرت عنها تحبطات مخالفاتهم في قرون فاستمسكوا به ولم  
يريدوا ان يحددوا عنه لنفي سبب راجح

\*\*\*

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ جواباً على اقتراح بعضهم علي أن ابدى رأيي في هذا الموضوع  
في الجريدة بناء ما قصه من هذا القليل الكاتب الانكليزي الشهير ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية

نظر الفلاسفة الطبيعيون الى مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان فوجدوا ان استقلالها ليس مطلقاً كما ترمي اليه مذاهب أهل النظر بل نسبي قطع بالنظر الى مقامها في سلم التحول والارتقاء فكما أنه ليس لها مواد مستقلة ليس لها كذلك قوى أو نفوس مستقلة وقد كان لها ذلك في اعتقاد سواهم قبلهم بل كان لكل جسم بل مادة جسم نفس خاصة قبل ان استأثر الانسان وحده بالنفس

ثم نظروا في علوم الاحياء على الاطلاق فوجدوا ان بين الاعضاء وافعالها نسبة شديدة فاذا علت الاعضاء علت الافعال وعلّ الحي نفسه القائمة حياته بها وهلاك واذا مات انحل الى البسائط المؤلف كل عضو منها ولم يجدوا في كل ذلك أثراً لقوة خارجة عن قوى المادة المشتركة

ثم نظروا الى الانسان والحيوان فلم يجدوا الفارق الجوهرى الذي يفرق الواحد عن الآخر لا في تركيب جسمه ولا في جوهر عقله والفارق التسيي بينهما ليس باعظم منه بين الحيوان والنبات وهذا الجماد بل بين احط فروع الانسان وارقاها . فالانسان عاقل لانه يعمل اعمالاً مغية والحيوان يعمل اعمالاً مغية أيضاً وليس من قوة في عقل الانسان معها تعالت الا موجودة في الحيوان بحالة اثرية وما الفرق الان نسبي لفرق في التركيب

ثم نظروا الى عقل الانسان نفسه فوجدوه يتمشى على نفس النظام الذي يتمشى عليه سائر الاحياء في النسبة التي بين الاعضاء والافعال اي انه فعل من أفعال الدماغ نفسه وصار بذلك علم العقل فرعاً من علم منافع الاعضاء



ولما كان العقل والنفس واحداً في المعنى كما كانوا يعتقدون في التقديم ويخطئون بينهما كما تدل عليه لفظة البسيكولوجيا نفسها التي هي في الاصل معناها علم النفس والتي تطلق اليوم على علم العقول صار من الضروري ان ينتقل البحث في النفس من دائرة علوم الكلام التي كانت تجول فيه لا ضابط ولا رابط وتقيم البرهان أثر البرهان والدليل أثر الدليل لتثبت ان النفس قوة غير ذات مادة تفعل في المادة وان يدخل في علم منافع الاعضاء نفسها وان تعتبر النفس كالعقل فعلاً من أفعال الدماغ خاضعة لجميع المؤثرات التي تؤثر في مادته

ولكن الرضى بهذا الجدل يزِيل عن النفس روحانيته وهي اوسع من ان تقع تحت حصر في نظر أصحابها وهم اذا رضوا بان يتنازلوا عن امتياز العقل الروحاني فلا يرضون بهذا الدمج النفساني فضحوا العقل في سبيل النفس ومالوا حينئذٍ ولكن على نوع مبهم الى فصلها عنه وحاولوا في أول الامر ان يثبتوا لها مركزاً في الدماغ مستقلاً ولو معها كان صغيراً يجلس عليه كالملك على عرشه تأمر وتنهى وتستبد بالجسم اذا شاءت . وكأنهم لم يبق لهم اليوم مثل هذا المتكأ فصارت النفس عندهم أوغل في الابهام لا يعرفون أين تستقر ولا من أين تدخل ولا كيف تخرج ولكنها مع ذلك موجودة والتعنت برهان ايضاً

\* \*

فالطليميون رأوا كل ذلك فلم يروا ان يحيدوا عنه . رأوا ان لا شيء في الطبيعة يتلاشى وان لا شيء فيها يحدث فوقوا عند هذا الحد وقالوا ان لا شيء معلوماً يخرج الى ما وراء الطبيعة اذ يجيء من وراء هذه الطبيعة ولو شاؤا ان يصفوا في ما وراء الطبيعة لتعذر عليهم ان يفهموا استقلال هذه النفوس او العقول أو الارواح الذاتي وهل هي محدودة تحل في الاجسام ثم تقارق ثم تعود الى سواها أم هي خصيصة تصنع لكل مولود ثم تعود لتخزن او تطرق وتصب ثانية أم هي كالديف محجوزة للنجدة عند الحاجة اليها وما نسبتها من حيث الاتصال والانفصال الى مكانها سواء كان ضمن الطبيعة أو وراءها . وهذا « الماوراء » نفسه أو « الما فوق » ما هو وكيف هو . وأين هو ؟ ما دام الطبيعة نفسها ماثلة الفراغ كله

ولما كان الدماغ عضو العقل كالرئين للتنفس والمعدة للهضم والكبد لافراز الصفراء كانت اللعل التي تقرأ على الدماغ تؤثر في العقل ايضاً . وهذه اللعل كثيرة منها ما هو كلي لم بكل مراكر العقل ويحدث ما يسمى بالجنون المطبق . ومنها ما هو جزئي يقتصر على بعض مراكر كالذاكرة مثلاً أو قوة الحكم أو التصور الخ فاما ان يلتم بها كلها أو بشيء منها فيسمع الانسان اصواتاً غير موجودة أو يرى اشباحاً غير حقيقية أو يسمع هذا الصوت أو ذاك أو يرى هذا الشبح ولا يرى ذاك أو . واو . الى ما لا يقع تحت حصر مما لا يخفى اليوم على علم الطب في جلته وان خفي عليه في كثير من ملبساته ولهذا

قبل الجنون فنون . وزد على ذلك ان درس أحوال الدماغ وسائر الجهاز العصبي — لان الدماغ ليس مستقلاً في الجمجمة كما يتوهم لاول وهلة بل يمتد في اصوله المشتركة الى اعماق الجسم وكل ما يعرض في هذه الاعماق يؤثر فيه — قد أبان لنا اموراً كثيرة هي في عداد الغرائب من مثل قراءة الافكار وسرد الوقائع الحاصلة والتأثير بها ولو عن بعد شاسع والاستهواء الخارجي والداخلي أو الذاتي ايضاً الى غير ذلك مما لا يتسع المقام لاستيفائه هنا وقد علمنا كل ذلك تعليلاً طبيعياً في مقال ضاف في جريدتنا الشفاء من نحو عشرين سنة وأكثر وقد نقله عنه المقتطف في مجلد سنة ١٩٠٧ يشمل الكلبيات ويرجع اليه في الجزئيات بحيث تبدو كل هذه الغرائب في حكم المحتمل مع بقائها في دائرة سائر أعمال الانسان الطبيعية فيفسر الجلي منها بذلك ويبحث عن الغامض حتى ينجلي سره الطبيعي على هذا القياس بشرط ان تتأكد صحته لان الدجل يدخل في كل شيء والكذب كثيراً ما يلبس كل شيء . فالآن وقد تقرر هذا التمهيد الضروري لفهم ما يترتب عليه في امر تصرفات ستيد وأمثالها نقول :

ان ستيد الكاتب الشهير والمبرز في فن التعبير متأثر تأثراً شديداً بتعاليم اصحاب المذاهب النظرية والتي تربيتها الاولى وعلومه الادبية وأشغاله الخصوصية ان لم تساعد على تمكينها فلم تعمل شيئاً لتخفيف وطأتها عنه مع ما به من الاستعداد الخاص . قضية النفس والحياة الأخرى كما يظهر من كلامه همته جداً مع الميل الشديد به الى ترجيح الجانب الذي تحلو فيه للانسان امانية وما في طول حياته تحت سلطان هذا الهاجس متردداً فيه بين الشك المكروه واليقين المحبوب حتى اصيب من هذه الجهة بنوع من الهوس ابتلكه وغلبه على سائر قواه العقلية ووقع به تحت سلطان الاستهواء الذاتي مع استعداده لقبول الاستهواء الخارجي من هذه الجهة خصوصاً

فهو من هذا القبيل معد اعداداً خاصاً طبيعياً لشدة الانفعال وذاكؤه دليل عليه . ومكيف له بسلطان فوق سلطان ارادته فزيولوجياً . ومستوى له من الخارج والداخل طبياً وهذا لا يشين الرجل ولا يمنع كونه من النابضين في فنه . فلا يجوز ولا يقيم أنصاره للاخذ بخناق قد عرض لانس مشهورين أكثر منه في التاريخ كقيصر وناپليون وجان

دارك مضطربة الامس وقديسة اليوم وسوام انهم كانوا يسمعون اصواتاً ولا مخاطب  
أويرون أشياء لا يراها سوام . ولو أمكن للانسان ان يحقق بصدق شهادة الآخرين  
مبهمة شعوره وواضحاته لبدا الامر لكثيرين اكثر مما هو معروف . ولكن اذا لم يحنك  
الصدق في هذه المسائل فكثيراً ما يحنوك كيفية النظر فيها وما آفة الاخبار الا روايتها .  
فستيد من هذه الجهة أحوج الى طيب منا الى مثل تصرفاته

فرواية ستيد تقتصر في أمرين مهمين أحدهما يتعلق به رأساً كمسألة الكتابة تحت  
سلطان ارادة صديقه المتوفاة وباملائها وهذا تعليه سهل جداً بالاستهواء الذاتي فكان يفعل  
ما يفعل من نفسه وهو يظن انه منقاد فيه لارادة سواه نعم هو مستخر فيه اذا صدقناه وانما  
هو مستخر لارادته المستهواة

والآخر اتصل اليه بواسطة اصدقائه وبالاعتماد على روايتهم واصدقاؤه هؤلاء من  
جنسه بالاشتغال في هذا الموضوع وقد يكونون اخص منه فيه اذ قد يكونون أعضاء من  
الجميات الخاصة المشغلة بهذا النوع من العرافة الشبيهة بالعلمية وكلامهم يحتمل الصدق  
والكذب فضلاً عن ان المروي عنهم ان لم يفسر طبيعياً أو بالصناعة فهو مع ذلك من  
السخافات التي لا طائل تحتها . فأصحاب هذه المباحث اما مخرقون وخادعون  
أو مستهونون ومخدوعون ولا يصح ان يكونوا الا واحداً من هذين الاثنين مما علا  
مقامهم . وفي العلم لا يجوز تضحية المبدأ اكراما لعالم أو علماء مما ارتفعت مكانتهم —  
كما انه لا يجوز اليوم في عصر الدستور ان تضحي مصالح الامة لمخاطر عظيم ولو ربح  
تحت اقبال النياشين خلافاً لمن لا تزال تستهويهم هذه الاعراض في الامرين حتى  
اليوم — فان كان اصدقائه غير مخلصين فاذا يمنع ان يكونوا يقولوا له كل ما ذكره غير  
مخلصين ايضاً ان كان ما ذكره مما هو بعيد الاحتمال كأمر الصورة نفسها فليس أسهل  
من نقلها من صورها الفوتوغرافية بالتحليل والتركيب حتى يعدوا سائر الاعراض ولا تبقى  
الا صورة الوجه فقط بزني جديد

وأما ما بقي مما يحتمل الصدق والكذب كأمر العلامة الخاصة ورسائل ابنه المتوفي  
وكرؤية أحدهم لصديقه دون الباقي ففي حال الكذب لا حاجة الى التعليل وفي حال

الصدق والاخلاص فكله محتمل على مبدأ قراءة الافكار والعلم عن بعد وتبسم الوهم بالاستهواء الخ . وقد يكون هو نفسه قد أباح بصورة العلامة الخاصة ولم يدرك  
ثم ان هذه المعلومات نفسها التي أخبر بها ما قيمتها بالنظر الى المعلومات التي لاشك  
كان ينتظرها من أصحابه المتوفين والتي كانوا هم أنفسهم يعدونه بها . ولو كنت مكان  
ستيد لما رضيت من أصحابي المتوفين ما داموا قادرين على مخاطبتي الا ان مخاطبوني رأساً  
وان يبنثوني بالاسباب بكل ما تتوق اليه نفسي بالصراحة التامة فيخبروني بمكانهم  
وحالتهم وانطباقها على المعلوم في هذه الدنيا أم عدمه وينصحوني في ما يلزم وينهوني عما  
لا يلزم لا ان يبنثوني بأمر مبهم كالاحلام وبطرائق هي أقرب الى صناعات المشعوذين  
من العلم . ولماذا لا يفعلون ذلك ويحملون هكذا حياة اصداقهم وأقاربهم بل سائر  
اخوانهم في الانسانية سعيدة في الدارين ؟ — ولعل ستيد نفسه المتحمس في هذا السبيل  
والمتطوع في هذا الجهاد العلمي من نوع غريب والذي يشعر بنقص كل هذه التجارب  
المرغوبة يخبر الناس بعد عمر طويل بما لم يأتهم به بشر من قبل ويحل لهم هذه المشكلة  
العويصة ألهم الا اذا حظر الامر عليه هناك لثلاث تفسد على المخترعين صناعاتهم هنا وقد  
اعطيت لهم امتيازاتها في عهد حكومة الاستبداد الاسمي . أما أنا فلا أظن ان ستيد مع  
شدة رغبته يقدر على ذلك لا لهذا السبب ولا لسواه من جنسه بل لانه ... لا يقدر ...  
هذا جوابي على السؤال الموجه اليّ في الجريدة وهو الاول والاخير وقد صدرته  
بمقدمة تمهد السبيل لفهمه جيداً على اسلوب اقرب الى العلم منه الى النظر لا بعد غني  
الناقشات التي هي أقرب الى الجدل خصوصاً وان الموضوع على الطريقة التي يفهمها  
اصحاب هذه المباحث تلذذ المولعين بالغرائب وبقراءة الاقاصيص التي هي أقرب الى  
الخيال أكثر جداً مما تلذذ لسواهم ممن هم أرغب في المباحث الجافة وأنا لا أميل الى  
تلك — وكأني اسمعك بمد كل هذا البيان تقول : « غزوة ولو طارت »



## المقالة الثالثة والخمسون

### ﴿ علوم ولا تقسروم <sup>(١)</sup> ﴾

جاء في مقدمة بختر: « ولا يتوهم القاريء ان مرادنا بذلك قلب الموضوع وعكس المطبوع قهراً وظلماً اي استعمال القسوة لنفي الديانات على حد استمالها لتأييدها كلاً ثم كلاً وانما القصد ان الحكومات لا تكره الناس على الايمان ولا تحمد الانفاس عن ابداء ما في الصدور بل تدع كلاً وشأنه وتحاشى الضغط على العقول »

ثم قرأت اليوم في الصحف عن الجالية الايطالية في الاسكندرية انها يوم تذكار محررها غرييلدي نصبت في احد معاهدها العلمية أثراً نقشت عليه انكلام الآتي « ان العلم والادب لا يدركان الا بزوال العقائد والاديان »

وقلت في نفسي التطرف من طبع الانسان أولئك اقنعوك بحد السيف وهؤلاء يريدون ان يحضروا عليك ان تؤم معهداً للعلم وانت لا تقول قولهم . ومن يضمن لنا ان الذين يقولون هذا القول اليوم لا يعمدون الى نفس البرهان اذا توفر لهم الحول والوصول على ان الدين والعلم بريثان من هذا التحمس . فالذين يدعوننا الى الايمان ولكنهم يقول لنا « لا اكراه في الدين » والعلم لا يدعوننا الى الاتحاد بل يكشف لنا الحقائق . واذا الدين قال « قاتلوا في سبيل الله » فاما يقول « قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تمتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وهذا من حقوق الدفاع العمومية . فاذا جنى عليه دعائه فاين فضل دعاء العلم اذا حذوا حذوم ؟ وهل تدرك غاية العلم بذلك ؟

ولذلك لا اظن ان أحداً من كبار الملحدین يصوب هذا العمل لان هذا الكلام معلقاً في مدرسة من مدارس الحكومة والامة متاف لحرية الفكر التي هي غاية العلم ولا سيما ان مجموع الامة لا يقول كله هذا القول والحكومة ليست الا ممثلة الامة حتى ولو كانت الامة جميعها على هذا المذهب لما جاز ايضاً لان العلم الذي يعلمنا احترام حرية

الفكر كيف يجوز له ان يعلننا الاكراه في الالحاد واذا اجاز العلم لنا ان نفكر ونقول مثل هذا القول ونشره في الكتب ونعلمه للطلبة حتى في المدارس ميين لهم وجه الصواب فيه أو الخطاء في سواه الا انه لا يجوز لنا ان نجعله شعاراً نعلقه على معهد عمومي للتعليم . ألا يرى اصحابنا ان ذلك ضرب من التعصب مقلوب الموضوع . ولقد طالما شكونا المضار التي لحقت بنا من تعصب دعاة الاديان . ودعاة الحرية يريدون ان يعلمونا بصنيعهم هذا التعصب للالحاد . لا لعمرى ان ذلك لا يقبله أشد الملحدن تعصباً ولا يقول به منهم الا المتقادرون المقلدون لا المفكرون بأنفسهم ومثلهم مثل المتقادين في تعصبهم للدين . فالالحاد وان كان نتيجة العلم احياناً الا انه ليس غرضه بل غرض العلم حل العقل من قيوده ليصير حراً يفكر لا لغرض معلوم نشأ فيه وتربى عليه بل ليصير قادراً أن يحكم لنفسه بنفسه

وأنا لتستغرب منهم ذلك ونحن اليوم في عصر نرى مرجل الافكار فيه في أشد غليانه وكلها متجهة الى غاية واحدة وهي مقاومة التعصب في كل مقاصده . لا في الاديان فقط بل في الاوطان أيضاً لان المصلحين الحقيقيين ينظرون الى العالم نظراً عاماً ويعتبرون الوطن أعم من ان يخصص في قوم ويقف عند حد من الارض ولذلك ترام في سائر الممالك يسعون لتحقيق هذه الامال مادين أيديهم الى ما وراء حدودها متصالحين على ما بينها من اختلاف المنازع السياسية كأنهم يريدون أن يحققوا مقاصد كبار الوازعين من اهل الدين بمجملهم الدنيا وطناً واحداً واهلها شعباً واحداً . وكيف يتم لهم ذلك ان لم يلتفتوا كلهم حول كبة العلم الصحيح اذ يتخذونه وسيلة لهدم آخر صرح شاده الجهل في العقل ألا وهو عقل التعصب . فالعلم لا يجوز ان يبنى باليد الواحدة ما يهدمه بالآخرى وان يفعل فلا يجوز ان يسمى علماً . فليتوخّ دعاة الاصلاح هذه الغاية في معاهد التعليم فذلك ادعى لاتساع المدارك والا فهم ناشطون بها من عقال للوقوع في آخر





## المقالة الرابعة والخمسون .

﴿ نفق أوليفر لودج <sup>(١)</sup> ﴾

« وهي مقالة خرافية فكاهية »

إذا عدت اكتشافات البشر واعمالهم العظيمة في العصور من اول الخليقة الى اليوم فلا ريب أن هذا النفق الذي انبأنا عنه أوليفر لودج العالم الطبيعي الانكليزي والرجل السياسي أعظمها جميعها

الانكليز اشتهروا حتى اليوم باعظم الاكتشافات العلمية الكبرى فنيوتون اكتشف الجاذبية العامة وليل مذهب التعاقب الجيولوجي البطي ، ولستر مذهب الجرائم في الامراض ودارون مذهب التشو والتحول فلا غرو ان يكون مكتشف هذا النفق اليوم أوليفر لودج الانكليزي

ونفق أوليفر لودج ليس سرباً في الارض يخرج منه الى مكان في الارض بل هو سرب بين الارض والسماء يخرج منه اهل الارض الى السماء وأهل السماء الى الارض هذا النفق الذي سيقلب العالم قلباً ويمجمل الارض والسماء مشاعاً بين سكانهما — كقنال السويس بعد أقل من ستين سنة — لم ينته الحفر فيه ولم تم به المواصله حتى الآن ولكنها صارت به على وشك التمام

وهو وان كان العمل فيه مشتركاً بين سكان العالمين الا أن الفضل في حفر القسم

(١) ألف اليوم أوليفر لودج العالم الطبيعي كتاباً في البحث طبع مراراً في مدة وجيزه « ونفق » كالملاح وقد لحصه المقتطف الى العربية وبما جاء فيه ان مناجاة الارواح ليست بالامر الغريب . ويظهر ان الصعوبات التي كانت تحول بين البشر وارواحهم في عالم النيب اخذت تقل اليوم وستصبح يوماً ما امراً سهلاً فكأنه امتد بين العالمين اليوم شبه نفق فتح اكثره ولم يبق الا حائل رقيق سيسقط مع الزمان وهو فكر من اغرب ما سمع حتى في عهد الخرافات الميثولوجية وقلناس في اهواتهم شؤون . نشرت في الاخبار سنة ١٩١٠ .

الاعظم منه لسكان السماء انفسهم ومن البشر لفئة صغيرة من عمال الانكليز الشيطيين كسنيذ ومن لف لفه

والظاهر من قول أوليفر لودج ان الحاجز الباقي قائماً في هذا النفق والفاصل بين العالمين قد رق جداً ، حتى صار يسمع من خلاله صوت ضرب الماويل من الجانبين وربما صار أرق من دين الكافر ودليله على رقة هذا الحاجز هو سهولة التخاطب اليوم بين البشر في هذا العالم والارواح في العالم الآخر وهو يقول ان هذا الحاجز سيسقط قريباً وربما لا ينتهي هذا القرن حتى تتم المواصلات الفعلية بين العالمين

حينئذ يسهل على ابناء البشر معرفة الحجاب لهم وعلى الارواح ابناء البشر بما ينتظرون . ولا بد ان افتتاح هذا الطريق يتبعه تغير في نظام الارض والسماء واختلاط بين سكانها فيتحقق في هذا العصر ما أنبأ به منذ القديم من ان سكان الارض سيصيرون بطبايع سكان السماء ملائكة ويملكون الله فطوري للذين يعيشون ويشهدون ذلك

اتما يخشى ان السياسة تتداخل في الامر فتدعي دولة الانكليز حق السيادة على هذا النفق وتضرب عليه رسم مرور وتحصن الامتياز فيها لان العاملين فيه من رجالها ومها يكن من الامر فانها لا تستطيع احتكار هذا الامتياز الا سنين معدودة ثم يصبح المرور مشاعاً للعموم كما هو مصير قناة السويس — قبل ستين سنة — ولو بدفع تعويضات لها يكون القول الفصل فيها للاتفاق الدولي لا لتحكماتها هي نفسها اللهم الا اذا بقيت دولة الانكليز أقوى الدول كافة ولو بمجتمعة تحكم فيها كما تريد وهذا بعيد

ويظهر من مباحث المثقفين في العاديات السماوية ان هذا النفق كما في الميثولوجية كان موجوداً في القديم — كما كان قال السويس موجوداً ايضاً على قول — ثم سدّ اي النفق لحصول اضطراب بين سكان العالمين كاد البشر يفسدون فيه الملائكة كما في التوراة فصوراً للصالح السماوية وللفضائل الراقية سد هذا النفق وقضي على الناس ان يعانون مشقة فتحه مرة ثانية قصاصاً لهم على شرورهم

ففسى ان يتم لهم هذا الفتح اليوم فيعود الناس الى معاشرتهم كما كانوا في عصور الميثولوجية وعلى عهد التوراة ايضاً ولكن بالمعروف ليستتب لهم الفتح نهائياً من

دون ان يخشوا سداً في المستقبل وكأن البشر اليوم صاروا أصلح حالاً واسهل تمازجاً عن  
 ذي قبل حتى لا يخشى عليهم ان يقعوا في ما وقعوا فيه من الغضب عليهم في الماضي  
 حينئذ يسطر التاريخ لهذا القرن اعظم عمل قام به البشر حتى اليوم في هذا النفق  
 وينقش على بابه بأحرف من نور اسم أعظم مكتشف ويسمى « نفق اوليفر لودج »  
 ويصبح صاحبنا للاجيال الآتية رابع الثلاثة  
 هكذا هكذا العلماء النعميون<sup>(١)</sup> والا فلا . واعلم ان السخافات ليست كلها في الشرق

## المقالة الخامسة والخمسون

﴿ المريخ او معمل الحياة<sup>(٢)</sup> ﴾

« انتقادية فكاهية »

علماء هذا العصر متصاعبون جداً لا يتساهلون في قضايا العلم ، فقلما يقبلون قولاً لم  
 يعمره البرهان ، وبرهانهم ليس قضايا منطقية قد تنتهي فتقلب الى غرابة وسفسطة من  
 مثل قولهم : لك اذن بل اذنان واذن واذنان ثلاث ، اذن لك ثلاث آذان ، بل برهانهم  
 برهان الامتحان ، وهو برهان الحس والعيان ، ولئن كان الحس الظاهر نفسه يخدع ويقع  
 في التوهم احياناً كثيرة ، إلا أنه أقل انخداعاً من المشاعر الباطنة واسلم منها عواقب ، ولا  
 سيما ان المشاعر الباطنة منقادة في أحكامها الى ما تنقله لها الحواس الظاهرة نفسها ،  
 خلافاً لمن يرى لها الاستقلال

ولذلك لما اعيام سر التولد الطبيعي ، ولم يستطيعوا ان يؤيدوه بالامتحان تلجأوا ،  
 فوقف بعضهم كما وقف حمار « بوريدان » بين حزمتي الحشيش ، وانضم الى طائفة

(١) لقد جاء هذا الكتاب فلانس كعكة على جرب ولا تسل عن اقبالهم عليه

(٢) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

اللاأدرين ، وهي حكمة بالغة سل عنها كثيرين من نواب امة بني عثمان في المبعوثان ، بل سل عنها الحكماء النفعيين ، أي اصحاب مذهب « الأورتونيسم » الذين هم في الاجتماع على رأي القائل : « لا يترك الساق الا ممسكاً ساقاً » حكمة لولا انها ابلغ من حكمة اصحاب المباديء ، لما صاغها شعر المولدين في قالب تنبراً منه فصاحة شعراء الجاهلية وان كان يعده البعض بليغاً ، ولكن باعتبار ان البلاغة تناسب بين الصيغة والمصوغ فقط ، ألم يقل شاعرهم ؟

زعم المنعم والطبيب كلاهما ان لا معاد فقلت ذاك اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالوبال عليكما

والعجيب الغريب ان آفة الفهم لم تأتنا في كل عصر الا من علماء الفلك واطباء الابدان ، مع انهم اقرب الناس الى اختبار عجائب المخلوقات وهم كل يوم معها في شأن ، كأن المثل ما احتترك الا من خبرك ، وما استصغرك الا من عرفك ، صحيح على سائر احوال الانسان ، ولذلك لم يكن نبي بلا كرامة الا في وطنه

واقاد بعضهم في الاصول الى علماء الكلام الابدعين الذين لولا هديهم لما وقف الانسان في ضلاله عند حد ، ولكنهم خالفوه في الفروع ليجمعوا بين النقيضين ، ويمسكوا الحبل من الطرفين ، كما هو شأن الكثيرين في الاجتماع وكما فعل دروين نفسه في العلم وبعضهم رأى التخلص بالهروب ، ليدفع الحجة بنفس الحجة ، على مبدأ معالجة المثل بالمثل ، وهذا شأن السير ويليم طمسون المعروف باللورد كلفن ايضاً ، وهو من كبار الفلاسفة الطبيعيين والرياضيين . فزعم ان جرائم الاحياء لم تتولد في الارض وانما اتتنا من بعض الاجرام محمولة على بعض النيازك ، وكأن لسان حاله يقول للذين يشكون ويستعرون : نحن في الغرابة سواء ، والذي لا يصدق فليذهب يحقق

وأما الذين وقفوا على ارضهم ، كالبلايا رؤوسها في الولايا ، لا يقولون عنها ولا يُثبتون ، وهم مع ذلك يكابرون ويتفلسفون ، كهكسلي وهكل وبختر ومن تعلق بزمكاهم فلا شك انهم من طينة القذى الذي رسب في قارورة المخلق بعد توزيع النفوس — وما من قاعدة الا ولها شواذ — فانكروا على سوامم ما هم خالون منه بحكم الضرورة وبها

على الاقلية الشاذة حكماً اطلقوه على الجميع  
والظاهر ان العلم لا تهوله صعوبة ولا تصرفه غرابة ، فالانسان الذي لم تسعه  
الارض على سعتها وصفره ، ما زال من أول خلقه يتناول الى الافلاك ، كأنه شاعر ان  
اصله من العلي ، لعله يصنع له اجنحة يطير بها اليها ، أو مراكب يركب بها الهواء كما  
يركب الماء ، فيسافر عليها وينقل بين الاجرام كما ينتقل في القارات والمدن . ولكن ما كل  
مستطاب هين ، « ولا بد دون الشهد من ابر النحل » وحلاوة استرداد الصحة تنفصها  
مرارة تجرع الدواء ، فما كاد يحقق له حلم السفر في الفضاء ويتعرض للفرق في اوقيانوس  
الهواء ، كما هو يفرق اليوم في محيط الماء ، حتى بدت له صعوبات الحدود ، كأنها سد  
الاسكندر ، ان وصل اليه ، فلا يستطيع ان يتعداه ، فالهواء لا يتجاوز حداً محدوداً وهو  
لا يعيش بلا هواء ، وان عرف كيف يذخره لحاجته فأبي هواء يركب غير هذا الهواء ،  
لقطع المسافات ومقاومة الثقل الذي يجذبه الى الوراء ، الى ان يقع في جو يدفعه ناموس  
جذبه الى الامام أو الى العلاء

ولكن الامل زاد الانسان في دنياه ولولاه لأحجم عن كل عمل فيه مشقة ، وقد  
علته مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة ان لا يحزم بمتنع ولا يستسلم لمستحيل . فأخذ  
يبحث ليعلم أي الاجرام يقصد أولاً فوجد المرجح اقربها مثلاً ، ووجده كذلك أشبهها  
بطبيعة ارضه فوجد فيه المياه والتلوج ، والليالي والايام ، والسنين والفصول ، والمروج  
الخضراء ، ولكنه لم يتأكد فيه وجود الانسان ، حتى ولا الحيوان البري ، وكأنه سر  
من ذلك لأنه يسهل عليه الفتح والاستيطان ، فيخلو له الجو ويستعمر جرماً كبيراً لا يتنازع  
فيه منازع ، وأول ما افكر حينئذ ان يؤلف الشركات لاستثمار تلك المجال الشاسعة  
والمضاربة بها

غير انه عاد الى البحث فبدت له أمور كادت توقعه في القنوط : رأى الهواء رقيقاً  
جداً لا تكاد تعيش فيه الا الاحياء التي تعيش بلا هواء ، ووجد التلوج كثيرة جداً  
تجعل البرد هناك زمهريراً ، ووجد الليالي والايام اطول منها في الارض والفصول والسنين  
ضعفي السنين والفصول فيها طويلاً ، ووجد المياه كثيرة جداً تكاد تم سطح الجرم وهي

قليلة القور كانت مستنقعات نهر الفنج لا تعيش فيها الا النباتات المائية كأنها طحالب هائلة واذ كان فيها حيوان فهو من انواع الحيوانات المائية الهائلة ايضا . ورأى كذلك ان الاجسام تبدو هناك خفيفة جداً لضعف ناموس الثقل ، فيخشى عليه اذا تمكن من الوصول الى هذا الجرم واستيطانه ولم يفرق في الماء ولم يفتس من قلة الهواء ، ان يصبح في جوه كالدمى الزاقصة على مراسح التمثيل الصامت<sup>(١)</sup>

ولكن العلم اوسع في اغراضه من ان تتولاه السامة من غرض لم ينله فانتبه الى قول اللورد كلفين في مصدر الحياة وقال من يدري فلعل اللورد مصيب في دعواه : فيكون المرخ معمل الحياة الاولى ومهبط الجرائم التي تولد منها الحيوان والانسان الى هذه الارض لكثرة مياهه ومستنقعاته ، والماء اصل الحياة كما هو مقرر في العلم ، وكما تؤيده الآية ايضا « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ولكنه تبقى لدينا صعوبة نقل الجرائم من هناك الى ارضنا بحيث تقاوم في مسيرها حرارة الغليان وبرد الزهرير ، ولعل العلم يكشف لنا في المستقبل امكان بقاء الحياة في مثل هذه الشروط المانعة كما تحفظ حياة ضيوف « بلوتون » في نار جهنم ذات السعير<sup>(٢)</sup>

(١) سئل الدكتور فاندريك هل الاجرام السماوية مسكونة فأجاب على الفور « اذا كانت مسكونة أرجو ان يكون سكانها من غير هذا الخلق القمين » يريد الانسان  
(٢) من ملح الطماء ان بعضهم خطب في جمهور منهم قال ان البرد يتكون من بخار موجود في الخلاه الذي بين الاجرام السماوية . فأتى الخطبة حتى وقف اللورد كلفين وقال : اظن ان الخطيب يمزج لانه لو فرضنا تكون البرد في تلك الاطالي لتداب قبل ان يبلغ الارض بملايين من الاميال ولا جلس قام اللورد وبلى وقال أنا اعرف رجلا ( يريد به اللورد كلفين ) ارأى رأياً اغرب من هذا وهو ان يزور الاحياء مهبط على الارض من السماء فقال اللورد كلفين أنا لم اجزم بذلك بل قلت بإمكانه وبانه لا يمكن ان بقاء دليل على فساد . وقد عجب بعضهم على هذا القول بقوله اذا صح قول اللورد كلفين فالتقى اذا مصنوع من جين طري لانه لا يقام دليل على فساد انتهى



## المقالة السادسة والخمسون

\* العالم بعد ٦٠ سنة <sup>(١)</sup> \*

« او امتياز قناة السويس وحقوق مصر »

ان الناظر الى مصالح الامم والباحث في حقوق الاوطان لا يسلم حكمة من الخطل الا اذا نظر الى ذلك . من خلال البحث في طبائع العمران ليقف على نواميسه في سيره البعيد وعلى تقلباته في اطواره المختلفة . والباحث في ذلك لا يسهل الا الاقرار بان حركة العمران الارتقائية اليوم اسرع جداً منها في الماضي .  
 فقد كانت هذه الحركة في الماضي بطيئة للغاية تمر على العمران آلاف السنين وهو واقف لا يتغير سواء كان في علومه او صناعاته او شرائعه . يتقلب فيها على غير هدى ويعود فيها من حيث اتى

فكانت علوم اليونان وفلسفتهم وشرائعهم وسائر نظاماتهم حتى اوائل القرن الماضي موضوع بحث الاجيال التابعة يستقون منها ويتخطون فيها ويتناقضون فيها لينسجوا على منوالها كأنها الغاية في الكمال والنهاية في الحسن حتى رسخ في الازدهار ان غاية الانسان من ارتقائه في العمران هو الوقوف عند فهم فلسفة ارسطو وطب ابقراط وكيمياء هرمس وعلوم ارخميدس . وتطبيق شرائعه على شرائع تلك العصور المتحيرة في ظلمات الجبل والموسومة على تباينها بميسم الاثرة والاستبداد

وكانت الصناعات بسيطة جداً وقائمة على استخدام قوى الحيوان والقوى الطبيعية الاخرى البسيطة كهبوب الرياح ومجاري المياه والمخاضية العامة فكان الناس ينتقلون من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر على الجمال والحيل والمجلات في البر والمراكب الشراعية في البحر ولا يخفى كم كان يقتضي لذلك من المشقات والزمن مما كان يجعل المسافات بين الاقطار متباعدة جداً والمصالح العامة بين الامم متباينة كذلك

(١) نشرت في المظهر سنة ١٩٠٩ أول ما كتبت مسألة محمد بن امتياز قتال السويس

وكانت الشرائع بناء على هذا الفصل والتقاطع بين الافراد والجموع وبين البلدان والاقطار بسبب هذا التباعد اميل الى تأييد المصالح الخاصة المنفردة منها الى تأييد المصالح العامة المشتركة . فكانت حقوقاً ممتازة ينظر فيها الى مصلحة البعض لا الى مصلحة الجمهور والى مصلحة كل بلد لا الى مصلحة العالم . وكانت اكثر الآثار القديمة للخدمة اغراض خاصة لا آثاراً ذات شأن في المنافع العمومية . فكانت قصور ملوك كلخورنق والسدير ومقابر ملوك كالا هرام ومعابد آلهة كعبلك . بل صار الملك حقاً خاصاً يميز لصاحبه ان يصدّ به النفع العام . وكما قامت حقوق الافراد على هذا الاساس الواهي قامت حقوق البلدان والاطوان وضحو بذلك المنافع العمومية على مذهب المصالح الخصوصية وما زال الانسان في المجتمع المبراني على هذه الحال شرائع لا تتغير لجهله ومواصلاته لا تختلف ومصالحة لا تأتلف لبعد المسافات بين البلدان حتى اوائل القرن الماضي فارتقت حينئذ علومه الطبيعية واكتشف البخار أولاً ثم الكهرباء ووقف على الرابطة الذي يربط قوى الطبيعة بعضها ببعض فركب البخار وامطى البرق وانطق الجما دفعتارت المسافات بين الاقطار المتباعدة وارتقت صناعاته جداً والذي شهدناه من ذلك في النصف الاخير من القرن الماضي وفي العقد الاول من هذا القرن لم يذكر له مثيل في مئات الاجيال بل الوفا . حتى ان الاضياء التي بقيت آلافاً من السنين لم تتغير السراج الذي كان مستعملاً على عهد الفراعنة هو نفس السراج الذي كان مستعملاً بيننا من عهد اربعين سنة اصبحت في هذه الآونة الاخيرة وامرها كل يوم في شأن من التفتن والابداع وقس على ذلك سائر الصناعات وسائر وسائل الانتقال بين البلدان بالبخار والكهرباء في البر والبحر وفي الهواء أيضاً

وكانه حصل هذا الارتقاء في العلوم والمخترعات والصناعات حصل ايضاً في الافكار فتغير نظر الانسان في الشرائع والحقوق والواجبات . فلم عن يقين ان حقوق الافراد لا يجوز ان تتبلغ في جوفها حقوق الجموع وان المنافع العمومية مقدمة على المنافع الخصوصية وان الشرائع التي لا يتوفر معها كل ذلك يجب ان تمزق تمزيقاً فضمفت سطوة الملوك وما عهدنا بقيام الشعب في وجهه فيجرح بعض المواهل بعيد . وعلم ان حقوق



الام هي فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم وحقوق العالم اجمع فوق حقوق كل مملكة . بل علم ايضاً ان المصالح المختلطة اليوم يجب ان نجعل وطن الانسان العالم كله لا بقعة في الارض نشأ فيها ودب عليها وان لا شريعة يجوز لها ان تحظر عليه هذا الحق الطبيعي المقرر بالعلم والمصلحة اليوم . بل علم الانسان من كل ذلك ان الشرائع السائدة حتى اليوم موسومة بمسيم الحيف وانه يجوز له الانتقاض عليها دفناً لشرها وتعباً لنفعها

وقد بدت في الاجتماع البشري الراقي حركة هي كل يوم في شدة لنقض القديم وتأيد الحديث . والاشتراكية التي تنتفض لذكورها اعصاب الكثيرين اليوم لانهم لا يفهمونها على حقيقتها ليست الا تمخض الاجتماع بهذه المبادئ الحديثة لاقامتها على اطلال القديم الذي لا بد من نقضه عاجلاً أو آجلاً ولكنه اجل بالنسبة الى نظام الاجتماع قريب . ولا يدري مبلغ سرعة هذه الحركة الانتقاضية الارتقائية الا من تروى قليلاً في مبلغ العلوم والصنائع في ارتقائها السريع في هذا العهد الاخير . وسنن الطبيعة في الاجتماع واحدة فهي في سرعتها دائماً بالقلب كمرج البعد بحيث ان الذي كان يلزم له مئات السنين بل ألوفاً لأن يتغير في الماضي صار في الامكان اليوم أن يتغير في بضع سنين

وما حلني على هذا البيان الموجز الا ما رأيته من الحركة الانتقاضية الشديدة ضد مشروع تمديد قناة السويس مقابل مبلغ تقاضاه مصر وتتنفع به قبل انقضاء اجل الامتياز المضروب اي قبل ستين سنة لا تتنفع مصر فيها بشيء . وعجبت جداً لما رأيت ان اكثر الباحثين في الموضوع وقفوا فيه كأهم في الماضي لا ينظرون الى ما نحن فيه من الحركة الارتقائية الشديدة غير حاسين اذني حساب لما سينجم عنها من التغيرات الاجتماعية المهمة في المستقبل القريب . وفي نظرنا ان الستين سنة اليوم هي بمقام ستة آلاف بل ستين ألف سنة من سني الماضي ستصبح فيها المواطن بالنسبة الى العالم كاللادن بالنسبة الى الوطن الواحد وتمير حقوق المرور بالنظر الى ذلك

ففسى الذين يهمهم امر مصر ان لا يذهب عليهم ذلك لثلا يضيعوا برفضهم حقاً راهناً محافظة على حق موهوم لان قناة السويس صارت اليوم للعالم اجمع من المنافع

العمومية التي سوف لا يقرّها المستقبل القريب انها من حقوق مصر اكثر مما هي من حقوق الصين او امريكا . فلي الجمعية العمومية ان احسنت رأياً النظر اليوم لا في قبول هذا العرض أو رفضه بل في تعديله وخصوصاً في كيفية صرفه في منافع مصر فذكر عليها تنفع الذكري<sup>(١)</sup>

## المقالة السابعة والخمسون

﴿ الى جريدة « الوطن » في بيروت ﴾<sup>(٢)</sup>

ابها الوطن العزيز

افتقدتك هذه المرة فحسبتك وُهمت بي اني اقول باللاوطنية فحقت علي فأردت ان تجربني فاحتجيت عني . فقامت ابحت عنك وقد قيل لي انك في شغل عني بي في التفسير والتأويل في امر لا يحتاج الى تفسير حتى عثرت عليك امس فاذا انت مضطر . وقرأت لك شرحاً يزري « بعرف الطيب » فزاد اعجابي بك ووددت لو اني المتنبى لتكون انت اليازجي . فلا اعدم حينئذ خير شارح لقولي  
لا يصلح الانسان مجتمعا ما دام فيه الدين والوطن

(١) وقاتل ما فائدة الشركة من تمديد الامتياز وتحمل هذه الفرامة الزائدة اذا كان لا بد من سلبه منها قبل سنتين سنة والجواب على ذلك ان الحال لو بقيت على ما هي عليه اليوم بين الشركة ومصر سهل على التجارة الدولية سلب الامتياز ودفع التعويض اللازم في مدة قصيرة واما لو تم الانساق على التمديد وقامت الشركة باصلاحات اخرى استوجبت زيادة نفقات على القتال فان هذا التعويض يصبح اصعب ويجوز للشركة الانتفاع من امتيازها مدة اطول تستفيد منها فوائد مالية جمة لا تستفيدها هي ولا مصر ايضاً اذا بقيت الحال على ما هي عليه الآن

(٢) كانت جريدة الوطن البيروتية نشرت اياتاً لي جاء في مطلعها

لا يصلح الانسان مجتمعا ما دام فيه الدين والوطن

وكان الناس هناك انتقدوا عليها ذلك فكتبت مقالة بليغة بينت فيها صواب القول من الوجهة السلية وكانت الجريدة تصلي بالترتيب الا هذه المرة قامت ابحت ضها حتى وجدتها فكتبت المقالة المذكورة اعلاه وقد نشرت في الاخبار سنة ١٩١٠

كما لم يعدم المنبي خير شارح لقوله

فلو سرنا وفي تشرين خمس رأوني قبل ان يروا السما

وعذرتك ولم اغذل الدافع او الدافعين لك الى تسم هذا المركب وقد رأيت ذلك « الموكب » على باب « الاتحاد »<sup>(١)</sup> بل كان لهم فضل الكبير ولك فضل النار لازالة الصدا عن حديد الافكار الرائدة في مستنقع الاقتناع

مسألة الدين والوطن مبحث وعر المسالك ومجرد ذكر اسمها يقلق الافكار المطمئنة ولو انها بحالة اجتماعية لا تمجد ولا توجب الاطمئنان حتى انه لتسد لدهما منافذ العقل ولا تبقى سوى عواصف العواطف . مع ان المسألة بسيطة جداً ككل الحقائق فالدين للآخرة والوطن للدين . والذي يهم الانسان منهما في هذه الدار هو اصلاح حاله مجتمعاً ولا ينكر ان غرض الشارعين كل بحسب روح عصره كان هذا . ولا ينكر كذلك انهم جاؤا من اول الخليقة الى اليوم متعاقبين لاجل هذا الغرض وقد رأوا تعذره على من تقدمهم أو اختلاف الحاجات بحسب المواطن والمصور . جاؤا متفقين في انكليات مختلفين في المراتب والجزئيات ولكنهم جميعهم لم يفلحوا بجعل العالم ديناً واحداً ووطناً واحداً فقامت الاختلافات بين الاديان والمذاهب والمواطن عراقل في سبيل ارتقاء المجتمع فرأى العلم ان لا سبيل الى ذلك الا بفصل الدين عن الدنيا أولاً فاخذ يث تعاليمه الصادقة الحرة والناس يدخلون فيها افواجا وكما زادت بينهم انتشاراً زادت حالهم في مجتمعهم صلاحاً ثم رأوا ان العلم كما انتشر قلل الفواصل بين الاوطان وذكر ما كان تخاصمهم بسبب ذلك يجر عليهم من الشقاء ورأوا مزايا التعاون الكلي فقالوا اليه ورأوا انهم كلما مالوا اليه قل شقاؤهم وكادوا يكونون سعداء ورأوا كذلك ان الاتفاق ممكن وليس حلاً فلم يعد يستهوي العقلاء تعليم آخر في مجتمعهم سوى تعليم العلم الذي اعتبروه انه الدين الحق الذي يستطيع اتيان هذه المعجزة التي عجز عنها سواه وارصدوا كل قوام له وعلقوا كل آمالهم به وتركوا للدين الناية الاخرية يتعلق بها من شاء على شرط ان لا يتدرب بها

(١) اشارة الى ما كان قد وقع في هذه الاثناء من تجمع الناس وهجومهم على مطبعة جريدة الاتحاد ببيروت يدهوى الدين

لما كسة سواء في دنياه كل يث تماليه كما يترامى له والا اشتد التنازع بينهما على نفقة المجتمع المسكين الى ان تم الغلبة لاحدهما ولكن كلما اشتد التنازع دان حلول اجل وقرب حلول اجل والغلبة النهائية اليوم للعلم لا محالة

وبالحقيقة اذا نظرنا الى الدين والوطن نظراً اجتماعياً فان لم نستطع ان نجعلهما وسيلة لترقية المجتمع — وكيف يمكن ذلك مع اختلاف الاديان وتفرق المذاهب وهو لا يرتقي الا بالتعاون — فما الحكمة من الوقوف بهما سداً في سبيل كل اصلاح ؟ فاذا لم تفصل الدين عن الدنيا واتخذناه كما هو اليوم وسيلة للشقاق ولم تتوسع بالاولطان فصدنا بها عنا غوث المدنية بسدود التعصب ولم نقبض من محاسنها ما يجعلنا شركاء في العمران متضامين متساوين في المساعي واستمسكنا بما يجعلنا اعداء متخاذين ونحن لا نستطيع ان نكون الا متفاضلين فماذا تكون النتيجة على المفضولين سوى خسارة الدين والدنيا معاً ؟ ولا يفعل ذلك الاتقياء العقلاء من اهل الاديان والمخلصون في حب الوطن ولا يفعله — وهم العدد الاكثر — الا الجهلاء منهم ولا سيما المنافقون المتاجرون بهما الذين اذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون . هؤلاء هم الذين في كل امة وزمان يتذرعون بعامل الدين والوطن ويسطون بهما على الاغرار ويلصقون بهما العار فيهدمون المجتمع ويهدمون الوطن ويهدمون الدين نفسه لينبؤا على اطلالها عروشهم الى حين . وكما قامت امة على امة ومملكة على مملكة ومذهب على مذهب لعلة دينية او وطنية طفيفة كان يمكن حلها لمصلحة الاجتماع على اسهل سبب مع بقاء الدين ديناً والوطن وطناً . وماذا يمنع اعتبار العالم كله وطن الانسان الاكبر من اشتغال هذا الانسان لوطنه الاصغر ؟ ألا يشتغل الانسان اليوم لوطنه وهو يشتغل لنفسه معتصماً في بيته ؟ نعم انه يشتغل لنفسه حينئذ احسن ويكون ارتقاؤه اسهل كذلك

وقد كان الناس في الماضي لا يدركون ذلك فكانوا لاقول سبب يخدم افراداً منهم ولا يخدمهم يمثلون بانفسهم وبوطنهم وبالمجتمع كله . ولكن الانسان كلما ارتقى في العلم علم مزايا الارتقاء بالعلم اكثر . والامم الراقية اليوم اميل الى التنازع العلمي والمباراة باقتان العمل ولو أبرقت واعدت منها الى التنازع بالحروب حتى غلب بفضل العلم على المجتمع

اليوم الارتقاء بالنشوء التحولي على الانتقال بالثورات الهمجية  
 هذا من الجهة الاجتماعية . ولقد اجدت انت الكلام فيها . واما من الجهة العلمية  
 البحتة فلا اعلم السبب الذي يثير الضغائن والاحقاد اذا تراءى للبعض ان الاديان متحولة عن  
 الاوهام في الماضي وابدئ رأية في ذلك بصراحة حتى يقوم عليه النافون ويصدعونه  
 بالكثرة ويحجونه بالقوة وماذا يضر ذلك باعتقادهم الخاص والمقام حينئذ يكون افسح لهم .  
 يدعون بعضهم بعضاً الى المزاحمة هناك على كز دائم وهم هنا لا يطبقون المزاحمة على  
 كنز قانر . فيا للعجب من هذه المفارقات : استثنائيون الى حد الجشع هنا واشتراكيون  
 بل اباحيون هناك ! فليستبدوا باموال الامم وليشيدوا بها المعاهد على ما يهون لترسيخ  
 تعاليمهم في الافكار وليستدروا بها المزيد وليلوذوا اليها وليقصدها لقضاء مآربهم وليحرموا  
 المجتمع من كل ما هو باحتياج شديد اليه بشرط ان يعلموه مع ذلك التساهل حتى يستطيع  
 سوامهم ان يرفع صوته ايضاً وييدي رأية بدون ان يكون عرضة للمثالب والتضييق حتى  
 يعلم الصدق بين الناس ملاذاً وينتشر الرياء وتصير الحكمة مداجاة ونفاقاً . وما اعجب  
 مما تقدم الا خوف الراقيين منهم على الاخلاق والآداب اذا تراخت المباديء الدينية .  
 فلقد رينا حتى اليوم في مهدهم واغتنينا بلبانهم كل هذه العصور الطويلة — فهل نحن  
 اليوم — ونكاد نبصر قليلاً اسوأ حالاً منا في الماضي كلا نحن اليوم اصلح حالاً ومن  
 المسئول عن البقية الباقية الفاسدة الكثيرة فينا سوامهم ؟

## المقالة الثامنة والخمسون

### ﴿ ساعة في الماضي ﴾<sup>(١)</sup>

ملأت الخروج ولو الى الحق وغلقتي عوامل الرجعة ولو انها ردة الى الباطل فرأيت  
 الناس يفضرون بأجدادهم ولو انهم بهم بئس الاحقاد فتولتي السامة من حجارة النسب  
 ولوزاتها كرم الحسب قعمت البحث في كتب الحكماء ليلي أهتدي الى شرف عظامي

اضمة الى فخر عصامي فوجدت اني من سلالة الالهة يوم فتنا باخلاط الناس فلذت بأجدادي وزهوت بهم على كل مخلوق وضع من ابي البشر الى الذي أبى وتكبر وكان مقره بهم التاز وبئس المستقر . وعلمت ان الطب ليس من موضوعات الناس كسائر صناعاتهم بل هو صناعة سكان الاولب وان أهله هنا من أهله هناك تربطهم فوق صلة العلم صلة الدم فهم أحق بفهم الداء ووصف الدواء لا كالديمي الذي يندس بينهم ثم يرميك بدائه وينسل

فعلت ان هرمس رب البلاغة والبيان الذي تخرج من فمه سلاسل الحكمة فتقيد اللسان وتعضه عن مواقف الخطل ومواطن الزلل اشفق على البشر فنقل اليهم من صناعة الالهة على ما رواه القديس اكليمنضوس الاسكندري كتباً ستة في التشريح ومنافع الاعضاء والطب والجراحة وأمراض العين وطبابة النساء ضمنها كنوز اختباره واختبار اخوانه الاطباء في السماء اذ ان كثيرين من الالهة كانوا يحترفون هذه الصناعة الشريفة . وأشهرهم فيها بلا منازع الجراح الشهير الاله « يون » وقد داوى كثيرين من الالهة المشاغبين فشفاهم من جروحهم التي كانت تعرض لهم في خصامهم بعضهم مع بعض ومع البشر انفسهم وقد ضم الى عيادته الالهة « ديونه » الجميلة فكانت تساعده في تضييد الجروح

فالالهة وان كانوا معصومين من الموت الا انهم لم يكونوا في عصمة من المرض بل كانوا يتألمون في حياتهم الخالدة كسائر الناس ويقصدون الطبيب منسكين ملتجئين للشفاء منه نظيرهم والامثلة على ذلك كثيرة . فان « فولكان » بن « جويتر » من « يونون » ولد شنيماً جداً فلما أبصرته أمه راعها ما في صورته الجاحلية . . . . . من القبح فرمت به من عالي كرسي مخاضها الى بحر الظلمات ( البحر المتوسط اليوم ) قهشهم وبقي اعرج اكسح طول حياته

و « هرقل » قصد ان يزور « اتروپوس » احدى غزالات خيط الحياة في الجحيم وكانت من غزالات جبال الهوى ايضاً فاعترضه « بلوتون » في الباب فطعنه هرقل طعنة نهجلاء ادمت كتفه اليسرى حتى اخلى له السبيل فدواه « يون » بيلسمه المعجيب وشفاه

في الحال . ثم انتقم بعد ذلك من « هرقل » فطعنه برمح طعنة لولا صناعة « اسكولاب » لما نجى بها من العرج

وفي الحرب التي نشبت بين الاغريق والترواديين زج « مارس » اله الحرب نفسه بينهم فرما « ذيوميد » بضربة مقلع محكة اصابت بطنه فأخذ يصرخ من الألم كناية الف رجل معاً حتى ملأ صراخه الفضاء ثم هرع والقي بنفسه بين يدي الجراح الشهير « بيون » فداواها بمساعدة الفتاة الجميلة « هيبه » وشفاه

ولم تكن الالهات انفسهن اقل تحمساً من الالهة انفسهم فكان « ينخسن » معام الحروب نظيرهم و « فنوس » ذات الجمال الباهر لم يشفع جمالها بها لدى « ذيوميد » القاسي فطعنها طعنة شلت يدها فأدركتها « ديونه » ذات الحنان والمتطوعة في جمعية الصليب الاحمر الاولبي وضمدت جراحها وشقها . و « يونوف » ذات الكيد الذي يضرب به المثل وأم النساء بذلك خاتما الهوى فاستقبلت في ثديها الايمن سهام قوس « هرقل » فداواها رئيس الجراحين « بيون » وشفاه

ولم يكونوا يداونون العلل الجراحية فقط في المستشفى الاولبي بل كانوا يداونون الامراض الباطنية أيضاً وخصص الامراض التي كانوا يداونها الامراض العصبية خصوصاً امراض العقل . وقد كان « باكوس » اله الكرمه وسيد المصاين بهذين السكارى من أعظم مشاهير المجانين وقد عرض له وهو في « دلفوس » نوبة جنون قهراً له ان يبلغ المسافات بلعاً فأخذ يطوف في العالم وهو يعدو عدواً سريعاً فالتقى باثنتين من اخواته فأسكتاه وكنه وقع بهما في شرك النخاسين . ولكن « جوييتر » أبا الالهة الشفوق رآف به وأعاد له العضو المفقود وشفاه

وهرقل سيد المشاغين جنّ لكثرة ما قاسى من المشقات في وقائع الكثرة وفي نوبة من نوب جنونه المطبق ألقى بأولاده من وصيفته « مغار » في النار . ولكن جنونه لم يطل به بل انقلب الى نوب صرع وقد شفاه من احداهن مرة المدعو « اتيسير » اذ سقاه مقادير كبيرة من الخربق الاسود ولكن نوب الصرع عاودته بعند ذلك ولم يشف منها تماماً الا بعد ان أكل نخب الطير المعروف بالسماي بناء على اشارة

صديقه « يولاس » أول واضع لطريقة علاج الاعضاء بالاعضاء المماثلة المعروفة  
« بالأوبثرائية » اليوم

و « سرس » الالهة الحصاد كان بها وسواس سوداوي شديد فكانت تجلس  
دائماً الى حجر مقبلة الوجه وبينما هي على هذه الحالة من اليأس التقت بها عجوز تدعى  
« بوبو » فوقفت ترقص امامها رقصاً جمع الى براعة الافرنجيات خلاعة المصريين حتى  
أضحكنها وأزالت ما بها من العبوسة

ولما كان الناس غير معصومين من الموت عصبة الآلهة انفسهم كانوا بحاجة الى  
التداوي أكثر منهم وكان منهم أطباء كثيرون وكانوا يشتررون الادوية من هيكल  
الحى كما يشترونها اليوم من الصيدليات و « أوزون » وصيفة « ابولون » تعلمت من  
عشيقها خواص المفردات ووضعت أساس علم العقاقير النباتية ولكن الناس رأوا ان عليهم  
هذا لا يكفي لان يدفع المرض والموت عنهم فلاذوا كما لا يزالون يفعلون اليوم بقوى  
ما فوق الطبيعة يستنجدون الآلهة في أمراضهم وكانوا يضعون كل عضو من أعضائهم  
وكل وظيفة من وظائف جسمهم تحت سلطان إله خاص فقد كان عندهم إلهة للعظام  
تدعى « اوسيلاغو » يتجنثون اليها في الكسور والخلوع والصدوع . وإله لصيانة عفة  
المدارى اسمهُ « هيمين » وإلهة لعل النساء تدعى « مة » وإله كثير الطرب بالموسيقى  
اسمهُ « كرييتوس » لمداداة القرافر والرياح الباطنية !!

وكان لهم أطباء مشاهير مثل « يابيس » الذي درس الطب حباً بأبيه ليطول حياته  
و « كوسيت » تلميذ السينطور ( وهو الخليط بين الفرس والانسان ) « شبرون » والذي  
يرجع له الفضل في رد الحياة الى « ادونيس » الجليل عشيق « فنوس » وقد جرحه « مارس »  
غيرة منه وقد ظهر له بصورة خنزير بري في غابات لبنان . و « بودالير » الذي ابنهُ  
هياكون الجد الثاني للجد الثالث لبقراط

وكانت أمراض تلك العصور الميثولوجية كثيرة الشبه بأمراضنا اليوم فالتساء في  
ذلك الزمن كنَّ يشكون النمش كما يشكونهُ اليوم مثال ذلك « فاس » اخت « عولس »  
فلم يكن شيء يعزيها عن هذا المرض الذي اقدها صفاء لون وجهها ورائع جمالها وكان



كل مقترب من مغارة اللص « تمريوس » بحس بمطربة الصداق تعمل في رأسه حتى قتله « تزت » فازالت المسبب بإزالة السبب . وكانت الفصادة المهمة اليوم فوق اللازم كثيرة الاستعمال في تلك العصور وقد شفى بها « بوداير » « دمتوس » ملك « قاريا » من مرض حار فيه الاطباء فكافأه بأن زوجه بأحدى بناته وبعد خمسة اجيال منها ولد أبقراط

« وعولس » نفسه لم يكن طبيياً ولكنه اقتبس من معاشرته الاطباء اموراً كثيرة نافعة وقد داوى مرة « تلفوس » من جرح نبلة اصابته فشفاه برهم صداً الحديد على مبدأ « وداوني بالتي كانت هي الداء » وكانوا يداوون بهذا الصدا أصحاب ضعف الباه يستقونهم الخمر وقد اطي فيها الحديد المحمي كما يداوون اليوم أصحاب ضعف الدم بالانبة الحديدية اما النساء العواقر فكن يستشين بالسحر وزيارة الاماكن المقدسة كما يفعل كثيرات اليوم

ومن حوادث الشفاء الشهيرة في القديم شفاء « فيرون » بن « سروسثريس » ملك مصر فانه عي فوصفوا له ان يكتحل بمستطر كل امرأة لم يقر بها غير رجلها فبحشوا في كل جهة وتجاوزوا ينايع النيل حتى عثروا اخيراً على ضالهم لا في شخص الملكة بل في شخص امرأة رجل بستاني فقير . ولما شفى الملك تزوج بها ثم احرق كثيراً من النساء اللواتي اعتبرهن علة عماء وهن في قيد الحياة

والاراق الذي اضنى العاشق « ترييتولم » وكاد يقضي عليه من اليأس شفى منه قبلة من « سيرس » وبمثل هذا العلاج شفت هيلانه الجميلة « تلياك » الحزين بان سقته نبيذاً مضمخاً بمسول اللعى و « باتوس » الاخرس حلت عقدة لسانه من رؤيته لاسد غضنفر اعترضه في الطريق ومعلوم كذلك ان « بنوليس » فقدت ذراعها فاعتاضت عنها بذراع من عاج . و « اشيل » فقد عظم عقبه فوضعوا له عقباً جديدة . واذا استقصينا البحث وجدنا ان كل الطرق الشفائية المعروفة اليوم كانت مستعملة في الطب الميثولوجي فلا جديد على وجه الارض



## المقالة التاسعة والخمسون

### ﴿ آيات المصور الميثولوجية <sup>(١)</sup> ﴾

ألا قل للذي ادعى انه ارتقى ، فابرّ وما اتقى ، انك قد ضللت الهدى ، فقد كان الانسان أعزّ في ما مضى ، فضلٌ وغوى ، فذلٌ وساء مصيرا  
فقد كان آباؤنا غطارة الارض وابطال الوغى ، اذا مدوا بأيديهم الى المجد استطلوا الى العلى ، وان حدثتهم نفوسهم الكيرة اضطربت احشاء الجحيم ، فامتلع قلب « بلوتون » رب السعير هلعاً ، وقلق سكان « الاولمب » ووقع جويتر القدير في التفكير  
وكان الآلهة يدانهم ويمتخطون بهم ، ولم معهم كل يوم شأن . يطارحونهم الغرام في الفياض والرياض ، على ضفاف الانهار وفي ظلال الاشجار ، وحول جداول المساء المترقق على حصبا كأنها حصى الدرّ . وينفرون عنهم الى الغابات ويظهرون لهم بمظاهر الوحوش الضارية للايقاع بهم ، أو يخبثون لهم فيها جآزر بعيون المهى لاخدم في شرك الهوى . فاذا ملّوهم وأرادوا الاحتجاب تجلّوا لهم من وراء النسيم اصواتاً قاصفة كهزيم الرعد ، أو من خلال المشيم لساناً مندلماً من نار ، أو شهاباً منبثقاً من نور ، آيات بينات عذاباً لقوم وهدى لآخرين ، ولا يستنكفون ان يمازحوم بالكلام ولو على لسان حجارة بلعام

وأما اليوم فبئس ما انحط اليه الانسان ، دودة تدب على الارض وتسعى ، منها المبدأ واليهما الرجعى ، فنفرت الآلهة عنه ترفضاً الى سماء اوليها واحتجبت وراء جبلها المقدس وحجبت عنه آياتها الا من مثل ما اوحى به الى ستيد الفينين ، وما هو من ذلك المعدن الكريم الاسحالة ومن تلك الكلس المترعة الاثمالة . انحط هذا الانحطاط وما ذرى ويات مع ذلك فخوراً

فزمع انه بلغ من العلم حداً قصياً وانه امتلك ناصية المعجزات ، وكشف اسرار الكائنات ،

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ وهي كتابتها غرافية ميثولوجية

وغره انه حدد بصره بالآلات المخترعات . وترامى به بين الاجرام . فها هي الأوعية  
أوضحها حتى استندناها وقاس ما بينها من الابداد كأنها منه على قاب قوسين أو أدنى .  
ونزل به الى قلب الاجسام المصمتة ففتح المغلق ثم استنطق الطبيعة الصامتة فما لبثت ان  
تكلمت وباحت له بسرها المكنون . ووقف على سر نشوء الاحياء فدفعه الغرور من  
خلال ذلك الى تسلم سر التولد . وقرأ المطبوع على صفحات الهواء بمخاطر الكهرباء  
فانكر المتنع . وقرأ ما في الضمائر من اختلاج الافكار ، وعقد النيات في القرب والبعد  
فقال اني والعالم واحد . واطن بهذا الارتقاء فباخر به السلفاء

وما آيات علمه التي يفتخر بها اليوم الا مما يزدري به اذا قيس آيات العصور  
الميثولوجية بمعجزات مبتذلات بالقياس الى تلك المعجزات . فقد كان في تلك العصور  
طبقة من الناس فوق البشر واقرب الى الآلهة ، تصرف بقوى الطبيعة العمياء كيفما تشاء  
من دون علم وعناء . فالساحرة « سرسه » على رواية هوميروس كانت تخضع لارادتها  
حركات الكواكب ، وتغير مجاري الانهار ، وتعرف خواص الحشائش السامة . ولم تكن  
مع ذلك معصومة من داء الغرام ترتكب فيه المحرمات الى الدرجة القصوى فكانها به أم  
بعض ملكاتنا المفترقات الجانيات الشهيرات في التاريخ . فكانت تقطن احدى الجزر  
وحولها اربع من الحور الحسنان يخدمنها وهن على شاكلتها ولم يكن بينهما رجل فكان  
يرقبن فيه الاقدار ، وويل للذي كانت تدفعه الامواج الى شاطئهن . ولولا ان الاله  
« مرقوروس » راف « بولس » فزوده لسفره بترياق يقيه من شر « سرسه » لما نجا  
من سحرها بعد ان هاجت عليه البحار واوقته هو ورجاله في شركها ولكي تستقيم  
عندها ابتدأت بان مسخت رجاله خنايص واستبقت « عولس » على نية ان تمسخه هو  
ايضاً ولكنه دفع سحرها عنه وعن رجاله بترياقه فردم الى حالهم الاولى الا واحداً  
اسمه « غريلوس » ابى كانه لم يرفقاً بين الانسان والخنزير الا في الصورة فقط

وجوثيرا كبر الآلهة على قلبه بهوى انتلوب ، ولكنه لم يشأ ان تكون صلته بها  
الا بصورة « ساتير » فسبح نفسه نصف خنزير واولدها اثنين على صورته هذه وكأنه  
رأى « اوربا » ملت صور الرجال ، فشاطرها قلبه ، الذي لم يكن يملأه شيء — كبريل

« الادانثيد » السائب من قمره — وهو بصورة ثور . وكان على جانب من المحبون ، يحب ان يلبس لكل حالة لبوسها فملق ذات يوم بالفتاة « كليتوريس » وهي ذات قوام دميم جداً فطلب اليها ان يكون برغوثاً فأبت الا ان يكون نملة فقم لها ما ارادت و « يونون » امرأة « جويتر » ذات الكبر المشهور لم تكن حسنة الاخلاق كبعملها ويوم زواجها ابطأت احدى الحور المدعوة « كيلوني » عن حضور حفلة العرس فسخطها في الحال سلحفاة واتعمت من معشوقات بعلمها فسخت « ايو » بقرة ثم مسخت « كليستو » دباً ثاني يوم ولادتها لابنها « باكوس »

أما « باكوس » هذا فكان عنوان الظرف فحذب قلب « اريفونه » بان تحول هو نفسه عقود عنب . ولما مات صديقه « اميل » حول جسمه الميت الى كرمه حتى يتذكره دائماً في مجلس شرايه وتحويل الخمر من غير الكحول لاجتذاب القلوب القاسية وامتلاك القلوب اللينة كثير في اساطير الاولين و « ابولون » كان يحب الزهور كما كان « باكوس » مولعاً بالخمرة . فلما غضب على معشوقته « كليتي » لفرط غيبتها حولها الى الزهرة المعروفة بالايثروب اي دوار الشمس لتبقى متجهة دائماً نحو الكوكب الذي كانت تعبد كانه حوّل « اكايته » الى النبات المسى بهذا الاسم

و « ديانة » الغزاة الشاردة غضبت على « اكثيون » لما فاز عليها في القنص فحولته الى ايل . وفنوس ، ربة الجمال والالهة الحب مسخت « انكرزتوس » حجراً لان عينه لم تدمع وقد مرت جنازة فحي كان يهواها فاولته صدوداً واما « ادونيس » الذي كانت تحبه فلما مات مسخته شقائق النمان . و « نبتون » اله البحر تحول ثوراً لكي يمتلك قلب « دارنه » « ومارس » اله الحرب غضب على انكثيون ، لاهماله مراقبة رجوع « الاورور » اي الفجر فسخته ديكاً حتى لا يفوته ذلك في المستقبل . و « منرفا » الالهة الحكمة ساءها تفوق « ارخته » عليها في صناعة النسيج فسخطها عنكبوتاً وايزيس المصرية حولت الفتاة « ايفيس » يوم زواجها رجلاً نكابة بخطيها . وفي اساطير البوذيين ان « قادومة » امرأة « شريزة » تحولت الى اتي قرد لكي تلد الجنس البشري ومنها ولد دروين واولاده فيلزمنا والحالة هذه ولا حياء في قول الحق ان نمتrof بأن هذه التحولات تفوق

جداً كل ما يستطيع تصور دماغ أعظم عالم اليوم نشوان بنجرة العلم معجب به وليس بين علاننا من يحجر ان يقول انه رأى في معمله تحولاً أو شبه تحول من مثل ذلك وقع لاقبل كرية من كريات الاجسام الحية . ولقد ادعى بعضهم انه رأى الحياة تتولد في قارورة اختباره وما هو بالحقيقة الا وهم ومن منهم اتصل ان يقلب الموت ؟ وأما في المصور الميثولوجية فقد كانوا ارقى جداً منا اليوم واحياء الموتى كان عندهم شيئاً عادياً مبتدلاً ميسوراً للغاية وفي الحرب بين جويتر ابي الآلهة والجبارة الذين ارادوا ان يصعدوا الى السماء على جبال اركوها بعضها فوق بعض اخذ ابن ساتورن اسيراً وقطع ارباً ارباً وحفظت قطعه بعضها الى بعض كما كان حياً ، فحاطها « مرقوروس » واعاد له الحياة . كذلك فعل الجبارة يا كوس فاحياء جويتر وفوق ذلك اعاد له العضو الضائع وكان اخواته قد رمين به بعيداً في تيرينيا

ومثل ذلك حصل لبلوس بن تثال ، وقد قطعه ابره طعاماً لضيوفه فعرف المدعوون بالامر قبل الاكل فاجوا وماجوا وجمعوا الاعضاء الى بعضها الا اكتفت فكانها وقمت في يد من يعرف « من اين تؤكل » ، الا ان جويتر صنع له كفتاً من عاج وقد احكت « منرفا » تركيبها به

ولقاتل ان هذه المعجزات من صنع الآلهة وأين منهم البشر ؟ على ان التاريخ فيه كثير من حوادث احياء الموتى بقوى اقل من القوى الالهية

حكى عن « هرقل » انه قتل بقرا « بلوتون » وبحث في دمه واستخلص منه مادة ترد الحياة للاظلال التي تقطن على ضفاف نهر الستيكس في الجحيم . و « بوليد » الساحر الشهير في بلاط الملك مينوس رأى صلاً ميتاً أثناء صل آخر ولمسه بمحشية معلومة فاحياه فاقبس ذلك عنه واحيا به غلوقوس بن مينوس سيده وكلف قد وقع في برميل عسل وفطس . ويحكى ايضاً عن « اغاميد » ابنة « اوجه » ملك « ايينس » انها تعرف بعض حشائش تعجي بها الموتى وكان عندهم في القديم عين تسمى عين ماء الحياة وماء الشباب ايضاً فاذا شرب منها القاتل

سمت تكاليف الحياة ومن يشثمانين حولاً لا أباً لك يسأم

واذا به شاب غرائق وقد صار عشاء حوراً معروفاً وانحناه ظهره قواماً موصوفاً . ولكنهم ما لبثوا ان اهتمدوا اليها حتى ضللتهم الالهة لئلا يشاركونهم في ملكهم  
مسكين قاري . كتاب ( اسرار الكون ) اليوم بالقياس الى قاري . كتاب ( عجائب المخلوقات ) في الماضي !

## المقالة الستون

### ﴿ حكم كاذب <sup>(١)</sup> ﴾

كذب القضاة . وكذب الاطباء . وصدق المال  
برأ المحلفون « ثو » قاتل مقلق راحته ومثير غيظه . ومراود امرأته . والمتباهي بفعلته .  
والمتناهي في قبحه

كذب القضاة — لا لانهم برؤه — بل لانهم قعدوا في حكمهم كل شجاعة فلم  
يصغوا الى صوت الضمير وحكم العقل  
وكذب الاطباء — لا لتسببهم الجريمة الى جنون طاريء عليه بل لاعتبارهم الجنون  
فيه ملازماً

وكذب « ثو » لانه بعد ان ارتكب الجريمة وثاب اليه رشده جاراهم . وجبن لانه  
لم يقض عليهم بالقضاء عليه  
ولم يصدق الا « قاضي الحاجات » الذي يحل شاش . . . القاضي ويعقد لسان الطيب  
ولماذا هذا ؟

لان شرائع الانسان تريد ذلك  
الانسان لا ينجل من الكذب نفسه . امام نفسه . بل ينجل بالنظر الى سواه . فاذا

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ على اثر حكم القضاة بالجنون على « ثو » قاتل عشيق امرأته  
ومينها في حضرة كان لم يكن لهم مخرج آخر في القاتل اصوب وأنزله وارفع

وجد نفسه مخرجاً فيه لم يخرج منه . فهو يخرج من الصورة لا من الحقيقة . ومن العرض لا من الجوهر . لذلك كان في كل أفعاله تحت هذا السلطان  
« ثو » ليس بالجنون فيما عمل كالحجائين . والأفاناس جميعهم شركاؤه في مثل ظروفه . وهو هنا ليس بالمستول حتى يجب عليه القصاص  
الانسان مهما عقل فلا يفجو من ان يكون تحت تأثير عوامل اشتداد الحاجة وتهيج العواطف

اذا عض الجوع انساناً بنابه . او ثار به الغضب الى للدرجة القصوى فارتكب الجناية  
سداً لجوعه واطفاء لغضبه — فهل يعد مجنوناً ؟  
ولماذا المسوغات التي دفعت ( ثو ) الى ارتكاب جنايته لا تقيمه من القصاص الا  
اذا قضينا عليه بالجنون المطبق ؟

نظام الشرائع حكم على المحلفين فلم يكن في وسعهم ان يحكموا الا بأحد امرين .  
وحكم على الاطباء فاخاروا أهون الشرين . وأقدم جميعهم الشجاعة فكذبوا على العلم  
وكذبوا على الحق

« ثو » جنى لانه ليس في الشرائع ما يصونه من هذا العدوان . والذين برؤوه  
كذبوا لانهم لم يجدوا فيها مخرجاً آخر لنجاته . وان كانوا قد اظهروا كل هذا الاهتمام  
فالفضل للاصغر ذي الوجين

فويل للفقير

وسيجرح « ثو » من البيارستان سليم العقل ويوضع تحت المراقبة — ثم  
يطلق من قيودها

اذا كانت الشرائع حقاً فالعقل رزية . واذا كان الغنى قوة فالفقير لا شك جناية



وأما وجوده في المارستان فلا تضيق فيه عليه لان ثروته تضمن له كل ما يتوق  
اليه من الراحة



## المقالة الحادية والستون

\* اصلاح القضاء <sup>(١)</sup> \*

كنت قد كتبت كلمة أنتقد فيها القضاء جاء فيها ما ملخصه :

« منصة القضاء مقدسة لا يجوز مسها كحراب المصلّي ولكن هذا لا يمنعني هنا من  
ترديد هذين البيتين

قتل امرء في غايه جريعة لا تغفر  
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

يسلو اللصوص على جمع فيجرحون وينهبون ويضبطون متلبسين بالجناية فقد يغفو  
القضاء عنهم لان هفوة في الشكل تمتع عن النظر في الاصل فيضحي القضاء الجوهر  
مراعاة للصورة . وهذا كرفض سماع كلام المحامي القانوني اذا لم يكن مرتدياً ذلك الثوب  
« انكرنالي » أمام منبج المرافعة . تقوم القيامة بين عناصر الامة فيكثرون من البذاء  
والقول الهراء والسب والشتم والتفبيح بما قد يدفع الى ثورة داخلية ومع ذلك لا تحرك  
الحكومة لهذا الامر ولا تجد النيابة مسوغاً للتدخل فيه لايقافه عند حد لان المحافظة على  
الآداب العمومية والسلم العمومي ليست من الامور التي يستدركها القضاء وينهض لها  
من نفسه مع انه قد ينهض احياناً لانتقاد بعض الافراد وقد يكونون ممن لا يصل الانتقاد  
اليهم بأذى

تقوم دعوى بين اثنين فيجدان في ثيابا هذا القانون متسماً لان يتخاصما ويتشاكلا  
ويجاولا في هذا المضمار أشهراً وسنين وربما تركا هذه الدعوى بعد ان اكلت عمرهما  
إرثاً لاعقابها وقضاؤنا يعد نفسه مع ذلك رحمة للعالمين  
وبعد هذا اذا طلبنا اصلاح القضاء في شكله . في اصله . حتى في قضائه فهل نلام



وهو حق للجمهور وواجب على ولاية الامر ولكن على اولئك الولاة الذين يهيمهم امر العباد  
واين هم بعد ان يتربصوا في مناصبهم . ولفعلا لو دروا ان يحاكم اليوم سخرية الغد . اه  
فأقام البعض القيامة علي في الجرائد فكتبت المقالة الآتية :



## المقالة الثانية والستون

﴿ من اين ابتدي ﴾<sup>(١)</sup>

ليس اصعب من مصادرة المقرر المؤلف . هذا يقول لك انه منزل وذلك يقول انه  
مقرر بالاجماع . وقم ناضل بينهما . وكل قضية من ذلك معقل تخور دونة قوى اعظم  
الجيوش فكيف بافراد لا حول لهم سوى جرأة القول ولا سلاح لديهم سوى رأس البراع .  
ولكن رب قول كان ألهب من شرارة الكهرباء ورب قلم كان امضى من السيف  
قامت علي قيامة الكتاب من كل صوب لقيامي على القضاء ونظامه ولم يبق لي حتى  
الآن نصير الا في منوى الضائر ولكنه لم يجسر ان يجر بالحق عملاً بقول الشاعر  
اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي  
وأما الذين نسبوا كلامي الى الغرض فهولاء دعمهم في ضلالهم يعمهون فما ينالون مني  
غرضاً حتى يشفوا من غرضهم او اصاب بمرضهم . وأما الذين وجدوا ان توري ظلمة وان  
ظلمتهم نور فدعهم في نور ظلمتهم يخبطون وما ربك بظلام للعبيد . واما الذين اتوني من  
طريق العقل فاني لا انكر عليهم ما في كلامهم الراجح من القول السديد والاعتراض  
الوجيه . فهم لا ينكرون ضمناً قص القضاء ولكنهم يقفون حائرين امام الصعوبات  
فهؤلاء اعيد عليهم قول الامام الغزالي « لو لم يكن في ذلك الا ما يشكك في اعتقادك  
الموروث لكنت به نفماً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يصبر ومن لم يصبر بقي في  
العمى والحيرة »

وهذه حجتي لدى حضرة الفاضل المحقق « ي . ش . » على قوله انه لولا ما لي من المكانة وهذا من ادبه — ولولا خوفه مما سيكون لكلامي من الأثر لما عني بارد على ما كتبت . فانا اشكره على حسن ظنه بي ولكن هذا الذي خافه هو الذي دفعني الى ذلك ولو علمت ان كلامي سيذهب بدون اثر لما خطط منه حرفاً ولو علمت ان مكاتبي هي كما يقول لكسرت من حدتي ولكن جعلي بما اعطني به عن نفسي وعلي بأن الاستكانة للمألوف توقع في الخمول والاستسلام دفعا لي الى تشديد الوخز ولولا ذلك لما اضطر العقلاء في المعمورة كلها من الانبياء الى الحكماء وسائر المصلحين ان يلجأوا الى العنف في الانتقاد واستعمال السيف أحيانا لحل الاجتماع على السير في سبيل الارتقاء ولو متاقلا في قيوده . اقول ذلك لا غروراً مني باني بلغت مبلغهم بل لشغفي بالتشبه بهم ولو اتي في سبيل ذلك اجعل فوق جهل الجاهلين

ولكن من أين ابتدي فان الموضوع كالتين ذي الرؤوس الكثيرة ولو جاريت حضرة السائل في الاختصار على الرد على أسئلته لقطعنا القول في أشياء مهمة ولكن فاتنا اشياء أكثر وأهم وما ضربتها في مقالي الامثال من امثال لو أردنا كلالنا ان تتبعها كلها للزمن ان نلازم القاضي في غرفته والمحامي في محفظته والمدعي والمدعى عليه في شكاوهم والاجتماع كله في تظلمه

وليس ذلك فقط بل لو جاريت لانصرفنا عن النظر في الكليات التي هي موضوع كلامي الى البحث في الجزئيات التي يتسع لنا فيها مجال المناظرات وينتهي الكلام فيها على غير نتيجة مرضية وهذا ليس غرضي بل غرضي هو ان اوجه نظر الباحث الى ان هذا النظام الموضوع كما هو موضوع لا يعني بالغاية التي وضع لاجلها . وليس ذلك فقط بل انه في جملة منافع هذه الغاية . ولا ريب ان كثيرين سيستغربون قولي هذا لاول وهلة ولكن استغرابهم هذا لا يلبث طويلاً حتى يفهم الى تفكير وهذا هو مستهضر الشرر المقصود لايقاد نار الثورة في الخواطر احدائنا للاصلاح المطلوب فلا يمنعهم الوجوم المكتسب بالاعتقاد الراسخ من القيام في وجه كل نظام لا يعني بمصلحة الاجتماع مما عززته الرهبة

فالقضاء ليس الغرض منه تشييد تلك المعاهد الفخيمة واحاطتها بكل ما يجعلها امنع من عقاب الجو على الاثام بها فلا يدنو منها حتى تصطك ركبته وينعقد لسانه ويضطرب جثانه فلا يعرف كيف يدخل اليها ولا كيف يخرج منها ولا كيف يطلب منها حقاً ولا كيف يدفع بها حيفاً . يرى هناك على مناصبهم انصاف آلهة وحولهم كهنتهم فلا يستطيع ان يتقرب الى هيكل اولئك الالهة الا بواسطة اولئك الكهنة حتى صار القضاء بذلك اشبه شيء بمجوعة دينية مع الفرق بان كل انسان يستطيع ان يصلي في المعابد بنفسه وان لم يضمن لنفسه الخلاص الا بواسطة واما في الحاكم فالحوائل دونه كثيرة لا يقوى عليها العالم فكيف بالجاهل وينضب دونها كيس الغني فكيف بالفقير المعدم

فالقضاء ابسط من ذلك كثيراً . ويجب ان يكون اسهل من ذلك كثيراً . وقد يتعذر فهم هذه البساطة على اولئك الذين تعودوا ان لا يروا في احاثهم الا كل تعقيد وقد رسخت هذه القضية في الازهان حتى ان المحامي لا يسر بكسب دعواه بقدر ما يسر اذا ركب فيها متن الاغراب فخاض في كل يم ونبش احشاء الارض وحلق في الفضاء واخذ يتنقل بين الثمرى والجوزاء يناجي احياناً طوائف الجن واخرى سكان السماء وكل ذلك لكي يقول لسامعيه ان اذني التي بجانب رأسي هي هذه . ولو قال غير ذلك فهل يتأثر القضاء او يرتضي الزبون . حتى صار علم الحقوق بفضل هذا النظام من العلوم الكلامية البعثة التي لم تنضج ولن تنضج بعد ان كان المأثور عنها انها من العلوم الوضعية التي نضجت وكادت تحترق

وهذا النظام اذا افاد — بعد محتربه — طائفة من الناس هم الاقوياء والاغنياء فهو لا ينيد الضعفاء والفقراء . والاجتماع معظمه مؤلف من هؤلاء فكيف يطمع بعد ذلك باقامة القسط بين الناس . ألا ترى ان المدعى عليه اذا لم يحضر اجاز هذا القانون الحكم عليه باقصى العقوبات وجاز للقاضي ان ينطق بمثل هذا الحكم خالي البال مرتاح الضمير . وما معنى ذلك ؟ معناه انه اذا لم يعرف المدعى عليه كيف يدفع عن نفسه كما يحصل كثيراً بمقتضى هذا النظام او اذا كان ضعيفاً لا نصير له وخصوصاً اذا كان معدماً لا يستطيع ان يكفي محامياً فلا حق له ان يعيش وحضرة القاضي لا يضطرب في حكمه وهو

يقصن وراء هذا القانون . ولقائل يقول ان القضاء يسي محامياً يدافع عن الفقير ولكن نحن نعلم كم يكلف ذلك من المشتقات الاخرى حتى يسمي القضاء هذا المحامي وانت تعلم ايضاً كيف ان هذا المحامي « يكلف » دفاعه غير المأجور

بل ان هذا النظام لا يعني بمصلحة الاجتماع ولا يتقل كلامي على طائفة ذات شأن اجلها كافراد وان انحيت عليها كمجموع فالاجتماع يشكو من نظامها مر الشكوى بل هي قيد في رجل الاجتماع وغل في عنقه ولولا ما يتسرب الى افرادها من مبادي العلوم الطبيعية بالعرض لا بالذات لما خطا الاجتماع بها خطوة في سبيل الارتقاء بل هي بنظامها عبء ثقل عليه تمتص دمه ولا يستفيد منها فائدة حقيقية فهي كالجوش التي بنظامها تحرم الاجتماع من استثمار الارض واحياء الصناعة بايديها وتحمله نفقاتها وكان في الامكان ان تكون فيه عاملة نافعة

ومن غريب المفارقات ان اساس علومها الاقتصادية ولكن نظامها لا يعرف للاقتصاد معنى فالوقت في القضاء لا قيمة له كان المثل الافرنجي القائل Time is money لا معنى له عندها وكان عمر الانسان لديها كعمر ايننا متوخال . وقول حضرة المعترض بان هذا من حسنات النظام الدستوري لاعطاء كل ذي حق الزمان الكافي لتأييد حقه لا يجوز الا اذا اعتبر نظامه مقدساً وانا أقول لحضرت ان هذا من سيئات النظام الاحتكاري لفائدة الحكومة وطائفة معلومة . كان هذا الحق لا يتيسر له على صورة انفع له وللاجتماع وللآداب الحقيقية بنظام آخر حتى ولو كان القضاء حيفاً مع قصر الزمن لكانت الفائدة منه أتم اذ تنصرف قوى الانسان وافكاره الى اعمال نفمها اقرب بدلاً من انحصارها في موضوع واحد وصرف العمر في التخاصمات واستنباط الحيل وخلق المشاكل مما يكون ضرره على الاجتماع مزدوجاً ادياً ومادياً وسبب كل ذلك هذا النظام الاعوج الذي ابتلع القضاء الحقيقي في جوفه واضاع جوهره في اعراضه . وهو لكثرة ما يقتضيه من النفقات لم يعد في الامكان تميمه فاقصروا فيه على مرا كرم معلومة فزالت كفاءته وتبعها كل هذا العطل وزادت النفقات العمومية زيادة فاحشة

ولو اردت ان اؤيد كل قضية مما أقول بأمثلة اتخذها من نظام هذا القضاء كل

يوم لنفد الحبر والورق ولما وسعتي الجرائد ولنفد صبر القراء قبل ان ينضب هذا المين .  
فاترك الحكم فيها للذين يعاينونها كل يوم - ولا يعرف الشوق الا من يماينه - واكتفي  
بالقضاة والمحامين انفسهم فليرجعوا فيها الى ضمايرهم واختبارهم فضلاً عما يلحق بهذا  
النظام من الاعراض التي اصبحت لازمة واغفالها يعرض الجوهر للضياع والتي هي في  
عرف العقلاء من السخافات المضحكة اليوم

وأما ضربة المثل بين العلوم القانونية والعلوم الطبية فليسمح لي حضرة بان ادفع  
هذه المقارنة فالعلوم الطبية أساسها العلوم الطبيعية التي هي في احكامها كالعلوم الرياضية  
والتدبذب هو في الاهتداء الى اسرارها والخطأ المتوقف على الافراد لا يعتد به في بحثنا  
ولم احاسب حضرة عليه . وأما العلوم القانونية كما هي اليوم فقد اصبحت كالعلوم الكلامية  
واساسها النظر وكان في الامكان ان يكون اساسها العلوم الطبيعية ولكنها حتى اليوم لم  
تفعل وهل ينكر حضرة ان الطبيب القاضي يكون اوسع نظراً وارجح حكماً من القاضي  
المتشرع قطع ومن يجهل اليوم حكم الاسرار الطبيعية في افعال الانسان الاجتماعية

ولقائل يقول ان الاعتراض سهل ولكن العمل صعب فهل لك دواء لهذا الداء .  
وجوابي على ذلك بسيط فطري اجعلوا القضاء ابسط جداً مما هو وعمومه اكثر كثيراً . ما  
قولك لو كانت المحاكم بسيطة جداً وموزعة في كل مدينة وفي كل قرية على نسبة احيائها  
وسكانها ألا يكون الفصل في الدعاوي اسرع والنفقات خصوصاً اقل والفائدة الاجتماعية اعظم  
ومهما بدا هذا القول غريباً لبعضهم فاني لا اخشى ان اقول ان المستقبل لي اي  
كلامي ولكن هذا لا يتم حتى يتقلص ظل العلوم الكلامية وتم العلوم الطبيعية وان كان  
مثل هذا البحث لا يفيدنا فائدة قريبة الا ان ما يحدثه من الاثر ولو صغيراً جداً لا بد  
ان يختر على توالي الايام ويفعل في العقول فعل الشرارة في الافعال المتجمعة فيعلم الجميع  
على السواء ان الشرائع الموضوعية والراسخ في يقين البعض انه لا يجوز مسها يجوز النظر  
فيها حتى قلبها رأساً على عقب اذا كانت غير ملائمة لمصلحة الاجتماع وهذا هو المقصود هنا

﴿ روزفلت والقضاء <sup>(١)</sup> ﴾

ان الذي يعجبني من قول الرئيس روزفلت ليس تنديده بالقضاء لتمسك قضاته بسخافات فنية اصطلاحية تتأخر بها الاحكام وتضيق معها الحقوق بل صدور ذلك من رجل في وظيفة عمومية هي اعظم المراكز شأنًا . والمادة ان الذين يشغلون مثل هذه المراكز في الهيئة الاجتماعية تضرب الوظيفة على عيونهم حجابًا كثيفًا . ولكن الرئيس روزفلت ليس موظفًا كسائر الموظفين ولا ملكًا كسائر الملوك بل هو الرجل الاجتماعي العظيم الذي عرف ادواء الاجتماع . وكما حاول ان يجد الدواء لها خصوصًا قيامه ضد شركات الاحتكار التي تفشت جدًّا في هذا العصر ولا سيما في العالم الجديد . ولا يخفى ان هذه الآفة من شر الضربات الاجتماعية التي اذا لم تتدارك قبل تفاقم شرها جرت الى ثورة ليست الثورة الفرنسية ( وهي قيام الشعب على النبلاء ) بالنسبة اليها شيئًا يذكر لانحصار تلك اذ ذاك في بقعة معلومة واما هذه فهي قيام العمل ضد المال فشرها لا ينحصر اليوم في بقعة معلومة وفي قوم معين بل سيمتد لهُيئة الى كل العالم المتحضر ومن يعيش برّه

## المقالة الثالثة والستون

﴿ بئس الاخلاص <sup>(١)</sup> ﴾

الاتهام جين في كل احواله وهو اختلال في القوى العاقلة الى حد الجنون . فان جاز لنا ان نأسف على متحر ونبحث في امره بحثًا نفسيًا وفزيولوجيًا لنقف على ما في قواه العقلية من الضعف ومهولة الاقياد وما في تكوين اعصابه من الوهن وقبول التهيج الا انه لا يجوز لنا ان نبحث فيه بحثًا يشم منه رائحة التصويب لعمله واستحسان المواطنين الدافعة اليه لئلا يكون ذلك مشجعًا لكثيرين من ضعيفي العقول ومتهيجي المواطنين

لاقتفاء خطئه كما اخرجتهم الحال والمخرجات في الاجتماع كثيرة من فقر وسقام وحب وكرام ولا شيء اسهل من العدوى بالقدوة حسنة كانت او ردية ولولا التربية السينة المبنية على الخيال اكثر من الحقيقة وعلى الاستسلام للاماني والآمال اكثر من الاعتماد على العمل وعلى اعتبار الموهوم اكثر من المحسوس لما فشا الانتحار في هذا التمدن المضطرب لما فيه من المباديء المتناقضة لان الانتحار نفسه مخالف للبدء الاول المنبعثة منه الحياة والمتوقف عليها حفظها ألا وهو الالفة وحب الذات

فالانسان من يوم يولد الى ان يموت تتنازع عوامل التربية المختلفة من بيئة ومدرسة واجتماعية وفيها كثير من التناقض ادياً ودينياً واجتماعياً مما يجعل حياته محفوفة بالمصاعب فينشأ بسبب ذلك غير مستقل في احكام عقله مهيجاً في اعصابه قليل الاعتماد على نفسه سريع الاقياد لمن يتوهم انهم أرقى منه . فاذا رأنا نتأسف على متحر ولا نشجب عمله في آن واحد كما هو الواجب نكون كأننا قد دفعناه خطوة بل خطوات للاقتداء به

ولذلك كانت حوادث الانتحار تزداد على ما تقدم وكما اقتبسناها من التمدن الحديث وهو تمدن في طور الانتقال حيث يشتد الخطر خصوصاً بقراءة كتب المجون المتداولة بيننا والتي اكثرها من وضع القصاصين الفرنسيين في النصف الاول من القرن الماضي وما قبله لشدة ما فيها من تجسيم الخيال الى حد التناهي في تهويل العواطف وانزال الوهم منزلة الحقيقة ولذلك كانت قراءة مثل هذه الكتب من شر العوامل في تربية الاحداث وفي التأثير على كل من ليست احكامه الذاتية قوية فيه . والمطلوب من الجرائد ان تبين باجلى بيان قبح هذه الاعمال لامائة مثل هذه العواطف المرضية الباعثة عليها لا ان تكون سبباً لانماها

فارجولة الحقيقة تقضي على كل انسان ان يقف امام كل المصاعب كالطود الراسخ لا يدفعها بما في الامكان ولا يهتز لها حتى تصرعه قوة واقتداراً والا فهو نذل وجبان .

فالشجاعة الحقيقية ليست بالانتحار بل بالصبر على الكوارث

ومن حسنات النصرانية انها تحرم المتحر من التمتع بحق الدفن الديني ولا شك ان

ذلك كان له اثر حسن في النفوس لما كان الدين في سطوته الاولى

ولولا أنه ورد في مقالة الاخبار اليوم « حب الرجال للرجال » في بعض كلامها ما قد يجب مثل هذا الامر لقصار العقول الذين يؤثر فيهم كلام سوام لا اعتبارها إلاماً بشي من المباحث البسكيولوجية والسوسولوجية التي تتناول البحث في العواطف وقوى العقل بحسب احوالنا الاجتماعية ولما اتيت على هذا البيان الوجيز موضحاً ان الاتجار ليس فيه شيء من رجحان العقل ولا نبل العواطف ولا فيه شيء من الشجاعة التي يفخر بها بين الاقران في الاجتماع انذاراً للمترشحين الذين قد يستوهم الكلام الذي هو على ضد ذلك فيقعون في مثل هذا العمل المشجوب في كل شرع



## المقالة الرابعة والستون

### ﴿ الدين والحق ﴾<sup>(١)</sup>

الانسان لولا الجبل لما وفقت به مطاعمه القرية الخاسرة واضاعت عليه غاياته البعيدة الراحمة

مطامع الانسان القرية هي مطاعم الحيوان الذي يستخلص قوته بأنياه من فم سواء أو يأوي الى مغارة لا يزاحه فيها سواء . او هي مطاعم الانسان الهمجى الذي يسعى لفدائه منفرداً فيقضي نهاره جائعاً هالماً ويبيت ليله خائفاً حاذراً . او هي اسرة تنقي اسرة أو قبيلة تناهض قبيلة او قوم يهاجمون قوماً او وطن يقوم على وطن . — وغايات الانسان البعيدة تناصر الانسان في كل مكان كأنه اسرة واحدة

فلو عرف الانسان ان تناصره هذا يوفر له القوت والكساء والمبيت بحيث يكون آمناً على مقومات حياته لما هجر الراحة الى العناء والسعادة الحقيقية الى الشقاء على ان الانسان من الحيوانات التي لا تستطيع ان تعيش الا جماعات فتألف أولاً جماعات تنبت في ارض أو انشقت من صلب وهو ارقى الحيوانات تحصيلاً من الاختبار



فراى نفسه انه اثرى بسعة الارض وتقوى بالتناصر فقام يكتسح البلدان ويضم اليه  
الاقوام يدبجها فيه ليزيد ثراء وقوة . ولقد مضى عليه ملايين ملايين من السنين قبل ان  
وصل الى حالته اليوم

ولكن الانسان في كل اطوار ارتقاؤه في اجتماعه لم يسر سيرا حثيثا بل اعترضته  
حوائل كانت تقف به تارة وتمتھر به اخرى فصار متذبذبا وميسير كذلك زمانا طويلا  
قبل الوصول الى غايته تلك

وأهم هذه الحوائل مطامعه القرية لجهله وقصر نظره فقام المصلح الاجتماعي ووضع  
له الشرائع تسد مسد هذا النقص ولكن الانسان لا يحول عن تلك المطامع مهما كان  
شأنه فاستبد الوازع بهذه الشرائع وقلبها الى غرضه فصار من الضروري ايجاد لجام  
لكبح جماح الحكم

فقام المصلح الديني زمانا طويلا قبل الشارعين المعروفين وقد كان الناس يجدون  
في كل شيء الها لا يدركونه ولكنهم يخافونه ووضع الشرائع الالهية وملأها بالتقريع  
والارشاد والوعد والوعيد والثواب والعقاب والانسان مقتون بنفسه لا يخلد فيها الا الى  
الخلود لعل الحكم يرهبون فيرجعون عن ظلمهم

شرائع اجتماعية او دينية بائدة او بادية قديمة او حاضرة غرضها واحد نبيل وهو  
اصلاح حال الانسان في المعمران وواضعوها من انبل المصلحين غاية

ولكن الانسان الذي حارب آلهته في التقديم لم يكن ليعجز عن ان يستخدم الآلهة  
انفسهم لفرضه . فقام رؤساء الاديان يسطون بها على الحكم والناس لا لمصلحة الناس  
بل لمصلحتهم ودامت الحرب سجالا بين الحكم ورؤساء الاديان يتراوحن الفوز  
بمختلفون تارة ويتفقون اخرى على ظهر الانسان حتى اليوم

المصلح الاجتماعي والمصلح الالهي كلاهما قصدا بشرائعهما ان يضما في يد الانسان  
سلاحا لخيريه ضد ظالميه فحوله الحكم ورؤساء الاديان لصد هذا الخير عنه ووقفوا به سدا  
حتى انهم صرفوه عن اقرب الاشياء اليه وهو اكتسابه علما من اخباره ومن ينكر فلينظر  
الى الانسان في التاريخ بل فلينظر الى حال الانسان اليوم في كل المعمورة بالنظر الى

ذلك فحيثما كانت سطوة الحكم ورؤساء الاديان عظيمة كان الجهل كثيراً والعلم قليلاً  
وحيثما كان العلم قليلاً كان الانسان فاقد الحرية قليل التسامح صعب المساكنة . وبالعكس  
من ذلك تزول منه هذه العيوب وتتوفر فيه المزايا ضدها على قدر نصيبه من العلم الصحيح  
فدين الانسان الحق هو العلم ومزينة على سائر الاديان انه نظيرها يعلم الانسان ما تعلمه  
الاديان ويفوقها في انه لا يجوز عليه ما يجوز عليها من تحكم الانسان بها في الانسان ولا  
تقيده نظيرها بزمان أو مكان فالدين الحق هو العلم الصحيح

## المقالة الخامسة والستون

### ﴿ شكوى المستأجرين <sup>(١)</sup> ﴾

« ومبدأ العرض والطلب »

قام في هذه الايام جمهور من سكان القاهرة والاسكندرية يشكون من تحكم أصحاب  
الاملاك انهم يتقاضونهم أجوراً فاحشة حق سكنهم . ولم يقصدوا بذلك سوى مظاهره  
بسيطة ليس فيها شيء بعد من الاعتصاب الحقيقي وانما هي خطوة كبرى نحوه لعل  
الحكومة تنبه وتستعمل حقها الطبيعي المشروع وتتدخل في هذه المسألة وغيرها من المسائل  
الآخرى الاجتماعية الحيوية للفصل فيها بحيث لا يقع حيف على احد لمصلحة الآخر

ولقد ذكرت الجرائد ذلك بين مصوب ومخطيء ومنهم من اراد ان يشيط عزائم  
المتحججين فقال ان نجاحهم مشكوك فيه لا لان الشرائع عمياء والأذان صماء بل لان المسألة  
حقوقية والمرجع فيها الى مبدأ اقتصادي ( اكشفوا رؤوسكم ) هو مبدأ العرض والطلب  
ولو قال هذا القول قاض او محام لمذنبه لان كل مؤمن معجب بمسجده ولكنه  
قاله صحافي أقل ما يطلب منه أن لا يضل وهو في مقام مرشد والجرائد تعتبر مشكاة  
الجمهور في المسائل الاجتماعية الكبرى ليعرف الجميع على السواء كيف يجب عليهم أن

ينظروا فيها منعاً للحيف وافتاء للقلاقل التي قد يجر ذلك اليها حرصاً على مصلحة العمران نفسه ومنع الحيف وافتاء للقلاقل لا يكونان بالضرب على عقول الجماهير بسجف القويه وعلى ايديهم بعضا الظلم لان ذلك يشبه ان يكون كندر الرماد على النار فلا تلبث ان يكون لها ضرام بل بتعريف كل واحد في الاجتماع ما له من الحقوق فلا يتخطاها وما عليه من الواجبات فلا يقف دونها . وقول هذا الصحافي يعجبني اكثر من صمت أولئك الذين يعرفون جيداً وجه الحق ولكنهم يجمعون عن ابداء رأيهم لتلا يخسروا رضى مشترك ممالك والصحافة عندهم ليست الا حرفة من الحرف فهي ليست عندهم سوى تجارة رابحة من المقرر البديهي الذي لا خلاف فيه ان الاجتماع لا يقوم بفرد ولا بطائفة من افراد بل بافراد وطوائف من افراد يؤدون أعمالاً مختلفة على قدر اختلاف المنافع التي يحتاج اليها الاجتماع بحيث ان كل واحد من افراده يؤدي العمل الذي لا يستطيعه سواه ويستفيد من الآخر المنفعة التي لا يستطيعها وحده . وقد شبه الطبيعيون العمران بجسم حي كبير هائل وافراده بمثابة الاعضاء في هذا الجسم فكما ان الاعضاء لازمة لسلامة الجسم الحي كذلك الافراد لازمة لسلامة العمران

ومن البديهي ان من كان هذا مركه في الجسم يكون له فيه مثل ما عليه لذلك كان لكل فرد في الاجتماع حقوق على الاجتماع نفسه كما ان عليه واجبات له . ومن المعلوم ان من المنافع في الاجتماع ما هو ضروري لازم لا يمكن الاستغناء عنه من غير أن يؤدي الاجتماع في اهم أركانه ومنها ما هو غير ضروري يمكن الاستغناء عنه بدون ضرر . والحق الذي للفرد من ذلك يسمى حاجياً في الاول وكالياً في الثاني

فالكفاي مثل التأنق في المأكل والمشرب والبدخ في لبس الوشي وسكنى القصور فاذا استطعت ذلك فليس لاحد عليك اعتراض ولا يمنعك أحد ان تتبرع وتهب اذا شئت ولكن اذا أردت ان تبقى ضمن دائرة حقوقك وواجباتك فلا سلطان لاحد عليك في ان يجبرك على ان تمدها وقيمت المسألة بينك وبين سائر افراد الاجتماع مسألة تراضي أي مسألة « عرض وطلب »

ولكن الحاجي مثل حق الاكل والشرب والسكنى الضروري الذي لا يمكن الاستغناء

عنه والأهد الاجتماع من أركانه هل يجوز ان يقال فيه مثل ذلك ؟ فهل يجوز ان يقال لطالب الرغبة ليقنات والماء ليروى والبيت ليأوي اليه ان المسألة مسألة «عرض وطلب» لا بد فيها من التراضي كالتراضي على ثمن خاتم من ماس او مطرف من خز ومعلوم كذلك ان قيمة كل شيء في العمران تزداد بكثرة الزحام حول المنفعة الحاصلة من هذا الشيء اي انها تتوقف على عدد الافراد الذين يتألف منهم الاجتماع فرغيف الخبز تعظم قيمته اذا كثر طالبيه وكذلك يقال في المسكن وساير مرافق الحياة الضرورية . فهل يجوز والحالة هذه ان تنصرف المنفعة من هذا الشيء الى مصلحة طائفة من طوائف الاجتماع على حساب الغير مع معرفتنا ان هذا الغير هو المقوم لقيمة هذه المنفعة حتى يجوز ان يقال ان حقه من هذه المنفعة لا يقل عن حق صاحب الشيء نفسه واذا صح له هذا الحق جاز له صرف المنفعة الى مصلحته كما يجوز لصاحب الشيء صرفها الى مصلحته ايضا . ولذلك كان من وظيفة الوازع القيم على مصلحة العمران أن يراعي في المنفعة مع ذلك ظروف الزمان والمكان ايضا لتعديلها لمصلحة الاثنين والا وقع الاجتماع في الفوضى

لان في الاجتماع ناموسا هو ناموس التنازع يحمل كل واحد فيه بما فيه من حب المحافظة على الذات على ان يحمده ويكتم بكل ما له من القوى للحصول على احسن نصيب من هذه المنافع . الا ان هذا الناموس الذي هو من اركان القوى الاجتماعية اللازمة لارتقاء الاجتماع لا يبقى نافعا فيه الا اذا بقي محصورا ضمن دائرة معلومة تتفق فيها المنفعة الخاصة مع المنافع العامة والا اقلب الى الضد وأضر بالمصلحتين معا فلا بد اذا من معدل لهذه المنفعة لتبقى ضمن دائرة هذه الحدود ولذلك كان من أول واجبات الهيئة الحاكمة التي يهيمها أمر الهيئة المحكومة النظر في هذه المسائل الحيوية كما دعت الحال الى ذلك

أنا لا اجعل أن هناك ناموسا يده فوق كل يد يعدل كل شيء في العمران وهو ناموس التكافؤ ولكني اعلم حق العلم انه قبل ان يتم ذلك على موجب هذا الناموس يقع الحيف على كثيرين وهذا مضر بالعمران ومن وظيفة الوازع اتقاؤه . وهذا لا يكون باطلاق مبدأ « العرض والطلب » وجعله أساس كل المعاملات على حد سواء غير فارق

بين الضروريات وغير الضروريات أي بين الحاجيات والكليات  
ولقائل ان الساكن مخير في ان يسكن البيت الذي يناسبه وهذا يساعد على هذا  
التعديل وعلى ذلك اجيب بان الشكوى ليست من ذلك فقط بل من اغتنام أصحاب  
المساكن غالباً فرص وجود السكان فيها لكي يخرجهم اما بقبول الزيادة واما بالخروج  
لعلهم ما عليهم في ذلك من الصعوبات فيضطرون لقبول أحد الشرين والا عرّضوا  
أنفسهم لشر ثالث وهو قضاء القانون عليهم بناء على مبدأ « العرض والطلب » المتبر  
للمالك حقاً مقررأ

على ان في جميع الشرائع متسعاً لذلك الا التي ضربت بالقانون واكثر الحكومات  
حتى تلك التي نظن بانفسنا اننا ارقى منها تهتم بالامر واما نحن فنأكل الرغيف ممزوجاً  
بالتراب ونشارة الاخشاب ويتقاضوننا أسعار المآكل كما يشاؤون ويحكمون في أجور  
المنازل وينصرهم القانون وما ذلك الا لان شرائعنا صارت بهذا التحوير والتبديل تنافاً  
من شرائع غير ناضجة وحكومتنا خليطاً من حكومات متباذلة فنحن اليوم معهما كما في  
المثل القائل « اسلم الظهر ومات العصر » فعيسى انكره ومحمد لم يعرفه فنحن لم نبليغ فيهما  
مبلغ الحكومات الزاكية ولا حفظنا من شرائعنا حسناتها

وهنا لي كلمة اوجها الى المحتجين فاقول لهم انتم محتجون في شكواكم وانتم في الاجتماع  
أعضاء لازمون لكم عليه مثل ما له عليكم وانتم مظلومون ايضاً وظالمكم حكامكم وشرائعكم  
فلا تفعل عزائمكم . فقط انصحكم ان تلوذوا في مطالبكم الى جانب الحكمة حتى اذا كثر  
عددكم واشتد تضامنكم ولم ينصفكم الذين يجب عليهم ان يهتمهم امركم كان لصوتكم صدى  
فوق كل صوت ولیدكم مدى فوق كل يد



## المقالة السادسة والستون

\* الحاجيات والكماليات <sup>(١)</sup> \*

قرأت تعليق المؤيد على ما كتبتُه بخصوص شكوى المستأجرين ومسألة « العرض والطلب » وشكرت لسعادة صاحبه الفاضل الشيخ علي يوسف لاهتمامه بالنظر في المواضيع التي بحثت فيها بحثاً اجمالياً وان كان قد خالف نظره نظري في بعضها لان كلامي لم يذهب عنده من غير صدق . ولعل ما علقه المؤيد لا يكون الوحيد والاخير وأنا منتظر أن جمهور المفكرين يشتركون في هذا البحث الاجتماعي الاقتصادي الذي هو لنا أهم جداً من جميع المباحث الاخرى القيمة السياسية . وما نحن في مركز سياسي يعول فيه على كلامنا بشيء عظيم . فلا اقل من ان نهتم بشؤوننا الداخلية لعلنا بتعمقنا في المسائل الكبرى الاجتماعية نلتي اساساً متيناً نقيم عليه بناء اصلاحنا المنشود ولا سيما ان كلامي أعم من ان يقتصر على غرض واحد من أغراض الاجتماع أو طائفة واحدة من طوائفه وسأقتظر ما يكون لجمهور كتابنا من الجولة في هذه المواضيع لاستئناف البحث معهم فيها على ما يقتضيه المقام حينئذ .

فاني اشرت في كلامي الماضي الى جملة امور اعتبرتها من النقائص في نظام هيئتنا الاجتماعية سواء اقتصرت علينا وحدنا او شملت أرقى الامم اليوم ووجود النقص في هيئة راقية ليس بحجة علينا للوقوف حيث نحن واقفون وللاغضاء عن عيوبنا ساوت عيوبهم أو زادت عليها مكتفين بهذه المقابلة وناظرين فقط الى مقامنا النسبي بالقياس اليهم في ما زاد منها . فها هذا بالدليل الذي يجب ان يمنعا عن ان نفتكر ونصبو الى الاحسن . كيف لا والقلال التي تراها ترمق احشاء المجتمعات الراقية كما نسميها اليوم أليست دليلاً كافياً على ان تمدنها الذي تفوقنا فيه شامل لميوس كثيرة هي سبب هذه القلاقل مما يدل على انه ليس التمدن الحقيقي بل طور انتقال اليه أفلا يجوز لنا وان كنا أخط من م

أرق منا ان نسعى لكي نبني على اساس أحسن . وهل من الحكمة أو من العدل اذا كانت نظاماتنا المعتلة المختلة تقيم الحوائل دوننا ودون مطالبنا ان نعتبر هذه المطالب أفكاراً عقبية وأحلاماً كاحلام الشعراء . وكمن هذه الاحلام الاجتماعية التي كانت تمد هكذا في عصور خلت صارت حقائق باهرة اليوم

والمسائل التي ذكرتها في مقالي السابق تفحص فيما يأتي :

أولاً حق الفرد على الاجتماع كحق الاجتماع على الفرد

ثانياً اطلاق مبدأ « العرض والطلب » على جميع معاملات الانسان الحاجية والكالية

تقص في الشرائع وحيف عظيم

ثالثاً المسكن كالقوت والنفخ الح حاجي وأهم من هذا الاخير وما يجوز على الواحد يجوز على الآخر

رابعاً اذا عسر الفصل في مسألة المساكن فليس لان المسألة يجب ان نخرج عن هذا الحد بل لان النظامات في الاجتماع ناقصة

خامساً شرائعنا نحن خصوصاً ناقصة تقصاً مركباً والحيف يقطر منها من كل اطرافها

سادساً حكومتنا اقل ما يقال فيها انه لا يصح ان تعتبر حكومة ذات نظام معلوم

فهل من راء غير ذلك ؟ ومجال القول ذو سعة

## المقالة السابعة والستون

﴿ حق لا صلف <sup>(١)</sup> ﴾

« وواجب لا رحمة »

متى عرف الانسان في الاجتماع واجباته كما يعرف حقوقه قلّت الشرور من بني البشر ومتى فهم الانسان جيداً معنى قوله « حب قريبك كنفسك » عرف غرض الشارع الاجتماعي ونال اجر عمله ان لم يكن في الدارين ففي هذه الدار اولاً

ومتى عمل بهذه القاعدة الذهبية « وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضا بهم » علم ان الاجتماع لا يرجى صلاحه الا بالعدل في التعاون ومتى فهمنا ان الاجتماع لا يقوم الا بافراده علمنا ان حق الفرد على الكل مثل حق الكل عليه

ومتى علمنا ان هذه الحقوق طبيعية لا وضعية علمنا انه لا يمكن الاخلال بها حتى يختل نظام الاجتماع نفسه . وعلمنا ان كل ما نصنعه في الاجتماع من حسن ثواب له وان كل ما نأتيه من قبيح نعاقب عليه . لا بالشرائع الوضعية بل بالشرائع الاجتماعية الطبيعية نفسها

فان اصلحنا حال الفتي ردعنا عنا شرور الجنايات وشرور الاوبئة من فساد اخلاقه وفساد معيشتيه بقذارته

وان اعتنينا بالمرضى دفعنا شرور الامراض وانتشارها بيننا وتأصلها فينا . فما نفعله مع كل واحد في الاجتماع يجب ان نفعله حرصاً على مصلحتنا ومصلحة الاجتماع نفسه التي هي مصلحتنا ايضا وما نطلبه منه يجب ان نطلبه كذلك فلا استرحام اذاً ولا تمنين

وما دفعني الى هذا القول الا ذهولنا عن هذا المبدأ الذي تؤيده نوااميس الاجتماع وآراء المصلحين والشرائع الدينية نفسها

هذا الذهول منا واقع في كل اعمالنا كما تدل عليه شرائعنا المدنية ولو اقرها الاجتماع فالاجماع لا يكسبها متانة ما دام هو نفسه عمل عقل متعدد في رؤوس كثيرة ليس للكثرة فيه مزية على العقل الواحد

وكما يدل عليه ايضا سلوكنا نحن انفسنا في اكثر مطالبنا . وخصوصاً سلوكنا اليوم في مطالب المستأجرين وسلوك اللجنة نفسها المدافعة عن حقوقهم

وكأنني بالجميع رأوا تراكم الصعوبات من حوائل النظامات ومجرى الافكار فقاموا يستلثون القاسي من الشرائع بالاستعطاف وينهبون النافل من الحكم بالاسترحام كما فعلت اللجنة في عريضتها الى الحكومة وكما فعل مكاتب البصير نفسه . فانه بعد



ان نصر المستأجرين رأى كل هذه الحوائل فقام يطلب الى الحكومة ان ترأف بهم كما يرأف الله بعباده . واخشى ان تعول الحكومة على هذا الهرز بالحرف فتكون النتيجة سلباً وليس لهم هنا عزاء كما لهم هناك في الحياة الاخرى

فأردت ان انبه هنا الى ان مطالب الاجتماع لا تدع سبيلاً للواحد ان يمن فيها على الآخر . فالاتحاد كما قلت سابقاً كبير مرابٍ ولكن على عكس المربين يرد كل شيء برباه ولو تبرعت به عليه تبرعاً . لعل الافكار تنصرف الى النظر في هذه المباحث وامثالها من وجه التضامن في الحقوق والواجبات . فان ذلك احق وانجع

ولانه يظهر حقيقة ان اكثر الناس يظنون ان مثل هذه المطالب تهجم غير معقول واحلام لا تنال ودليلنا على ذلك جريدة الاخبار نفسها مع ميلها فيما نظن الى نصر المحتجين فقامت تكتب ما يشم منه رائحة التثييط ولعله التوى عليها الامر لانشغالها اليوم بامور غير هذا العالم

على انه يعجبني جداً ما كتبت في جريدة الظاهر مما يتضح منه جلياً ان هذه الاحلام انما هي حقائق وقد طمحت اليها انظار العالم الراقي حتى صارت فيه في حكم الشرائع وقد بحثت في ذلك جريدة المقطم في مقالة ضافية بحثاً اقتصادياً محكماً تذيلاً للصعوبات وتقريباً للمنفعة المشتركة

والحق يقال ان الشركة من تصرف بعض الملاك مع المستأجرين المقيمين في ملكهم منذ زمان اعتماداً على الصعوبات التي تنالهم في انتقالهم من مكان الى آخر فلذلك يختارون اخف الشرور بالبقاء على القديم او بقبول الزيادة مضطرين . والا فان هناك ناموساً اجتماعياً طبعياً لا بد ان يعدل كل شيء . واذا طالت الحال على ما هي — ويخشى ان تطول وتشتد ما دام الحكومة لا تبدي ولا تعيد — فلا بد من نزول الاجور الى حد يفوق حد التصور خصوصاً بهذا التثبث من الفريقين

ونعم ما قام به المحتجون من تنبيه الجمهور الى ماله من الحقوق المطالبة بها ولو لم يكن الآن لثل هذه المظاهرات سوى تمهيد العقبات الاجتماعية للمستقبل لكنني بها فاعلاً الا اذا اشتد الفریقان فتكون الفائدة في جانب الاقوى ولعلهما لا يفعلان حرصاً على منافعهما المتبادلة

## المقالة الثامنة والستون

### ﴿ حرية الطباعة ﴾

#### « وقانون المطبوعات »

لم يكن للحكومة المصرية قانون او مشروع قانون حقيقي للمطبوعات قبل سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ لان الحكومة قبل هذا التاريخ كانت حكومة استبدادية قانونها في الواقع ارادة الحاكم ولو قيدت هذه الارادة بنظام في الظاهر . ولان الجرائد كانت قبل هذا التاريخ قليلة ايضا . ثم كثرت الجرائد واشتدت المراقبة الدولية على اعمال الحكومة فرأت هذه ان تضع قانونا للمطبوعات فوعزت الى أحد عمالها الاجانب المقتدرين بورييلي بك ان يضع مواد هذا القانون وظنت انها تستطيع ان تطلقه على سائر المطبوعات العربية والافرنجية . والظاهر انه لم يجد اصلا لذلك من قانون فرنسا بما فيه من بقايا الامبراطورية الثالثة فساء ذلك جمهور الصحافيين واخذوا يتممون

فكتبتُ حينئذٍ مقالة تحت اسم « حرية الطباعة » ونشرتها في جريدة مصر الفتاة التي كانت تحرر باللغتين الفرنسية والعربية وتشر في الاسكندرية والتي انشأها في ذلك العهد<sup>(١)</sup> بعض رجال الحرية من وطنيين وأجانب تحت ادارة اديب اسحق صاحب جريدة مصر والمحروسة . وكان من أنصارها العالمين المتحمسين « غوسيو » اليوناني احد عمال بنك « الانجلو اجيبسيان » قبل ان يرقى الى رئاسة ادارته . وكان ينشر مقالاته فيها بالفرنساوية فترجم الى العربية

وفي هذه المقالة التي قدت مني<sup>(٢)</sup> ذهبت الى ان الآلات التي يخترعها الانسان ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائه الطبيعية فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تخالف

(١) لم انحرء التواريخ في كل ذلك بالضبط لان معلوماتي هذه من ذاكرة فقط ( ٢ ) كما قدت مني مقالات اخرى كثيرة نشرت قبل هذا التاريخ وبعده في جرائد مصر والمحروسة والطائف والتبكت وغيرها

معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها . فكأنه لا يشترط على الانسان لاستعمال رجليه خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر أو يديه خوفاً من ان يجني بهما لا يجوز ان يشترط عليه كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية . فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقة جنایات الاعضاء الطبيعية وهو القانون العام يجب ان يتكفل بمعاقة جنایات الاعضاء الاضافية ايضاً وكأني لم اكنف بذلك بل اعتبرت واضح بنود هذا القانون مسئولاً أكثر فكأني نظرت ان الحكومة ألفت الاستبداد كسائر الحكومات المتقهرة فهي لا تدرك مزايا الحرية الصحيحة المقرونة بالحزم — لان ذلك يتطلب نزاهةً وعلماً واختباراً لاستخدام الشدة اللازمة التي تقتضيها فكرة الخير من دون أدنى تذبذب وقلما كانت الحكومات الشرقية نزيهة والمستبد صارم ظالم ولكنه غير حزم — وأما واضح هذا القانون — الاجنبي — فلا يجوز له ان يجهل هذه المزايا وهو يومئذ طريد الحرية على المشهور فكأني نظرت اليه نظراً أعلى لزيادة تحير عمله في تجاهله . فارسلت له المقالة المذكورة ضمن خطاب خاص مختصر كتبت له بالفرنساوية وضمته الكلام الآتي :

« عجب كيف انكم قلتم ان تخطوا مثل مواد هذا القانون وانتم مطرودو الحرية من بلادكم ولكن الظاهر ان لسماء مصر تأثيراً على العقول » وامضيت

ثم مضت السنون وهذا القانون حبراً على ورق ولا سيما ان الدول الممتازة أثبت ان تصادق عليه . وقد راق للحكومة مرة — وقد غلبتها نمرة الاستبداد — فصادرت إحدى الجرائد المتسمية بالحكومة اجنبية فكلفها ذلك تعويضاً واعتذاراً

وبقي هذا القانون سلاحاً مثلاً في يد الحكومة كخيال الكروم عند غيبة الناطور أو حلية — وان لم يكن كذلك — مدفونة بخطوط الحكومة العثمانية الاصلاحية في العهد الماضي — حساب العهد الجديد لم يدخل في التاريخ بعد — حتى سنة ١٨٨٨ على عهد الوزارة الفهمية حيث كان الباعث على اخراجه من قبره سلوك هذا العبد الفقير المحدثش للادهان . وحتى تلك الساعة كنت مخدوعاً بنفسي فلم اكن أعلم بي ذلك . غير ان حكم الانسان وان كان قد يجوز على نفسه أحياناً الا انه لما لا يجوز

وليان ذلك لا بد لي من تمهيد صغير آتي فيه على صفحة تاريخية صغيرة



في أول سنة ١٨٨٦ أنشأت مجلة « الشفاء » في الطب ولم يكن حتى الساعة صحيفة طبية في مصر ومجلة الطبيب التي كانت تصدر في بيروت كانت قد توقفت . وكان الطب في مدرسة القصر العيني والمدرسة السورية الكلية لا يزال يعلم باللغة العربية . وقد اشتركت مصلحة الصحة بمائة وخمسين نسخة منه توزعها على أطبائها . وأول ما سمعت به عند انشائه تأليف جمعية طبية مصرية عربية . وما مرت اشهر حتى ذاع صيت الشفاء وانتشر وبلغ المشتركون او بالحري الملصقة بهم المجلة عدداً وافراً أيقنت منه النجاح في الغايين العلمية والمالية ولكن الى حين

وكان خبر هذا النجاح كلن مهزأً حرك بعض محبي المعارف لانشاء صحيفة طبية اخرى . وبالفعل ما دخل الشفاء في سنته الثانية حتى كانت مجلة « الصحة » المعروفة قد صدرت فاستقبلها الشفاء بالترحاب كما استقبل آدم حواء وأصبحنا كلانا نرتع في فردوس مصلحة الصحة . والظاهر ان هذا الفردوس لم يكن ليسعنا كليتنا . غير ان مجلة الصحة كانت ذات ضلع مع ادارة الصحة وذات ضلع ناعمة وانهم من ضلع الشفاء . فاول ما شطحت نطحت كما يقول وحيد بك قشرت في اعدادها الاولى كلاماً مفاده ان بعض الناس يرمي مصالح الصحة المصرية بتعميد الصحة لمعاكسة الشفاء الى آخر ما هنالك . وصار رئيس مصلحة الصحة يقرأ الشفاء بعد ان كان لا يقرأه ويجد في ثناياه مغامز كثيرة ضده . وصاحب الشفاء ضيق الحوصلة تأتيه بالورب فيصادرك وجهاً لوجه . فما طال الامر حتى صار القرد كما في الثعلب العالمي يلعب بين مصالح الصحة والشفاء اي اتسع الخلف بينهما . وانهى بسلب الشفاء تعهد مصلحة الصحة باشتراكها بعد ان اجبرها بطريق المحاكم على دفعها له عن السنة الثالثة أيضاً

وعلى اثر ذلك اشتد الخلاف بين آدم الشفاء وحواء الصحة حتى صارت الجبال بينهما كما هي بين اكثر الرجال والنساء . فصار الشفاء اذا قال هذا ايض قالت الصحة بل اسود ولكن الصحة كانت في كل ذلك اكثر لباقة وان كان الشفاء أوضح بياناً

\*  
\*  
\*

وأثبت حجة

ثم حدث ان الجمعية الطبية المصرية العربية المنشودة تألفت وعقدت جلستها الاولى — ولم تطل بعد ذلك جلساتها ككل مساعي الشرقيين — فقام الشفاء على عادة الجرائد يتبجح في انبائه عنها بقوله « هذا الذي طالما نشدناه وطلبناه وتمنيناه و . و . الى آخر ما هنالك من تبحرات الصحف التي لا يتم امر في العالم الا وقد سبقت وانأت به . فلم يرق للصحة ان تكون الجمعية قد تألفت اجابة لنداء الشفاء فقامت تدفع مقترياته على زعها بما كان له كالتقطعة للحوض الملائن او الشرارة للاطفال المتجمعة اذ ان الشفاء خلافاً للقياس الطبيعي كان قد حبل من الصحة لكثرة مساعيها المستمرة وصاحب الشفاء ليس بالصحافي المدرّب ولا هو بالمنتجع الذي يعرف كيف يستفيد وساءه ما يرى في طبائع اهل الشرق من مساعي التباذ والتخاذل والمعاكسة والمواربة حتى تموت فيه كل نفس ناهضة او تنقلب الى الضد . فكتب مقالة شديدة الهجة ينتقد اهل الشرق في ذلك انتقاداً مرّاً من كبارهم الى صغارهم ومن امرائهم الى صعايلهم وختمها بهذين البيتين

سبقتهم الى التنيه طراً بعزم ثابت حرّ قوياً  
وكم حرّضتهم تحريض عيسى ولكن ليس لي سيف النبيّ

فجاء هذا الكلام للخصوم « شحمة على فطيرة » وتذرعوا به لدى قلم المطبوعات — وكانت طيلة اذنه مستعدة — الى اصدار انذارٍ مشدّد قيل — والعهد على الراوي — انهم مددوا الوقت حتى اصدروه ثم ذهبوا وأمضوه من الناظر في بيته . وفي هذا الانذار تهديد للشفاء بالتعطيل اذا عاد الى تحديش الازهان عملاً بالبند الثالث من قانون المطبوعات



حينذاك خطر يالي ما كتبه في هذا القانون يوم سنّه وما كتبه الى واضع بنوده فنظمت كل ذلك شعراً في عرض الكلام على الانذار واثبتته في الشفاء قلت :

عجينا كيف اخطتم عهوداً قد اجلكم  
شرعتم غير شرع الحق — ما هذا الذي جئتم  
كانكم اضلكم ساءاً قد اظلكم



لكم أعضاء قائمة بها الافعال ما عشم

\*\*\*

وأنتم مثلنا تدرون ما بالفعل انكرتم  
بان المرء مخترع لآلات بها سدنم  
لآلات متنة لاعضاء لها حرتم

\*\*\*

فلم نسمع بمخلوق لعل سمعتم أنتم  
لينطق أو لكي يعيش يقال له كما قلتم  
يقال له ألا استأذن ويسمى وضمتم

\*\*\*

فان نخطئ بأيدينا نقاب بالذي صتم  
وحكم متم الاعضاء حكم العضو لا زلم

وكان ذلك خير ما ظنت الحكومة انها تقدر ان تصلي به على خير ما ظننت اني  
أقدر ان اخدم الامة والحكومة به اللهم الا اذا عدت الامة والحكومة ضدين متباذرين .  
فقد قال لي بعضهم يوم انتقدت قرار الجمعية العمومية في مسألة القتال ما أرويه بالحرف قال .  
« اليوم الوحيد الذي « فازت » الامة فيه على الحكومة قت يا حضرة العالم والفيلسوف  
تنقد عملنا فدعنا في جهلنا ودع علمك لبلادك » . وحي الساعة لم اكن أدري ان الحكومة  
اليوم تشتغل بفكرة الشر وانها عدوة الامة وان كنت اعتقد ان الخطأ قد يتسرب الى  
أشد الاعمال اخلاصاً . وقد مر علي وأنا في مصر نحو « أربعين سنة » — ما كفى باناس  
اليوناني واقل منه لان تنازعة الوطنية الفرنسية — شاهدتها فيها في الحالين وخبرتها في  
الطورين . وتعزيني الكبري ان وطني أعم من ان يفحص في بقعة من الارض وان مصر  
الراشدة اعلم من ان تجور علي بمثل هذا الحكم وقد خبرتني صديقا مخلصا كما خبرتها بلاداً  
تنسيك بحسن وفادتها الاوطان وقوما يعضونك بحميل عطفهم أهلاً بأهل واخواناً باخوان . أو  
ان الصديق الصادق هو الاعمى في كل حال والأفوه العدو اللدود؛ وبش مثل هذا الصديق



ودام اصدار الشفاء بعد هجر مصلحة الصحة له سنتين اخرين أيضاً ولكنني اضطرت  
 أخيراً أن اوقفه لأن « حساب الحقل ما وافق حساب اليدر » فان المشتركين الذين كانوا  
 كثيرين في السنة الاولى على الورق وكانوا سبب هذا التقار والمزاحة على النصار كانوا  
 قليلين عند الدفع فقامت اتقيهم سنة فسته حتى اصبحوا اخيراً كصبرة طمس<sup>(١)</sup> - وزد  
 على ذلك حسن ادارة صاحب الشفاء في الاعمال المالية كما دلت عليه مضارباته بعد ذلك  
 بالبورصة لعله يثري ويستطيع وحده ان يضع أساس مشروع مستشفى طالما حث  
 السور بين عليه فأبوا الا ان يتسكعوا بمرضاهم على ابواب المستشفيات الاجنبية - وكأن  
 البعض اليوم يريدون ان يكذبوا على الناس بعد مماثمتهم كما كانوا يكذبون عليهم في حياتهم -  
 وحتى الساعة ليس لهم ذلك وما درى انه بذلك انتقل من «الشفاء» الى «بجوحة «الشفاء»  
 وصاحب الشفاء قليل الصبر لا يجب الامور الا مستعجلة وقد اشار الى كل ذلك في  
 ايات من قصيدة نظمها يصف مسعاه هذا وجبولة فيه ووقوعه في جائل المشاكل قال :

قلت علي وحدي... فهبت بي الار - زاء ترى رزوا فرزوا دراكا  
 الى قوله يمرّي نفسه

|                               |                          |
|-------------------------------|--------------------------|
| رب قوم عابوك والعيب فيهم      | لو سما فرعهم ثلث السما   |
| يفشل المرء لاقتضاء انطباقي    | ان تولي اوهي به الإدراكا |
| ويهون الفتى بأرض هوان         | لو تسامت لزاحم الافلاكا  |
| طال سيني في غمده مستقراً      | وهو لو سل قلما ان يحاكي  |
| يبدأ السيف ان يغلل وسيني      | ان تجلّي يطاول الاملاكا  |
| كم جلا الحق لو درى الناس معنا | لما الظلم ساد فيهم وصاكا |

والتبجح رأسمال الفلاس وصاحب الشفاء ليس من غير طينة سائر الناس



(١) المستر طمس مرسل امريكاني جاء بيروت في القرن الماضي فلما قدموا له الفاكهة المعروفة  
 « بالصبر والصبير » ايضاً تناول صبرة واخذ يتقها من البذر بالشوكة والسكين فا اتى على آخرها حتى  
 لم يبق منها شيء فذهبت صبرته مثلاً

وبعد ان اوقفت الشفاء بأيام قليلة توجهت ذات يوم الى نظارة الداخلية وكان ذلك على عهد الوزارة الرياضية بعد سقوط الوزارة الفهمية . فلما قابلت الوزير الخطير رجل مصر اكبير سألني ما شأنك قلت له على الفور جئت لاعطل صحيفة الصحة فنظر اليّ مندهشاً وقال لي كيف ذلك ؟ فابتنمت حينئذ وقلت له قد اوقفت الشفاء . . . وفي اعتقادي ان الصحة «باراسيته» فلا تستطيع ان تعيش بعده وهكذا كان واقضى تاريخي في الصحافة الطيبة كان عمرها قصيراً

وأما اليوم فلا شفاء ولا صحة عاذاً ينفعان بعد ان تحول التدريس في مدارس الطب في مصر وسورية الى الفرنسية والانكليزية حتى فقدت اللغة العربية العلمية بذلك أقوى ركن لها وصار من الراجح ان لا يعود لها ذلك لعدم وجود علماء باحثين فيها ولسرعة سير العلوم الطبيعية حتى صار يصعب عليها اللحاق بها



وكان هذا الانذار الذي ضربت به كنان الاخير وأهمل بعد ذلك العمل بقانون المطبوعات وقامت الحكومة تقاضي الصحفيين امام المحاكم وتفتحت لهم ابواب السجن وأما منهم الصالحون والطالحون فقامت حوالي سنة ١٨٩٨ بحركة في الصحافة وضمت اليّ مدير المؤيد لانتقام العفو عن مجرمي الاقلام وكان بعضهم مسجوناً لذنوب ضد العائلة الخديوية والبعض الآخر ضد الدولة المحتلة وكان المعية كانت أقرب الى العفو لولا ان الوكالة البريطانية أثبت ان تتدخل في الامر بحجة ان ذلك ليس من خصائصها فلم تفلح

ثم انه في سنة ١٩٠١ كثر التطفل على الصحافة والهجم على اعراض الناس خصوصاً بما حل من طيف حكومة الاساتنة على مصر فانتقلت الجاسوسية اليها وأفسحت للجرائد المتدنية موارد اكتسب من طرقها غير المشروعة وبالاتفاق مع الجواسيس حتى ضج الناس وشكا اعضاء الجمعية العمومية من هذه الفوضى وطلبوا اعادة العمل بقانون المطبوعات فكتبت المقالة الآتية تحت عنوان « فوضى المطبوعات » (١) وهي هذه





« تشكت الجمعية العمومية من تهجم بعض من اتخذ الصحافة وسيلة للوقية في الناس ونهش اعراضهم وانتهاك حرمتهم وطلبت من الحكومة وضع حد لما ستمته الجرائد « فوضى المطبوعات » وتبعها اصحاب الجرائد المهمة في هذه الشكوى واخذ كل منهم يصف الدواء بحسب ما تراءى له . ففهم من طلب وضع قانون للسيطرة على المطبوعات وهو دواء ليس فيه شيء رادع على ما به من تقييد حرية الصحافة والرجوع بنا القهقري اذا تبعته الحكومة . وهذا لا ينطبق على غايات الحكومات الصالحة التي من واجباتها تسهيل سبل الارتقاء . وذهب غيرهم - ومذهبهم اقرب الى الصواب - الى ان القانون كافٍ لتأديب كل معتدٍ . على ان الباحث في امراض الاجتماع كالباحث في امراض الجسم يجب عليه لمعرفة الدواء ان يتعرف اولاً اسباب الداء . وليس من ينكر ان المتطفلين اليوم على صناعة الكتابة المتدنين بها الى الطعن المحكي عنه لا يقصدون بذلك سوى التهويل لاستدراار المنفعة لهم وما الذي ياترى جرأهم على ذلك . لا شك ان الذي نفع لاصحاب الاخلاق الفاسدة هذا الباب الواسع هو الجاسوسية التي فشا داؤها في هذه البلاد في السنين الاخيرة الى حد لم يعهد له مثل في مصر حتى في اعظم ايام استبداد حكامها السالفين وما يترتب على هذه الجاسوسية من الاسترضاء . وقد كثرت شكوى الناس والجرائد من هذه الرذيلة التي انتشرت في طول البلاد وعرضها واستغرب العقلاء منهم كيف امكن لها ان تمتد هذا الامتداد في عهد الاحتلال ( راجع تاريخ اكثر هذه الوريقات الساقطة ) وكثيراً ما يكون للجواسيس اليد الطولى في الخس على هذه المنشورات البذيئة فيقدمون بها التقارير ثم يسعون للاسترضاء فاذا نالوه اقتسموا المنفعة حتى صارت هذه الرذيلة ابي الجاسوسية وما يترتب عليها اعظم وسائل الكسب في هذه الايام وحتى كادت تأخذ بتيارها الجارف الكتاب المجيدين بما تزين لهم من المطامع »

« فاذا كانت الجمعية العمومية والجرائد الحرة وعقلاء الامة وكبرائها يريدون ان يضعوا حداً لفوضى المطبوعات كما يقولون فعليهم قبل كل شيء باستئصال الاسباب المحرصة عليها قبل ان تجلب على البلاد شراً ليس في الحسبان . فاذا فعلوا ذلك فانا اضمن لهم بان

المطبوعات تهذب من نفسها بقوة الانتخاب الطبيعي الذي يمت كل ما كان بذيئاً باغضاله ويحيي كل حسن بالاقبال عليه فلا يقدم حينئذٍ على الكتابة الا كل تحرير واسع الاطلاع نبيل الغاية يقصد النفع لنفسه من حيث ينفع سواه . واذا قلبت الآية وصرفت القوة المبذولة الآن لزراعة اغراس الجاسوسية ونشر بذورها لافساد اخلاق الناس بها واستخدمت ما لها من الوسائل لتنشيط اكتاب المجيدين فانها تنقي اكتابة من الادران التي نشكو منها الآن باسرع مما يظن وتخدم البلاد خدمة يشكرها الناس عليها ويذكرها لها التاريخ بالاعظام . انتهى



وبالرغم من الحاح الجمعية لم يرجع الى العمل بهذا القانون لان مبادئ اللورد كرومر لم تكن رضى به . ثم سافر اللورد كرومر وخلفه السر غورست ودامت الحال كأن لا حكومة حتى سقطت الوزارة الفهمية الاخيرة وقامت الوزارة البطرسية فكانت باكورة اعمالها اعادة العمل بهذا القانون المدفون فأوجب ذلك زيادة الشكوى على غير فائدة لان القانون لم ينفذ بالحرف والتهويل به اخرج الطبائع التي قد تناسه . والظاهر من مسلك الوزارة الحالية انها تنوي تنفيذ هذا القانون بأقصى شدته . غير ان الجمعية العمومية التي كانت تطلبه في الماضي ليست ميالة اليه كثيراً اليوم

على ان العمل بهذا القانون لا ينيل الحكومة في رأينا الفرض الذي تتوخاه منه الا اذا كانت تريد ان ترجع بنا الى الاستبداد الاعمى وهذا لا ينطبق على مصلحة البلاد خصوصاً اليوم ولا ينطبق على مبادئ الحكومة المحتلة وان انطبق عليها فلا ينطبق على مبادئ أمتها فيكون وجوده علة للاضطراب والتشويش تارة من هنا وتارة من هناك

واذا كان الغاء العمل بقانون المطبوعات في الماضي اوجب التطرف من البعض والتهجم من البعض الآخر فان اعادته في المهد الاخير لم تأت بالمربغوب وزادت الشكوى ايضاً . وذلك لان الحكومة في الامرين لم تكن متوافقة مع نفسها فلم تكن حازمة في الحرية ولا مستبدة في المظاهرة بالشدّة بل كانت حكومة تهويل متذبذبة في الحالين تشد

تارة وتاريخي أخرى . وما من حكومة تسلك هذا المسلك الا وترمي البلاد هي نفسها في  
 الفوضى ثم تسأل الآخرين بعد ذلك عما هي وحدها مسؤولة عنه  
 فقانون المطبوعات اليوم لا فائدة منه ووجوده مضر في كل حال بل يجب دفته الى  
 الابد . والحكومة الحازمة يجب ان لا تخشى الحرية ولا يخشاها الا الذي لا يعرف  
 ماذا يريد أو ماذا يلزم فيتذبذب مترواحاً بهذا الذكاء الشرقي الذي يعده البعض دهاء .  
 نعم هو دهاء ولكنه دهاء جله اليوم لا يطول . اذ لم يعد ينفع في هذا العهد الا الصراحة  
 المقرونة بالعلم والحزم . فلا تجرب الحكومة اليوم ما قد يجر لها المتاعب غداً وعلى البلاد  
 الوبال . فلا تخش الحرية ولا تخش معها الضرب بيد من حديد عند اللزوم لتقوم الاخلاق  
 ما دام رائدها فكرة الخير . — ولتعم قبل كل شيء التعليم الحر الذي لا يشوبه كدورة  
 الاغراض . ولا اقل من ان تأتي ذلك في المدارس الاميرية تاركة لاصحاب المنازع  
 الدينية المحتلقة ان يتعهدوها في معاهدها الخصوصية ولا تجار الجلاء الذين لا يفهمون ما  
 يطلبون ولا الحكماء الذين يتوهمون ان سياسة الصراحة لا تنطبق على العمل — ولا يدرون  
 انهم بذلك يرتخون سواها — ما دام المسلك ليس فيه مصادرة لاحد في خصوصياته .  
 حينئذ يقضي ناموس التنازع الطبيعي نفسه القضاء العادل بين الصحف والكتاب حتى  
 لا يعود يؤمها الا كل من توفرت فيه المزايا اللازمة التي تضمن المنفعتين العامة والخاصة  
 بما يؤديه من الخدمة الصحيحة التي يفهمها الناس حينئذ ويقدرونها حق قدرها



تقول انك تأبى القتل عن خلقي      حتى على النمل تخشى وطأة القدم  
 وفوق رأسك ألقى كلمة<sup>(١)</sup> رفعت      مصبوغةً بدم الناموس كالنعم  
 قلتُ والله اني صادق فانا      لا استحلُّ لنفسي غير صفك دعي

## المقالة التاسعة والستون

### ﴿ الدفن والمدافن ﴾

#### « علامات الموت »

الناس في كل المصور مفتونون بما يؤول اليه امرهم بعد موتهم . والا كثرون على ان النفوس بواق ، أما الجسوم الفانية فلا يبتون فيها قولاً ولو ان الشرائع جميعها تقول بالحشر وقيامه الاجساد . والمصريون القلماء أشد من كان في عمله متفقاً مع معتقده ، فكانوا يعتنون بالاجساد بعد الموت اعتناءً خاصاً يحفظها من الدور على مدى الدهور ، ليسهلوا على النفوس الاجتماع بأجسادها عند الحشر ، فكانوا يأتون فيها عملاً تمثلياً بالتحنيط يقيها من البلى ، ولكنة يجعل ارتداد الحياة اليها — بعد الموت الظاهري — أمراً متممًا

أما الذين لم يكونوا يلجأون الى التحنيط الديني أو الاحراق الديني كما يفعل المجوس حتى اليوم فكانوا يعولون لتقرير الموت الحقيقي والدفن على علامات قد لا تصدق فيبقى الميت المدفون معرضاً لان تعود الحياة اليه ، ولكنها تعود اليه ليقضي بعدها بالعذاب الشديد بين جدران القبر وتحت تراب اللحد . ومن يستطيع ان يتصور هول الدقائق أو الساعات أو الايام التي تمر على المدفون حينئذ قبل ان يعود ثانية ويموت الموت الحقيقي ، وقد يستطيع ذلك بعض الشيء اصحاب امراض ضيق النفس كاللداء المعروف بالربو

ولا يخفى ان البسد القدير محترق لهذا الداء منذ حادثه وقد كان له أوفى صديق حتى اليوم . ولا اذكر اني جرعت في كل اطوار حياتي من كل أنواع الموت مثل جرعي عند تصور هذا الدفن ، وما ذلك مني من تلك « النفوة » التي لا تحب بل من تلك « اليقظة » التي ترهب ، حتى اني قلت ذات يوم في مرض عرض لي منذ بضع سنين الايات الآتية وهي تعبر عن هذا الشعور بي أصدق تعبير . واني موردها هنا — ولكن

بعد ان استأذن هذه المرة من كلية الاساتذة ومن استاذ الاثنين . . . — والايات هي  
 اودعوني في القبة الزرقاء ان قدرتم فذاك أقصى رجائي  
 لا تقبرني الارض لا تكن قبري ضيق القبر ضيق الارجاء  
 اودعوني المنطاد ينقل جسبي في فسيح الخلا وصافي الهواء  
 ولا تُل في الممات ما لم آتله في حياتي من بعد طول العناء  
 سعة في البقا ولو بث فيها اكل وحش الفلا وطير السماء



والعلامات المعروفة التي ترافق الموت والتي يعول عليها الناس حتى اليوم هي هود  
 الجسم وبرده وانقطاع التنفس وانقطاع النبض ووقوف دقات القلب ، ويزيد الاطباء  
 عليها علامات اخرى يحاولون استكشافها كل يوم وكلها علامات مشكوك فيها  
 وفي المجتمعات المنحلة التي لا تشدد الحكومات فيها مراقبة احوال الدفن لا تلبث  
 هذه العلامات ان تظهر على الجثة حتى يبادروا الى اخراجها الى المدفن وموارثها  
 التراب مسرعين قائلين « ستر الميت دفنه » . واما في المجتمعات الراقية فيستظرون ساعات  
 معلومة قبل الدفن ويعولون خصوصاً على شهادة الطبيب  
 والحق يقال ان الطب مهما دقق في التحري للتأكد من الموت الحقيقي فلا يسمعه  
 الا الاعتراف بان كل العلامات المعول عليها قد تخطى ما عدا علامة واحدة هي  
 « الثمن » . فيجدر بالناس والحكومات والحالة هذه ان لا يعولوا في اجازة الدفن على  
 علامة اخرى . ولاجل ذلك يجب ان يكون في كل مدفن محل معد لهذا الغرض تنقل  
 الجثث اليه وتحفظ فيه الوقت الكافي حتى تظهر فيها هذه العلامة الصادقة ثم تدفن  
 والغريب ان الناس مع علمهم ذلك وشدة حرصهم على حياتهم وراحتهم مقصرون  
 في هذا الامر حتى في ارقى المجتمعات اليوم مع انه أهم وأزرم وأوجب وأرحم من بناء  
 القبور الفخيمة واقامة المآتم العظيمة التي يتباهى بها الاحياء على ظهور الموتى . واغرب  
 من ذلك تحكم الاحياء في معاملة جثثهم وكيفية دفنهم بعد موتهم . والمؤمن معذور اذا  
 طلب ان يدفن دينياً لان ذلك داخل في فروض دينه . وأما غير المؤمن فما عذره اذا

بحكم ويطلب ان لا يدفن الا مدنياً وهو ينفي كل معتقد ؟ أريد ان يتجبح بقوله للناس بعد موته انه لا يعتقد بسلطة روحية ؟ وهو عمل في منتهى السخافة وتعصب بارد ، — خلافاً لما توهمه بي صاحب « الزهور » من اني متعصب حارٌ ولكن . . . ضد الايمان — . أم هو يريد ان يقول للناس بعمله هذا ان اقتدوا بي ان أنكفروا سمة العقول الراجعة ؟ كأنه « الغرض » من بحثه لا « نتيجة لازمة » له ، خلافاً لجميع الذين توهموا بي من كتابي اني أقصد مقاومة الايمان لانصر العلم والتأليف بين البشر بازالة كل العقبات من طريقهم والارشاد الى الوسائل التي تسرع ارتقاءهم . ولعل بعضهم لا يتدبر بقولي هذا الى اني هنا أيضاً « أنقض نفسي بنفسي » لاني قلت ان الاديان ذات معد واسعة لا يضيّق بها شيء ، لكي لا تقوم كل مرة وتقف حجر عثرة في سبيل العلم ، ولكن العقل كما قلت ايضاً « خزانة كثيرة الادراج » والمنازع اهواء غالباً تدور حول العلم اذا هي لم تستطع شيئاً ضده



واذا جاز لي ان اطلب شيئاً بعد موتي بمن يدم حينئذ امرى فلا اطلب منهم سوى شيء واحد معقول استعطفهم فيه شفقة عليّ والتمس منهم رحمة بي . فانا لا اخاف الموت ولا اخاف ما بعد الموت . ولا يهمني أحرقت في النار ام دفنت في التراب . وصلى عليّ قسيس او شيخ او حاخام ، ام لم يصل عليّ احد ، او صلوأكلهم مجتمعين يستمطرون لي غيوث الرحمة ، او يستزلون عليّ سيوف النعمة . يرفعوني الى السماء ، او يدفعونني الى جهنم . فانا ليس لي ادنى مطمع بما هنالك ، ولا اخاف شيئاً من كل ذلك . ولا اخاف الا « بقطة » القبر ، فانا لا اطلب الا ان ادفن ميتاً حقيقياً لا يجوز ان تردّ اليه الحياة ولو في اقل المحتملات

ولا ينكر ان هذه القطة من تلك النفوة نادرة جداً ، الا ان ندورها لا يجعلها متمعة ، فاذا حصلت مرة في الالف او العشرة الالف او المائة الالف أو المليون ، فذلك كافٍ لوجوب اخذ الحيلة منها ما دام الحياة قيمة وهي لها ذلك باعتبار الافراد انفسهم لانفسهم وان لم يكن لها ذلك حتى اليوم باعتبار الجوع من دون ان يرى صاحب

«الهلل» في قولي هذا تدمراً من الرئاسات «لهدمها» لا «لتقبيدها» بما يكون اصلح لمصلحة الجمهور. ولعل ذلك ليس حلياً ايضاً لا ينطبق على العمل، ولولا «حجرة» الجريدة وقوله اني «احاول التأثير بقوة الالفاظ لا بمتانة البرهان» لعولت هنا ايضاً على أحكام المقابلة وقلت كم من امثال هذه الاحلام في الماضي صار حقائق اليوم .

على اني لا أريد ان «أدفن» الكلام في هذا الموضوع — الذي جرى هنا على القلم من غير تعمد — قبل ان اقدم كلمة شكر مفعمة لجميع الذين لم يثنهم حرج الموقف عن بذل الوقت عن سخاء للكلام عن كتابي سواء بالاذاعة أو بالاطراء أو بالانتقاد — ومجال القول هنا قد يكون ذا سعة وربما جرّدت مني شخصاً آخر واتعمدت نفسي بنفسي، ولكن لا لاستمسك بالعرض لاقتل الجوهر وأقلب الاشياء عن مكانها في سبيل الغرض، فلا أرى في البراهين الآخذ بعضها برقاب بعض برهاناً راجحاً، ويا ليت شعري بما يجيبون لو قيل لهم: هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين — كلمة شكر ازفها الى جميع هؤلاء الافاضل ممن ذكروا هنا او لم يذكروا حيث نظروا جميعهم الى كتابي اليوم بغير العين التي نظرت اليه في الماضي، وهو ارتقاء في التساهل وتحول في المذهب، عسى ان يتصل الانسان يوماً ما بالعلم الى «دفن» أو هام كم غمّت على الحقائق فاذا بثها فيها كأنها هي نفسها الحقيقة المنشودة، يدقها جثّاً هامة تولها موت حقيقي لا مبعث بعده، لعل الانسان الكلي «يستطيع حينئذ ان يقضي عمره القصير على هذه البسيطة باكثر أنواع التعاون وأقل أنواع الشقاء ولا يكون الخاسر في الحالين

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جهاد



﴿ تم الجزء الثاني ﴾

« ويليه الجزء الثالث »

﴿ فهرست المقالات <sup>(١)</sup> ﴾

| صفحة | اسم المقالة                            | صفحة | اسم المقالة                     |
|------|----------------------------------------|------|---------------------------------|
| ١٤٠  | فكرة الخير والشر                       | ٢    | بيان <sup>(٢)</sup>             |
| ١٤٣  | لطمة على خد العالم                     | ٣    | حوادث وأفكار                    |
| ١٤٧  | القتل الاجتماعي                        | ٩    | ما أطوعه وما أطمعه              |
| ١٤٩  | كتاب فوضوي                             | ١٠   | الحياة وأصلها                   |
| ١٥٢  | الاشتراكية                             | ١٥   | الادوار الجليدية                |
| ١٥٧  | المريض                                 | ٢٢   | الاجتماع البشري                 |
| ١٦١  | بمعزل عن الناس                         | ٣٤   | تاريخ الاجتماع الطبيعي          |
| ١٦٥  | الاستحار                               | ٥٧   | القرآن والعمران                 |
| ١٧٢  | رجال الغد                              | ٦٤   | ماذا قرأ وماذا رأى              |
| ١٧٩  | الاشتراكيون                            | ٦٩   | حول مقالتي (القرآن والعمران)    |
| ١٨٣  | الاشتراكية                             | ٨٥   | رأى وقال                        |
| ١٨٧  | الحزب الاشتراكي                        | ٨٨   | كشكول طيب                       |
| ١٩٠  | وكما تكونون يوئى عليكم                 | ٩٢   | المرأة والرجل وهل يتساويان      |
| ١٩٤  | انحطاط الشرق                           | ١٠٥  | » » » » (رد)                    |
| ١٩٩  | سيادة الامم ومستقبل الملوك             | ١١٧  | القضاء على القضاء               |
| ٢٠٣  | حلم هو الحقيقة                         | ١٢٥  | » » » (استئناف)                 |
| ٢٠٥  | الزلازل غضب الآلهة                     | ١٣٢  | احياء وانحاء                    |
| ٢٠٦  | نظرة عامة في مسائل <sup>(٣)</sup> هامة | ١٣٩  | الإذكار والإيناث <sup>(٤)</sup> |

( ١ ) وقع بعض اغلاط في تحريف أسماء بعض المقالات وتاريخها فأصلحنا ذلك هنا وأما الاغلاط الطبعية الطفيفة التي وقعت في المتن فلم نصلحها انكالا على سليقة القارئ وعلمه ( ٢ ) وقد ذكرت هناك سنة ١٩٠٨ وصولها ديسمبر سنة ١٩٠٦ ( ٣ ) ذكرت هناك «الاناث» خطأ ( ٤ ) ذكرت هناك « مسألة » خطأ



| اسم المقالة                 | صفحة | اسم المقالة              | صفحة |
|-----------------------------|------|--------------------------|------|
| شواغل                       | ٢١٢  | مخاطبة الاموات           | ٢٧٩  |
| القضاء المبهم               | ٢١٦  | علوهم ولا تقسروهم        | ٢٨٥  |
| لحس الاصابع                 | ٢١٨  | فَقَّ اوليفرلودج         | ٢٨٧  |
| ضحايا الجهل                 | ٢٢٠  | المريخ او معمل الحياة    | ٢٨٧  |
| الام والحروب                | ٢٢١  | العالم بعد ٦٠ سنة        | ٢٩٣  |
| ا ب ت ث                     | ٢٢٥  | الى جريدة الوطن في بيروت | ٢٩٦  |
| التعليم العملي              | ٢٣٠  | ساعة في الماضي           | ٢٩٩  |
| ماذا أكتب                   | ٢٣٢  | آيات العصور الميثولوجية  | ٣٠٤  |
| كتائبنا                     | ٢٣٥  | حكم كاذب                 | ٣٠٨  |
| ام الجرائد (١)              | ٢٣٧  | اصلاح القضاء             | ٣١٠  |
| الجرائد في الشرق            | ٢٣٩  | من اين ابتيء             | ٣١١  |
| ارق ليلة                    | ٢٤٢  | روزفلت والقضاء           | ٣١٦  |
| وصف النوبة في الربو         | ٢٤٧  | بئس الاخلاص              | ٣١٦  |
| ان من العلم لسحراً          | ٢٤٨  | الدين الحق (٢)           | ٣١٨  |
| ظواهر لا تفسر               | ٢٤٩  | شكوى المستأجرين          | ٣٢٠  |
| صدى النفوس                  | ٢٥٣  | الحاجيات والكماليات      | ٣٢٤  |
| هل في الوجود عالم آخر       | ٢٦٠  | حق لا صلف                | ٣٢٥  |
| « « « «                     | ٢٦٢  | حرية الطباعة             | ٣٢٨  |
| مناجاة الاحلام وقرع الاوهام | ٢٦٩  | الدفن والمدافن           | ٣٣٨  |
| كلمة مرة                    | ٢٧٨  |                          |      |





## كلمة شكر واجبة

في صيف عام ١٩٠٩ قصدت ربوع الشام ، وطني الاول ومسقط رأسي ، بعد ان رحلت عنها منذ نحو اربعين سنة ، لم ازرها في خلالها الا مرتين اياماً معدودة ، اخرها منذ سبع وعشرين سنة قضيتها في القطر المصري ، وطني الثاني ومبسط افكاري . فلم يشأ اهل سورية ان تنفرد مصر وحدها بالفضل عليّ ، فاعتصموا فرصة وجودي بينهم فعمروني باحسانهم ، وطوّقوني بحميلهم مما لا انساه لهم على مدى الاعوام وزادوا على ذلك ان بعض اولي الفضل منهم ، ارادوا ان يتناهاوا في الكرم فحُفُونِي بمجاملة لي وتشجيعاً لسواي ، على ان اجمع ما تيسر من كتاباتي المتفرقة في الكتب والمجلات والصحف منذ اكثر من ثلاثين سنة في مجموعة اطبعها في اجزاء على حدة ، وكان قد طلب مني مثل ذلك قبلهم بعض افاضل المصريين وغيرهم من بعض الاقطار العربية الاخرى ، وكنت انا نفسي غير قليل الميل الى ما يحب الناس ان يحرصوا عليه من آثارهم ، مما كانت ، ولا سيما اذا كان لم يبقَ لهم سواها ، فصادف ذلك مني هوى في النفس ، وان لم يخدعني كثيراً في حقيقة نفسي . ولكنني مع ذلك وقفت واجماً متردداً لان الاسباب التي كانت متوفرة في الماضي لم تبق لي اليوم ، وخفت ان اصادف في هذا السبيل ما قد يسلبني البقية الباقية ويمجدني تذكار مثل هذا القول .

لقد كان لي نفس تصان بها المُلِي وقصد الى الاصلاح أنبل من نفسي  
فما لت بي الدنيا قتل سلامة أيا نفسُ إني لا أهينك يا نفسي  
ولكن دهر أدرهم القدر درهم به كيف ترجو ان يصونك من بنحس  
ولكن الافاضل المذكورين لم يشأوا الا ان يذلوا كل الصعوبات . فوضعوا اساس المشروع ، ثم قاموا هم انفسهم يسعون ويجمعون المال بالاكتساب ، وقت انا حينئذٍ

متشجعاً بهم اعرضه على كل من عهدت به نجدة لانجاح مثل هذه المشروعات من كرام  
القطرين ، من كل من

تري المجد يهدي الى يتي    يرى افضل المجد ان يُحمدا  
وان دُكر المجد ألفتة    تأزر بالمجد ثم ارتدى

او ذكر البذل الباذخ اشراً بت اليه الاعناق وطوقته الاحداق وقاضت به الذاكرة .  
فما لقيت منهم الا كل من لبى متصاعراً كأنه المفضل شأن الجواد الأكرم . فحق لهم عليّ  
تجاه هذا الفضل « كلمة شكر » اتقنها على « صحيفة فخر » تحفظ لهم اعترافاً بجميلهم  
وتخليداً لذكورهم

ولكنني ، وحقي ، حرت كيف أذكورهم لادل على فضلهم ، فان عددهم لكثير  
لدى من يرى « ان الأكرام قليل » ، وفضلهم في هذا المقام أعظم ايضاً والناس يتنا على  
ما تعودوا ، والفضل الكثير يعقل اللسان الطليق ، فكيف بي وانا حليف العي وارى  
الواجب اكبر مني . فلم اجد حيال هذا الحصر ، انطق للفضل بياناً واثبت للجميل  
عرفاناً من ذكورهم بفضله متبرعين كانوا او مشتركين او ساعين ، فالجميع بالفضل عليّ  
سواء ، ليحفظ ذلك لهم في سجل مجوعتي أثراً خالداً يفي عني من الواجب بقدر ما يذيع  
لهم من حسن الذكور



على اني لا اكون من المنصفين ان لم استأذن حضراتهم لاذكر هنا اسماً ثلاثة من  
ينهم كانوا مشروعي من ام الاركان ومن اكبر الاعضاء لابراره الى الوجود

الاول الخوري بولس الكفوري ، رجل الجد والعمل المكافح في سبيل الاصلاح ،  
صاحب جريدة المذهب في رحلة من لبنان ، فقد كان الواضع لمشروعي والعقل المدبر له

والثاني الدكتور ايوب ثابت من بيروت ، من أشد رجال النهضة الاصلاحية فيها  
اخلاصاً ، فانه كان اليد العاملة فيه



اما الثالث فهو الخواجا امين وهبة كرم من الاسكندرية ، من الكرم به سجية ، ومن  
اذا الناس مدّوا بأيديهم الى المجد مدّ اليه يدا  
فقال الذي فوق ايديهم من المجد ثم مضى مُصعِداً  
فما لبث ان ذكر مشروعي له وخاف عليه من الحبوط حتى ضمن له الحياة ، فبذل  
له عن سخاء ، ووفى له خير وفاة



فشكراً لجميع هؤلاء الافاضل على ما اولوني من الجليل . فان كان في عملي هذا بعض  
الفائدة فليحمدهم الناس فالفضل كل الفضل لهم . وان لم يكن فيه ذلك فليحمدوهم ايضاً اما  
الاعمال بالنيات ، وليلحقوا التبعة كل التبعة بي

الدكتور شبلي شميل

مصر ١٠ يونيو (حزيران) سنة ١٩١٠



(تبيه) الآية الواردة في صفحة ٨٧ في الحاشية في السطر الثالث هي هذه « فلما رأى  
الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أقبلت قال يا قوم اني بري بما تشركون » اهـ .  
فتصلح هناك



## جدول اسماء حضرات اعراني الكرام مرتبة كما يأتي

اذكرها معجزة عن انوائه . مكتفياً بجمال الاعمال ، وكم يحيل بالناس ان يتودوا ذلك اختصاراً للوقت وانصرفاً للعبادة  
وسيكون ذلك منهم من غلب النظر الى الجوهر على الاستمسك بالمرض في كل اعالم

جنبه

جنبه

جنبه

٤٠ نجيب يوسف سرسق . اسكندرية

٥٠ ادریس بك راضی . مصر

٢٥٠ امین كم . اسكندرية

١٥ بطرس افندي داغر . بيروت

٢٠ محمد بك وحید . مصر

٢٥ جورج كم . اسكندرية  
٢٥ خليل باشا خياط . اسكندرية

٨ جورج بك مقري سرسق . بيروت

١٠٠ اسماعیل باشا عاصم . مصر

١٢ الياس صباغ . بيروت

—

١٠ بولص طراد . بيروت

٧ اسعد قولا . مصر

١٠ جورج قرداجي . اسكندرية

١٠ حسين باشا واصف . مصر

## ✽ قابع ما قبله ✽

جنبه

- ٤ جاد بك عبد . مصر
- ٤ عادل افندي جبر . يافا
- ٤ قولاً سرسق . بيروت

جنبه

- الشيخ ابو طالب جهري . البدرشين
- حبيب بك دباهه واخوته . مصر
- حبيب بك فرعون . مصر
- سليم طويل . اسكندرية
- محمد بك ابراهيم هلال . مصر
- ميشيل خوري . اسكندرية
- نجيب ضاحه . مصر
- نمان السوقي . غنطا
- قولاً دهان . رمل الاسكندرية

جنبه

- ٦ علي بك جنبلاط . بيروت
- ٦ يعقوب كرم . بيروت

« ثمن النسخة الكاملة من المجموعة »

( جنبه واحد )

- ٢ قولاً حصي . حلب
- ٢ يوسف هاني . بيروت

- ٣ اندراوس بشاره . مصر
- ٣ انطون خوري . المنصوره
- ٣ موسى بسترس . بيروت
- ٣ قولاً دومانى " "
- ٣ يوسف خضير . اسكندرية

واقدم شكري ايضاً لاصحاب المساعي المشكورة ممن لم تمنهم وفرة أشغالهم من ان يبدلوا من ثمين وقهم السعي معي في هذا السبيل وهم حضرات الافاضل : اخنوخ افندي فانوس . اسيوط ، الدكتور اسكندر جريديني . طنطا ، اسكندر صيقل . اسكندرية ، ألفرد جلعون . بيروت ، انطون خوري . المنصورة ، داود افندي نحول . بيروت ، رزق الله افندي أرقش . بيروت ، سامي افندي قصيري . مصر ، عبد الله بك الخوري . لبنان ، الدكتور فتح الله دهان . طنطا ، وميشيل بك ايوب . اسكندرية ، نجله بك تويني . بيروت ، نقولا افندي أرقش . طنطا ، وغيرهم بما قد تكون الذاكرة خاتمتي فيهم

أما اسماء المشتركين بنسخة واحدة من هؤلاء الافاضل أو عن يدهم أو من سوام رأساً فسأدرجها في الجزء الثالث

(تنبيه) السهو الذي قد يمكن ان يكون وقع ارجوان ابنه اليه لاستتركه في الجزء الآتي أما الوقت الذي صرف في هذين الجزئين مع رغبتى الشديدة في الاسراع فهو ثمانية شهور وكان يمكن ان يكون اقصر لولا صعوبات لم يكن في الامكان تداركها . وما كنت ادري قبل الآن ان التأليف اسهل جداً من تجشم الطبع والنشر خصوصاً في بلادنا . وعساي بعد ذلك كله أن لا اكون قد قصرت



هذا ، واذا سمح لي الوقت واتسع مني الصبر ايضاً ، ربما وضعت فهرساً في آخر الجزء الثالث شاملاً لبيان الاغلاط التي تكون قد وقعت في الاجزاء السابقة ، مطبعية كانت أو ناشئة عن سهو أو سواه ، بما أتبته له أو أتبه اليه ، وبما لا يسلم منه كتاب أو كاتب

على اني أقول اني في مراجعتي المسودات كنت وحدي . ولم يكن لي هم سوى مراعاة المعنى ، وقلما كنت ارجع الى المقابلة لمراعاة دقائق الالفاظ مع ان من الكتابات ما هو قديم جداً الا عند اضطراب المعنى علي . ولذلك اقدر أن اؤكد للقراء ان الخطأ من هذا القبيل لم يقع في ما أعلم ، أو هو في حكم النادر ، إلا في مسألة تقديم وتأخير



وقعا في فصول تاريخ الاجتاع الطبيعي ، ولكن لا مساس لهما بالجواهر لدى المحقق ولا يتوهم من ذلك ان الاغلاط المطبعية كثيرة أو مهمة . وكأنها قليلة جداً في ما بدا لي حتى الآن ، مما يشهد ببراعة عمال المطبعتين الذين صفوا الجزئين ، خصوصاً في ما كان منقولاً عن مطبوع ، في ما خلا مواضع مخصوصة ظنوا هم انفسهم انهم يصلحون خطأ وقع مني أو ذهب علي ، مثل لفظة « الاثاث » عوضاً عن « الالاثاث » في الجزء الثاني . و « الادوان » بصيغة الجمع العامي المصري للاذن ، عوضاً عن « الاردان » في الجزء الاول . — والحق يقال ان اكثر ما وقع هذا النلط هو في مخطوطاتي الحديثة ، وهم معذرون حينئذ بل فضلهم عظيم جداً في حل طلاسما أحياناً كثيرة . وهي شهادة مني لهم ، وشهادة الحق واجبة . — وأما ورود « سعيت به » في مقام « سعيت فيه » « اوله » فن محاسن الاتفاق للمتعب ، لولا اني أنا نفسي اتمتع في السعي البسيط نفسه ، فكيف بي في ما يلزم له ذكره ودهاءه شريان فائقان ا وان سألني ما هما هذان « الفائقان » ؟ قلت لك هما الناشئان عن كل ما يضغط على اللسان والجنان والقلب ، مما لا يزال حتى اليوم في الشرق اكثر منه في الغرب

### ﴿ الذي يضغط على اللسان والجنان والقلب ﴾

المدارس السومية في كل الدنيا وجدت لتطمس على الازمان غالباً . وكثاني وضع لكي ينبرها . فلا مطمع لي اذا ان اراد متداولاً بين ايدي طلاب مدارس الحكومة ومدارس الامة . فوالله يمس ما علي من الواجب نحو وطني الاول والثاني قد تبرعت بثلاثمائة نسخة من كل جزء من اجزاء مجموعتي تعطى مجاناً لادباء القطرين السوري والمصري وطلبة مدارسهما الذين لا تحمكتهم وسائلهم من اقتنائها يدفع الجن . نصفها لكل قطر . وبما ان الاجزاء غير متصل الواحد منها بالآخر اتصالاً لازماً فالذي ينال الجزء الواحد لا يحق له ان يعطى باقي الاجزاء بل تعطى لسواء وذلك زيادة للنشر وتعميماً للفائدة ، ولا جود الا من الموجود ، ولا فضل بذلك

يجود علينا الخيرون بلهم ونحن بالخيرون نجود



تطلب مجموعة الدكتور شلي شيل من مؤلفها

ومن مكتبة المعارف بأورشليم شارع النجالة بمصر

|                 |          |                             |
|-----------------|----------|-----------------------------|
| ثمن الجزء الاول | ٦٠ غرشاً | المجموعة مائة غرش للمشاركين |
| " الثاني        | ٤٠ "     |                             |



المكتبة - فيها جميع الكتب العلمية والمدرسية والتواريخ  
وغيرها بجميع اللغات وادوات الكتابة على اختلاف انواعها  
وهي مستعدة ايضاً لتقديم كل ما يطلب منها من الكتب  
والادوات المدرسية الى اساتذة الدارس فاسرار خصوصية  
الطبعة - نظيم كل ما يطلب منها طبعه بجميع اللغات  
باسعار مناهودة وبغاية الاتقان والسرعة

صاحب مكتبة المعارف ومطبعها  
نجيب مقري











Bibliotheca Alexandrina



0425539